مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان
جامعة عبد المالك السعدي
بتعاون مع المجموعة الحضرية لمدينة تطوان

تطوان قبل الحماية

(1912-1860)



أعمال ندوة تطوان قبل الحماية، 12، 13، 14 نوفمبر 1992

بسم الله الرحمن الرحيم

تتقدم مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي بالشكر الجزيل
للجماعة الحضرية على دعمها في نشر أعمال هذه الندوة.

رقم الإيداع القانوني : 723/1994
ردمك : ISBN 9981 -9818 - 0 - X
مطبعة الهداية – تطوان

تطوان قبل الحماية

(1912-1860)

أعمال ندوة تطوان قبل الحماية،

12، 13، 14 نوفمبر 1992

فهرس

كلمة الدكتور محمد الكتاني

(عميد كلية الآداب بتطوان)

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم المرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين.

سيداتي سادتي،

أحس بسعادة غامرة وأنا أفتتح أشغال هذه الندوة الهامة عن مدينة تطوان خلال العهد الذي سبق عهد الحماية الأجنبية. وتعتبر هذه الندوة تكميلا لندوة سابقة حول تطوان خلال عهد الحماية، هي الندوة التي انعقدت في السنة الماضية في نفس الأيام تقريبا . وهكذا تكون مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي قد وفت بوعدها حين ذكر الأستاذ رئيس اللجنة المنظمة د. امحمد بن عبود في كلمة الافتتاح للندوة الأولى قائلا : إن لنا موعدا مع الجمهور الكريم حول تطوان خلال القرن التاسع عشر.

وهذه ندوة تطوان في القرن التاسع عشر تنعقد بمشيئة الله في رحاب هذه الكلية التي تحتفل هاته السنة بمرور عشر سنوات على افتتاحها. وغير خاف عنكم أنه لم يمض على تنظيم ندوة دولية كبيرة سابقة حول "المغرب في الثقافة الإسبانية المعاصرة" بهذه الكلية أكثر من خمسة عشر يوما إلا والكلية تستقبل مرة أخرى هذا الجمهور الكبير من الطلبة والمثقفين والمهتمين حول مائدة جديدة هي هذا الملتقى العلمي حول تاريخ تطوان. فهذا إن دل على شيء إنما يدل على حيوية شعب هذه الكلية ونشاط أساتذتها المتواصل لإغناء البحث العلمي بجانب العمل الأكاديمي في التعليم والتكوين.

أيها السادة، بهذه المناسبة يطيب لي أن أجيب أولئك الذين يتساءلون عن مدى صلاحية التكوين العلمي والأدبي الذي تقدمه كليات الآداب لإدماج طلابها بشكل عضوي في مسيرة التنمية الاجتماعية، انطلاقا من كون العلوم الإنسانية إنما هي علوم نظرية بعيدة عن ملامسة مشكلات الواقع الإجتماعي والمادي ومتطلباته، والحقيقة أن الذين يخطر ببالهم هذا التساؤل يتصورون التنمية المنشودة تصورا ضيقا ينحصر في الإنتاج والاستهلاك اللذين تديرهما عجلات التكنلوجيا فقط، بينما التنمية المنشودة للإنسان، في المجتمعات المعاصرة، هي تنمية شاملة أساسها تنمية

العقول والأفئدة والأرواح وما يعيد للإنسان توازنه المادي والروحي على حد سواء. ونعتقد أن تكون كليات الآداب منطلقا طبيعيا إلى تكوين طلابها، هذا التكوين الإنساني الذي يعد العقول للابتكار والإنتاج الثقافي ويجعل الإنسان مؤهلا لمواكبة الحضارة العالمية بكل متطلباتها. ومن المعلوم أن مقياس رقي الشعوب يكمن في قدراتها على الحفاظ على هويتها الثقافية من جهة، وعلى قدراتها كذلك على مسايرة ركب الإنسانية وتفاعلها مع الحضارات، ومواكبتها من غير انغلاق أو انسياق في التاريخ الإنساني في حركته الكبرى نحو الارتقاء والتقدم نحو الأفضل.

تلكم هي حركة التاريخ. فهل نتصور أن يتم التفاعل مع حضارة العصر مع الحفاظ على هويتنا وتنمية ثقافتنا بغير هذه العلوم الإنسانية التي تلقنها وتنميها كليات الآداب لتجعل طائفة من أبناء المغرب أطرا مقتدرة لتنمية ثقافتنا، والحفاظ على هويتنا ومواكبة مسيرة حضارة عالمنا الكبرى. أحسب أن أحدا لن يختلف معنا في هذا التصور الذي يجعل التنمية كما قلت، كلا لا يقبل التجزئة في هذا السياق؛ نعنى بالتاريخ القومي الوطني، ونهتم بالتاريخ العالمي، ونهتم كذلك بعلاقة تاريخنا المحلي بالتاريخ الوطني وبالتاريخ العالمي وها أنتم ترون أن اهتمام مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي إنما نبع من هذا التوجه لجعل ذاكرة تطوان ذاكرة تحتفظ بحيويتها، وفاعليتها في صنع المصير المنشود والمرسوم لهذا الوطن الكبير بطموحاته، وبتاريخه وبأصالته، تحت قيادة صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله. وبوسع المهتمين بالإدماج والاندماج أن يجدوا في حقول البحث العلمي وفي التخصصات الكثيرة التي تقدمها الكلية ما يمكن استثماره لإرساء وبناء الهيكل الثقافي والحضاري للمدينة، بصيانة تراثها وآثارها وتحقيق المخطوطات المتعلقة بتاريخها وأعلامها ووضع الأصالة الجغرافية لها، والمعالم اللغوية لأمثالها ولهجاتها وكتبها وموسيقاها وإغناء متاحفها ودراسة رصيدها التاريخي في كل لونٍ من ألوانها الثقافية.

إن تهيئة المجال، والبناء والتعمير، والتنظيم للحياة العامة، ليست بأولى - في نظرنا - من تهيئة العقول وتعمير النفوس وصيانة الآثار المادية والروحية للأسرة المغربية لجعلها تعتز بهويتها الحضارية والإسلامية.

لقد قامت بعض المدن المغربية الكبرى بأدوار طلائعية في تاريخ المقاومة والجهاد، أو في تاريخ الثقافة والحضارة أو في تاريخ التنمية والاقتصاد، وتطوان من تلكم المدن التي قامت بدورها في مجال معين من هذه المجالات أو في أكثر من مجال. وهذا حق لاريب فيه.

والندوة الأولى عن تطوان في تاريخ الحماية، وهذه الندوة الثانية عن تطوان خلال القرن الماضي وبداية هذا القرن، ستغطيان تاريخ قرن كامل من حياة هذه المدينة الأصيلة والعريقة. وهاتان الندوتان ستطمعاننا في ندوة ثالثة ترجع بتطوان إلى تأسيسها وتطورها خلال قرون خلت، وبذلك سيكون لأساتذة هذه الكلية، من مؤرخين وأدباء ومفكرين، أن يعتزوا أيما اعتزاز بكونهم قاموا ببعض واجبهم العلمي في جعل هذه المدينة واضحة الهوية أصيلة الحضارة مشاركة بوعي وحضور في حركة التاريخ الوطني الكبير.

وبهذه المناسبة أود أن أشكر بكل إخلاص وتقدير عمل مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي، وتعاطف طائفة من الأساتذة الكبار الضيوف الوافدين علينا للمشاركة في هذه الندوة من فرنسا وإسبانيا والولايات المتحدة ومن الجامعات المغربية المختلفة، فبفضل هؤلاء جميعا ستكون هذه الندوة إن شاء الله ندوة غنية ومفيدة وناجحة.

وبهذه المناسبة يسعدني، أيضا، أن أنوه بالتشجيعات التي لقيتها المجموعة من لدى المجلس البلدي بتطوان شاكرا باسم المؤسسة هذا التشجيع الذي لقيته مجموعة البحث في التاريخ. كما أعبر عن الاعتزاز الذي نكنه لعامل صاحب الجلالة عن الإقليم لما يخص به هذه الكلية وأعمالها الثقافية ونشاطها العلمي من دعم وتشجيع، وهي مناسبة لا تفوتني، أيضا، دون أن أشكر السيد عميد الجامعة الدكتور محمد القبلي على تفضله لرعاية وتشجيع هذه الندوة التي اعتذر عن عدم تمكنه من الحضور فيها.

ومرة أخرى أعود للتعبير للسادة الأساتذة المشاركين في الندوة عن خالص الشكر والتقدير متمنيا لهم مقاما طيبا بتطوان. وأشكر كذلك هذا الحضور الكريم الذي تفضل بتشجيع الندوة وفي مقدمته الدكتور أحمد الإدريسي رئيس المجلس البلدي لسيدي المنظري ورئيس المجلس الإقليمي في نفس الوقت وكذلك قيدوم كلية العلوم الزميل الدكتور اليملاحي، والأستاذ رئيس المجلس البلدي لمرتيل المفضل منيول، وكذلك عامة الطلبة والطالبات والمثقفين ، كما أشكر كل من ساعد مجموعة البحث على تحقيق ولو جزء من ترتيبات هذه الندوة داعيا المولى جلت قدرته أن يوفق كل المساهمين في إنجاز ما تخطط له هذه الكلية من مشاريع وما يناط بالجامعات المغربية من تكوين وتنمية إجتماعية وحضارية، في ظل القيادة الرشيدة لعاهلنا المفدى جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده. والسلام عليكم ورحمة الله

د. محمد الكتاني

كلمة السيد رئيس بلدية

(تطوان الأزهر الأستاذ عبد السلام بركة)

حضرة السيد الكاتب العام الممثل لعامل صاحب الجلالة على إقليم تطوان
حضرة السيد رئيس المجلس البلدي لمدينة مرتيل
حضرة السيد قيدم كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان
حضرة السيد قيدوم كلية العلوم بتطوان
سيداتي، سادتي.

ببالغ الغبطة والسرور، وبشرف كبير أتقدم إليكم من خلال هذا الجمع العلمي المبارك باسمي الشخصي وباسم بلدية تطوان الأزهر، بمناسبة افتتاح أعمال ندوتكم العلمية الهامة التي تنظمها كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان (مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي) باسمى آيات التقدير و المباركة ولا غرو فإن هذه الندوة ستدقق البحث في موضوع تاريخي هام يتناول جوانب أساسية من تاريخ هذه المدينة العريقة في فترة ما قبل الحماية. وهذا إنصاف لهذه المدينة العظيمة التي قامت إلى جانب بعض المدن المغربية الكبرى بأدوار طلائعية في تاريخ المقاومة والجهاد، وفي تاريخ الحضارة والفكر وفي ميدان التنمية الإقتصادية والعمرانية. إننا نثمن هذا الملتقى العلمي الهام الذي ينبش في ذاكرة هذه المدينة من أجل إعادة صياغة تاريخها المحلي بغية المساهمة في إغناء الرصيد المعرفي لأجيالنا الحالية والمستقبلية بتاريخ تطوان منذ 1860 إلى 1912. فليكن هذا الملتقى العلمي الهام حافزا قويا لإنجاز مداخلات علمية تحيط بمختلف جوانب تاريخ هذه المدينة المناضلة في فترة تعانق فيها الكفاح الوطني ضد الإستعمار بالعمل الثقافي والإجتماعي.

أيها الحضور الكريم : إن حرصنا في بلدية تطوان الأزهر على دعم هذه التظاهرات العلمية والثقافية يعبر أصدق تعبير عن طموحنا في تمازج التواصل الثقافي بين المؤسسة الجامعية ومحيطها الإجتماعي بكل شرائحه، كما نريد أن تعتبر خطوة جادة نحو فتح آفاق التعاون المثمر بين الجماعة والجامعة، آملين أن يساهم هذا التعاون

في تثبيت تقاليد ثقافية يؤمن الجميع بضرورياتها وإيجابياتها. وذلك جد يسير من طموحنا الأكبر والأشمل وهو العمل من أجل تقدم هذا الوطن العزيز في ظل المفكر الأول راعي نهضتنا العلمية والفكرية ومفجر الطاقات المبدعة جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده وأقر عينه بولي عهده المحبوب الأمير سيدي محمد وصنوه الكريم مولاي رشيد وباقي الأسرة الملكية الشريفة والسلام عليكم ورحمة الله

كلمة الدكتور أحمد الإدريسي

(رئيس المجلس البلدي: سيدي المنظري)

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

حضرة السيد الكاتب العام الممثل لعامل صاحب الجلالة على إقليم تطوان.

حضرة السيد رئيس المجلس البلدي لمدينة مرتيل

حضرة السيد قيدوم كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان.

حضرة السيد قيدوم كلية العلوم بتطوان.

سيداتي سادتي :

أما قبل، فيسعدني أن أسجل خالص شكري لعمادة الجامعة ولكلية الآداب، ولمجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي على تشريفها للمجلسين البلديين لمدينة تطوان الأزهر وسيدي المنظري بالتعاون معها في تنظيم هذه الندوة العلمية الدولية في موضوع "تطوان قبل الحماية 1860-1912 متمنيا لها كامل التوفيق والنجاح.

أما بعد، قد أضحى من التقاليد والأعراف الراسخة لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان شعبا ومجموعات بحث، أن تتوائم أعباء التدريس والبحث، بأنشطة علمية متعددة ومتنوعة متبلورة أساسا في الندوات العلمية التي اعتادت تنظيمها منذ سنوات، سواء على مستوى البحوث الإنسانية والأدبية أم على مستوى النصوص الإجتماعية والتاريخية. وفي هذا السياق تنظم مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي هذه الندوة في موضوع يتعلق بتاريخ مدينتنا الحبيبة تطوان من بداية العقد السابع من القرن التاسع عشر حتى السنة الثانية عشرة من القرن العشرين ، وهو موضوع متميز بجديته وتحليله. ذلك أن هذا الموضوع، وإن كان قد تنوول بأبحاث ودراسات وندوات وجلسات علمية من بينها الجلسة الرشيدية الأولى التي نظمتها كلية الآداب بالرباط سنة 1981 في موضوع تاريخ المغرب والفكر الإسباني في القرن التاسع عشر، والجلسة الرشيدية الثانية سنة 1982 وفي الكلية نفسها وفي الموضوع عينه. فقد جاء تناوله عموما ولم يتناول بهذه الدرجة من الإمعان في التحديد زمانا ومكانا والتي يكشف عنها عنوان هذه الندوة. وهو ما يعني أن

اختيار موضوع هذه الندوة، جدة وتحديدا، كان موفقا إلى أبعد حدود التوفيق.

وفضلا عن ذلك فقد تميز البحث التاريخي لهذا الموضوع بتبنيه منهجا علميا تصنيفيا، اعتمد فحص الوثائق والنصوص والمعطيات التاريخية والسياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية صفوة منه إلى تحقيق نتائج علمية مفضية إلى صياغة نظرية في التاريخ المغربي إنطلاقا من مكان محدد. إضافة إلى هذا كله، فقد تميزت الندوة باستجابتها الواعية والمسؤولة للتوجيهات الملكية السامية وموصية بالإستمرار، لضرورة الإهتمام بالبحث التاريخي عامة وبالبحث في التاريخ المغربي بصفة خاصة. لأن من شأن ذلك أن يسلح الإنسان المغربي بوعي تاريخي يقدره على التشبث اليقظ بهويته وأصالته. وإذا كان لي أن أدلي في هذه السامحة العلمية في صورة رجاء أخوي ومداعبة ودية، فلعله أن يتخلص في أنني أرى أن عنوان هذه الندوة القيمة كان قريبا أن يكون: تطوان 1860-1912 - أو ما أشبهه، تفاديا لذكر نقطة دامية هي كلمة الحماية التي تكاد تبرز عنصرا رئيسيا فيه دونما داعي لذلك. وإلا فإذا أرخنا لسنة 60 سنقول: المغرب بعد الحماية. آملا أن يحظى رجائي بموافقة اللجنة المنظمة لهذه الندوة.

وقبل الختام، يسعدني أن أعبر عن غبطة فؤادي وبهجة نفسي للقائكم العلمي الرائع، راجيا من المولى عز وجل أن يوفقكم فيما تبرمونه وتمضونه، ويتوج مداخلاتكم بالرضا والقبول، ويرصع مناقشاتكم بالنجاح المأمول، ويهديكم في هذه الندوة إلى السؤال التاريخي المستمر الموضوع تحت القيادة الرشيدة لحضرة صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده إنه سميع مجيب.

وفي الختام يشرفني أن أشكر السيد الكاتب العام ممثل عامل صاحب الجلالة على إقليم تطوان لتشريفه لهذه الندوة بالحضور، كما أشكر السيد القيدوم، واللجنة المنظمة والسادة المشاركين كافة على هذا التنظيم البديع، ومقاما طيبا للضيوف الأعزاء والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

كلمة الدكتور امحمد بن عبود

(منسق مجموعة البحث في التاريخ المغربي والاندلسي)

سعادة الكاتب العام لعمالة إقليم تطوان، حضرة قيدوم كلية الآداب، حضرة قيدوم كلية العلوم، السيد رئيس المجلس البلدي بتطوان (سيدي المنظري) السيد نائب رئيس المجلس البلدي بتطوان (الأزهر)،السيد رئيس بلدية مرتيل، السيد مدير المركز الثقافي الفرنسي، السيد مدير المركز الثقافي الإسباني، أعضاء اللجنة المنظمة المنبثقة من شعبة التاريخ، السادة موظفو الكلية، أيها الإخوة الأساتذة والطلبة.

أريد أن أبدأ هذه الكلمة بشكر طلبتنا على هذا الحضور المكثف الذي يعبر عن اهتمامهم بهذه المدينة وتاريخها كما أشكر جميع الجهات التي ساعدتنا في تنظيم هذه الندوة : الدكتور محمد القبلي والدكتور محمد الكتاني والدكتور أحمد الإدريسي رئيس المجلس البلدي لمدينة تطوان (سيدي المنظري) والأستاذسيدي عبد السلام بركة رئيس المجلس البلدي لمدينة تطوان (الأزهر).

لقد اهتم الباحثون الجامعيون المغاربة منذ الستينات بالتاريخ المغربي خلال القرن التاسع عشر، إلا أن اهتمامهم هذا انحصرفي مجموعة من المحاور تتلخص في الدولة المركزية وضغوط الدول الأوربية على المغرب وفي بعض الدراسات الأنتروبولوجية حول بعض القبائل . هناك مبررات لهذا التوجه الذي لا يخلو من إيجابيات. إلا أن هذا الاختيار أدى أيضا إلى إهمال تاريخ المدن المغربية خلال القرن التاسع عشر، ونرجو أن تساهم ندوتنا في توجيه البحث التاريخي المغربي وغيره توجيها جديدا. نرجو أن يتسم هذا الإتجاه بالبحث عن أنواع جديدة من المصادر والوثائق، وعن اكتشاف أبعاد جديدة، وعن تفسير جديد. وسوف يؤدي فهمنا لتاريخ المدن المغربية ومناطقها فهما أعمق إلى تركيب تاريخنا الوطني تركيبا شموليا وعلميا ذا مصداقية.

سنحاول في ندوتنا أن نساهم في تركيب التاريخ المحلي لمدينة تطوان كما سنحاول بذلك أن نساهم في بناء تصور وطني شمولي مبني على دراسات محلية محددة من حيث المكان والزمان والأبعاد.

نرجو من هذه الندوة التي اعتمد المشاركون فيها على مناهج متنوعة ومتعددة أن تجلب اهتمام المؤرخين وغيرهم من الباحثين في تاريخ تطوان من 1860 إلى 1912. لا نزعم أن أعمال الندوة سوف تحل مشاكل التاريخ المغربي خلال القرن التاسع

عشر، ولكنها سوف توضح عددا من هذه المشاكل من خلال طرحها بوضوح، كما أنها سوف تفتح أبوابا جديدة أمام الباحثين في المستقبل، توثيقا ومنهجا.

إن مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي تريد من خلال ندوتها هذه أن تساهم في إغناء معرفتنا بتاريخ تطوان من 1860 إلى 1912 كما ترغب في إثراء معرفتنا بالتاريخ المغربي خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

أعتقد أنه بالإمكان تلخيص هذه المساهمة في النقط التالية :

أولا : تحديد المجال الجغرافي وحصره في مدينة تطوان وهذا مهم جدا.

ثانيا : المرونة في معالجة ودراسة تاريخ المدينة في إطار محيطها ونواحيها.

ثالثا : تحديد الزمان المدروس وحصره أساسا في 52 سنة فقط، لأن الحصر كما يعرف طلبة التاريخ يؤدي إلى التعمق في المعرفة التاريخية.

رابعا : تعدد التخصصات التي تعالج مواضيع هذه الندوة.

خامسا : التجديد والتنوع على متسوى التوثيق، فهناك وثائق سياسية ودبلوماسية واقتصادية وجغرافية وإجتماعية وثقافية وفكرية وفنية.

وأشير إلى تعدد مصادر التوثيق، فمنها مصادر عربية مغربية ووطنية ومحلية ومصادر فرنسية ومصادر إسبانية وأمريكية.

سادسا : التجديد على مستوى اختيار المواضيع والأبعاد. يظهر هذا في تنوع المواضيع وأذكر منها العناوين التالية لتأكيد هذا الادعاء :

" دودة القز في تطوان خلال القرن التاسع عشر"للأستاذ محمد المنوني و"تطوان خلال القرن التاسع عشر من خلال الخرائط الإسبانية " للأستاذ خوان ڤيلار.

سابعا : أشير إلى أهمية التجديد على المستوى المنهجي وأعني به التفسير والتنظير. فمن خلال تطوان ستتطرق أعمال الندوة إلى الطروحات التالية :

ثامنا : إشكالية - البادية (غمارة، أنجرة) التاريخ الاقتصادي (التجارة والصناعة) ظواهر تاريخية مثل الأوبئة وظواهر لسانية وفكرية.

تاسعا : لا بد من الإشارة إلى تشريف أبرز المتخصصين في التاريخ المغربي خلال القرن التاسع عشر لهذه الندوة بحضورهم، نذكر منهم الأستاذ والعلامة محمد المنوني من جامعة محمد الخامس والدكتور جان لوي مياج من جامعة بروڤانس وهو صاحب كتاب" المغرب وأوربا ". والدكتورة سوزان ميلر من جامعة هارفارد الأمريكية والمتخصصة في رحلة محمد الصفار التطواني. وتعتز المجموعة بنفس الدرجة بمشاركة مجموعة من الباحثين الشباب من كليتنا وهم أساس نهضة البحث العلمي وازدهاره في كليتنا وفي بلادنا.

إننا نعتز بمشاركة هؤلاء لكونهم ينتمون إلى شعب وتخصصات مختلفة ولكونهم يساهمون معنا في الكشف عن جوانب مختلفة من تاريخ تطوان خلال المرحلة المقترحة.

وثائق عائلة الرزيني حول تطوان

الأستاذ عبد القادر الرزيني

شكرا سيدي الرئيس

سأقتصر في عرضي هذا على التعريف بالوثائق التي تتعلق بعائلتي (عائلة الرزيني). سأقص عليكم قبل ذلك وباقتضاب، تاريخ هذه العائلة.

لقد دخلوا الأندلس صحبة طارق بن زياد، وكلفوا بحراسة الحدود في منطقة "أراگون" فاستقروا بمكان كان يدعى "سانت ماريا الشرق".

وعندما تمزقت الأندلس إلى ممالك جعلوا من سانتا ماريا عاصمة لهم وسميت منذ ذلك الحين باسمهم " Albarracin" أي البنورزين. وكانت مملكتهم تسمى "السهلة " - كما أن هناك سلسلة جبال بنفس المنطقة لازالت تحمل إسمهم.

وفي مدة وجيزة تحولوا من بدو إلى حضر، فأصبح لديهم أحسن جوق موسيقي بالأندلس. وعرضت إحدى تحفهم في المعرض الذي أقيم أول هذه السنة بالحمراء في غرناطة من بين - تقريبا - مائة تحفة من العالم الإسلامي كله.

وعلى ما يظهر فعائلة الرزيني هاجرت صحبة القائد المنظري من الأندلس إلى تطوان ، أو على الأقل ، هاجرت في نفس التاريخ، حيث إن أول قاض معروف في تطوان ، هو الحاج محمد الرزيني.

وأقدم وثيقة عثرت عليها - وأصلها موجود بالبندقية ومؤرخة في ١٥٠٨ أي بعد بضع سنوات من سقوط غرناطة.

وهذه الوثيقة هي عبارة عن اتفاق تجاري بين أمير بادس - قرب الحسيمة - والكابتان إيزمان البندقي وبها عدة بنود - إحداها يتعلق بما يجب أن يؤدى على كل سلعة تدخل المغرب، و الأخرى عن تبادل الأسرى. وكذلك عن توقيت زيارة المراكب لبادس - حيث الثلج يقطع الطريق بين بادس و فاس في فصل الشتاء، فزيارتهم تكون في الفصول الأخرى.

وتختم الاتفاقية بأن كاتبها هو الحاج محمد الرزيني، و لعله الحاج محمد الرزيني القاضي الذي ذكرناه سابقا.

وقد كنت أطلعت أستاذنا الجليل المرحوم الفقيه محمد داود- مؤرخ تطوان-على كل وثيقة عثرت عليها واعتقدت أنها تهمه. وقد نشر بعضها في كتبه، وأعتقد أن جلها سينشر إن شاء الله فيما بعد، و قد كان جزائي من ذلك - أنني دخلت التاريخ

من بابه الخلفي- حيث شكرني الأستاذ داود مرتين في كتبه.

كما زودت مؤرخ المملكة الأستاذ عبد الوهاب بن منصور بما يربو على ألف صورة لوثائق العائلة، والصورة الوحيدة التي تجدون في كتاب " الإعلام عمن حل مراكش وأغمات من الأعلام " تأليف العباس بن إبراهيم وتحقيق الأستاذبن منصور، هي صورة إحدى هذه الوثائق.

وقصدي من تزويد كل من الأستاذ محمد داود رحمه الله ، والأستاذ عبد الوهاب بن منصور أطال الله في عمره بهذه الوثائق هي إتاحة المجال للمتخصصين في التاريخ حتى يقوموا بتمحيصها وإعطائها مكانتها في تاريخ تطوان خاصة وتاريخ المغرب عامة.

وأعتبر وظيفتي هي فقط تصنيف و فهرسة هذه الوثائق وعندما يتم ذلك، أضعها تحت تصرف الباحثين و المهتمين بالتاريخ. فأنا أعترف، بادئ ذي بدء، أنني لست مؤرخا ولا أريد أن أتهم بأنني رجل " فضولي" أتدخل فيما لا يعنيني.

وقبل أن أتحدث عن الوثيقة الثانية، والتي هي من النصف الثاني من القرن الثامن عشر، أود أن أنقل إليكم ما كتبه الأب رامون لوريدو دياث في كتابه " المغرب والعالم الخارجي في القرن الثامن عشر".

يقول المؤلف إن عدة حكومات استجابت لنداء السلطان محمد بن عبد الله لشراء أسلحة وفي يونيو ١٧٧ أرسل السلطان سفيرا إسمه الرزيني محملا بمبالغ مالية هائلة ، و بعد شهرين صار معلوما عند الجميع أنه اشترى 12.000 قنبلة مع أسلحة أخرى. ولم يعد الرزيني المذكور إلى المغرب حتى سنة 1771، أي بعد سنة وذلك على ظهر باخرة هولندية مملوءة سلاحا، وكان وقوفهم بميناء العرائش.

وبعد ذلك بعث السلطان محمد بن عبد الله ج. محمد الرزيني إلى جنوة لشراء مواد لبناء ثلاث سفن وعقد اتفاق تجاري بين جنوة والمملكة المغربية.

وقبل ذلك أي في عام 1766 أرسل إلى لاهاي ولم يعد حتى سنة 1767 في باخرة هولاندية مملوءة سلاحا و هدايا من الأمير أورنج إلى السلطان، ساعات من ذهب و تعزف الموسيقى، كما أرسل للسلطان الشاي والسكر.

وهذه الوثيقة هي عبارة عن (ليسي باسي " أوسالفوكوندكطو") من المسؤولين بأمستردام إلى أحمد الرزيني - ابن أخ السفير المذكور - له ولخمسة أتراك، والمعلوم أن لفظة " تركي " كانت تطلق في ذلك العصر على كل من هو مسلم، وهذه الوثيقة مكتوبة بلغة هي خليط بين اللاتنية و الإيطالية القديمة.

والغريب في هذه الوثيقة، أنها مؤرخة بـ 14 يوليه 1789 أي يوم سقوط الباستيل أو يوم الثورة الفرنسية.

والوثائق التي تحت يدي والتي تتعلق بالفترة التي حددتها الندوة وهي أنواع :

منها رسائل تجارية - وهي بلغات عدة، منها: العامية والعبرية -والعبرية نوعان : منها ما هو مختلط بالعربية : ومنها ما هو عبرية صرفة والإسبانية والفرنسية والإنجليزية ومنها ما هو بالفصحى ومن أقطار كمصر والشام والحجاز وتركيا وكذلك هناك رسائل من أوربا، من جبل طارق وفرنسا وإنجلترا، وكذلك من داخل المغرب.

وزيادة على غزارة المعلومات التجارية بها، نجدها غالبا ما تختم بأخبار محلية فواحدة منها تنتهي " واليوم توفي محمد علي الكبير". والأخرى تنتهي بالشكر على ما استلمه من " ذهب غبرة و شوكولات و صورة نابليون".

وأعترف أني لم أقرأ من هذه الرسائل حتى 5 ٪ لأنها بالمئات وتحاول ابنتي الدكتورة نادية الرزيني -كلما سنحت لها الفرصة - أن تبريها وأن تجعل لها فهرسا. ودراسة التاريخ التجاري للمغرب، خصوصا في القرن الماضي، لن يكون تاما بدون هذه الوثائق.

وهناك رسالة من الوزير بوسلهام يشكر فيها الحاج محمد الرزيني قنصل المغرب بجبل طارق على " تخديمه " لموانئ المغرب.

وهناك رسائل حكومية :

وهذه الرسائل هي موجهة إلى أحد الإخوة الثلاثة أمين أمناء طنجة الحاج أحمد الرزيني أو وكيل الملك بجبل طارق، وذلك ما كان يطلق على القنصل المغربي، وهو ج. محمد الرزيني أو الحاج عبد الكريم الرزيني الذي كان يكلفه الملك بمهمات داخل المغرب أو خارجه.

ومن هذه الرسائل :

رسائل ملكية على الأقل لسبعة ملوك وعددها تقريبا 250 رسالة أو ظهائر.

ورسائل من الصدر الأعظم ابن إدريس والوزير بوسلهام و تعدت خمسمائة رسالة.

ورسائل من رجال ذلك العصر- أمثال الخطيب والصفار وبالافريج والطريس وأشعاش السفير والقائد وغيرهم و لم أحصها ولكن أستطيع أن أقدر أن عددها يقرب من الثلاثة آلاف رسالة وسأعرض عليكم في الأخير نماذج منها.

والنوع الثالث من هذه الوثائق هي الوثائق العدلية إراثات، وصايا وفتاوي، هبات، "صداقات" ملكيات (تحبيس) شهادات البيع والشراء، والعقود التجارية، ودعاوي وأحكام.

وقد أحصيت حتى الآن نحو خمسمائة وثيقة وأقدمها مؤرخ في 998 هـ. وقد علق عليها الأستاذ داود رحمه الله في كتابه. وغالبا، والذي أسميه رسما واحدا، ما هي

إلا عدة رسوم ألصق الواحد منها بالآخر.

وهذه الوثائق لا تتعلق بعائلتي فقط بل بعدة عائلات تطوانية، وتفسير الفقيه داود لذلك ، هو أن كل من أراد أن يترك وثائقه في محل أمين - إما لسفر أو لغيره سلمها إما للحاج أحمد أو الحاج محمد الرزيني.

وأحسن تعريف بالحاج محمد الرزيني هو ما كتبه أعداؤه عنه، أو ما كان يكتبه السلطان له، فهذه ستعطينا فكرة عن مكانة صاحبنا الاجتماعية وعن وزنه السياسي.

فلنبدأ بشهادة أحد أعدائه الإنجليز. ففي سنة 1855 يريد الإنجليز فرض معاهدة على المغرب يحتكرون بها التجارة المغربية ،فيسافر سفيرهم من طنجة إلى مراكش لمقابلة السلطان، ولكنه لاحظ أن استقباله كان استقبالا فاترا هذه المرة ، فقد استقبل من طرف ثمانين فارسا بدلا من الثلاثة أو الخمسة آلاف الذين استقبلوه في المرات السابقة، وفي كتاب " تاريخ العلاقات الإنجليزية المغربية حتى سنة 1900 " لروجرز يوعز هذا الإستقبال الفاتر إلى ج. محمد الرزيني قنصل المغرب بجبل طارق الذي استدعي من طرف السلطان للإستشارة معه حول هذه المعاهدة لأنه كان شخصيا من كبار المحتكرين للتجارة الخارجية".

وقد وجدت ابنتي الدكتورة نادية الرزيني بأرشيف الدولة الإنجليزية بلندن رسالة مؤرخة بـ 6 يونيو 1855موجهة من طرف اللورد بالمرستون وزير الخارجية ومكتوب عليها (Confidencial) إلى سفيره درامندهاي يسأله فيها رأيه في تهديد ج. محمد الرزيني بالطرد من جبل طارق إذا لم يكف عن معارضته للمعاهدة المذكورة.

ويكتب (Alarcon) الكاتب الإسباني المشهور في كتابه " مذكرات شاهد في الحرب الإفريقية " عن الحاج محمد الرزيني فيصفه بأنه الروث شايلد المغربي وأنه -لكثرة أسفاره ومخالطته للأجانب في الخارج - يعده من القلائل المتحضرين والعارفين بأحوال العالم بالمغرب.

و يصف ثروته بأنه يكيل الذهب و الفضة "بالمد" كيل الزرع. وأنه عندما خرج من تطوان يوما قبل دخول الإسبان حمل ثروته من ذهب وفضة على ظهر تسعة بغال و ثلاثة جمال و ثمانية عبيد.

ويصف بيته بأنه مبني على أحسن نمط أندلسي ومؤثث بأثاث فاخر مجلوب من كل أنحاء العالم. والفخار- من أطباق وغيره - من الصين واليابان.

والأرجح عندي أن البغال والجمال والعبيد التي غادرت تطوان قبل دخول الإسبان بيوم كانت محملة بهذه الوثائق ، فالوثائق التي تملأ غرفة بكاملها في بيتي هي التي وجدت ، أما الذهب والفضة، فلم أعثر عليها بعد.

وبقراءة الرسائل الملكية أو الوزارية الموجهة إليه يظهر جليا الحضوة التي كان يتمتع بها عند سلطانه.

وقبل أن أنهي عرضي هذا أود أن أحكي لكم قصة عن تطوان ولو أنها من زمن غير الزمن الذي حددته الندوة.

فأنا أعتبر نفسي محظوظا جدا لأني عشت في القاهرة بين سنة 1946 وسنة 1950 أي وقت وجود جل زعماء المغرب العربي بها.

وقد عاش الأمير عبد الكريم الخطابي بتطوان مدة من الزمن، وتوطدت عرى الصداقة بينه وبين عمي عبد السلام الرزيني.

وقد قص علي الأمير عبد الكريم رحمه الله هذه القصة، فعندما وصل إلى منفاه - جزيرة الريونيون ، عين له الفرنسيون مرتبا هزيلا ليعيش به. و بمرور الزمن كبرت عائلته عددا وسنا ، وغلت المعيشة وخصوصا في سنوات الحرب العالمية الثانية، ولم يعد يكفيه هذا المرتب الضئيل والرجل لن يرضى بطلب الزيادة في مرتبه من مستعمر بلاده. قال لي سمو الأمير : " لقد تعلمت حرفة عندما كنت بتطوان و هي التي ضمنت لي دخلا كفاني مدة إقامتي الجبرية في المنفى، فقد تعلمت في تطوان كيف يقطر الزهر و يستخرج منه عطره، والجزيرة مملوءة زهورا فكنا نجمع تلك الزهور و نقطرها و نبيع عطرها. و قد ساعدتنا الحرب العالمية الثانية فلم تعد العطور تستورد من فرنسا، فكانت تجارتنا رائجة، كفتنا شر مد اليد لأعدائنا."

وأخيرا فكلما قرأت أو تأملت تاريخ تطوان، أجد نفسي متفائلا، فبعد كل شيق جاء الفرج.

ونحن لا ننكر فضل الاستقلال ولا المراحل التي قطعناها منذ الاستقلال فإن كانت هناك اليوم بعض الصعوبات وبعض المشاكل فمآل ذلك إلى زوال.

و السلام.

ملحق

NOS Consules & Rectores Civitatis *Amstelodamensis* notum facimus & attestamur omnibus & singulis, quorum interest, nobis, nomine *Hag Legmeo Badini cum quinque Turcis*

indicatum esse, dict. *15 Turcis*

decrevisse, quamprimum hinc *Navi, cui nomen est Margaretha Constantia praeest Dominus Johann Ernst Barten, Gibraltar versus*

proficisci; atque, rebus suis ibi peractis, huc ad nos reverti: rogamus itaque, ut dict. *15 Turcis* ——————

~~pro incolis nostris agnoscere,~~ que in hoc itinere, tam in eundo, quam redeundo, ubique benigne excipere, ope auxilioque juvare velint. Quod in similibus occasionibus iis, qui huc veniunt, et talibus litteris instructi sunt, libenter praestabimus; Hisce insuper declaramus, bonam, Divinâ annuente gratiâ, hic apud nos aëris esse temperiem, nec pestem, nec alicujus alterius contagii labem grassari. In quorum fidem, sigillum ordinarium hujus Civitatis hisce litteris impressimus, easque Secretario nostro subscribendas dedimus, die *14 Julii* Anno post Christum natum 17*..*

[signature]

CONSULADO GENERAL DEL

IMPERIO MARROQUI

EN GIBRALTAR.

SEÑAS.

Edad
Estatura
Pelo
Ojos
Cara
Color

Firma del Portador:

DON HAGGE MOHAMED ERZINI,

CONSUL GENERAL DE S. M. MARROQUI EN ESTA PLAZA.

Concedo Pasaporte á S.r D.n Hagge Mohamed Erzini Consul General de S. M. Marroqui en esta Plaza

para que pase á Marruecos y Cadiz

Por tanto pido y suplico á las Autoridades de los Pueblos por dode transitare no le pongan impedimento alguno en su viage, antes bien le dispensen el aucsilio necesario para conseguirlo, seguros de que igual proteccion se dispensará por parte de S. M. el Emperador de Marruecos á todos los individuos en igual caso.

GIBRALTAR, de Junio de 1849.

Hagge Mohamed Erzini
Consul General de Marruecos

Valga por Junio

الحمد لله وحده وصلى الله وسلم على مولانا محمد وآله وصحبه

محبنا الأرضى الأمير الأبر الحاج احمد الرزيني وفقه الله وأمنه وسلام عليك ورحمة الله
تعالى وبركاته عن خير سيدنا أيده الله ونصره وبعد فإن أمرنا كان صدر لك أولا من
كان قبلك في الحزمة الشريفة على أن جميع الأمناء ينزلون للحزمة في المرسى
في الثمانية من سوابع النهار وفي اثنا عشر يطلعون لصلاة الظهر ومن ثم
يرجعون أن نعم إلى العصر يصلونه وينزلون لحزمة المرسى ملازمين إلى أن يمسي
الأمر على حاله ولم أدر ما لسبب ذلك مع أن ذلك قانون جار في جميع مراسي
المشرق والمغرب ومن أمر خرق القانون فالأمر لله فلا بد من ترتيب الحزمة
كما أمرنا أولا لأن في ذلك نفع لكم في الحزمة والراحة ونفع للتجار في تجارتهم
وأيضا بلغنا أن كل من عمل خنشة من الخارج تمر صونه من الفطار سواء كان
ذا مروءة أو غير ذلك مع أن الأمر الشريف كان صدر بتسريح الأمر من ذوي مروءة
تامة ولا بال من أهل الهلال وإن كان رجع الأمر وراء الظهر وصار يتسرح كل أحد
وعليه فلا بد أن امنع كل من هو صغير ولو مع السيد ذو مروءة ويحل من هو تاجر ثم
بصيرة كالحاج وجيه وغيرهم فلا قسم منهم اللهم من أتى بأمر شريف بالاستراح
يسرح والأمن ممن هو من التجار وجيه ذو مروءة تامة يسرح ومرادنا وعلى المحبة والسلام
في 8 ربيع الثاني عام 1261

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

محبنا الأعز الأرضى السيد الحاج محمد بن محمد الرزيني أمنك الله وسلام عليك ورحمة
الله عن خير مولانا نصره الله وبعد فقد وصل كتابك الذي وجهت بها لعنانا واستفدنا من
أخبار رجب وشعبان وعرفنا ما ذكرت في شأن جنس المراكب وفي شأن خروج النصارى من ثغر تطوان
في شهر تاريخه بالحمد لله والمنة لله وصار بالبال ما ذكرت من رغبة العبور من النصارى وعلى
المحبة والسلام في 8 شوال عام 1278

الطيب بن اليماني أمنه الله

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

كتابنا هذا السامي قدره النافذ بحول الله وقوته أمره يحمل الخديم الحازم الأنصح والتاجر
الأرضى الحاج محمد بن الحاج محمد الزبدي التطواني يتعرف منه بحول الله وقوته وشامل يمنه
وفضله أننا جعلناه وكيلا بجبل طارق يأخذ بأيدي المسلمين التجار والحجاج والطلبة بين
الواردين والخارجين على القوانين المعروفة والسبل المحمودة المألوفة من القيام بحقوقهم ورفع الأذاية
التي تلحقهم وحملهم على سبيل الحق والمروءة ومنع أهل السفه والفساد من العبور وكذا من كان منهم
ما لا ينبغي ومن لا تجارة له ولا ينفع هنالك إلا من هو مشتغل بتجارته ومعاشه ولا مضرة به في مقامه
وتقلبه ويتشوف به رفعة المسلمين وعزتهم بحيث لا تلحقهم مهانة ولا ما يؤذي بحضرتهم وأذنا
له أن يجعل وكيلا بمالطة على أن يقف بما يجب للمسلمين بها وما يحتاج إليه من الحضور بالكرنطينة
وما هو بسببها وعليه بتقوى الله في ذلك وطاعته والقيام بذلك جهد استطاعته والواقف
عليه من المسلمين والأجناس النصارى يعرف له حق خدمته ويعمل بما يرجع إليه الأشير عليه
وإثبات حرمته صدر به أمرنا المعتز بالله في حادي وعشرين محرم الحرام عام 1260

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

خديمنا الأرضى الحاج محمد الزبيدي وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد أصحبكم الله
الحفظ والسلامة وقدمكم في هذه الوجهة السعيدة غاية البر والكرامة واعلم أنا قد ناديناك في هذا الأمر الذي
كلفناك به مقام أنفسنا وجعلناك للأولاد الحجيج الله أبا وأما للأبناء وقد أوصيناهم بذلك ونوصيك بهم
ومثلك لا يحتاج لوصية لأنك تعرف ما يأتي وما تذر ونسأل الله لكم التوفيق والإعانة وأن يفتح لكم أبواب
الخير والسعادة واعلم أن ولدنا مولاي عبد الله هو أكبرهم وقد أمرناهم أن يكونوا عند إشارته وهو عندنا
يسير إشارة في التواسطة بينك وبينهم وقد بعثنا لكم ما تصحبون من المال الظاهر والصلات وما هو بقصد
التسبيل فاحرزتم منه بعامر وبعثنا لكم الأبان بشقوان ونسخة وكتبنا للحاج أحمد الجزاد والطالب محمد الخطيب
بذلك فبمقتضى الصائر فعملكم فيه على قانون الزمام الذي دفع لكم إذ هو نسخة من زمام الحاج محمد بن البرودي بزيادة
ما توجه مع التشهاد المرة الأخرى إلا إن اقتضى الحال الزيادة أو النقصان في بعض الأمور فيجري الحاضر ما لا يراه
الغائب لأن كل وقت له حكم يخصه وأما الصلات التي تفرق بمكة والمدينة وينبع ومصر والإسكندرية
فعملكم فيها على قانون الزمام المذكور من غير زيادة ولا نقصان فتعرفوا في كل محل ما هو مقيد في الزمام لأهله
ومن كان منهم مستحق بعينه من عالم أو غيره ولا زال في قيد الحياة فيدفع له نصيبه مثل المرة الأخرى ومن مات
منهم من خلفه في مقامه فيدفع له نصيبه حتى تستوفوا جميع ذلك على ما عين لكل محل وأما ما يجعل حبسا في
سبيل الله فقد عينا له عشرين ألف ريال اجعلوا عشرة آلاف منها بمكة وعشرة آلاف بالمدينة ولكم النظر فيما
يناسب للوقف بحيث تبقى منفعته جارية وأجره ثابتا إن شاء الله فإن الحاضر يعين بما اقتضاه نظركم ورأيتم
فيه المصلحة والمنفعة الجارية فافعلوه غير أن ما تجعلونه بالمدينة المنورة عينوا منه قدرا معلوما لمن يكون
يستعمل كل صباح عددا من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ويهديها لقبره الشريف بحسب النيابة عنا بحيث
يقول هذه هدية من فلان بن فلان وأما الهدايا فقد ذهب معكم وجهنا له أربعة من الخيل مع سروجها الأربعة
التي أقيمت بفاس بحيث تصلونها إن شاء الله ادفعوها له مع سيف الذهب وأما سيف الفضة فادفعوه
لوزيره بورسو وباقي الشيوخ مع الحيالي والسطارج لكم النظر فيه فمن رأيتموه يستحق شيئا منها فادفعوه
له ومن جملتهم شريف مكة وباشاتها وباشا المدينة فلكم النظر فيما تدفعون لكل واحد من ذلك من المطلي
والنصاري بحسب ما يظهر لكم فيه الصواب وقد سلم خديمنا الحاج بوجنان البارودي بمثل ما أعطاك بيد
أصحبكم الله السلامة ذهابا وإيابا والسلام في 7 رمضان المعظم عام 1274 هـ

الحمد لله وحده — وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه



خديمنا الأرضى الحاج محمد الزبيدي وفقك الله وسلام عليك ورحمة
الله تعالى وبركاته وبعد فقد بلغنا كتابك مخبرا بجباية قبائل الغرب وقلة دخل
مراسيه ومداخيل المال الطالعة فقد علمت سبب انقطاع والاقتصار على الجيد ترد المصالح
كثيرة مع عدم عمارة بيت المال وجرى الله وليس لا [illegible] وقد اقتضت نحو جبر النقصان
لا تعادل الخارج والداخل على جعله لما فيه من مراعاة الفقر والفاقة بما يوصي كثير له
وفوته ولا بد من مدخل يقوم براتب الجميع وما يعود للمصالح والخزائن معتبرة
والاستعداد للعدو الكافر قصمه الله ولم نرد تكليف التجار بالسلع والتضييق عليهم
فاعتمدنا على النظر الغير [illegible] ما هو الأرفق بالرعية والأقرب للسداد ورأينا
اختصاص بيت المال ببيع السكر والحرير مع زيادة في ثمن كليهما لأن ضرورة الناس
كلهم لهما محتاجون ولمثل هذا مستحسنون وقد اخترنا أن يكون جلب ذلك
على يد من يد النصارى من غير مشاركة أحد معه ونجعل أمناء بمراسينا السعيدة
على يد القبول ويبيعه نرتضي أمانتهم وثقتهم وتوفر حزمهم وضبطهم ومن أراد أن
يشتري قليلا أو كثيرا من ذلك يشتريه منهم ويكون الأمر منضبطا في ذلك والسلام
في 4 ربيع الثاني عام 1261

دودة الحرير وصناعات أخرى بتطوان القرن التاسع عشر

الأستاذ العلامة محمد المنوني
كلية الآداب - بالرباط

بسم الله الرحمان الرحيم

كان لتطوان مساهمات نشيطة في اقتصاد القرن التاسع عشر، والقصد في هذه المداخلة إلى تقديم جملة من النماذج لواقع إقتصاد الصناعات التقليدية بقاعدة المغرب الشمالي.

وننطلق من صناعة تربية ديدان القز لاستخراج الحرير الطبيعي منها ، فنشير، أولا، إلى أن هذه الصناعة عريقة في القدم ، و يصعد اكتشافها في بلاد الصين - إلى سنة ألفين و ستمائة قبل الميلاد ، ثم انتقلت إلى اليابان في القرن الثالث للميلاد ، وخلال القرن السادس وصلت إلى القسطنطينية البيزنطية.

وعرف العرب الحرير قبل الإسلام ، و هو مذكور في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم ، ثم كان الحرير و فنون صناعته مما أدخله العرب للأندلس. [1] وازدهرت هذه الصناعة بإقليم مدينة جيان ، فيقول عنها الإدريسي[2] : « و لها زائد على ثلاثة إلا فقرية ، كلها يربى بها دود الحرير. »

ومن الأندلس انتقل هذا الفن للمغرب فصار متداولا بفاس ، وكان أكثر الفلاحين بها مشتغلين بتربية دودة الحرير ، و لهم معرفة تامة بشؤونها ، وكان ورق التوت الذي يتخذ لتربية دودة الحرير يباع بكثرة في الشماعين ، حتى عرف هذا السوق بسوق الورقة ، ولم يندثر ذلك إلى العهد العبد الرحماني.[3]

ثم خلال سنة 1915 لمعت محاولات لإحياء هذا العمل ، بمبادرات تبناها أفراد من سكان نفس المدينة. [4]

ومن أصداء هذا النشاط بالقاعدة العلمية ، أن يدون أحد علمائها تأليفا بسط

---

1 - مقتبس من دراسة موسعة عن الحرير الطبيعي و دودة القز إعداد أحمد رفعت مرسي، منشورة في " دائرة معارف الشعب " : 331/4 - 348.

2 - نزهة المشتاق " ، مطبعة بريل في ليدن ، بمبادرة المعهد الجامعي الشرقي لنابولي، ص. 568.

3- جريدة " الأخبار التلغرافية " الصادرة بفاس : أعداد : 394 و395 و 410، ماي وجوان 1915.

4- جريدة " الأخبار التلغرافية " الصادرة بفاس : أعداد : 394 و395 و 410، ماي وجوان 1915.

فيه القول في قواعد تربية دودة القز، وكان المؤلف هو الشيخ عبد الكبير بن عبد الرحمن المجذوب الفاسي ، المتوفى عام 1295 هـ. / 1878 م.[5]

وإلى هنا ينتهي بنا المطاف إلى دور مدينة تطوان في ازدهار هذه المهنة ، ولحسن الحظ فإن مؤرخها الأول الشيخ أحمد الرهوني يشير اهتمامه هذا اللون من الفن الصناعي العريق ببلدته ، فيتوسع في التعريف به ويقدمه في تركيز ودقة يطرحان عرضه بنصه في الصيغة التالية : « و قد كان الناس في القرون الماضية إلى العشرة الأولى من هذا القرن (ق.14 هـ) ، معتنين هنا - غاية الاعتناء - باستخراج الحرير من الدود ، فكان جل الناس يغرس في جنانه أو غرسته عددا من أشجار التوت ، حتى إذا انتصفت (الليالي) اشترى أهله أوقية أو أكثر من زريعة الدود، وربوها على القاعدة المقررة حتى تفرخ ، ثم يصيرون يربونها على أكل أوراق التوت حتى تنتشر في البيوت انتشارا كبيرا ، ثم تصير تغزل خيوط الحرير على لوزتها إلى أن تنسد عليها ، فتجمع في الأطباق ، و يذهب للدور التي عندها آلات استخراج الحرير منها ، كما يستخرج منها طيور صغار تسمى " اليوليل" تلد الزريعة التي تدخر للعام المقبل وهذه الزريعة هي بيض تلك الطيور على هيئة "السانوح" ، تبقى ميتة إلى أن يقبل الربيع فتحيا بإذن الله إلى أن تكون دودا كبيرا.

وكل دار تجمع من ذلك في كل عام الرطل إلى عشرة أرطال وأكثر من الحرير، وتبيعه أو تبيضه وتصبغه و تجعله " مدجات " ثم " قناشل " ، جمع قنشول : أي طاقات صغار ، و يحصل للناس من ذلك أرباح طائلة ، منها تكتسي العائلة ، ومنها تشوّر لنفسها الأبكار ، فتعمل البكر وحدها أو مع غيرها زريعة الحرير كل عام وبعد كمالها تبيع البعض و تصبغ البعض ، وتشتري بثمن المبيع الثياب التي ترقمها بالصبغة : من مخدات الشورة و التعجيرات والتناشيف و اللتوم ، وغير ذلك من لزوم شورتها و كسوتها وكسوة عرسها ، بحيث متى خطبت صادفها الحال قد أعانت وليها على تجهيزها بقدر وافر.

هكذا كان الحال عند غالب أهل هذه البلدة ، و قد كنت (يقول المؤلف) في صباي أشترك أنا ووالدتي المرحومة ، في تربية الزريعة حتى تصير حريرا وكنا نستحصل من ذلك من الدخل في العام ، وهكذا كل دار، وقد صار هذا الآن من أحاديث خرافة".

وإذا انتهت فقرة " عمدة الراوين" [6] نشير إلى أن حرير دودة القز ، لم يكن

5-خطوات وخطرات " للقاضي عبد الحفيظ الفاسي : مخطوطة خ.ع. د. 4401/ 1، و لا يزال المخطوط الذي يعلق عليه غميسا عند أسرة المؤلف.

6- مخطوطة خ. س، 12644 : عند الفصل السابع.

الصناعة الوحيدة التي ازدهرت في تطوان خلال هذه الفترة ، ونلمح - الآن - إلى نماذج أخرى.

ومن ذلك زراعة القطن ثم استخدامه لنسيج الثياب القطنية ، وتحضيرها متنوعة حسب حاجيات سكان المدينة و إقليمها ، و يقدر المؤرخ الرهوني[7]، وربما يبالغ، فيذكر أن عدد المرمات التي تشتغل في هذه المنسوجات ، كانت تزيد على الألفين.

و إلى القطن كانت المنطقة ذاتها تستنبت بذور الكتان ، لتصنع من ناتجها الألبسة المختلفة للراغبين فيها. وينوه الرهوني [8] بمزية هذه الصناعة على الاقتصاد الوطني قائلا : « ... فكان يتوفر على أهلها (تطوان) عدد كبير من الدراهم من حيث الاستغناء عن الثياب الخارجية ، لأن ستين في المائة فأكثر من الثياب كانت من غلة الأرض ، أما جيرانها فلم يكن لباسهم سواها. »

ومن الحرف التي تفوقت فيها هذه المدينة مهنة الرماية بالمدافع مع المهارة في إعداد الكور وعمارتها، وكان أهلها يتنافسون في هذه الصناعة ، ويتدارسون كتبها على الطراز التقليدي ، وكان بعضهم ينبغ في مهنته نبوغا يتفوق به على نظرائه ، و منهم المعلم أحمد عنيقد، فيصفه الناصري [9] بالمعلم الأكبر ، ويذكر أنه كان عجبا في صناعة الرمي بالمهراش و ذكر معه الرهوني [10] المعلم الحاج عبد الرحمن الشولو، محليا للأخير بالمهارة العظيمة في الرمي بالمدفع وإصابة الأغراض بكوره ، مع المعرفة التامة بصنع الكور وعمارتها.

ومن تلامذة الأول : مؤلف رسالة باسم " الباز في علم المدفع والمهراز "، واضعه لم يذكر إسمه، وكان يعيش أيام السلطان أبي زيد بن هشام وهو يلقب أستاذه بلقب " قنفد" ويذكره هكذا : " الحاج أحمد البوقيوي الشريف المدعو بقنفد"، وهذا -بدوره- أخذ عن الشريف محمد بن المهدي البقالي ، الآخذ عن الحاج علي مدينة التطواني الأندلسي.[11]

وأخيرا ينتهي بنا المطاف إلى تبريز صناعة حضارية كانت تطوان بين المدن المختصة فيها ، والقصد إلى عملية التفنن في تنويع الحلويات و الأطعمة الطبيخة ، وذلك ما

7- نفس المصدر و الفصل.

8- نفسه.

9- "الاستقصا"، دار الكتاب - الدار البيضاء، 1956، 8/ 154.

10- "عمدة الراوين" : الفصل 7.

11-الرسالة تقع ضمن مجموع من مخطوطات خ. ع. د.، 3368.

تفيد به وثيقة [12] من عصر السلطان الحسن الأول ، فتكشف عن أسماء أربعة إماء من القصر الملكي ، بعثن إلى تطوان لتعليمهن الأعمال المشار لها أعلاه ، فكانت الأمتان سعادة ومبروكة تتعلمان بدار الحاج محمد اللبادي، والأمتان زايدة العبدية والصايلة بدار الحاج عبد الكريم بريشة. وتصنف الوثيقة الحسنية أعيان كل من الحلاوي والمطبوخات، في لائحة تستوعب سبع صفحات من الحجم المتوسط، وسيأتي نصها ملحقا بهذا العرض.

12-ضمن دفتر مخزني : خ. س. 6.

الملحـــق

الحمد لله والصلاة وسلم وبارك على سيدنا وملانا رسول الله سلاما يحسنه إماء الجانب العالي بالله من الحلوى والطبخ وهن سعادة ومبروكة اللتان كانتا بدار الخديم الحاج محمد اللبادي وزايدة والصائلة اللتان كانتا بدار الخديم الحاج عبد الكريم بريشة وقيد في يوم الأربعاء خامس عشر محرم الحرام عام 1307.

أنواع الحلويات

بشكت
الملوزة
قفافل
كعب غزال
البرك
الغريبية
بقلاوة
المونضات
المسمنة
الطابع
القطايف
المحنشة
البرك بالحليب والروز
البرك باللحم
الرغايف بالجبن
البغرير
الرغايف مخمورين
السنبوست
السفنج
الرغايف مطويين
الفقاقص
البجماط

القفافل
القراشل

المعاجن

معجون السفرجل
معجون التفاح
معجون بالقرع السلاوي
معجون خزو

أنواع الطعام المطبوخ

البسطيلة بأفراخ الحمام
البسطيلة بالدجاج
البسطيلة باللحم
الدجاج معمر بالخبز واللوز والسكر
الدجاج معمر بالكسكس
الدجاج معمر بالنعناع
الدجاج بالروز والزبيب
الدجاج محمر
الدجاج مقلي
الدجاج مشوي
الدجاج في الفران
الحوت مطبوخ في الدار بأنواعه
الحوت مطبوخ في الفران بأنواعه
طوابق اللحم الغنمي عامر بالروز والزبيب ومثله يعمر بالنعناع
ومثله بالخبز واللوز
ومثله قمامة
ومثله بين نارين
ومثله مبخر في الكسكاس.
ومثله مشوي

ومثله في الفران
شوى فدار يجعل كثيرا في عيد الضحى
اللحم مطبوخ بأنواع الخضر
ومثلها في فرخ القرع
المرقات بأنواع الخضر
ومثلها في البصل
المروزية
الخليع

أنواع الشلاظة

الرغموق
الضاوية في القنارية
ومثلها في الخرشوف
ومثلها في تماطيش

تقطير الزهر والياسمين تحسنه زايدة وتختار لها أواني استعماله

الحمد لله وما يحسنه الأمتان زايدة العبدية ومسعودة الفاسية اللتان كانتا بدار الخديم الحاج محمد بريشة من أنواع الحلوى والأطعمة.

فمن الحلاوي اليابسة

الفانيد
كعب غزال
البرك
الملوزة
بشكت
الغريبية
قراشيل الرباط

قفافيل احلوة
قفافيل باسلين
الفقاقيص
الططاشر
البجماط
برك الحليب
برك اللحم
المجبنة
المحنشة
البغرير
القطايف
النويضات
بقلاوة
برك اللوز
الكويلش
المسمنة
الطابع
الرغايف مطويين
الرغايف العراب

أنواع الأطعمة

البسطيلة بالفراخ
البسطيلة باللحم
الدجاج معمر باللوز
الدجاج معمر بالنعناع
الدجاج معمر بالروز
الدجاج محمر
الدجاج بالملح والكمون
الدجاج مشوي
الدجاج مقلي

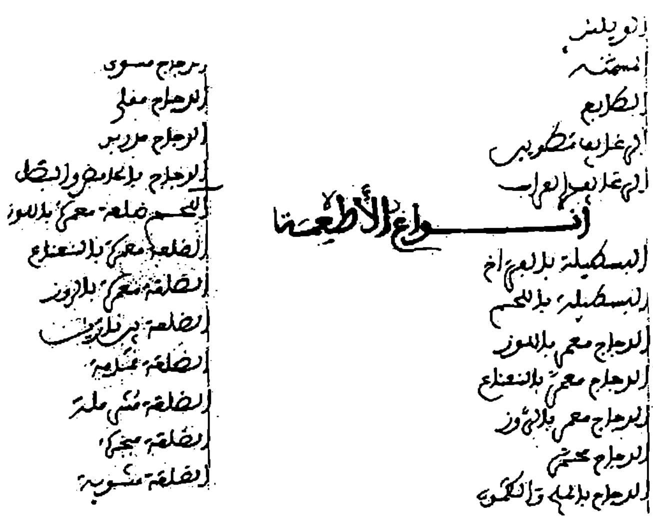
الدجاج مدربل
الدجاج بالحامض والبصل
اللحم ضلعة معمرة باللوز
الضلعة معمرة بالنعناع
الضلعة معمرة بالروز
الضلعة بين نارين
الضلعة قمامة
الضلعة مشرملة
الضلعة مبخرة
الضلعة مشوية
اللحم بالروز والمعدنوس والليم
الضاوية بالخبز
الضاوية بالبصل
الضاوية بتماطيش
الضاوية بالخرشوف
الضاوية بالقرع الأحرش
الضلعة في القوق مشرمل
اللحم مقلي بالليم وبالزيتون
اللحم مدربل بخزو والقرع والبذنجل
الخيونات من اللحم على طبت الحوت
اللحم بين نارين
تاشة
اللحم بالقرع الاحرش والشعير
اللحم بالقرع السلاوي والحبق
اللحم محمر بالبطاطة
اللحم بالملح والكون
اللحم بالتفاح والعسل والسكر
اللحم بالشفرجل والعسل والسكر
اللحم بالشفرجل والبصل
اللحم باللفت البلدي
اللحم مقلي باللفت المحفور والزبيب

اللحم بالكرمب والكروية
الحوت مقلي بالليم مشير والزيتون
الحوت بالبيض والقزبور والليم
الحوت مقلي بالزيت
الحوت بالبصل والمعدنوس
الروز المحلبى بالزبدة وماء الورد
الروز بالسمن محروق والقرفة والسكر
الروز بالدجاج
الروز باللحم

كيفية تصييب الصامت الحلو

يعصر العنب ويصفى ويجعل في خابية ويجعل فيه مقدار نصف صاع من التراب الأبيض ويبقى كذلك نحو أربع وعشرين ساعة ثم يصفى في خرقة لطيفة ويجعل في طنجير على نار لينة بحيث لما يغلي عليها ستة أيام بلياليها فينقص بالثلثين ويصب في آنية ويبقى بها إلى أن يصفو ويبرد يجعل بالمطارب ويختم باللث خشية الريح وقد كان جعل ذلك بمرئ ومسمع من (الأمة زايدة التي كانت تحت يد السيد محمد بريشة.

وقدر ما يكفيه من التراب الابيض الذي هو بياضه للقنطارالخضار من العنب حفنة واحدة بملىء كفي.



العقافيص
البجماط
الفقاقيل
الفراشيل
المقارص

معجون السفرجل
معجون التفاح
معجون القرع السلاوي
معجون خيزو

انواع الطعام المطبوخ

السكيلة بلحم الحمام
السكيلة بالدجاج
السكيلة باللحم
الدجاج محشي بالجبن واللوز والسكر
الدجاج محشي بالكسكس
الدجاج محشي بالقطايع
الدجاج محشي بالرز والزبيب
الدجاج محمر
الدجاج مقلي
الدجاج مشوي
الدجاج في الغربال
الحوت مطبوخ في الفرن بانواعه
الحوت مطبوخ في الغراف بانواعه

4

الحمد لله وهي ما يحسنه الاستاذ ابن بكر العبوبي وسعودة العلمية البتاتة كلاهما
الحلوى ... من انواع الحلويات والاطعمة

عمل الحلاوة اليابسة

العلانير
كعب غزال
البرجل
بشكت
الملوزة
الغريبة
فراشيل الزبادة
فقاقيل اشلوخ
فقاقيل بشليس
العقافيص
الكعاك
البجماط

زل الحليب
زل اللحم
المحنشة
المكنشة
البغرير
القطايف
الشريطة
الكاوكاو
زل اللوز

أهمية الحوالات الحبسية وكنانيش المحاسبة

في كتابة تاريخ تطوان قبل الحماية :

كناش الزاوية القادرية نموذجا

محمد الشريف
كلية الآداب - تطوان

نعتقد أن تطور البحث التاريخي شديد الارتباط بمسألتين متداخلتين تداخلا جدليا : توفر المادة المصدرية من جهة، والتجديد المنهجي في معالجتها واستنطاقها من جهة أخرى. فالتاريخ كما يمارس اليوم ، يتميز بتقنياته الجديدة في استعمال المادة المصدرية المعروفة والبحث عن أخرى أو اختراعها ، الأمر الذي أدى في نهاية المطاف إلى توسيع مفهوم الوثيقة توسيعا كبيرا يتجاوز بكثير ما كانت تفهمه المدرسة "الوضعية" منها ، " فالتاريخ الجديد " ، يرتكز على " تعددية في المصادر: كتابات من كل صنف ، وثائق مجسدة ، مواد الحفريات الأركيولوجية ، وثائق شفوية ، إحصاء الـخ .."[1]

بالنسبة لتاريخ المغرب ، هناك اقتناع - ترسخ منذ فترة طويلة - بضعف المصادر التاريخية " الأدبية " المستعملة تقليديا في كتابة تاريخ المغرب ، باعتبارها تعطي الأولوية للتاريخ الحدثي ، وتظل عاجزة عن تقديم مادة مفيدة فيما يخص الجوانب البنيوية من تاريخنا ، أو الجوانب غير الرسمية التي تلامس بعض المظاهر المنسية أو المغيبة من هذا التاريخ. ومن هنا تأتي مصداقية تلك الدعوات الملحاحة لبعض المؤرخين المغاربة إلى التجديد المنهجي وتنظيم البحث عن مصادر ووثائق جديدة وقراءتها قراءة جديدة مستلهمة مكتسبات العلوم الاجتماعية المعاصرة [2] وكذلك مصداقية ذلك النقاش حول أهمية " الوثيقة الأجنبية " و" الوثيقة المخزنية" وجدوى استعمال المصادر التاريخية غير الرسمية مثل المصادر الفقهية (كالنوازل) وكتب الجغرافية والرحلات ومؤلفات البدع والكناشات ... إلخ. لأن الاهتمام بهذا

1- Guy Bourde et Hervé Martin , **Les écoles historiques**, Paris , 1983,p.220 .

2- عبد الله العروي ، مجمل تاريخ المغرب ، الدار البيضاء ، (د. ت) ص : 20.

محمد الشريف " ملاحظات منهجية لقراءة جديدة لكتب التراجم المسمى المغربي الأندلسي الثالث ، (منشورات كلية الآداب - تطوان (د.ت.).

النوع من المصادر والوثائق من شأنه أن يفتح المجال أمام الباحث للنظر في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المخفية ، ومن شأنه أن يسمح له بمقاربة البنيات ، الأمر الذي يمكن أن يؤدي في نهاية المطاف إلى الإسهام في بلورة التصور " الداخلي " للتحولات التي عرفها تاريخ المغرب [3]

ونود في هذه المداخلة الوقوف عند نوع ما يزال مهملا من مصادر التاريخ لمدينة تطوان خلال القرن 19 ، وهو الحوالات الحبسية وكنانيش المحاسبة المكملة لها. وهي مصادر تلقي الأضواء على بعض المعطيات الاقتصادية والاجتماعية والإدارية التي لا نجدها في الوثائق الرسمية أو المؤلفات التاريخية التقليدية.

والحوالات الحبسية - التي يصنفها الفقيه محمد المنوني ضمن المصادر الدفينة لتاريخ المغرب-[4] هي " دفاتر تسجل بها شؤون الأوقاف من ممتلكات عقارية ، مع دخل ذلك ، والنفقات على المساجد والمشاريع الإجتماعية المتنوعة، فضلا عن وثائق موضوعية مختلفة"[5].

ومن المعلوم أن هذه السجلات قد عرفت بالمغرب منذ العصر المريني، غير أن أقدم أصولها الباقية ترجع إلى العصر الوطاسي . ولقد لفت هذا النوع من المصادر اهتمام الباحثين منذ فترة طويلة بحيث نجد أن (ميشو بيلير) قد عمل على نشر وثائق أحباس طنجة منذ سنة 1914 وذلك لأهداف تخرج عن نطاق الاهتمام التاريخي قطعا لتلامس الأرضية الإيديولوجية الاستعمارية الرامية إلى فهم ميكانيزمات مؤسسة الأحباس بالمغرب بهدف تفتيتها والاستحواذ عليها.[6] ومع ذلك، فإنه قد أثار الانتباه إلى أهمية هذا النوع من المستندات ، الأمر الذي استتبعه زيادة الاهتمام بها من طرف الباحثين المغاربة.

3- انظر عبد الأحد السبتي ، " التاريخ الاجتماعي مسألة المنهج : ملاحظات أولية " ضمن كتاب " البحث في تاريخ المغرب ، حصيلة و تقويم " الدار البيضاء ، 1989 ص :50.

4- المصادر الدفينة كما يحددها الاستاذ محمد المنوني (المصادر العربية لتاريخ المغرب ج.1 ، 1989 ، ص 8و تشمل " كتب الجغرافيا والرحلات والموسوعات القديمة ، ومدونات النوازل الفقهية ، ومؤلفات البدع [...] والكناشات ويضيف اليها " وثائق الحوالات الحبسية ومجموعات المراسلات ... "

5 - نفسه : ص : 130.

6 Michaux Bellaire, **Les Habous de Tanger**,in **Archives Marocaines**, Vol.13.1914.

Ibid, "**Les biens habous et les biens makhzen**", In **Revue du Monde Musulman**, juillet 1908-1911.

ولقد اشاد الباحثون بأهمية هذا النوع من الوثائق. فالأستاذ محمد المنوني يؤكد أنه من خلال الوثائق المدونة بهذه الحوالات " تتناثر معلومات بالغة الأهمية " حول " أسماء الخطط والآثار والأشخاص والأسر " ، كما تحتوي على "معلومات عن النظام الإداري لقطاع الأوقاف وأسماء القائمين بها ومرتباتهم ، فضلا عن الأنظمة الدينية والتعليمية والاجتماعية للمساجد والمدارس والمؤسسات الاجتماعية المندثرة " ويضيف الفقيه المنوني منوها بقيمة الحوالات الحبسية " إن كثيرا من وثائق الحوالات ينبث بها تسلسل عدد من العائلات المغربية ، مع مجموعة من أسماء الشهود والقضاة وتوقيعاتهم بأشكالها المعقدة ..."[7]

إن ما يؤكده البحاثة محمد المنوني على مستوى الأهمية العامة للحوالات الحبسية يزكيه ما كتبه الأستاذ محمد مزين فيما يخص مجال محدد وهو مدينة فاس وباديتها. إذ يثبت أن الحوالات لها أهميتها في تاريخ البنية الحضرية وفيها تصور ، ولو جزئي ، للمنظر الزراعي بالنسبة للبوادي المجاورة للمدينة كما تكمن أهميتها في تحديد مجال الأملاك الحبسية في المدينة والجهات التي حبست عليها ، بالإضافة إلى أنها تفيد في تقييم كراء الحوانيت والمتاجر بالمدينة كما تزودنا بمعلومات عن اقتصاد المدينة ومورفولوجيتها.[8]

والواقع أن هذه الأهمية تنطبق على الحوالات الحبسية التي بين أيدينا [9]سواء في مستواها العام أو الخاص. ولكن ما نطمح إليه هو إبراز بعض خصوصيات مدينة تطوان اقتصاديا واجتماعيا وسياسا ودينيا ... انطلاقا من شواهد مادية ملموسة. ولتحقيق هذا الهدف سنتخذ كنموذج لتلك الشواهد، كناش حسابات الزاوية القادرية بتطوان وهو كناش " مكمل"لمادة الحوالات الحبسية"[10] ويضم بين دفتيه حسابات متعلقة بأحباس الزاوية القادرية لمدة ستة وعشرين سنة ، تمتد من شهر رمضان 1320 هجرية (1902 م) إلى شهر جمادى الأولى لسنة 1346 هـ (1927 م). وهذه الحسابات التي تغطي 132 صفحة من الكناش متعلقة أساسا بمداخيل (أو مستفاد)

---

7 - المنوني، ص . 130.

8 - محمد مزين : فاس وباديتها ، مساهمة في تاريخ المغرب السعدي 1549 -1637. الرباط ، 1986

9 - أغلب الحوالات الحبسية توجد بإدارة نظارة الأوقاف بتطوان. ونشكر السيد الناظر الذي سمح لنا بالإطلاع على بعضها قصد إنجاز هذا البحث.

10- هو كناش تفضل صديقنا البحاثة محمد حنانا باعارته لنا لانجاز هذه المدخلة. كما أشكر البحاثة المحقق السيد محمد بوخبزة الذي دلنا على وجوده.

أحباس الزاوية وطرق صرفها سنويا.[11]

ومن خلال هذه الحسابات تتناثر معلومات قيمة حول مؤسسة الأحباس ، وتسيير الزاوية وماليتها فضلا عن إشارات طريفة حول الحياة اليومية لمدينة تطوان في فترة حاسمة من تاريخها.

I- النظام الإداري لقطاع الأوقاف من خلال الحوالات الحبسية و كناش الحسابات

لن نتتبع التطور التاريخي لمؤسسة الأحباس بالمغرب وإنما سنعمل على استخراج بعض المعطيات حولها كما تعكسها بعض الحوالات والكناش الذي بين أيدينا. ولكن لا بأس من الإشارة إلى أن هناك اختلافا فيما يخص تسيير قطاع الأحباس التابع للمساجد والأحباس الخاصة من جهة ، وقطاع أحباس الزوايا. إذ يظهر أن هاته الأخيرة قد تمتعت باستقلالية فيما يخص تسيير أحباسها وإليها كان يرجع أمر تعيين القائمين عليها. بل إن هذه الاستقلالية تعتبر " من المميزات التي امتازت بها منطقة الحماية الإسبانية عن منطقة الحماية الفرنسية."[12]

أ) الناظر:

يستشف من الحوالات والكناش الذي ندرسه أن الإشراف على مداخيل أحباس الزاوية ومصاريفها كان يرجع إلي " ناظر" أو "وكيل" يعينه أصحاب الزاوية بمحضر قاضي الجماعة لتطوان ونواحيها.[13] وتتمثل اختصاصات "الناظر" (أو الوكيل) كما يبين ذلك رسم توكيل عبد السلام الخيروني التطواني على زاوية الجنوي سنة

11- هذا الكناش "مكمل" للحوالة بحيث وردت اشارات تفيد ذاك. مثل "أجرة عدلين عن رسم خزين غرسية بالكناش

بالحوالة " كناش : ص : 42. و" أخذ نسخة من شراء ثلث من دار المشتركة مع سيدي محمد القادري بالحوالة" كناش ، ص : 69.

12- امحمد عزيمان ، "تطوان خلال عهد الحماية : النظام الإداري" ندوة " تطوان في عهد الحماية : 1912 - 1956 " عكاظ ، الرباط 1992. ص ، 19.

13- تعيين النظار من طرف أصحاب الزوايا خاصية مشتركة أشارت إليها جل الأبحاث المتعلقة بالأحباس مثلا :

H. L. Rabino , **La réorganisation des habous au Maroc** , in **Revue du Monde Musulman**,t. 39 , 1920, p. 58

Al Moutabassir, **Les Habous de Tanger**, in **Revue du Monde Musulman**,t I - 1907, p. 327.

1316 هـ / 1898م في القيام مقام أحفاد الوالي صاحب الزاوية " في قبض أكرية رباعها وصرف خراجها في محله والإكراء والمخاصمة والإنكار[...] وأن يوكل على يده من شاء بما شاء من فصوله"[14].

وفي رسم توكيل محمد بن عبد الرحمان الموفق الذي خلف عبد الله مدينة على زاوية الجنوي سنة 1916/1335 كان يتعين عليه أن " يقوم مقامهم في إكراء أوقاف أحباس الزاوية واصلاحها وقبض ما يجب قبضه للجانب المذكور [أصحاب الزاوية] وصرف ما يصرف على إقامة شعائر الدين بتلك الزاوية"[15] ويظهرأن التعيين والعزل كانا بيد أصحاب الزاوية. أما القاضي فلم يكن يمتلك من السلطات ما يخول له الحق في التعيين أو العزل. فالعملية كانت تتم بمحضره ليزكيها ويشهدعليها فقط. وفي حالة العزل فإن محاسبة الناظر كانت تتم من "تاريخ وكالته الى تاريخه على مستفاد الزاوية ، وما صير من ذلك ... وما بقي فاضلا "، وتتوج المحاسبة بمحضر يثبت به جميع تفاصيل الحساب والإبراء المتبادل.[16]

ويظهر أن تشعب مداخيل ومصاريف الزاوية دفعت القيمين عليها للاستعانة بأصحاب الخبرة والتجربة في عالم المال والتجارة. لذلك غالبا ما نجد صفة "التاجر" ملحقة بأسماء النظار مثل " التاجر أحمد بن عبد الله مدينة".[17] الذي عوض الخيروني في النظر في زاوية الجنوي سنة 1905/1323م ،أو التاجر الوجيه عبد الكريم بن أحمد اللبادي ، " الناظر على الزاوية القادرية سنة 1322/ 1904 [18].

ويبدو أن الحسابات لم تكن صافية دائما ، والثقة لم تكن مطلقة في النظار، الأمر الذي استدعى في بعض الأحيان تعيين ناظرين في نفس الوقت مع الإشتراك في مهامهما وأن يكون " نظرهما واحد ، بحيث لا يبرم أحدهما شيئا إلا بإذن الآخر ومشورته إلا إذا حصل لاحدهما سفر أو غير ذلك فيستقل الآخر بنظره."[19] ولا نعرف مقدار أجرة الناظر ولاكيفية أدائها له. ولكن يظهر أن تلك الأجرة كانت رمزية أو ضعيفة جدا استنادا إلى ما كان يقبضه ناظر طنجة سنة 1913 (40 بلون حسني في

14- حوالة زاوية الجنوي بنظارة الأحباس بتطوان (غير مرقمة).

15- نفسه.

16- انظر الملحق : 1.

17-حوالة زاوية الجنوي (عقد توكيل عبد الله مدينة).

18-كناش : ص : 23. سينتبه الفرنسيون في المنطقة السلطانية الى هذه النقطة وسوف يشترطون في النظار أن يكونوا " رجال أعمال ومثقفين ونشطين " انظر: Rabino, Op., Cit, p. 83

19- حوالة زاوية الجنوي : (عقد توكيل أحمد بن عبد الله مدينة واحمد بن عبد الرحمان الناصر.

السنة [20] ويؤكد هذا المعطى رسالة سلطانية مؤرخة بـ 17 رجب 1322/ 1904، وموجهة إلى الحاج محمد الطريس تتطرق إلى " ناظر أحباس تطوان السيد محمد الفناوي " الذي اشتكى " من عدم تخصيص أجرة له. وفي تلك الرسالة السلطانية تقرر تخصيص " خمسة عشر ريالا في الشهر أجرة له من الأحباس " بعدما أن طلب الحاج محمد الطريس من السلطان " الأخذ بيد الناظر وتعيين مشاهرة له كأمثاله " .
[21] من جهة أخرى كان النظار يقومون بكراء الأملاك الحبسية التي يسيرونها ،كما هو الشأن بالنسبة للناظر عبد الكريم اللبادي الذي كان يكتري حانوتا بالمصلى من الزاوية القادرية.[22]

ب) القابض:

وكان الناظر يعين مساعديه وعلى رأسهم القابض، أي المكلف باستيفاء مدخولات أحباس الزاوية. ونعرف أسماء بعض القباض مثل الحاج عبد القادر بن عبد الكريم العطار الذي كان " قائما بصيانة الزاوية والمتصرف في خراجها قبضا " وهو الذي خلفه ابنه بعد وفاته سنة 1316/1898م على قباضة زاوية الجنوي.[23] ونعرف كذلك محمد البلوا الذي كان نائب الناظر عبد الكريم بن أحمد اللبادي "على القبض والصائر " لمداخيل أحباس الزاوية القادرية. وهو القابض الذي خلف -على ما يظهر - محمد بن محمد بن الأبار سنة 1323.[24]

وكانت أجرة القابض، سنة 1320/1902، 29 بليونا ونصف بليون [25] ثم ستتحول أجرته إلى 10 ٪ من مجموع المقبوضات يقتطعها مباشرة من مجموع الكراء المستخلص. ولم تكن عملية استيفاء الكراء من طرف القابض سهلة فيما يبدو. إذ كانت تتعرض - كما تدل على ذلك بعض الإشارات في الكناش - لبعض المشاكل تؤثر في مالية الزاوية، كالتملص من أداء الكراء أو عدم استخلاصه في وقته

---

20 Michaux-Berllaire : **Les Habous de Tanger. In Archives Marocaines.** Vol. 13, 1914, p.9
Moutabassir, Op. Cit., p. 328.

21- مخطوط الخزانة العامة بتطوان رقم 35 / 155. (قسم الوثائق)

22-كناش ، ص. 54 - 66

23- حوالة زاوية الجنوي.

24- كناش، ص. 11.

25- كناش، ص. 5.

المحدد أو تعذر قبضه أصلا [26].

والواقع أن القابض شخصية لا تظهر بوضوح في الكناش إلا عندما يتعلق الأمر بخصم أجرته من مجموع مداخيل الزاوية.

ج) المزوار أو النقيب:

كان المزوار يعين من طرف السلطة المخزنية بظهير[27] وهو الذي يعين من ينوب عنه في تسيير شؤون زاوية جده ، كما يقوم بمحاسبة النظار ، ولم تكن هاته المحاسبة مضبوطة زمنيا ، وإنما كانت مرتبطة بمقدم نقيب الشرفاء أو ممثليه إلى مدينة تطوان. وكان للمزوار ولنوابه الحق في التصرف في مالية الزاوية دون قيد أو شرط، كما سنرى، ويتمتعون بصلاحيات واسعة مثل إعفاء بعض المكترين من واجب الكراء كليا أو جزئيا[28] أو الزيادة في أجرة بعض الموظفين بالزاوية أو المساعدين[29]. بل إن آخر سنة في الكناش وهي سنة 1346 هـ (1927) تسجل وكان للمزوار ولنوابه الحق في التصرف في مالية الزاوية دون قيد أو شرط، كما سنرى، ويتمتعون بصلاحيات واسعة مثل إعفاء بعض المكترين من واجب تحول "المقابضة والنظارة إلى سيدي عبد المالك القادري بظهير مولوي".[30]

بالإضافة إلى هاته الركائز الثلاث في التسيير الإداري لأحباس الزاوية نجد أطرا أخرى صغيرة مثل العدول وشهود المحاسبة وكتاب الوثائق. ولا يفيد الكناش كثيرا في إلقاء الضوء على نشاط هؤلاء ، وكل ما استخلصناه من معلومات حولهم لا يتجاوز الإشارة إلى أجرة العدل سنة 1324 وهي (20 بليونا شهريا) [31]. وسترتفع بإذن من المزوار إلى 25 بليونا. أما أجرة شهود المحاسبة فكانت 12 ريالا في السنة أي 20 بليونا في الشهر سنة 1325. [32]

26- مثلا : شريكان أحدهما يؤدي واجب الكراء والآخر يمتنع :" نص دار الفنيشي غاب وتعذر القبض منه" كناش ص.44-49.

حانوت " بيد الدحروش متقاعد عن دفع الكراء " كناش، ص. 43-50-53 .."ربع الأرحى متعذر قبض واجبه " كناش ص.44. الخ.

27- كناش : ص . 10 انظر الملحق 1. و كذلك
Michaux Bellaire, Op. Cit, P,10.

28- كناش ، ص . 30 ، 34 ، 38 ، 41 الخ.

29-كناش، ص . 4

30-كناش، ص . 129.

31- كناش، ص . 21.

32- كناش ، ص . 17.

II - ربع قرن من حسابات الزاوية القادرية بتطوان

مداخيل الزاوية القادرية ومصاريفها

إن الكناش الذي بين أيدينا يعتبر شهادة صادقة وحية عن مستفاد الزاوية القادرية وصائرها. فهو يتضمن تفاصيل مدققة عن مالية الزاوية خلال الفترة المحددة أعلاه. وتنطبق الدقة والطابع التفصيلي لحسابات الزاوية على جميع السنوات باستثناء سنة 1337 هجرية (1918م) وبعض شهور سنة 1323هـ/1905م التي سجلت حساباتها إجمالا وليس تفصيلا[33]. وهذا الطابع يفند دعاوي بعض الباحثين التي وصفت هذه الوثائق بكونها لا تقدم شيئا يشبه المحاسبة[34]. من جهة أخرى، نجد أن هاته الحسابات ليست عبارة عن أرقام جافة وإنما تتخللها بعض الجمل والتقييمات والتنبيهات والتوضيحات التي سجلها القابض أو الناظر بجانب الأرقام، مما يزيد من قيمتها التاريخية بالنسبة للباحث في ماضي تطوان الاقتصادي والاجتماعي. والخلاصات التي توصلنا إليها من خلال تحليل شامل لمعطيات الكناش، قمينة بتوضيح تلك القيمة.

1) المداخيل: طبيعتها وتطورها

تشكلت مداخيل الزاوية القادرية بتطوان من واجبات كراء أصول محبسة عليها. وهذه ذات طبيعة مختلفة من جهة (دور ، محلات تجارية ، أراضي ...) ومن جهة أخرى نجدها إما أصولا خالصة للزاوية وإما أصولا مشتركة ، وفي الحالة الأخيرة نلاحظ أن هناك تباينا كبيرا فيما يخص أسهم وحظوظ الزاوية في الأملاك المشتركة (نصف ثلث ، ربع ، ثلثان ، ثلثان ونصف ، سبع الثلث...)[35]. ولإعطاء مثال على ذلك نقدم حساب مداخيل الزاوية ما بين شهر ربيع النبوي عام 1323 وصفر عام 1324 (1905 - 1906) كما هو مثبت في الكناش (ص. 11 - 12).

« الحمد لله تقييد ما دخل من مستفاد أحباس الزاوية القادرية عن مدة سنة كاملة مبدؤها شهر ربيع النبوي عام 1323 آخرها شهر صفر عام 1324 على يد الناظر الأرضى السيد عبد الكريم بن احمد اللبادي بواسطة نائبه على القبض والصائر السيد محمد البولوا.

أوله دار بيد سيدي احمد البغدادي قرب الزاوية عن شهور 6 س 12 بليون وفرغت في 2 يجب بليون

33-«أربعة أشهر لم يرسم حسابها في هذا الكناش » انظر الملحق.

34- Michaux Bellaire, Op., Cit., PP. 23

35- الاشتراك مع الخواص و لكن كذلك مع المؤسسات الدينية. مثال ذلك نصف حانوت في الشركة مع مسجد العيون.(كناش، ص . 1).

120 ....

ثم الروا بيد ولده كذلك عام شهور 12 س 4 48

الثلثان بدار كذلك بيد سيدي محمد بن الهادي القادري عن 8 س 2 و الباقي فارغ 016

دار بزنقة الحنك بيد ابن سلام عن شهور 12 س 16 192

الثلثان من دار هناك بيد عظمون عن أشهر 4 س 16 و عن 8 س 20 224

حانوت بيد ولد مبروك قرب الزاوية عن شهور 12 س 8 096

أخرى بجنبها بيد ذمي عن شهور 12 س 7................................... 084

أخرى بالمصلى بيد احميدة عن شهور 3 س 14 و عن 8 س 16 و شهر أخذه الشريف 170

خزين هناك بيد بن سعيد عن شهور 4 س 32 و عن شهور 8 س 36 416

خمس خزين غرسية هناك عن شهور 10 س 10 وعن شهور 2 س 18 136

ربع فندق سوق الزرع بيد أجزول عن شهور 4 س 30 و عن شهور 8 س 35.............. 400

حانوت بالفدان بيد الرويفي عن شهور 4 س 32 و عن شهور 8 س 36 416

ثلث دار بالعيون بيد العاقل عن شهور 12 س 7 090

ربع أخرى هناك بيد الهبطي عن شهور 12 س 5 المجموع 060

حانوت هناك بالعيون عن شهور 4 س 10 و عن شهور 6 س 16 و شهران عند عسكري مغلقة...136

الثلثان من دار بيد القنيشي بزنقة القايد احمد عن شهور 4 س 8و عن شهور 8 س 10 112

الثلثان من دار بزنقة الشريط بيد اولاد بوسجادة عن شهور 12 س10.................. 120

حانوت بالحوادر عن شهور 12 س 4.. 048

ربع أخرى هناك بيد أفلات عن 4 س 2 و عن 8 س 2 028

نصف حانوت هناك بيد مزواق عن شهور 4 س 6 و عن شهور 8 س 9 96

المجمـــــوع

اجتمع أسفل القائمة يومنته.. 3068

ربع حانوت بيد السقا عن شهور 4 س 5 و عن شهور 8 س 7 يجب 0076

أجزاء من دار بيد علي الريفي بدرب الخديمي عن شهور 10 س 24 0288

ربع دار بيد الهنداس بالبلد عن شهور 4 س 8 و عن شهور 8 س10 0112

نصف حانوت بالمطامر عن شهور 4 س 4 و عن شهور 8 س 5 0056

نصف دار بالمصدع عن شهور 12 س 14 بيد حجاج 0168

نصف بل ثلث أخرى بالسباط الدايز بيد وصيف عن 4 س 6 وعن 8 س.................. 0088

نصف دار بزنقة بنفجنة عن شهور 12 س 14 0168

اء في خزين بالمصلى بيد ابن طليلة وابن دناك عن شهور 12 س 8

ى ابن طليلة النصف وبقي النصف مع مدة قبل هذا عند ابن دناك لم يؤد ذلك و قدر النصف..

0048

اجتمع بليون.. 4072

و تحصل من مستفاد الفدادين ثمن ذرة وغيرها بليون 0124

ثم جزاء دار سيدي احمد البغدادي س فلوس 3 وحانوت اهرون

فلوس 3 وغرسة كرميش عن أعوام 3 س فلوس 6 في السنة

والجزء في حانوت بالحدادين س فلوس 1 وجب في الجميع بليون 0014.5

وقبض من خمس الخزين غرسية عن مدة سالفة لم تعمر بليون 0345

وجزاء غرسة قمرين بسيدي ادريس 0035

اجتمع بليون هذا 4590.5

تحط منه أجرة القابض بليون 0459

يبقى لجانب الحبوس بليون 4131.5

الباقي مما تحصل من مستفاد الأملاك المذكورة بعد إسقاط أجرة القبض اربعة آلاف بليون ومائة واحدة وأحد وثلاثون بليونا ونصف قيده عبده [إمضاء].

انطلاقا من هذا النموذج لمداخيل الزاوية يمكننا معرفة طبيعة الوحدات الحبسية المخصصة لفائدتها. ولقد قمنا بإحصاء هذه الوحدات على طول فترة ربع قرن واستخلصنا الجدول التالي :

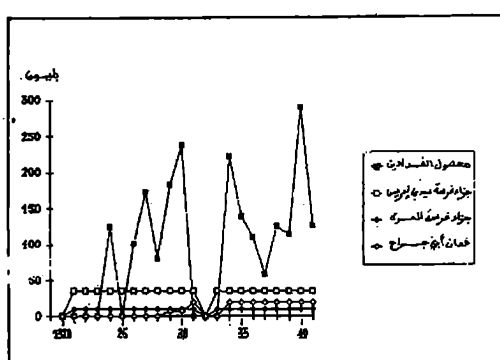
الجـــــــدول

السنوات / طبيعة المنفعة		1320		1330		1340	1346	
دور	خالصة	4	15	5	14	3	16	2 12
	مشتركة	11		9		13		10
محلات	خالصة	9	17	12	20	13	21	2 12
تجارية	مشتركة	8		8		8		10
اراضي فلاحية			4	4		4		4
مختلفات			2	1		3		3
المجموع			38	39		44		44

تطور الوحدات الحبسية بالزاوية القادرية بتطوان ما بين 1320
و1346 هـ (1902 - 1927م)
المصدر كناش حسابات الزاوية القادرية.(مخطوط خاص)

يتبين من هذا الجدول أن الأملاك المحبسة على الزاوية ، والمكونة أساسا من الدور والمحلات التجارية (21 ، 84 ٪ سنة 1320 - 09 ، 84 ٪ سنة 1346) لم تعرف تطورا كبيرا طيلة ربع قرن من الزمن ، فهناك ثبات فيما يخص الأراضي الفلاحية (10 ٪ تقريبا) التي كانت تتشكل من ست وحدات نعرف إسم أو موقع خمسة منها وهي : فدان بـ " الصوير" وآخر بـ"الملاليين "وثالث بـ" أبي جراح"، وغرستان : إحداهما بـ " سيدي إدريس" والأخرى كانت بيد ابن الأبار وانتقلت لورثته.[36] أما الوحدة السادسة فكانت تتشكل من "محصول الفدادين". وهاته الفدادين غير محددة لا من ناحية الموقع ولا من ناحية العدد ولكن نعرف قيمة محاصلها السنوية.

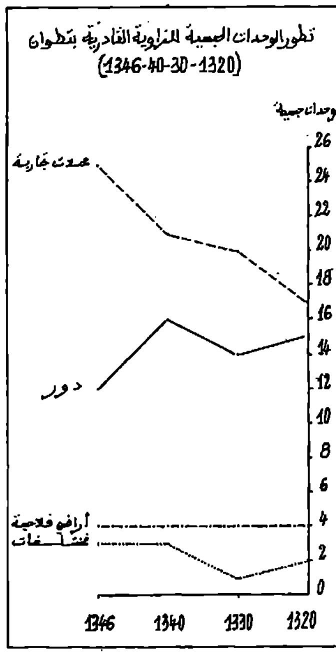
وبينما لم يعرف مقدار جزاء الوحدات الفلاحية الخمسة زيادة تذكر[37]، فإن " محصول الفدادين " قد عرف تباينا كبيرا من سنة لأخرى كما يتضح من هذا الجدول المتعلق بتطور ثمن " محصول الفدادين " وجزاء الأراضي الفلاحية.



36 - يفرق التطوانيون بين " الغرسة " و "الفدان" و "الجنان" : يقول الفقيه الرهوني في عمدته : " و العادة أن ما كان غير مزرب من الأراضي يسمى باسم فدان ، وما كان مزربا بزرب من قصب فان كان سقويا سمي غرسة (بكسر الغين) وما كان بعليا يسمى جنانا". أحمد بن محمد الرهوني التطواني " عمدة الراوين في تاريخ تطاوين ".مخطوط المكتبة العامة بتطوان ج 1، ص. 157. ج 3. ص. 170.

37 -لم يكن يعيد تقييم قيمة الجزاء إلابعد مرور20 سنة كما ـ ـف من بعض معطيات الكناش،ص. 27 - 35.

وفي الوقت الذي عرفت فيه الوحدات السكنية المحبسة تقهقرا في عددها[38] نجد أن هناك زيادة مطردة فيما يخص الوحدات المخصصة للنشاط التجاري (أو الحرفي)[39] كما هو مبين في هذه الرسوم.



إن الزيادة التي سجلتها الوحدات الحبسية ذات الطابع التجاري أو الحرفي لم تكن مرتبطة بتحبيسات جديدة لفائدة الزاوية ، وإنما مرتبطة بزيادة ذاتية في عدد الوحدات. أي أن التطور الكمي في الأصول التجارية المحبسة على الزاوية كانت تأتي

38 - 48 ، 39 ٪ سنة 1320 ، 90 ، 35 ٪ سنة 1330 ، 36 ، 36 ٪ سنة 1340 و 27 ،27 ٪ فقط سنة 1346.

39 - 74 ، 44 ٪ (1320) 28 ، 51 ٪ (1330) 73 ، 47 ٪(1340). 82 ، 56 (1346).لم ندرج فدان الصوير و لا فدان الملاليين في الرسم البياني لأن الكناش لا يسجل سوى جزاء سنة واحدة (1326هـ) بالنسبة لأول (50 بليون) وثلاث سنوات بالنسبة للثاني (1324 - 1326) ، (20 بليونا سنويا).

* في سنة (1331 هـ) نجد ان " غرسة ابن الأبار اضمحلت زينتها " كناش ،ص.44.

أما بالنسبة لسنة 1332 هـ (1913) فإن القابض سجل ما يلي :

« جزاء جنان الصفار وغريسة ابن الأبار والارحي كل ذلك عاطل لا يستفيد » كناش، ص. 50.ومن الصعب عدم ربط ذلك بالتطورات السياسية و الحربية وعلى رأسها دخول الجيوش الإسبانية للمدينة والاضطرابات المرافقة لذلك الحدث.

عن طريق استخراج المحلات من بعضها البعض أو من الدور ، بل حتى من الميضات [40]، مثال ذلك استخراج حانوتين عن طريق إصلاح دار مشتركة بـ "المصدع" سنة 1325 هـ / 1907 " زيادة في منفعة الحبس" [41] وإخراج حانوت من أخرى [42] ، و" اصلاح حانوت بـ " النيارين " وجعلها حانوتين "[43] أو إخراج حانوت من دار "[44] الخ.

وبالإضافة إلى هذه الوحدات التي يشكل واجب كرائها أساس مدخولات الزاوية القادرية ، نجد موردين آخرين وردت الإشارة اليهما بصفة عرضية رغم أهميتهما وهما " التبرع على الزاوية [45] ومداخيل " جزاء الماء من الزاوية".[46]

ولقد تركزت أغلب الوحدات الحبسية (السكنية والتجارية - الحرفية) داخل أسوار المدينة القديمة كما يتوضح من هذا الجدول :

	الدور	المحلات		الدور	المحلات
الفدان	0	1	الترانكات	2	0
طريق المصلى القديمة	1	3	حومة البلد	1	0
فندق سوق الزرع	0	1	سباط الجائز	1	0
النيارين	0	1	المصدع	1	0
الحدادين	0	2	زنقة بن فحنة	1	0
السوق الفوقي	0	2			
العيون	3	1			
زنقة القايد احمد	1	1			
المطامير	21	0			
حداء القناة الصغير	1	0			
حومة الزاوية	2	5			

40 -الكناش، ص. 104.

41 - الكناش، ص. 21.

42 -الكناش، ص. 37 - 65.

43 - نفسه ، ص. 31.

44 -نفسه ، ص. 38 - 106 (و قد يحدث العكس في بعض الاحيان كما هو الشأن بالنسبة لحانوت بالمصلى القديمة لم يتم استيفاء كرائها سنة 1330 هـ لأنها " تهدمت ")،كناش ، ص. 41.

45 -ورد ذكر هذا النوع من المداخيل مرة واحدة في الكناش (ص: 87) عندما سجل تبرع على الزاوية بـ 40بسيطة سنة 1340/1921.

46 -ورد ذكر " الماء المجزي من الزاوية " مرة واحدة عندما سجل دفع أرباب الماء المجزي من الزاوية 50ريالا عام 1335 / 1916 (كناش، ص. 71) مع العلم ان الماء كان يلعب دورا كبيرا في نشاط الزاو وخاصة عندما يتعلق الأمر بحساب المصروفات المخصصة لإصلاح قنوات تصريفه ، ونشير إلى أن الكيفصح عن ماء كانت تملكه الزاوية " حداء قناة باب التوت " (كناش، ص. 4)

أمـاكن تواجـد الوحـدات الحبـسـيـة للزاوية القـادرية وعـددها سنة 1320 هـ (1902م). (المصدر:كناش حسابات الزاوية القادرية بتطوان مخطوط خاص).

2) -المصاريف:طبيعتهاوتطورها

تشكل مـصاريف الزاوية الشق الثـاني في كناش مـحاسبـتـهـا. ونلاحظ أن لائحة المصاريف أو " الصوائر " كانت تثبت مباشرة بعد لائحة المداخيل. وإذا كانت هاته الأخيـرة قـارة في كـثيـر من الأحيـان فـان المصاريف لم يكن لهـا ضـابط ولم يكن يحكمها منطق معين. ونقدم كمثال لذلك قائمة صوائر الزاوية للفترة المحصورة ما بين شهر ربيع النبوي عام 1323 وشهر صفر عام 1324 (1905 - 1906) كما هو مثبت في الكناش (ص. 13 - 14).

«الحمد لله تقييد الصائر الخارج على الزاوية المذكورة حوله عن السنة حيث أشير.

ففي شهر ربيع النبوي عام 23 بالبليون زيت ثمنية 20.5 ونصف وللموسم 40.5

ربيعة قطن1 المؤذن30 المقدمة 4 الإمام 30 الحزابة 20/4 اجتمع بليون 140

ربيع الثاني زيت 22.5 والإمام 30 والمؤذن 30 والحزابة 20 والمقدمة 4 يجب...........106.5

جمادى الاولى زيت 26.5 والموظفون 84 كالشهر قبله يجب.........................110.5

وجمادى الثانية زيت 27.75 والموظفون 84.................................... 111.75

ورجب زيت 30 والموظفون 89 بزيادة حزاب 1 وصائر على الوادي 3 ومصالح 6 128

وشعبان زيت 30 والموظفون 89 وإصلاح قادوس في خزين ابن سعيد7 126

ورمضـان زيت 32 وآخر لليلة القدر 37.5 و قطن 1 والموظفـون 89 والمشـفع 30 وشـمعـة 4..
194.5

وشوال زيت 37.5 والموظفون 89 يجب 126.5

والقعدة مثله 126.5

والحجة زيت 36والموظفون 84 بإسقاط حزاب 1 125

وصفر زيت 36 والموظفون 89 والحصر 352 وتجبير الزاوية 94 وسطل 6 وعلى ماء دار
ابن سلام 30 607

اجتمع 2027.75

ثم إصلاح الدار المقابلة للزاوية في اعتـمار سيـدي محـمد بن الهادي القادري فيـهـا لجانب الحبس الثلثان ونصف سبع الثلث والباقي للغير وهو ثلث عدى نصف سبع أوله جيرة وورقة لسق بيت ونباح عدة 43 س 14بليون 602

وفرد بوسطاشر مع إزار للنباح 50 وثمن بورصلانة 32
وتحميل الردمة 23 105

و آجور ومزهري وجير وأجور العملة وذلك كله على يد سيدي محمد القادري المذكور وباعترافه وجب فيما سيره بعد إسقاط ما تحصل في الخشبُ البالية بليون 347

اجتمع في الصائر كله بليون 1054

يحط منه ما وجب للغير في الثلث غير نصف السبع وقدره بليون.................. 326

يبقى للحبس 728

ودفع للشريف سيدي الحاج عبد القادر القادري الرباطي إعانة........................0060

اجتمع 2815

اجتمع في الصائر أسف الورقة يمنته بليون 2815

ثم صائر إصلاح ماء الزاوية آجور 350/8500 جير 12/114تراب مطر 3/ 48........512

ققف 3/3 قلة وطنجية 3 اشتبة 11 زيت قلة الاربع 150 167

المعلم القوادسي عن أيام 12/240 س 20 خدمة 185/ 35 425

بياضة للزاوية 48/ 12 و مصالح 2 و إصلاح ماء دار ابن سلام 12 062

أجرة الواقف على إصلاح الماء عن أيام 12 س 5 60

ثم إصلاح الميضة وترصيف المواضع الذي أصلح فيها الماء 0.90

اجتمع 4131

الحمد لله اجتمع في الصائر كله أربعة آلاف ومائة واحد وثلاثون بليونا كما رقم أعلاه يليه و قيده عبده [إمضاء] ».

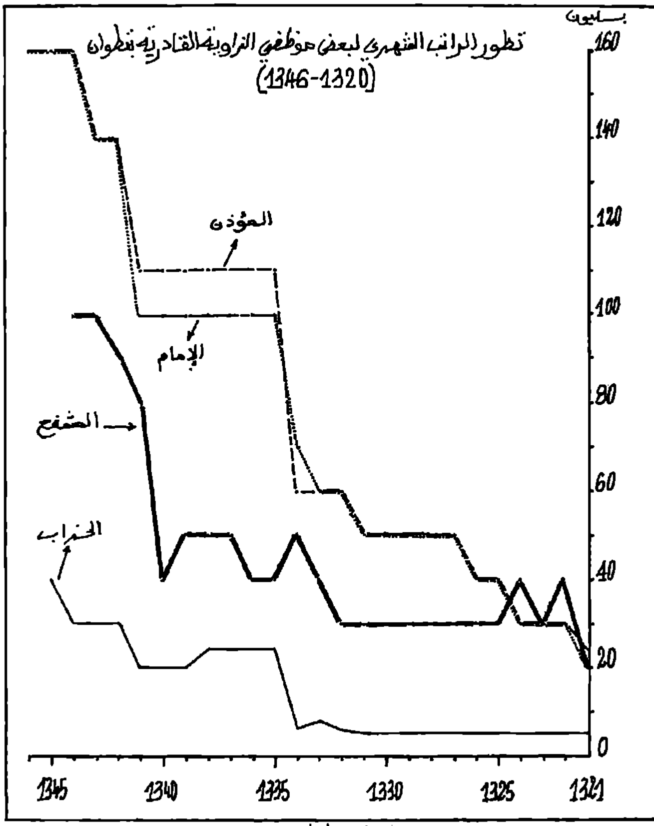
لذلك يمكننا تقسيم مصاريف الزاوية القادرية إلى ثلاثة فروع رئيسية هي:

1) رواتب موظفي الزاوية ، 2) مصاريف الزيت ،3) صوائر الإصلاح والتجهيز.

فيما يخص موظفي الزاوية ، يتبين من الكناش انهم كانوا يتشكلون من الإمام والمؤذن والمقدمة والحزابة (الذين يتباين عددهم بين شهر وآخر) والعدل والموعظ.[47] ويطلق على هذا النوع من المصاريف اسم " الرواتب " أو " الوظائف " أو " الموظفون". ومن خلال جرد شامل لمعطيات الكناش نقدم رسما بيانيا يوضح لنا تطور رواتب بعض موظفي الزاوية :

47 - سوف يصبح العدل من بين " موظفي " الزاوية منذ سنة 1328 / 1910 براتب 20 بليونا (ريالا واحدا) في الشهر ، أما الموعظ فسينضاف للائحة الموظفين ابتداء من سنة 1339 / 1920 براتب شهري قدره 40 بليونا (ريالان).

* - أدرجنا المشفع في الرسم البياني و لو أنه ليس من موظفي الزاوية للمقارنة فقط.



مصدر: كناش حسابات الزاوية القادرية (مخطوط خاص)

أما الفرع الثاني من صوائر الزاوية فكان يتشكل من مصاريف شراء الزيت بحيث خصصت له مكانة خاصة ضمن لائحة الصوائر. وذلك راجع لأهمية هذه المادة بالنسبة لمؤسسة دينية اجتماعية كالزاوية. ولقد كان استهلاك الزيت يعرف ارتفاعا كبيرا في شهرين من السنة هما ربيع الأول (المولد النبوي) وشهر رمضان (ليلة القدر)[48]. ويفيد الكناش في تحديد سنة انقطاع شراء الزيت للزاوية ويؤرخ ذلك بسنة 1336 / 1917 ، وهي السنة التي تم فيها تزويد الزاوية بالتيار الكهربائي.[49]

أما النوع الثالث من المصاريف فهو الذي يطلق عليه في بعض الأحيان إسم

48 - في شهر رمضان كان ينضاف إلى مصاريف الزاوية راتب المشفع (20 بليونا سنة 1321 - 40 بليونا سنة 1333، 80 بليونا سنة 1341).

49 - كناش ، ص.79.

"الإصلاحات " أو " الحوادث" وهو متعلق بصوائر مرتبطة بإصلاحات الزاوية (تجبير، شراء الحصور، الثريات ... الخ) أو مرتبطة باصلاحات الاملاك المشتركة مع الخواص (إصلاح الدور، الحوانيت الماء ...إالخ)[50]. كما تضاف لها مصاريف نسميها "زائفة" كتلك التي كانت تصرف على اصحاب الزاوية او ممثليهم.

ولا يبدو أن المدخول الصافي للزاوية القادرية قد عرف زيادة كبيرة ، لأن المسح الشامل لمداخيل ومصاريف الزاوية لفترة ربع قرن متتابعة يوضح أن هناك تساويا نسبيا في مداخيل ومصاريف الزاوية. بل إن وثيقة المحاسبة لستة وثلاثين شهرا (ثلاث سنوات 1905-1908) توضح أن الفائض الصافي لم يتعد 1917 ريالا، اعترف نائب النقيب بحيازته على التمام من الناظر " ليستعين به على لوازم السفر".[51]

من جهة أخرى نجد أن تواجد أحد أحفاد صاحب الزاوية بمدينة تطوان أو اقامته بالزاوية كان يتطلب مصاريف كبيرة تتحملها ميزانية هذه الأخيرة. إذ كان المزوار أو من ينوب عنه يأخذ ما يشاء من مالية الزاوية وينضاف ذلك إلى قائمة المصاريف بجانب الزيت والإصلاح والشموع ... ولنضرب بعض الأمثلة الدالة على ذلك

" التبذير " لمالية الزاوية : في سنة 1326 (1908م) كانت تصرف لأحد أولاد شيخ الزاوية " مونة تقدر بـ 565 بليونا وذلك عند " وروده لتفقد زاويته " و"يصرف على بهائمه 290 بليونا " و" يؤدي له زائد سفره على العادة 800 " أي أن ما صير عليه - وهو 1655 بليونا - كان يفوق نصف مصاريف الزاوية القادرية كلها خلال نفس السنة وهي (3239 بليونا)[52]. وفي سنة 1916/1335 م نجد مؤشرا آخر على هذا "التبذير". فلقد كانت كمية الزيت المشترى بمناسبة " عرس الشريف" (160 بليونا) تفوق ما صرف لشراء الزيت للزاوية خلال شهر رمضان (144 بليونا) ، وهو الشهر الذي كانت ترتفع فيه مقادير الزيوت المستهلكة في الزاوية كما يدل على

---

50 - من خلال الأرقام المتعلقة بهذه الإصلاحات ، تتوفر لدينا الكثير من المعطيات حول تطور أسعار مواد البناء واجور العمال وأدوات التجهيز المنزلي ... الخ ، مما يشكل بحق مادة ثمينة للباحث في التاريخ الاقتصادي و الاجتماعي للمدينة. بل إن " بيان صائر اصلاح الزاوية القادرية " على يد ناظرها عبد الكريم اللبادي بين أواخر سنة 1340هـ وأوائل سنة 1341تشكل وثيقة من الطراز الأول فيما يخص التعرف على جزئيات الحياة الاقتصادية بالمدينة من خلال تزويدنا بتفاصيل المصاريف المخصصة لاصلاح الزاوية. كما أن تحليل فترة الانتقال للتعامل بالعملة الأجنبية وانتشار ذلك التعامل كما يتضح من الكناش ، لمن شأنه أن يؤدي إلى نتائج هامة حول علاقة " السكة الحسنية " بالسكة " الفرنصية " وتأثير ذلك على النظام النقدي المخزني وعلى المجتمع ككل.

51 - كناش، ص. 23.

52 - كناش، ص. 27.

ذلك كناش حساباتها[53] وفي سنة 1917/1336م كان ينفذ للشريف البغدادي 435 بليون يوميا ولمدة أربعة أشهر[54] وكان للنساء الشريفات حقهن أيضا من مداخيل الزاوية كالشريفة القادرية التي كانت أجرتها يوميا 8 بلايين سنة 1918/132 م.

لذلك يمكن القول - انطلاقا من هاته الإشارات وغيرها كثير ، إن علاقة الزاوية القادرية بتطوان بالمركزكانت علاقة تبعية تامة. وهو الأمر الذي سيحكم على الزاوية بالكفاف وعلى ميزانيتها بالضعف المزمن نظرا لكثرة المصاريف " الزائفة" أو الاستحواذ على " ريعها " من طرف مكناس / المركز ، ولم يكن ذلك الفائض يوظف البتة في تحريك الدواليب الإقتصادية للزاوية وبالتالي المساهمة في اقتصاد المدينة وديناميتها الإقتصادية.

وخلاصة القول إن الكناش الذي اعتمدناه في هذه الدراسة ، يعتبر إلى جانب الحوالات الحبسية من بين المصادر الثمينة للتاريخ لمدينة تطوان قبل الحماية ، ومما يزيد من أهمية هذا النوع من المصادر كونها متعلقة بالجوانب المهملة من تاريخ المدينة (أثمنة الكراء ، الأسعار وتطورها ، المستوى المعيشي ، الأجور ... إلخ) مما يجعلها قابلة للاستغلال من طرف المؤرخ وغيره من المتخصصين[55]. وهذه الجوانب هي التي أصبحت تثير انتباه الباحثين وأصبحت تحظى بالدراسات الجادة العميقة والمجددة على المستوى المنهجي. فكناش حسابات الزاوية القادرية يقدم لنا معطيات إحصائية متجانسة مع بعضها البعض ومتكررة على مدة طويلة وقابلة للمقارنة على فترات معينة وثابتة. وهذه الخاصيات تجعل تلك المعطيات قابلة للمقاربة الكمية ولتطبيق تقنيات المنهج الكمي عليها ، من جهة اخرى نجد ان هاته المعطيات المتوفرة في الكناش تلقي الضوء على بعض الاحداث "السياسية" من خلال التعرض لمخلفاتها الاقتصادية و إن بطريقة غير مباشرة. كما توضح لنا تطور بنية من بنيات المدينة الاقتصادية (الأحباس) المصاحبة لمجتمعها وذلك بغض النظر عن " التقطعات " أو " الانفصالات الناجمة عن الأحداث السياسية التي عاشتها المدينة.

- إن الاعتناء بجمع وفهرسة الحوالات الحبسية وكنانيش المحاسبة ووضعها رهن إشارة الباحثين لمن شأنه أن يلقي الأضواء على تاريخ مؤسسة الأحباس بتطوان

---

53 - كناش، ص. 69.

54 - كناش، ص. 62 - 68.

55 - على سبيل المثال نشير إلى أهمية الكناش بالنسبة للمهتمين بتطور لهجة سكان تطوان فترد به كلمات دارجة أو " نصف دارجة " مثل : طنجية،اشتبة، بياطة، برصلاتة ، النباح، الضربوز، لزبة، شريط، طبلة ، لوبة لباب القشينة، لوسة، بنبيّات، بيزكرات، سبّاط، الدائز .. إلخ.

ويساعد على رسم خارطة للمجال الحبسي وتأثيره في باقي المجالات الأخرى[56] ، فضلا عن مساهمتها في توضيح بعض معالم التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والديني والعمراني للمدينة.

إن ضرورة المحافظة على هذا النوع من المصادر والعمل على إنقاذه من الضياع لا تأتي من كونه يشكل مادة مصدرية فريدة من نوعها بالنسبة لتاريخ المدينة فحسب، وإنما لأنه جزء من ذاكرتها كذلك .

الملحق : 1

الحمد لله لما قدم الشريف المنيف مولاي ادريس نائبا عن والده نقيب الشرفاء القادريين ومقدم زواياهم من نيل الجانب العالي بالله وهو سيدي محمد بن سيدي عبد الله القادري الشريف الحسني المكناسي و ذاكرا بأنه كان بثغر طنجة كلاه الله مع الناظر على هذه الزاوية القادرية بهذا الثغر التطواني حاطه الله وهو الاجل السيد عبد الكريم بن أحمد اللبادي هناك وطلبه في أعمال الحساب فيما تصرف فيه من حبس الزاوية المذكورة داخلا وخارجا لمدة ستة وعشرين شهرا مبدأها شهر رمضان المعظم من عام 1320 واخرها شوال من عام 1322. فاسعده لذلك وتحاسب معه هناك بذكر النائب المذكور فقوبل الداخل مع الخارج في المدة المذكورة كلها فبقي مدركا على الناظرالمذكور ستة وثلاثون ريالا وبليونان مع ما يقبضه مما بقي بذمة السيد محمد الحريقي. وهذا كله بقي بعد أن دفع نائب الناظر المذكور وهو الفقيه الأجل سيدي محمد بن محمد ابن الآبار بيد مولاي ادريس المذكور بأمر من الناظر المذكور ما قدره أربعون ريالا معاينة الواجبة له مونة مدة إقامة بهذا الثغر المذكور نائبا. وأبرأ من من يجب براءته من ذلك وبعد هذا كله أشهد نائب النقيب المذكور وهو مولاي ادريس المذكور أنه سلم حساب المدة المذكورة كلها تسليما تاما وابرأ الناظر المذكور في المدة المذكورة كلها ما عدا ما ذكر مدركا على الناظر بالإبراء التام الشامل المطلق العام الذي تعقب بعده ولا قيام عرفا قدره. شهد به عليهما باتمه وعرفهما في ثامن رجب عام ثلاثة وعشرين وثلاثمائة وألف عبد ربه ومنه أن الأربعة الأشهر الموالية لتمام وأواخر الحساب التي أولها العقدة وآخرها صفر من عام 1323 لم يتصرف فيها الناظر المذكور وابتداء تصرفه هو ربيع الأول من عام تاريخه.

[في أسفل الورقة نجد بيانات أخرى على هامش العقد وهي :]

وفي التاريخ المذكور زعلاه دفع ابن الآبارنيابتعنالناظرالمذكورأعلاه أربعةريالبيدلعدلأجرةالحساب".

56- هذا الموضوع يثير اهتمام بعض الباحثين في الجغرافية الحضرية لمدينة تطوان. انظر مثلا : محمد العبدلاوي:" مدينة تطوان و تطورها الحديث : دراسة في الجغرافية الحضرية"، دكتوراه السلك الثالث (جامعة تور 1986) نسخة مرقونة بمكتبة كلية الآداب بتطوان .ولنفس الباحث مقال " الـدورالسوسيو - اقتصادي للأحباس بالمدن المغربية : " مثال مدينة تطوان العتيقة" ،مجلة كلية الآداب بتطوان. العدد 4 سنة 1991، ص. 159 - 178.

" ولما طالت مدة إقامة النائب المذكور هنا أذن الناظر في زيادة خمسة وعشرين ريالا لمؤنته فدفعت له مما قبض من الحرايقي كما أن الأربعين قبلها كذلك وكذا الأربعة التي قبض الشاهد اجتمع في 6 " أربعة أشهر لم يرسم حسابها في هذا الكناش لكون المتصرف في الزاوية لم يكن هو النقيب المذكور أعلاه بل كان سيدي محمد بن الهادي القادري بأمر شريف تم آخر في أواخر صفر عام 23. "

(صفحة 10 من كناش حسابات الزاوية القادرية بتطوان (مخطوط خاص).

الملحق : 2

الحمد لله وحده. ورد نائب النقيب وخليفته وهو الشريف الأجل الطالب المبجل سيدي ادريس ابن النقيب الأكرم البركة المعظم سيدي محمد بن عبد الله القادري المكناسي لمحاسبة ناظر زاوية جدهم القطب الأكبر والغوث الأشهر مولانا عبد القادر الجيلاني نفعنا الله ببركاته بثغر تطوان أبقاه الله وأهله في أمان وهو التاجر الأرضي الوجيه المرتضي السيد عبد الكريم بن أحمد اللبادي فيما دخل على يده من مستفاد أحباس الزاوية المذكورة وما كان باقيا بذمة الحرايقي الناظر قبله مع ما فضل من محاسبة تقدمت وفيما خرج صائرا عليها من الرواتب والحوادث ، وكانت المدة التي لم يقع فيها حساب ستة وثلاثين شهرا مبدؤها فاتح ربيع النبوي عام ثلاثة وعشرين آخرها متم صفر عام تاريخه وهو ستة وعشرون. حضر شاهده أمنه الله و حضر الناظر المذكور بكناشه هذا المشتمل على الداخل والصائر تفصيلا في المدة المذكورة. واعمل الحساب بمحضر النائب المذكور فكان جملة الداخل في المدة المذكورة اثني عشر ألف بليون وستمائة و سبعة وتسعين بليونا ونصفا هكذا 512697.

وقبض من الحرايقي المذكور خمسة وثمانين ريالا اعترف النائب المذكور أنه كان أخذ منها عند وروده للمحاسبة قبل هذا خمسة و عشرين ريالا و دفع لشاهد المحاسبة أربعة ريال يبقى ألف ومائة وعشرون بليونا هكذا 01120 مع ما بقي بذمة الناظر من المحاسبة قبل هذا وقدره سبعمائة وعشرون بليونا هكذا 00722 يجتمع في الداخل كله أربعة عشر ألفا وخمسمائة وتسعة وثلاثون بليونا ونصف هكذا 14539.5

وكان جملة الصائر في المدة المذكورة ما قدره اثني عشر ألفا وثمانمائة وخمسة وعشرون بليونا ونصف هكذا5. 12825 .

فإذا سقط الصائر من الداخل بقي على الناظر لجانب الزاوية ألف وسبعمائة وأربعة عشر بليونا هكذا 01714 اعترف نائب النقيب المذكور بحيازته على التمام من الناظر المذكور ليستعين بها على لوازم السفر بعد أن أشهد أنه سلم الحساب المذكور بالتسليم التام وأبرأ الناظر المذكور بالابراء العام الذي لا تعقب بعده ولا قيام. عرفا قدره شهد به عليهما باتمه وعرفهما وفي سادس عشر رمضان المعظم عام ستة وعشرين وثلاثمائة وألف.

(ص 23 من نفس الكناش)

وضعية طريق " طنجة - تطوان " في نهاية القرن XIX و بداية القرن XX

الأستاذ عبد العزيز بوليفة
كلية الآداب - تطوان.

تهدف هذه المداخلة إلى الإحاطة ببعض أوجه حركات المسافرين والتجار ما بين مدينتي طنجة وتطوان في نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي، عبر الطريق البرية التي كانت تقطع عدة قبائل، مرورا بقنطرة بوصفيحة وفندق عين الجديدة وجبل الزنات.

كانت هذه الطريق عبارة عن مسلك عمومي يدعى " طريق المخزن "، أوكلت حمايتها إلى قبائل بني يدر وودراس وأنجرة، حسب ما تقتضيه الأعراف والتقاليد القبلية. وتكمن أهميتها في أنها كانت تربط بين مجموعة من القبائل والمدن وبالأخص، بين قطبين مهمين بشمال المغرب : طنجة وتطوان [1]. فهذه الأخيرة كانت بمثابة مركز يصل قبائل الريف ببقية أنحاء البلاد و بالخارج، ومرفأ أماميا لتجارة فاس، و إحدى نقط المحور التجاري التقليدي الذي كان يربط المغرب بأوربا. وهكذا فإن تطوان كانت تشكل مركزا مهما للمبادلات التجارية البرية والبحرية والتي كانت ترتكز بالخصوص على منتوجات حرفية محلية ومواد تجلب من القبائل المجاورة أو البعيدة نسبيا كجبالة والريف والغرب ودكالة. . . بالإضافة إلى مواد يجلبها التجار من بلدان أوربية أو إفريقية كالجزائر [2].

أما طنجة فقد كانت في هذه الفترة تتميز أساسا بكونها العاصمة الدبلوماسية للمغرب ، و مقر القناصل و ممثلي الدول الأجنبية.

و الظاهر أن هذا المسلك كان يسير حسب الطريق القديم الذي كا يصل "تمودة" بـ " طنجي " [3]، و هو يطابق تقريبا الطريق الرئيسي الحال رقم : 38.فانطلاقا من

---

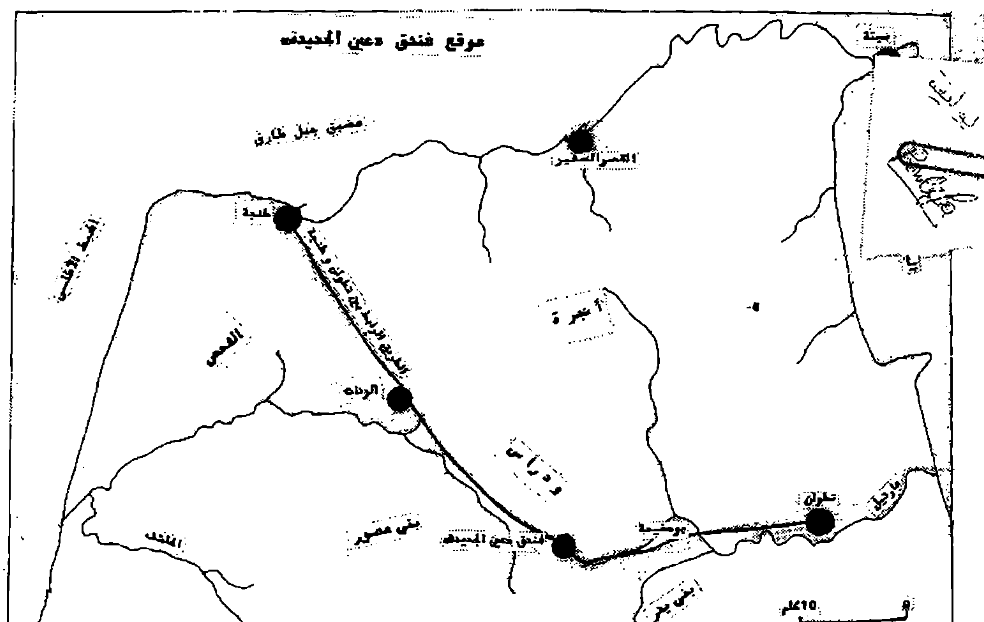
1 - جزء من هذا المسلك كان يصل تطوان بالعرائش و القصر الكبير و فاس ... عبر أربعاء بداوة (أربعاء عياشة حاليا).

2 - السعود عبد العزيز : تطوان في أواخر القرن التاسع عشر ... 1992 ، ص. 62. وايضا:
J.L. Miège, **Les activités maritimes et commerciales de Tétouan**,1992.

3 - M.Tarradell , "El Benian , Castellum entre Tetuán y Tanger" **Tamuda**, 1953, p. 304.

تطوان كانت القوافل التجارية تتبع وادي مارتيل ، فوادي الخميس الذي تقطعه عند قنطرة بوصفيحة و هي القنطرة الوحيد ة على طول هذاالمسلك ، وقد كانت في وضعية حسنة.[4] ومما لا جدال فيه أن القناطر في هذه الفترة كانت قليلة بالمغرب، إذ عادة ما كانت توجد مجازات فقط لعبور الأنهار والجداول. وبعد اجتياز وادي الخميس، كانت القوافل تتبع مجرى وادي أجراس، حيث تختفي المناطق المنبسطة في عاليته، لتصبح الطريق عبارة عن مسلك جبلي غابوي صعب الاختراق، خاصة عند الممر الضيق لفندق عين الجديدة الذي تنفذ منه القوافل نحو الواجهة الأطلسية، مرورا بمحاذاة مجرى وادي الثلاثاء نحو جبل الزنات، ففحص طنجة كما هو مبين في الخريطة المرافقة.

كانت الرحلة بين تطوان وطنجة في الغالب تستغرق حوالي عشر ساعات ، وتكون الطريق في الحالات العادية آمنة نهارا، بينما يعيق المغيرون السفر بها في الليل أحيانا. لذلك كانت القوافل تقضي الليل في القرى التي تصادفها عند نزول الظلام ، أو بفندق «عين الجديدة».



4 - V.C. de Faucoud : **Reconnaissance au Maroc (1883 - 1884)**, Paris, p.30

ففي وسط الجزء الجبلي من هذا المسلك، على بعد 35 كيلومترا من طنجة و25 كيلومترا من تطوان تقريبا، بني فندق لإيواء وخدمة المسافرين والتجار والحمارة ... وهو عبارة عن بناية مكعبة الشكل، مكونة من محلات وبيوتات يتوسطها فناء كبير، وتتوفر على مدخل تعلوه نقوش وكتابات تشير إلى سنة التشييد(1256 هـ، موافق 39 - 1838 م)، وذلك بأمر من السلطان المولى عبد الرحمان، كما جاء عند رويس ريكاردو[5]. وقد أطلق على المؤسسة فندق «عين الجديدة » نسبة إلى العين التي كانت تجاورها.

لقد كانت القوافل المتجهة من طنجة نحو تطوان أو العكس، تقصد هذا الفندق طلبا للراحة والمبيت، لا سيما وأنه كان يوفر للمسافرين ما يحتاجون إليه من ماء وغذاء وعلف للماشية وأمن ....، بحيث لم يكن أحد يجسر على إذاية النازل به، أو التفكير في نهب تجارته أو أمتعته[6] وذلك بفضل تواجد بعض رجال المخزن الذين يسهرون على توفير الأمن به. وهكذا كانت ساحته الوسطى تمتلئ ليلا بالبضائع والذواب من خيل و بغال و حمير وجمال ... بالإضافة إلى رؤوس البقر والغنم والماعز ... أما المسافرون فكانوا يقضون الليل بالجزء الأرضي للفندق أو بالغرف التي تعلو هذا الجزء.[7] وكان يتعين على القوافل التي تقصده طلبا للراحة أو المبيت أن تدفع مقابلا للقائم بأعماله. وبالإضافة إلى الفندق المذكور، فإن الحمارة والمسافرين كانوا أحيانا يقضون الليل في ضيافة أهالي بعض القرى كالطايفي والبرارق والزنات.

لقد أبت القوافل السفر بين طنجة وتطوان أيام الهدوء عبر" طريق المخزن " وفي حالة إحساسها بخطر يهدد أمنها خلال رحلتها، فإنها كانت تتنقل تحت حماية القبائل ، التي كانت كل واحدة منها تتكفل بها إلى أن تغادر حدودها ، ضمن المحور الطرقي السابق. و إذا ما تعرضت لنهب أو اعتداء يجتمع وجهاء القبيلة التي وقع الحادث ضمن ترابها، ويلزمون المعتدي بإرجاع ما اختلس ويحملونه غرامة قد تتعداه لتمس العائلة أو العشيرة برمتها أحيانا. وقد يتفاقم الأمر فتفرض الغرامة على القبيلة بكاملها.

إن مثل هذه الإجراءات الزجرية، كان من شأنها أن تضمن حرية التجارة والتنقل

---

5 - R. Ruiz, "La Kabila de Uadras", 1913, p. 226.

6 - المريني العياشي ، النضال الجبلي ، ج ، الثالث ، 1988، ص. 108

7 - المريني العياشي ، المصدر السابق ، ص. 108، 109. و C.V. de Foucaud, Op. Cit., p. 12 .

بين المدن و القبائل.[8] وبطبيعة الحال فإن حماية هذه القوافل كانت تعتبر من المهام الأساسية الملقاة على عاتق شيوخ القبائل، فبمقتضى الميثاق الذي فرضه وجهاء قبيلة ودراس سنة 1864 م مثلا على شيخ قبيلتهم، أصبح هذا مطالبا بتوفير الأمن بمسلك المخزن الممتد من " عزيب الطايفي" إلى" قنطرة بوصفيحة "، أي على طول ثلاثين كيلومترا تقريبا، وذلك بقطع دابر العناصر المهددة لأمن المسافرين والعابرين[9]، ومنها فرقة من مدشر المخالد بنفس القبيلة، والتي كانت تقوم بعملية النهب والسلب، ما بين مدشر الزميج بأنجرة وفندق «عين الجديدة».

وقد ثبت أنه عندما ينعدم الأمن وتضطرب الأحوال بهذا المسلك، بسبب أعمال النهب والسلب، تتقلص الحركة به، وتصبح غير منتظمة، الشيء الذي كان له تأثير سلبي على مجرى الحياة بالمدن، خاصة عندما تتدهور علاقات المدينة مع باديتها المجاورة. ومن أمثلة الإضطرابات و سوء أحوال الأمن التي عرفها هذا المسلك المخزني ، وكان وقعها سيئا على المدن السالفة الذكر ، نذكر ما قامت به قبيلة بني يدر حوالي سنة 1903م من قطع للطريق على القوافل نتيجة حدوث توتر بينها و بين سكان تطوان، حيث عملت على منع البضائع من الوصول إلى المدينة و سلبت القوافل الذاهبة منها أو إليها، فكان ذلك من أسباب توقف نشاط القوافل التجارية وغيرها وضعف التجارة وقلة رواج المنتوجات وازداد الأمر تأزما خاصة بعد أن انضم إلى صفوف هذه القبيلة بغاية حصار تطوان، كل من قبائل وادراس و بني حزمر وبني مصور بني معدن وقسم من أنجرة.[10] مع العلم أن هذه الإضطرابات ، تدخل عموما ضمن ظاهرة انعدام الأمن التي عرفتها المنطقة الشمالية من المغرب خلال هذه الفترة.

تلك بعض ملامح الوضعية الأمنية لطريق «طنجة ـ تطوان » في نهاية القرن الماضي و بداية القرن الحالي كما نستخلص من خلال بعض الكتابات. وهي تفيدنا في الكشف عن أهمية هذا المسلك كوسيلة للاتصال بين جهات ومدن مغربية عديدة، وكان موضع «فندق عين الجديدة» يحتل به مكانة هامة بسبب موقعه الجغرافي الممتاز، الشيء الذي صار معه هدفا استراتيجيا للحركات الجهادية والمستعمر الإسباني.

---

8 - يتضمن هذا الميثاق 47 فقرة تحدد مهام شيخ القبيلة ، و قد ظل العمل به جاريا اليحدود سنة 1907.

9 - S.Biarmay, "Un cas de régression vers la coutume berbère chez **une tribu** arabisée", **Archives Berbères**, 1915 - 1916, Rabat 1987, p. 330.

10 - عبد العزيز خلوق التمسماني ، "حول علاقات المدينة المغربية بأحوازها في بداية القرن العشرين : مثال حصار جبالة لتطوان 1903 - 1904 " ، ص. 54 و ما بعدها.

المراجـــع

- المريني، العياشـــي،"**النضال الجبلي**"، الجزء الثالث، طنجة، 1988، 158ص.

- السعـود، عبد العزيز **تطوان في أواخر القرن التاسع عشر : جوانب من الحياة الإجتماعية والإقتصادية والثقافية والسياسية على ضوء محاولات التسرب الأوربي**، رسالة دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب شعبة التاريخ ، الرباط ، 1992 - 294 ص.

- خلوق التمسماني، عبد العزيز : «حول علاقات المدينة المغربية بأحوازها في بداية القرن العشرين : مثال حصار جبالة لتطوان 1903 - 1904»،**مجلة دار النيابة** ، العدد 28 - 1991، ص. 53 - 56.

-S. Biarmay. : "Un cas de régression vers la coutume berbère chez, une tribu arabisée", **Archives Berbères** 1915- 1916, 2éme édition Al Kalam, Rabat, 1987, pp.321-331.

V.C.de Faucauld, Reconnaissance au Maroc (1883) - 1884),Edition Carte d'Aujourd'hui, 1985, 1er partie, 258 pp..

-A.Joly.:"L'industrieàTétouan",**Archives Marocaines.** N 8, 1906, 196, - 393 N : 15, 1908 pp. 80 - 199 et N, 18 pp. 187 - 256.74

J.L.Miège, **Les activités maritimes et commerciales de Tétuan**, conférence proncée à la Faculté des Lettres de Tétouan , 17 Avril 1992, 32 pp.

Real Sociedad Española de Historia Natural, **Yebala y el bajo Lucus, expedición, Avril - Junio 1913**, Madrid, 1914, 320 p.zona de influencia española en Marruecos, Mayo, 1913, pp. 212 - 268 y 287 - 319.

- M.Tarradell, "El Benian : Castellum romano entre Tetuán y Tanger", **Tamuda** 1953 , pp. 302 - 309.

وثائق جديدة عن وباء الكوليرا

بتطوان لسنة 1868

الأستاذ عبد الغفار بندريس العلمي
المدرسة العليا للاستاذة - تطوان

إن تناول موضوع الأوبئة بالمغرب لست من السباقين إليه، بل إنه أثار اهتمام كثير من الباحثين والدارسين الأجانب والمغاربة وخصصوا له حيزا لا يستهان به في أبحاثهم ومؤلفاتهم، ولا يسمح لي المجال هنا لذكر جميع الذين تناولوه، ولكن يكفي أن أذكر بعض الأسماء، منها :

A. Beaumier,"Le choléra au Maroc". **in Bull. Soc Geog,** Paris 1872.

- J.L.G. Guyon, **Histoire chronologique des épédémies du nord de l'Afrique,** Alger, 1855.
- F. Linarès, **Revue épédémique du choléra au Maroc**, Paris, 1879.
- L. Raynaud, **Etude sur l'hygiène et la médecine au Maroc,** Alger, 1902.

وغيرهم إلا أنني أستطيع القول بأن أكمل هذه البحوث على الإطلاق هو العمل الجامعي الجاد الذي تقدم به الأستاذ محمد الأمين البزاز لنيل أطروحة دكتوراه الدولة في التاريخ [1]، وقد اعتمد في تحضيرها، بالإضافة إلى المصادر والمراجع، على وثائق جديدة ومتنوعة ومن ضمنها وثائق إسبانية، إلا أنه يعتذر عن عدم تمكنه من الاطلاع على عدد أكبر منها لاعتبارات شتى بالرغم مما توفره من معلومات جد مهمة للمؤرخ حول جوانب متعددة من تاريخ المغرب الإجتماعي والسياسي والعسكري والاقتصادي سواء في إطاره العام أوالجهوي أوالمحلي.

وبهذا الصدد أود أن أشير لبعض هذه الوثائق التي تزخر بها الأرشيفات

1- البزاز محمد الأمين ، أوبئة و مجاعات المغرب في القرنين XVIII و XIX أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، كلية الآداب بالرباط ، نوقشت بتاريخ 2 1/6/0 9.

والخزانات الإسبانية بمدريد والتي تتقاسم الجزء الأكبر من الوثائق التي تهم تاريخ المغرب.[2]

وقد قادني فضول البحث أثناء إقامتي بمدريد أن أبتعد عن موضوع أطروحتي إلى مواضيع تهم جوانب من تاريخ المغرب الإجتماعي ، وكان من بين هذه المواضيع " ملفات " تتعلق بالأوبئة. فعثرت عن طريق الصدفة على وثائق تخص النصف الثاني من القرن التاسع عشرلكل من تطوان - طنجة، العرائش، الرباط، الصويرة ، مراكش وغيرها، وهي عبارة عن مراسلات قنصلية في كامل الدقة تكمل تارة جوانب من مواضيع الوثائق المغربية، وتارة أخرى تسد الثغرات التي أغفل تسجيلها هذا النوع من وثائقنا الوطنية (على ندرتها)، مما يساعدنا على ملء البتر في التسلسل الكرونولوجي للأحداث التي عرفها المغرب في تاريخه الحديث والمعاصر.

إن القيمة الوثقية لهذا النوع من المراسلات تغري الباحث بتقديمها دفعة واحدة، ولكن ضيق الوقت لا يسمح بذلك ، لذا اخترت لهذه الندوة تسع مراسلات فحسب كلها مستخرجة من وثائق أرشيف وزارة الخارجية الإسبانية بمدريد.[3] تقدم لنا معلومات جديدة حول وباء الكوليرا الذي عرفته تطوان سنة 1868. ومن المعلوم أن هذه المدينة اجتاحتها موجات مختلفة من الكوليرا وغيرها من الأوبئة الفتاكة خلال القرن التاسع عشركباقي المدن والبوادي المغربية ، ككوليرا 1834 - وباء 1854 - 1855 الذي يؤرخ له الفقيه التطواني سيدي المفضل أفيلال (2) ثم وباء 1859 - 1860، الذي انتقل مع الجيشين الفرنسي والإسباني خلال حملتيهما على المغرب : إيسلي 1844 وتطوان 59 - 1860 والذي ساعدت المجاعات على انتشاره، وكذلك وباء 1868 الذي سنعود للحديث عنه من خلال الوثائق المذكورة. كما أن مثل هذه الكوارث تكررت سنوات 1878 و1895 و1898.

إن اختيارنا للحديث عن وباء تطوان لسنة 1868 له ما يبرره، وهو أن المصادر والأبحاث المغربية التي تعرضت لأحداث هذه الفترة سلطت بعض الأضواء على خطورة الوباء بالنسبة لبعض المدن والبوادي بالمغرب، كطنجة والصويرة ومراكش، إلا أنها لم تتناول نتائجه الوخيمة بتطوان، في حين نجد الوثائق الإسبانية أفردته

2- نذكر منها على سبيل المثال

- Archivo Histórico Nacional
- Archivo Histórico Militar
- Archivo de la Marina
- Sevicio Géográfico del Ejercito
- Real Academia de la Historia
- Biblioteca Nacional.

-3 Correspodencia Con Embajadas - y Legaciones, Legajos 2077- 207.

بمعلومات وإحصاءات دقيقة ومفصلة.

كيف انتقلت الكوليرا إلى تطوان ؟

إن الكوليرا التي اجتاحت المدينة سنة 1868 تدخل ضمن الموجة العالمية الرابعة لهذا الوباء. واعتمادا على الوثائق المغربية يبدو أن الحجاج المغاربة هم الذين نقلوا العدوى إلى المغرب ، وبهذا الصدد نجد رسائل عديدة تعرض لهذا الداء، ويكفي أن نشير لرسالتين : أولاهما للسلطان سيدي محمد بن عبدالرحمان [4] وتتعلق بالحجاج المغاربة الذين كان يقلهم مركب إسماعيل باشا الذي منع رسوه بميناء طنجة قناصل البلدان الأجنبية المقيمين بها (ممثلو المجلس الصحي الدولي)، وهددوهم بالضرب بالبارود إن هم حاولوا النزول من الباخرة المصرية ، وهكذا وتحت ضغط القناصل أو ممثليهم أقلع رئيس الباخرة غيظا مما لحقه وتوجه للإسكندرية.

أما الرسالة الثانية فهي من عامل فاس السيد إدريس السراج إلى الوزير الأول الطيب بن اليماني بوعشرين [5] وتتعلق بنفس الموضوع أي بمنع الحجاج المغاربة من النزول بطنجة من طرف الدبلوماسيين الأجانب ، " ورسالة السراج هذه تتضمن جواب تجار أهل فاس عن سؤال السلطان ويشيرون فيها إلى عناية خذيوي مصر ونوابه بأولئك الحجاج الذين رفضتهم كل دول أوربا محملين مسؤولية ما وقع بطنجة للسيد محمد بركاش [6]" ويضيف الأستاذ عبد الوهاب بنمنصورفي تعليقه على هذه الرسالة أن بركاش وغيره من كبار الموظفين (الوثيقة رقم 556)، بعث رسالة من السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان إلى وزير الشؤون الخارجية السيد محمد بركاش تتعلق بمنع الدبلوماسيين الأجانب للحجاج المغاربة، من النزول بطنجة.

إن المخزنيين الذين تقدموا ليسوا مسؤولين عن هذه الوضعية، لأنهم كانوا يقترحون على حكوماتهم إنشاء محاجر صحية، والإهتمام بمسائل النظافة والصحة [7] إلا أن اقتراحاتهم كانت تقابل بالإهمال من طرف المسؤولين الكبار مدعمين مواقفهم بحجج " دينية"، إذكانوا يعتبرون الفرار من الموبوء فرارا من القدر، وأن

---

4 - "مجلة الوثائق"، ع 4/ 332 (مجموعات وثائقية دورية تصدرها مديرية الوثائق الملكية بالرباط) (1399هـ/1977م).

5 - "مجلة الوثائق" ، 332/4 الوثيقة 557 " رسالة من عامل السيد ادريس السراج إلى الوزير الأول الطيب بوعشرين تتعلق بالحجاج المغاربة الذين منعهم الدبلوماسيون الأجانب من النزول بطنجة".

6 - نفس المجلة ، ع 4 / 330. 31.

7 - انظر في ذلك رسالة السلطان مولاي عبد الرحمان إلى عامله بطنجة السيدعبد السلام السلاوي بفتح مفاوضات في هذا الشأن مع القناصل الأجانب، الا أن هذه المفاوضات لم تؤد إلى نتائج إيجابية. محمد الأمين البزاز، حول الحج المغربي إلى الديار المقدسة في القرن XIX وبداية القرن XX (الجزء الأول). استحداث محجر صحي للحجاج بالصويرة سنة 1866. مجلة دار النيابة ، السنة الثانية العدد 6، (ربيع1985). الوثيقة رقم 1 - 2، ص. 89.

الاحتياطات والطرق الوقائية التي تتخذ في بلدان النصارى لا يمكن أن تتخذ في بلد مسلم كالمغرب لأن في ذلك مخالفة للشرع. ولكن رغم موقفهم هذا فإن ذلك لم يمنعهم من التفكير في إقامة محاجر صحية ، فظهرت المحاولات الأولى منذ أبريل 1799، ووقع الإختيار على كثير من الأبراج قرب تطوان وطنجة وسبتة لإنشاء هذه المحاجر،قبل أن يتم الاتفاق على الصويرة في أواسط القرن التاسع عشر التي اتخذت كمركز دائم للحجر الصحي للحجاج.

لقد ظهرت الكوليرا بالإسكندرية في 2 يونيو 1867، ومنها تسرب الوباء وانتقل إلى دول أخرى من بينها جبل طارق الذي أعلن فيه رسميا يوم 2 غشت 1867 عن ظهور هذا الوباء وبمجرد هذا الإعلان اتخذ المجلس الصحي الدولي لطنجة بعض التدابير أهمها :

- الطرد الفوري لجميع البواخر الآتية من جبل طارق نحو المغرب.
- توجيه البواخر المقلة للحجاج المغاربة للصويرة للخضوع للكرنطينية[8] cuartena.

ورغم كل هذه الإجراءات الوقائية تسرب الوباء إلى تطوان. ويذكر الأستاذ البزاز بخصوص تطوان أن الوباء ظهر بها ابتداء من دجمبر 1867 عن طريق وهران رغم الإحتياطات والتدابير التي اتخذها المجلس الصحي الدولي بطنجة، ورغم منع الحجاج من النزول بها. ومن تطوان انتقلت إلى طنجة وفاس وازدادت اتساعا مع تحرك السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان إلى مراكش.[9]

أما فيما يتعلق بهذا الوباء في الوثائق الإسبانية، فإن الإشارات إليه قد تعددت وتنوعت بتنوع المراسلات التي كانت تتم بين المسؤولين عن القسم الصحي بقنصلية إسبانيا بتطوان وبين السلطات المركزية بمدريد. وقد اخترنا من ضمنها تسعة تقارير (كلها أسبوعية) موقعة من طرف نائب القنصل Ramon Fernandez de la Requena تساير مراحل الوباء من ظهوره إلى اختفائه. وهنا أشير إلى أن الأستاذ البزاز يذكر أن وباء الكوليرا ظهر بتطوان منذ ديسمبر 1867 متسربا إليها من وهران ، ويضيف بأنه ظهر بطنجة. حسب المراسلات الرسمية عن الحالة المزرية التي كانت عليها جيوش السلطان والخسائر البشرية الفادحة إذ يقول ... " ولم نقدر على إحصاء عدد من مات بهذا الريح في المحلة لأننا كنا في دهش عظيم.. الحاصل مات بن المختار من أعيان أصحاب سيدنا .. وقد أدى الحال إلى الكثرة و الحيرة

8- اتخذت الصويرة كمركز دائم للحجر الصحي بظهير مؤرخ بـ رجب 1283/ 18 نونبر1868 انظر ن. م. ص. 87.

9 - و تصف إحدى رسائل محمد بن المدني بنيس إلى الكاتب سيدي محمد عمور بتاريخ 11 ربيع الاول 21/1285 يوليوز 1866.

الدهش الذي حصل إلى ترك الموتى على الأرض تأكلها الضبع والذئاب من أحسنوا معه بالدفن دفنوه بحوائجه عن غير غسل ولا صلاة.

يوم 3 فبراير 1868، وهو اليوم الذي أخبر فيه القنصل العام للولايات المتحدة الامريكية فليكس ماتيوس بداية تفشيه بين أحياء الفقراء من مسلمين ويهود بنفس المدينة. بيد أننا عندما رجعنا إلى التقارير الإسبانية وجدناها تتفق مع معلومات التقارير الأمريكية حول تاريخ تفشي الوباء بتطوان، إذ قبل 3 فبراير لا نجد أية مراسلة تعلن ظهور الكوليرا بها. وهكذا يعلن نائب القنصل الإسباني في نفس اليوم المذكورعن بعض الإصابات ، لكنه يستبعد أن تكون من أعراض الكوليرا ، بل يرجعها إلى حالات الفقر التي كان يعيشها سكان تطوان آنذاك ، إلا أنه في نهاية نفس الرسالة يبدي تشككه بالنسبة لحالتين : الحالة الأولى ظهور التقيؤ والإسهال بين يهوديين أو ثلاثة ، وحالة أخرى تتعلق بأحد أفراد الجالية الإسبانية[10]. لذا نستبعد أن تكون الكوليرا قد اجتاحت تطوان في ديسمبر 1867 بل نرجح أن كلا من تطوان وطنجة قد تعرضتا لهذا الوباء في وقت واحد (حسب التقارير القنصلية). أما عن مراحل انتشار الوباء وتطوره بها فنستنتج من خلال المراسلات المذكورة ما يلي :

" ... هذا ما يجعلني أظن بأن تلك الحالات ناتجة عن الفقر المذقع الذي يعانون منه والمضاعف بتلك الصرامة التي يؤدي بها أولئك الناس فريضة الصيام خلال شهر رمضان... مع ذلك فقد وصل إلى علمي اليوم بأنه خلال هذه الأيام قد سجلت بعض الحالات المشكوك فيها من تقيؤ و إسهال بين اليهود و أن واحدا من رعايا الإسبان قد ظهرت عليه نفس الأعراض قبل ساعات قليلة ..."

- خلال الأيام العشرة الأولى أي من 3 إلى 13 فبراير[11] كان عدد المصابين 78 شخصا بمعدل 8 وفيات في اليوم. وهذه النسبة قد تزيد أو تنقص حسب الأيام. فمحتوى التقارير يوضح أن نسبة الوفيات خلال هذه الأيام العشرة ارتفعت خلال الأيام الأخيرة منها، كما أنها لا تحدد جنسية المصابين المسلمين واليهود والمسيحيين وإنما تقدم أرقاما إجمالية.

- تبين هذه المراسلات حدة هذا الوباء ما بين 20 فبراير و27 منه. في مراسلة

---

10 - جميع التقارير التي اعتمدناها في هذا البحث أدرجناها في نهايته بلغتها الاصلية (الإسبانية) إلا أنه نظرا لطول بعضها ولصعوبة قراءتها، عملنا على ما له صلة مباشرة بالموضوع في الهوامش، وحذفنا منها جميعها المقدمة والخاتمة.انظر التقرير رقم 1 بتاريخ فبراير 1868 .

11 - تقرير رقم 2 بتاريخ 13 فبراير 1868."... خلال الأيام الأخيرة ، ابتداء من يوم تاريخ آخر مراسلة رقم 7 .. توفيبهذه المدينة 78 شخصا ، و بهذا نلاحظ ارتفاعا بسيطا في عدد الوفيات بالمقارنة مع الأيام السابقة..."

20 فبراير كان عدد الوفيات 106[12] أي أن النسبة تضاعفت بالمقارنة مع التقرير السابق من 8 إلى 15 ضحية ، كما أنها تشير بوضوح إلى عدم تراجع الوباء خلال هذه المدة وتسجل التطور السريع الذي عرفه.

– نلاحظ كذلك استمرار هذه الحدة خلال الأسبوع الأخير من فبرايرحيث وصل عدد المصابين الذروة وسجلت 111 وفاة وارتفعت النسبة من 15 وفاة إلى 16 في اليوم.

" .. سيدي ، خلال الايام السبعة المنصرمة انطلاقا من يوم 20 تاريخ الإرسالية رقم 13 سجلت بهذه المدينة 11 من الوفيات وقد حافظ المرض على الحدة التي كان عرفها خلال المـــــدة السابقة ..."

– انطلاقا من 6 مارس إلى 20 منه يعرف الوباء بعض التراجع ويتم ذلك بطريقة تدريجية ، فتنخفض النسبة خلال 6 مارس من 16 ضحية يوميا إلى 11، أي أن التراجع كان بنسبة 5 ضحايا في اليوم[13] ، وتزداد هذه النسبة في الإنخفاض خلال الاسبوعين المواليين ، فنلاحظ أن التراجع أصبح يتراوح ما بين 11 إلى 7 ومن 7 إلى 3 وفيات يوميا[14] ، وفي الأسبوع الأخير من مارس تعلن رسميا عن اختفاء الوباء بتطوان [15].

وهكذا ، في 11 أبريل يؤكد هذا النبأ إذلم تسجل أية حالة من الوباء [16].

".. خلال هذه الأسابيع الثلاثة من المراقبة التي خضعت إليها حالة الصحة العمومية بهذه المدينة لم تسجل أية إصابة أو وفاة نتيجة الوباء الذي أصابنا بعض الوقت وبأن الأمور قد عادت إلى حالتها الطبيعية في ما يخص الوفيات ..."

– إن مدة الوباء بتطوان كانت مدة متوسطة بالمقارنة مع المدة التي ظهر فيها

---

12 - تقرير رقم 4 بتاريخ 28 فبراير 1868.

13 - تقرير رقم 5 بتاريخ 6 مارس 1868.
" سيدي ، لي الشرف وبكامل السرور أن أرفع إلى علمكم أنه حسب ما يستنتج من عدد الوفيات المسجلة خلال الأسبوع الماضي أنطلاقا من مراسلتي الأخيرة فإن المرض قد دخل مرحلة التراجع. إن مجموع الوفيات قد انخفض إلى 66 حالة.

– تقرير رقم 6 بتاريخ 13 مارس 1868.
" ... سيدي ، خلال الأيام السبعة الماضية ، ابتداء من تاريخ رسالتي رقم 16 سجل بالمدينة 50 من الوفيات معنى هذاأن الوباء ما زال في حالة التراجع..."

14 - تقرير رقم 7 بتاريخ 20 مارس 1868.
" ... سيدي ، خلال الأسبوع الماضي ، ابتداء من 13 تاريخ مراسلتي رقم 18 عرفت المدينة 21 من الوفيات ..."

15- تقرير رقم 8 بتاريخ 27 مارس 1868. "... سيدي ، إن عدد الإصابات البسيط الذي سجل خلال أسبوع سجل كله حسب التقارير العسكرية/ إن هذه المعطيات السارة دفعتني لأرفع إلى علمكم بأنه – وبفضل القدرة الإلهية قد تخلصنا نهائيا من وباء الكوليرا الذي أصاب هذه المدينة.

16- تقرير رقم 4 بتاريخ 28 فبراير 1868.

بالمدن المغربية الأخرى، فقد مكث الداء بتطوان 37 يوما، وقد وصلت مدته بطنجة مثلا إلى 27 يوما وبالعرائش 29 يوما وبالقصر الكبير 30 يوما أما أطول مدة فكانت بالصويرة 75 يوما (15 يوليوز إلى بداية أكتوبر).

إن مجموع الضحايا بتطوان في هذه المدة وصل إلى 433 من الوفيات وهي نسبة عادية إذا ما قورنت بالمدن المغربية الأخرى، ففي طنجة سجلت 441ضحية، وبالدارالبيضاء 56، إلا أن أكبر نسبة سجلت خلال هذه الموجة كانت بمراكش 1300 وفاة (سكانها آنذاك 50.000 شخص تقريبا).

إن نسبة الضحايا لساكنة تطوان الذين بلغ عددهم 20.000 شخص تقريبا حسب الرحالة الإسباني الذي زار المدينة في بداية الستينات من القرن التاسع عشر[17] وصلت إلى 2.5 ٪، وهي نسبة عادية كذلك إذا ما قارناها مع المدن المغربية الأخرى.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الإطار، هو أن المغرب لما كانت تلم به الأوبئة والكوارث كباقي الدول الأخرى، كان الجهاز المخزني لا يملك القدرة في الميدان الصحي لمكافحة الداء الذي يضربه بقسوة، ويبقى عرضة للإجراءات التعسفية التي يمليها عليه الممثلون الدبلوماسيون الأجانب المقيمون بطنجة أو بأهم المدن الساحلية، ولم تكن تلك المساعدات تتعدى استقدام بعض الأطباء لتقديم بعض المساعدات الصحية المحدودة كما لاحظنا منذ بداية القرن التاسع عشر.

-17 Fernando Amor, **Recuerdos de mi viaje a Marruecos en el año 1859**.

زار المغرب مجموعة من الأطباء نذكر منهم :

Dr Juan Fernandez de las Heras.

Dr Josef Salvaresa , Dr Joaquin Gallego. Dr Fernando Camacho, Dr José Coll (21).

تقرير رقم 1

1

CONSULADO DE ESPAÑA
EN
TETUAN.

N.º 6

(sello: ...DE ESTADO — 18 FEB 80 — ENTRADA)

[illegible] 3 [illegible] 42 – 930

Excmo. Señor

Dirección Comercial (Sanidad)
P
N.º [illegible]

Muy Señor mio: hace ya algunos dias vengo observando que ocurren en esta Ciudad algunas mas defunciones que de ordinario, á las que no he atribuido ningun caracter alarmante, ó epidémico, á que de los minuciosos informes que diariamente he procurado adquirir, resultaban ser en su mayor parte en pobres de solemnidad.

Esto unido, á que dichas defunciones se circunscribian á los barrios moros, sin que la numerosa poblacion hebrea, que aqui reside, de ninguna [illegible]

تقريــر رقم 2

5

CONSULADO DE ESPAÑA
EN
TETUAN.

N.º 10

Dirección Comercial
Sanidad
P

Excmo. Señor

Muy Señor mío: En los días transcurridos desde el 7 fha. del Despacho nº 7, que tuve la honra de dirigir á V.E., han fallecido en esta Ciudad setenta y ocho individuos y si bien se ha experimentado un pequeño aumento en el número de defunciones con relación á los días anteriores, la cifra de esta prueba el carácter benigno, con que hasta ahora se presenta la enfermedad reinante.

Lo que tengo la honra de poner en el superior conocimiento de V.E.

تقرير رقم 3

CONSULADO DE ESPAÑA
EN
TETUAN.
N.º 13.

7   3/[illegible]

Exmo. Señor

Sanidad

P

Muy Señor mio: En los siete dias transcurridos desde el 13 fha del Despacho nº 10 que tuve la honra de dirigir a V.E. han ocurrido en esta Ciudad Ciento Seis defunciones, lo que desgraciadamente demuestra, que la enfermedad reinante, lejos de decrecer, ha adquirido un pequeño desarrollo.

Dios gue a V.E. muchos años.

Tetuan 20 de Febrero 1868.

Excmo. Señor,
B. L. M. de V.E.
Su mas atento seguro servidor
Ramon Llanorio
de la Yzquierda

Exmo. Señor Ministro de Estado &.
&. &. Madrid

تقرير رقم 4

8

تقرير رقم 4

CONSULADO DE ESPAÑA
EN
TETUAN.

Nº 15.

Sanidad.

P.

Excmo. Sor.

Muy Señor mio: en los siete dias transcurridos desde el 20, fecha del despacho nº 13, que tuve la honra de dirigir á V. E. han ocurrido en esta Ciudad ciento once defunciones, continuando la enfermedad reinante casi en el mismo estado del periodo anterior.

Dios guarde á V. E. muchos años

Tetuan 27 de Febrero de 1868.

Excmo. Sor.

B. L. M. de V. E.

Su mas atento seguro servidor

Ramon Fernandez de la [illegible]

Excmo. Sor. Ministro de Estado

[illegible]

تقرير رقم 5

9

CONSULADO DE ESPAÑA

TETUAN.

N.° 16.

تقرير رقم 5

[illegible]

Sanidad

Muy Señor mío:

Tengo la honra y satisfacción de elevar al conocimiento de V.E. que según se desprende del número de defunciones ocurridas [illegible] de [illegible] ~~de~~ mi despacho [illegible] la enfermedad [illegible] ha entrado en período de decrecimiento.

El total de aquellas ha ascendido a [illegible]

[illegible]

تقرير رقم 6

ONSULADO DE ESPAÑA
EN
TETUAN.

Nº 18.

11

Sanidad.
P.

Excmo. Señor.

Muy Señor mío: durante los siete días transcurridos desde mi despacho nº 16 han ocurrido en esta Ciudad cincuenta defunciones, y continúa por lo tanto en la epidemia el periodo de crecimiento que en [redacted] tuve la honra de participar á V.E.

Dios guarde á V.E. muchos años.
Tetuan 23 de Marzo 1868.
Excmo. Sor.
B.L.M. de V.E.
su mas atento seguro servidor
Ramon Fernandez
de la Reguera

Excmo. Sor. Ministro de Estado.
Cª Lpº Spº.

تقرير رقم 7

CONSULADO DE ESPAÑA
EN
TETUAN.

N.º 21

Sanidad:
P

12

Excmo. Sr.:

Muy Sr. mio: [illegible]

desde el 13 [illegible] 17, [illegible]

en esta Ciudad [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

la Justicia, que [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

تقرير رقم 8

CONSULADO DE ESPAÑA
EN
TETUAN.

N.° 221.

14

تقرير رقم 8

Exmo. Sor.

Sanidad.

P

Muy Señor mío: El reducido número de defunciones ocurridas en el último período de siete días, el tercero [illegible]. Todas ellas, según [illegible] informes, son propias de [illegible] enfermedades y [illegible] haber ocurrido durante ellos ningún nuevo ataque entre Españoles [illegible]

El mayor de Sanidad Militar Sor. [illegible], que proporcionan la satisfacción de poder manifestar á V. E. que, gracias á la Divina Providencia, nos hallamos ya enteramente libres de la Epidemia Colérica que afligía á esta Ciudad.

En virtud de esto, omitiré desde esta fecha los partes semanales que [illegible] dar [illegible] desde el principio de la Epidemia, [illegible] ocasión de [illegible]

تقرير رقم 9

CONSULADO DE ESPAÑA
TETUAN.

N.° 24

Sanidad.

P.

16

تقرير رقم 9

Excmo. Sor.

Muy Sor. mio: En el transcurso de tres semanas de observacion á que he creido deber someter el estado de la salud pública de esta Ciudad, no ha ocurrido ningun caso de invasion ni muertos de la epidemia, que desde algun tiempo la ha afligido, y en atencion al buen estado sanitario y haber vuelto á entrar la mortalidad en su nivel ordinario [illegible] de defunciones [illegible] [illegible] [illegible] todo [illegible] por haberse extinguido [illegible].

Salud

Lo que tengo la honra y satisfaccion de elevar al superior conocimiento de V. E.

Dios guarde á V. E. muchos años.

Tetuan 11 de Abril de 1868.

Excmo. Sor.
B. L. M. de V. E.
su mas atento seguro servidor
Ramon Fernandez
de la Reguera

Excmo. Sor. Ministro de Estado
&c. &c. &c.

« ملاحظات حول العلاقات المغربية الإسبانية قبيل حرب تطوان ».

ذ. جمال عاطف
- كلية الآداب - تطوان.

يبدو واضحا أن الموضوع الذي أنا بصدد تناوله يخرج نوعا ما عن الإطار العام للمحاور التي تحاول هذه الندوة معالجتها، باعتبار أنه يرجع بنا إلى فترة ما قبل ستينات القرن 19.

إن محور تطوان من 1860 - 1912 ، لا يمكن أن يدرس في الواقع ، في غياب الإلمام بأهم التطورات التاريخية التي عرفتها الفترة السابقة لسنة 1860 - ومن خلال هذه التطورات ، طبيعة العلاقات المغربية الإسبانية التي ستعمل في حد ذاتها على تغيير مجرى الأحداث في تاريخ المغرب طيلة فترة القرن 19 ، بل وستمتد لا محالة الى حدود القرن 20.

لقد تميز الجو العام الذي طبع العلاقات المغربية الإسبانية خلال بداية القرن 19 بهدوء نسبي تحكمت فيه سلسلة من الاتفاقيات التي أبرمت بين الجانبين ابتداء من القرن الثامن عشر بالخصوص. و أهم الاتفاقيات التي رسمت مسار العلاقات بين البلدين تعود بنا إلى سنة 1780 (Aranjuez) حيث همت مسألة التبادل التجاري. وقد توجت بتوقيع معاهدة أخرى هي معاهدة مكناس 1799. هذه الأخيرة تحكمت بشكل واضح في محور العلاقات المغربية الإسبانية خلال النصف الأول من القرن 19 باعتبار أنها شملت قطاعات متعددة ، بما في ذلك التجارة - الملاحة - الصيد البحري . فضلا عن أنها حضيت باحترام من طرف الجانبين ، على الأقل إلى حدود الثلاثينات من القرن 19.

إلا أن هناك حدث مهم كان من شأنه أن يؤثر على جو العلاقات المغربية الإسبانية إبتداء من 1830 - ويكمن في احتلال فرنسا للجزائر- هذا الحدث سيشكل بثقله منعطفا جديدا في تاريخ هذه العلاقات خلال الفترات اللاحقة.

ولعل أولى الملاحظات التي يجب الوقوف عندها في هذا المضمار، تكمن في حقيقتين أساسيتين، تحكمتا بدورهما ليس فقط في المتغيرات التي طرأت على ساحة العلاقات المغربية الاسبانية، بل وعلى العلاقات المغربية الأوروبية ككل.

الأولى تتجلى في سياسة العزلة التي أخذ بها السلطان المولى سليمان نتيجة لظروف لا داعي للوقوف عندها، والتي كان من نتائجها المباشرة . الغياب النسبي للتأثير الأوربي في المغرب، هذا الغياب الذي يُبَرِّرُ بدوره بجملة من المعطيات تنصب أساسا على الظروف العامة التي كانت تشهدها الدول الأوربية في هذا المجال.

أما الحقيقة الثانية ، فتكمن في سياسة التفتح التي أخذ بها المولى ع.الرحمان بن هشام والتي كان من نتائجها الأولى ، انصراف الدول الأوربية إلى الاهتمام بالمغرب. وقد أخذ هذا الإهتمام مع تطور الأحداث صبغة تنافس واضح لكي يتحول فيما بعد إلى أشكال تدخل لمزيد من تركيز النفوذ، ومن أجل اكتساب الإمتيازات في شتى القطاعات.

لا داعي للتركيز إذن عن النتائج التي نجمت عن إحتلال فرنسا للجزائر. فقد أصبح المغرب منذئذ هدفا للتدخل، وما معركة إيسلي 1844 إلا شكل من أشكال هذه المحاولات.

وعلى العموم فانه ابتداء من هذه الفترة، أصبحت العلاقات المغربية الإسبانية عرضة لأنواع مختلفة من التوتر. وفي الواقع أن الإنعكاسات التي أفرزتها معركة إيسلي كانت ثقيلة بالنسبة للمغرب وساهمت كثيرا في إضعاف الدولة. مما سيشكل عاملا ايجابيا بالنسبة للإسبان بل وللأوربيين من أجل التدخل.

ونحن لا نتطرق للإهتمامات الإسبانية والفرنسية بالمغرب خلال هذه الفترة، دون أن نشير إلى موقف إنجلترا من ذلك، فقد كانت هذه الأخيرة حريصة جدا على مراقبة أي تطور قد يستهدف انفراد دولة أوربية ما بالمغرب، حيث أن تواجدها بنقطة جبل طارق كان يستدعي ذلك. الأمر الذي جعلها بعد أن تأكدت من ضعف الدولة المغربية تحاول بضغوطها المستمرة ، وعبر المفاوضات أن تنتزع حق توقيع معاهدة غنية بالامتيازات و هي معاهدة 1856، التي ركزت بشكل أو بآخر على ترسيخ النفوذ الإنجليزي بالمغرب ، على الأقل فيما يتعلق بالجانب الإقتصادي وقضية حماية الرعايا الإنجليز المتواجدين بالمغرب. هذه التحركات الإنجليزية والفرنسية كذلك كانت تذكي شعور إسبانيا بالإهتمام بالمغرب ، فبدأت دبلوماسيتها تتحرك، و انطلقت تصيغ جملة من الأساليب تستخدمها كمبرر للتدخل المشروع في المغرب.

وقد أعطت اسبانيا لنفسها حق الأسبقية من أجل التدخل في المغرب، مبررة ذلك بعامل الجوار والتاريخ المشترك.

وقد كان للرأي العام الإسباني آنذاك دور فعال في تأكيد فكرة التدخل ، بل إن

إزابيل الكاثوليكية نفسها كانت قد حثت على القيام بهذا العمل الذي أسمته "عملا نبيلا". و ذهبت إلى أبعد من ذلك لكي تصرح في وصيتها بأنها مستعدة لبيع جميع مجوهراتها وأملاكها من أجل تحقيق هذا الهدف السامي.

وقد ساهم بعض الكتاب والسياسيين الإسبان من جانبهم على حث الرأي العام الاسباني بالاقتناع بهذه الفكرة. وعلى سبيل المثال كتب Santiago Alfonso Valdespino بأن التدخل العسكري في المغرب هو عمل يجب على إسبانيا أن لا تغفله، وربط ذلك بالخطر الذي أصبحت تشكله فرنسا في المنطقة من جراء احتلالها للجزائر. وزاد قائلا " إنه لمن العيب على الشعب الإسباني أن لا يحقق الحضارة في بلاد المغرب ، وسيعتبر (الشعب الإسباني) حقيرا إذا تحمل استمرار تواجد إنجليزي في المغرب".[1]

و في نفس الاتجاه كتب : José Marques de Prado

" إذا نحن اعترفنا بالأهمية القصوى التي تكتسيها مدينة سبتة، والمستقبل الزاهر الذي تمنحه لإسبانيا كقاعدة عسكرية تجارية وبحرية في آن واحد ، يشرف على القارة الإفريقية، فإنه يجب علينا. ومهما كلف الأمر من تضحيات. أن نعمل على ترسيخ حدودنا هناك " (ويعني بذلك التقدم إلى الأمام إنطلاقا من سبتة). ويزيد قائلا : " في هذا الوقت يجب أن تنطلق حدودنا من بليونش وتمتد إلى الرأس الأسود."[2]

يستنتج إذن من هذه المقالات وسواها أن فكرة التدخل الإسباني في المغرب إنطلاقا من سبتة كانت واردة. واقتنع بها الرأي العام الإسباني سنوات قبل الإصطدام العسكري في حرب تطوان.

غير أن هذا الهدف الذي ركزت عليه إسبانيا كان يتطلب منها تخطيطا محكما من أجل خلق جو جديد في علاقاتها مع المغرب. وقد ارتأت خلق جو صراع مستمر يؤدي بها إلى مراحل تنتهي بالتدخل. ووفقا لهذا المخطط، إنطلقت الحكومة الإسبانية في نهج سياسة استهدفت توتر العلاقات مع المغرب. وكان على رأس هذه الأساليب التي استعملتها مسألة القبائل الريفية التي أخذت تنظر إليها وتتهمها كعنصر رئيسي في خلق الصراع.

ففي ثلاثينات القرن 19، اتهمت إسبانيا قبائل الريف بالقيام بهجومات على مدينة مليلية، ووضحت ذلك بأن الفصل الخامس عشر من اتفاقية 1799 المبرمة

---

1 Santiago Alfonso Valdespino , **La question du Maroc examinée au point-de vue espagnole et européen**, Traduction Lamartiniérc, Paris 1859. p. 52.

2 - José Marques de Prado, **Historia de ceuta**, Madrid, 1859, p.243.

المبرمة مع المغرب كان يعطي الحق للقوات الإسبانية بمعاقبة القبائل بشدة في حالة قيامها باعمال مشابهة.

و من جهتهم (و هذه نماذج فقط) قام سكان قبيلة أنجزة في ثلاثينات القرن التاسع عشر بهجومات على حدودمدينة سبتة.

ومن جهة منطقة الريف تعرضت سفينة إسبانية متوجهة إلى مليلية لهجوم من طرف سكان قبيلة بني (بوغافر) وتمكن هؤلاء من الإستحواذ على كل ما كان على متن السفينة.

خلاصة القول، فإن جملة هذه الإصطدامات التي كانت تقع بين بعض أفراد القبائل الشمالية اعتبرتها إسبانيا ذريعة أولية لبدء تنفيذ مخططها من أجل مطالبة الحكومة المغربية بالتعويضات المترتبة عن مثل هذه الاشتباكات، بل وقررت فتح سلسلة من المفاوضات الرسمية مع المغرب.

وقد كان الأمر يفرض نسبيا على سلطان المغرب قبول الدخول في المفاوضات باعتبار أن اتفاقية 1799 المبرمة بين المغرب و إسبانيا كانت تمنع القبائل المجاورة لسبتة و مليلية المس أو الإعتداء على المصالح الإسبانية فيها.

وأولى الملاحظات التي يجب الوقوف عندها، هي حرص إنجلترا على تتبع هذه المفاوضات، فبغض النظر عن أهمية نقطة جبل طارق بالنسبة لها، كانت هي الأخرى متأكدة من أن المفاوضات التي فتحتها إسبانيا مع المغرب ما هي إلا ذريعة تخفي وراءها نوايا التدخل. فسعت إنجلترا إذن إلى عرقلة أي مشروع تدخل إسباني وعينت قنصلها العام J. D. Hay كوسيط في هذه المفاوضات.

وقدكان ملف المفاوضات يتطلب تسوية التعويضات التي طالبت بها إسبانيا من جراء أعمال القبائل الشمالية. بالإضافة إلى حسم مشكل حدود مدينة سبتة، وإدخال بعض التعديلات على قطاع الملاحة البحرية بين الجانبين والتي كانت قد نصت عليها معاهدة 1799.

ودون التركيز على جميع قرارات هذه المفاوضات، فإن بعض التقارير تفيد بأن المغرب اعترف بجل المطالب التي تقدم بها الإسبان :

- معاقبة الأشخاص الذين ساهموا في خلق جو التوتر والإساءة للعلاقات المغربية الإسبانية.
- دفع التعويضات عن ذلك.
- التسهيل والتعديل في الإجراءات الجمركية إزاء السفن الإسبانية.
- إحترام رقعة حدود مليلية.

وقد أسرعت إسبانيا بالتأكيد على هذه الاتفاقية (وبتنسيق مع إنجلترا) من

خلال معاهدة أخرى هي معاهدة العرائش 1845، التي ضمنت بقاء الحدود في سبتة على ما كانت عليه في معاهدة 1799. كما تعهد فيها السلطان المغربي بإرسال مذكرة إلى القبائل الشمالية ليأمرهم بعدم ممارسة القرصنة، ويعاقب كل شخص تجرأ على ذلك.

إلا أنه يظهر واضحا أن النوايا الإسبانية لم تكن تركز فقط على تهدئة الجو في القبائل الشمالية من أجل خلق سلم دائم مع المغرب، بل إن سلسلة هذه المفاوضات كانت تعبر عن دبلوماسية مخططة، لم تكن في البداية إلا مرحلة من مراحل محاولات التدخل الفعلي في المغرب. وإلا فبماذا يفسر احتلال هذه الأخيرة للجزر الجعفرية خلال هذه الفترة؟ وهل يعقل أن تتخذ إسبانيا من مجرد أحداث كانت تقع بين رعاياها وبعض سكان هذه القبائل، ذريعة بالتهديد بالتدخل في المغرب؟ ثم ألم تكن هذه الأخيرة حريصة على تحين الفرص من أجل تنفيد مخططها؟.

إن مجموع هذه التساؤلات ستجد أجوبتها في المراحل اللاحقة لهذه الفترة.

في الواقع إن الهزيمة التي مني بها المغرب مع فرنسا سنة 1844 كانت لها إنعكاسات كفيلة بوضع البلاد في وضعية متدهورة. ودون أن نركز كثيرا على التفاصيل العامة للوضعية في المغرب خلال هذه الفترة فإن الأزمة تفشت على جميع الأصعدة، فضلا عن كوارث أخرى ضربت البلادكالمجاعة والأوبئة، وتدهور القوة العسكرية للبلاد تدهورا بالغا.

كل هذه الظروف كانت مؤشرا إيجابيا لإسبانيا من أجل تنفيذ أهدافها وكانت ورقة القبائل الشمالية هي التي تستعملها إسبانيا في هذا المجال. وقد بلغ بها الأمر خلال سنة 1851 بتقديم اقتراح أمام كل من إنجلترا وفرنسا يقضي بتكوين قوة مسلحة مشتركة ثلاثية لضرب سكان الريف، وقوبل هذا الإقتراح بالرفض من لدن الدولتين لأن نوايا كل واحدة منهما كانت تختلف عن الأخرى. وإن كنا سنلاحظ العذر الذي ستقدمه بريطانيا في الفترة اللاحقة وأسفها عن عدم تكوين هذا الحلف. وللإشارة فقط، فإن هذه الأخيرة كانت منشغلة خلال هذه الفترة بتسوية وضعيتها في بلاد المشرق العربي، وهو الأمر الذي كانت تضعه فوق أي اعتبار.

ومن حسن حظ الحكومة الإسبانية، فقد استمرت الوضعية في بعض القبائل الريفية بالشكل الذي كان يرضيها. ففي سنة 1845 قام سكان قبيلة تمسمان بمهاجمة سفينة تابعة للبريد الإسباني بالقرب من مدينة الحسيمة. في ماي من نفس السنة تسبب سكان قبيلة قلعية بالناضور من محاصرة سفينة Nuestra señora de la

carmen واستحودوا على ما كان فيها.[3]

في سنة 1858 يقوم سكان نفس القبيلة (قلعية) باختطاف سبعة أشخاص إسبانيين من مدينة مليلية ، وعملوا على إلقاء بعض القنابل وسط المدينة.[4]

وبموازاة مع هذه الأعمال في منطقة مليلية قامت قبائل بقيوة وبني بوفراح وتمسمان بأعمال مشابهة. وقد استغلت إسبانيا هذه الظروف مرة أخرى ، ونهجت سياسة الضغط على المغرب لقبول قراراتها. وقد كان موقفها حاسما : إذ اشترطت في مقابل سماحها للمغرب على ما حصل لمواطنيها وسفنها وبضائعها، إشترطت أن يقبل المغرب توقيع اتفاقية أخرى تضمن من خلالها حماية وجودها على الساحل المغربي.

وقد وقعت فعلا في 24 غشت 1859 اتفاقية تطوان. و نصت على توسيع حدود مليلية و مسألة حماية المدن لأخرى ... وللملاحظة ، فإن المطلب المتعلق بتوسيع حدود مليلية ، ستظل إسبانيا تؤكد عليه حتى ما بعد حرب تطوان، بل وإلى حدود التسعينات من القرن التاسع عشر. وستشكل في حد ذاتها سببا جوهريا في قيام حرب أخرى سميت بحرب "سيدي ورياش" التي اندلعت نتيجة لتعارض وجهتي نظر الحكومة الإسبانية الملحة على توسيع الحدود، وسكان قبيلة قلعية المجاورة الذين ناهضوا أدنى فكرة تقضي بتوسيع حدود المدينة على حساب أراضيهم.

ويجب التذكير بأن إسبانيا لم تحصل على امتياز توقيع اتفاقية تطوان بسهولة. بل إن الدور البريطاني في هذه المسألة كان يفرض نفسه بشدة. ولم تتفق مع إسبانيا في ذلك إلا بعد مفاوضات طويلة استمرت منذ سنة 1853. وهنا يمكننا الوقوف لإستنتاج بعض الحقائق :

- إن اتفاقية تطوان كان بإمكانها أن توقع في فترة سابقة لسنة 1859، وفقا للمفاوضات التي بدأتها إسبانيا مع إنجلترا، الأمر الذي ينفي بتاتا مبررات إسبانيا التي تقول بأن إتفاقية تطوان قد وقعت نتيجة لوضعية القبائل في الريف. بل إن اللعبة كانت واضحة، وما كانت إسبانيا تنتظر غير الاتفاق مع إنجلترا.

- أما الحقيقة الثانية فتمكن في أن بريطانيا لم تتنازل عن ذلك إلا بعد أن استطاعت هي الأخرى إنتزاع حق توقيع معاهدة 1856 مع المغرب.

إن النوايا إذن كانت واضحة. ولا تغذو أعمال القبائل الريفية التي كانت تركز عليها إسبانيا إلا ذريعة اتخذت منها أسلوبا للضغط على المغرب من أجل تطبيق

---

3 - Rouard de Card, **Les relations du Maroc et de l'Espagne**, Paris 1898 - page: 64.

4 - August Mouléras **Le Maroc inconnu**. 2é partie, Paris, 1859, p. 244.

مسلسلها الدبلوماسي الطويل المراحل والذي سينتهي بمرحلة الصراع العسكري الذي كان هو الهدف الرئيسي لإسبانيا.

وعلى العموم، فان اتفاقية تطوان لم تكن لتضع حذا لتوتر العلاقات المغربية الإسبانية خلال هذه الفترة. بل إن اسبانيا ستفتح مرحلة أخرى في علاقاتها مع المغرب، تميزت بتوتر حاد. وتخللت ذلك سلسلة مفاوضات طويلة، كانت إنجلترا شديدة الحرص على متابعتها.

إن هذا التوتر الذي سيطبع العلاقات المغربية الإسبانية سنة 1859، سينطلق من نواحي مدينة سبتة، وبالضبط من قبيلة " أنجرة "، حيث ستنتهز إسبانيا حدثا وقع على حدود سبتة مفاده أن سكان قبيلة أنجرة هاجموا بعض البنايات الإسبانية الجديدة على مركز الحدود، لكي تتخذ منه ورقة للضغط ومجالا للصراع.

وفعلا فقد كانت المطالب التي تقدمت بها في هذا المجال قاسية. حيث أكد القنصل العام الإسباني Juan Blanco del Valle في رسالته إلى النائب السلطاني محمد الخطيب[5]: " أنه من الضروري ، والضروري جدا ، أن يقاد الأشخاص المتهمين إلى مدينة سبتة ليعاقبوا هناك أمام أعين الإسبان ..." .

ونشير إلى أنه خلال هذه الفترة، كان السلطان المغربي المولى عبد الرحمان بن هشام في حالة صحية متدهورة، حيث كان يصعب على الجانب المغربي اتخاذ قرارات حاسمة في هذا الصدد.

وعموما فإن الصراع بين سكان أنجرة و إسبانيي الحدود احتدم بشدة خلال فترة شهري غشت وشتمبر من سنة 1859. الأمر الذي جعل القنصل العام الإسباني يقدم عريضة يضع فيها لائحة المطالب التي تؤكد عليها حكومة مدريد:[6]

* معاقبة الأشخاص المتهمين في مدينة سبتة و أمام أعين الإسبان.
* أن يقوم المغاربة بإرجاع ما استحوذوا عليه من أسلحة خلال هجوماتهم السابقة.
* أن يتعهد المغرب باتخاذ جميع الإجراءات في سبيل الحفاظ على الأمن في المنطقة.

وقد منح Juan Blanco أجلا مدته 15 يوما من أجل تسوية هذه المطالب. وركز في رسالته على أن الوضعية بين الدولتين لا يمكن أن تسوّى بتاتا إلا اذا حصلت إسبانيا على جميع هذه المطالب. ويظهر واضحا أن إسبانيا كانت تقدر مدى

5 - رسالة القنصل العام الإسباني Juan Blanco إلى محمد الخطيب يوم 12 غشت 1859.

6 - رسالة القنصل العام الإسباني الى محمد الخطيب يوم 5 شتنبر 1859.

قساوة المطالب التي تقدمت بها، وتعرف جيدا أنه يصعب على الحكومة المغربية الإقدام على الاستجابة لهذا النوع من المطالب (وخاصة فيما يتعلق بإعدام المواطنين في سبتة). ولم تكن نواياها تصب طبعا في اتجاه تسوية الوضعية بقدر ما كانت تمهد للتدخل.

وقد عملت الحكومة المغربية من جانبها على نهج أسلوب المراوغة وكسب الوقت، حيث كتب محمد الخطيب، ردا على Juan Blanco :

"... إننا رفعنا مطالبكم إلى مولانا السلطان، ونطلب منكم تمديد الأجل الذي حددتموه...".[7] غير أن الأمور زادت تعقيدا في المغرب، حيث أنه في نفس اليوم الذي كتب فيه الخطيب هذه الرسالة، توفي السلطان المولى عبد الرحمان، الأمر الذي استصعب معه حل الأزمة في الظروف التي أرادها الإسبان.

ودون التركيز كثيرا على تفاصيل المراسلات التي دارت بين الجانبين خلال هذه الفترة نظرا لطولها ، فإن إسبانيا منحت أجلا جديدا للخطيب مدته 20 يوما و قد كتب خوان بلانكو في ختام رسالته :

" .. نتمنى أن هذه المفاوضات ستنتهي بإقرار السلم بيننا .. "[8]

إن هذا الشطر الأخير من الرسالة كان يخفي في طياته الكثير من التناقضات في الموقف الإسباني ، حيث أنه في يوم 24 شتمبر ، كلفت حكومة مدريد وزير خارجيتها بتوجيه رسالة إلى جميع قناصلها بالدول الأوربية من أجل التعريف بالمسألة المغربية ، و ذلك في سبيل كسب الرأي العام الأوربي بمشروعيتها في دخول حلبة الصراع العسكري مع الغرب. ونقرأ ذلك واضحا في مضمون المذكرة :[9]

" .. رغم العار الذي أنزله المغاربة بالعلم الإسباني، فإن حكومة صاحبة الجلالة قدمت تسهيلات للمغرب من أجل الإستجابة لمطالبنا، وأنه في حالة عدم توصل إسبانيا بجواب نهائي من المغرب حينما ينقضي الأجل المحدد، فإن (إسبانيا) ستتجه لا محالة إلى استعمال السلاح من أجل حماية وضمان أمن واستقرار مدنها على السواحل المغربية. وإن استعمال القوة في هذه الحالة، هو واجب تتطلبه مصالح الأمة ...".

يفهم إذن من جملة هذه النصوص المأخوذة من المراسلات الإسبانية أن إسبانيا

---

7 - رسالة محمد الخطيب إلى القنصل العام الإسباني يوم 9 شتنبر 1859.

8 - رسالة Juan Blanco إلى محمد الخطيب يوم 12 شتنبر 1859.

9 - مذكرة وزير خارجية إسبانيا إلى سفراء الدول الأوربية يوم 24 شتنبر 1859.

كانت معتزمة على دخول الحرب مع المغرب. وما أحداث سبتة والمفاوضات التي تلتها الا أسلوبا من أساليب الضغط. ومما يؤكد مصداقية هذا الإفتراض أنه في نفس الوقت الذي كانت فيه إسبانيا تتفاوض مع المغرب في مسألة تسوية المطالب، كانت تجري مفاوضات موازية مع إنجلترا في سبيل انتزاع الضوء الأخضر من هذه الأخيرة، يسمح لها بالتدخل بحرية في المغرب. و في الواقع إن مسلسل المفاوضات الإسبانية الانجليزية كان بدوره طويلا. وقد تبين لإسبانيا منذ البداية أن إنجلترا عازمة فعلا على عرقلة مشاريعها بالمغرب، الأمر الذي جعلها تفاوض بالكثير من الحذر واليقظة.

وفعلا فإن إنجلترا لم تكن تقبل تدخلا إسبانيا في المغرب من شأنه أن يسيء أو يمس بمصالحها في المنطقة ، بل إنها اقترحت نفسها كوسيط في تسوية العلاقات الإسبانية المغربية وهو الأمر الذي كانت تحاربه إسبانيا مسبقا.

وقد عبر عن ذلك الوزير الإسباني في رسالة موجهة إلى حكومة لندن قائلا: "... إن جلالة الملكة الإسبانية لن تقبل أبدا بتدخل أجنبي في القضايا التي تهم الأمة الإسبانية ..."[10]

وركزت إسبانيا في تبرير موقفها على جملة الأحداث التي تسببت فيها القبائل الريفية بشكل عام وقبيلة أنجرة بشكل خاص. غير أن إنجلترا أبانت منذ البداية على موقف صارم تكاد تفضح من خلاله إسبانيا على الموقف العدائي الذي اتخذته إزاء المغرب.

وقد عبر عن ذلك وزير خارجيتها André Buchanan في رسالة موجهة للوزير الإسباني : مذكرا بـ " أنه إذا كانت إسبانيا تتخذ من هذه الأحداث البسيطة التي وقعت في حدود سبتة (و التي يتحمل مسؤليتها حاكم سبتة بالدرجة الأولى) سببا من الأسباب التي تجعلها تتدخل في المغرب لكي تحتل النقط الإستراتيجية هناك فإنه يجب على إنجلترا بدورها أن تتدخل لحماية مصالحها في جبل طارق...".[11]

ويفهم من موقف إنجلترا، أن هذه الأخيرة كانت تريد الحصول على ضمانات من طرف إسبانيا توضح فيها المشاريع التي تنوي تنفيذها بالمغرب، ثم النقط التي قد تحتلها، وأن لا يمس ذلك طبعا بالمصالح الإنجليزية في المنطقة. وكان أسلوب الغموض الذي استعملته إسبانيا في هذه المفاوضات من العوامل التي جعلت إنجلترا تهدد بوضوح أنه في حالة عدم موافاتها بالضمانات أن تتجه إلى استعمال القوة.

---

10 - رسالة وزير خارجية إسبانيا إلى وزير خارجية إنجلترا يوم 10 شتنبر 1859.

11 - رسالة وزير خارجية إنجلترا إلى وزير خارجية إسبانيا يوم 19 شتنبر 1859.

وأمام هذا التهديد، رضخت إسبانيا ووضحت نواياها، حيث كتب وزير خارجيتها إلى حكومة لندن :

" .. إن حكومة صاحبة الجلالة تلتزم بعدم احتلال أية نقطة في البوغاز كفيلة بالتأثير سلبيا على ملاحتكم في هذه الجهة. و إن هذا القرار لا يجب أن يقابل من طرفكم بأي شك ..".[12]

وقد كانت هذه الالتزامات الإسبانية جديرة بتهدئة الموقف الإنجليزي ، وإن لم يكن ذلك بصفة نهائية، لأن إنجلترا ستعمل على تتبع أطوار الصراع المغربي الإسباني، قبل، و إبان، و بعد حرب تطوان.

بهذه الطريقة إذن، ضمنت إسبانيا لنفسها حق انفرادها في الصراع مع المغرب، وهنا تفضح النوايا الإسبانية التي أكدناها، إذ لم تكن تنتظر في الواقع سوى الحصول على الضوء الأخضر من طرف إنجلترا لكي تتدخل عسكريا في المغرب. ويتضح أيضا أن المفاوضات الطويلة التي تخللت العلاقات المغربية الإسبانية لم تكن إلا صورية، و أسلوبا من الأساليب التي نهجتها الدبلوماسية الإسبانية ، وأخيرا لا تغدو أحداث سبتة التي ركزت عليها إلا ذريعة مفضوحة من أجل الدخول في الحرب التي أعلن عنها القنصل العام الإسباني في رسالة إلى محمد الخطيب ضاربا عرض الحائط مسلسل مفاوضاته مع الحكومة المغربية :

" ... عليكم أن تقدروا كثيرا المجهودات التي بذلتها الحكومة الإسبانية في سبيل إيجاد حلول لإقرار السلم بين بلدينا.

إنه لمن الأسف أنكم لم تعطونا أجوبة مقنعة و نهائية في هذا المجال. ولذلك فقد قررنا أن نتجه إلى أسلوب استعمال القوة و السلاح ، وأن هذا القرار هو قرار نهائي.. ".[13]

بهذه الوسيلة إذن، تمكنت إسبانيا أن تكسب لنفسها مشروعية الدخول في الحرب مع المغرب. تلك الحرب التي ستؤثر بشكل آخر على طبيعة العلاقات المغربية الإسبانية في الفترات اللاحقة.

---

12 - رسالة وزير خارجية اسبانيا إلى وزير خارجية إنجلترا يوم 21 اكتوبر 1859.

13 - رسالة القنصل العام الإسباني في طنجة إلى محمد الخطيب يوم 24- أكتوبر 1859.

حرب تطوان و عواقبها من خلال وثائق المفوضية الأمريكية بطنجة

د. امحمد بن عبود
- كلية الآداب بتطوان-

سأتطرق لحرب تطوان وعواقبها من خلال وثائق المفوضية الأمريكية بطنجة. وأشير إلى أن هذه الوثائق مصورة بالمفوضية في المكروفيلم وأنها وضعت رهن إشارة الباحثين في المفوضية المذكورة، إلا أن الاطلاع على هذه الوثائق الهامة محدود جدا، مما يؤكد اعتقادي بأننا في المغرب لا نفتقر إلى الوثائق المتعلقة بتاريخنا بقدر ما نفتقر إلى المؤرخين والباحثين المؤهلين علميا وأدبيا. يمكن القول إن الموضوع الذي وقع اختياري عليه له ارتباط بجميع محاور الندوة.

فعلا، لقد تطرقت وثائق المفوضية الأمريكية بطنجة للأوضاع الإجتماعية والاقتصادية في تطوان ونواحيها كما تطرقت لعلاقة هذه النواحي ، وعلى رأسها مدينة طنجة ، بالمخزن وتطرقت أيضا للضغوط الإسبانية التي أدت إلى احتلال تطوان وإلى عواقب هذا الحدث التاريخي الهام في المنطقة.

اعتمدت على الوثائق الأمريكية دون غيرها نظرا إلى كثرة هذه الوثائق حتى أتمكن من التعمق في دراستها. من المعلوم أن وثائق القنصلية البريطانية والإسبانية والفرنسية لا تقل عددا وطرافة. ومما يدل على ذلك إشارة القنصل الأمريكي جورج براون إلى تقارير القنصلية الإسبانية أو نقله عددا من وثائق القنصلية البريطانية حرفيا في مراسلاته ، إلا أن تقاريركل قنصلية كانت تنفرد بمنظور خاص تطبعه سياسة البلد الذي كانت تمثله وكذلك مصالحها. ولا يمكن تحديد هذا المنظور إلا بعد التعمق في دراسة وثائق كل قنصلية على حدة. لذلك قررت أن أعتمد الوثائق الأمريكية حتى أقدم نظرة عن عواقب حرب تطوان اعتمادا على وثائق إحدى الدول المساندة للسياسة المغربية و المعارضة للسياسة التوسعية الإسبانية في المغرب آنذاك.

لقد حاولت في مشاركتي أن أركز على المستوى التوثيقي بالدرجة الأولى. تضم الوثائق التي كان القنصل الأمريكي يبعثها إلى الوزارة الخارجية الأمريكية تقاريره الأسبوعية أو الشهرية بالإنجليزية وبعض التقارير المكتوبة بالخط السري.

وأتمنى لو استطعنا في يوم من الأيام أن نتعرف على محتواها. فما كتب بالخط السري إلا لما تحتويه من معلومات بالغة الأهمية. و تضم مجموعة وثائق المفوضية الأمريكية بطنجة أيضا ترجمة إنجليزية لمراسلة بعض الشخصيات السياسية البارزة حول حرب تطوان وعواقبها، نذكر من بينها مراسلة النائب السلطاني المغربي السيد امحمد الخطيب وأجوبة القائم بأعمال لدى القنصلية الإسبانية السيد بلانكو ديل فايي (Blanco del Valle).

ومما تضمه هذه الوثائق أيضا رسائل أصلية من السلاطين المغاربة مثل مولاي عبد الرحمن بن هشام إلى بعض رؤساء الولايات المتحدة ، مثل الرئيس فرانكلين بيرس Franklin Pierce والرئيس أبراهام لينكولن Abraham Lincoln.

أقدم فيما يلي نموذجا من هذه المراسلات السلطانية وهي رسالة ننقلها بلفظها لطرافتها، وهي رسالة مؤرخة في 8 جمادى الأولى 1271 هـ من السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام إلى الرئيس الأمريكي فرانكلين بيرس:

<< بسم الله الرحمن الرحيم و لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم من عبد الله المتوكل على الله المفوض أمره إلى الله أمير المومنين بن أمير المومنين بن أمير المومنين بن أمير المومنين بن أمير المومنين (الطابع الشريف وبداخله عبد الرحمن بن هشام الله وليه).

أيد الله عساكره وجنوده ونصر أعلامه حيث توجهت وبنوده إلى المحب في جانبنا العالي بالله الكبير سلطان جنس المركاز فرنكلين بيرس. أما بعد فقد وصلنا كتابكم وفهمنا ما تضمنه خطابكم من توجيهك لايالتنا المحمية بالله قنصولكم صمويل كلنز نائبا مفوضا له في الأمور فقابلناه بالقبول والرعاية وجعلنا من جنابنا العالي بالله أمنع حماية وأوصينا بالملاحظة والاحترام والمعاملة بجميل المبرة والإكرام وكذلك كل من يأتي من تجارتكم نلاحظه ونعامله بالإحسان مراعاة لما أنتم عليه من المحبة في جانبنا العالي بالله وقد عرفنا القنصل المذكور بفرحكم غاية بحفظ المحبة والصلح والمهادنة والمودة بين الجانبين وذلك ثابت لدينا ومعلوم عندنا والمحبة قديمة من عهد الأسلاف والمحب لا يرى من محبه إلا ما يسره ويزيد تأكيد المحبة بلا شك ولا ارتياب والسلام في 8 جمادى الأولى عام 1271".

تتميز وثائق المفوضية الأمريكية بطنجة إذن بأهمية كبرى بالنسبة لتاريخنا الحديث نظرا لتنوعها و لإضافاتها و لاختلافها عن الوثائق الصادرة عن جهات أخرى.

عواقب حرب تطوان السياسية:

لقد تابع السيد جورج براون القنصل الأمريكي بطنجة التطورات السياسية التي أدت إلى انفجار حرب تطوان سنة 1859. ثم تابع تطورات هذه الحرب في تفاصيلها وأخيرا تطرق بالتفصيل لعواقب حرب 1860 في تطوان وفي مدن مغربية أخرى مثل طنجة وفي البوادي من جهة، وعواقبها على المستوى الوطني والدولي من جهة أخرى.

تتميز رواية جورج براون للأسباب المباشرة التي أدت إلى اندلاع الحرب بدقة ومصداقية كبيرتين. فيما يخص عنصر المصداقية فإن براون يعزز مواقفه بالوثائق. فعلى سبيل المثال ، لقد حلل تطور الضغوط الدبلوماسية الإسبانية على المغرب قبيل الحرب ثم دعمها بالنصوص الكاملة لرسائل وزير الخارجية المغربي امحمد الخطيب مترجمة إلى الإنجليزية في 10 صفحات إلى بلانكو ديل فايي (Blanco del Valle).

1 - **الرسالة الأولى مؤرخة في 1 أكتوبر 1859.**

عبر فيها السيد امحمد الخطيب عن موافقة السلطان على تلبية المطالب الإسبانية المحددة في رسالتين مؤرختين في 5 سبتمبر وفي 5 أكتوبر من نفس السنة.

2 - **الرسالة الثانية مؤرخة في 5 أكتوبر.**

تحيل هذه الرسالة إلى أربعة مطالب إسبانية و تؤكد رغبة السلطان في المحافظة على علاقات سلمية مع إسبانيا. كما تأسف هذا الأخير على ما تسببت به القبائل من أضرار لاسبانيا وقرر إرسال جنوده إلى أنجرة.

3 - **الرسالة الثالثة مؤرخة في 13 أكتوبر 1859.**

في هذه الرسالة إشارة إلى مطالب إسبانية جديدة منها امتداد سبتة إلى الأراضي العليا (high lands) قصد الدفاع عن سبتة وقد قبل السلطان هذه المطالب.

4 - **الرسالة الرابعة مؤرخة في 17 أكتوبر 1859.**

عبر السيد امحمد الخطيب في هذه الرسالة عن استغرابه لما ورد في رسالة المفوض الإسباني المؤرخة في 16 أكتوبر من مطالب جديدة ورفض الوزير المغربي التخلي عن مكان سمي بـ (Sierra Bullones) لعله يعني سلسلة بلوشين على مسافة ثلاث ساعات من سبتة وأخبر الطرف الإسباني بأنه سوف يستشير السلطان في القضية وختم رسالته معبرا عن تعجبه وأسفه للتقلبات في المواقف الإسبانية

بالرغم من رغبة المغرب الخالصة في المحافظة على السلم مع إسبانيا.

5 - الرسالة الخامسة مؤرخة في 24 أكتوبر 1859.

عبر فيها الممثل المغربي عن أسفه عن الجواب الإسباني وطلب الوقت المناسب لمراجعة الخلافات حفاظا على السلام.

ونقل القنصل الأمريكي ترجمة إنجليزية لرسائل بلانكو ديل فايي إلى امحمد الخطيب ، منها رسالة مؤرخة في 6 شتمبر 1859 فيها إشارة إلى هجوم قبائل أنجرة على سبتة وفيها إشارة إلى هجومات أهل الريف على مليلية والحسيمة وحجرة بادس (Peñon) وإلى ضرورة استعداد الحكومة المغربية لمعاقبة قبائل أنجرة.

وختم رسالته بالتهديد إن لم يلب المغرب مطالب إسبانيا ، كما نقل براون رسائل أخرى من بلانكو إلى الخطيب منها رسالة مؤرخة في 3 أكتوبر 1859 في ثمان صفحات، وأخرى مؤرخة في 5 أكتوبر 1859 في صفحتين ، وأخرى مؤرخة في 16 أكتوبر 1859 في خمس صفحات وأخرى مؤرخة في 24 أكتوبر 1859 في صفحتين.

ومن الوثائق التي كان القنصل الأمريكي يبعثها للوزارة الخارجية الأمريكية قصد تدعيم مواقفه قصاصات من الصحافة المنشورة بالإنجليزية خصوصا من جريدة كانت تصدر في جبل طارق وتتبع التطورات السياسية والإقتصادية بدقة قبل الحرب وبعدها وهي جريدة :

Gibraltar Chronicler and Commercial Intelligencer

وكثرت قصاصات هذه الجريدة في مراسلة براون بطريقة ملحوظة بعد اندلاع الحرب عندما هرب براون إلى جبل طارق وكان يبعث مراسلته إلى واشنطن من هناك. مثلا بعث مقالات من هذه الجريدة فيها وصف دقيق للحركة البحرية بين جبل طارق والجزيرة الخضراء وطنجة ضمن مراسلته المؤرخة في 2 نوفمبر 1859.

لقد تطرق القنصل الأمريكي بالتفصيل لهجومات قبائل أنجرة على الجيش الإسباني معتمدا في ذلك جنودا إسبانيين شاركوا في الأحداث وعلى تقارير القنصل البريطاني. كما أنه رفض مصداقية الأخبار الإسبانية الرسمية ووصفها " بالعبثية" منها الأخبار الصادرة عن عامل الجزيرة الخضراء (1 دجمبر 1859) إذ قال : " لقد تسربت حقيقة مفادها أن فرقة الجنيـــرال إشاغايس (Echagais) لقيت هزيمة ذريعة ألحق بها الجبليون المتوحشون من قبائل أنجرة هزيمة نكراء ولقد وصل عدد الضحايا إلى 2000 (1 دجمبر 1859).

ولقد حصل القنصل الأمريكي على معلوماته من ضابط إسباني شارك في

الأحداث. و جاء في تقرير فاتح دجمبر 1859 عن الإصطدامات العسكرية بين الإسبان وقبائل أنجرة أيام 22 و24 و25 دجمبر 1859 كما يلي :

" لقد تحدثت مع ضابط إسباني شاب عاد مؤخرا من الجزيرة الخضراء يوم 28 .... ولقد كلف بالإشراف على 159 جريح إسباني و أكد لي أن معركة يوم 25 كانت خطيرة للغاية بالنسبة لإسبانيا بل إنها أكثر خطورة من كل ما سبقها. وقال بأن الخسائر الإسبانية في القتلى والجرحى تجاوزت 1800 (1 دجمبر 1959)".

ووصف القنصل الأمريكي انتصار 15000 أنجري على فرقة عسكرية إسبانية مكونة من 7000 جندي في ضواحي سبتة بما يلي :

" يبدو أن فرقة إسبانية مكونة من 7000 رجل مسلح بأسلحة ثقيلة ومشاة وخيالة غادرت سبتة في صباح يوم 19 من الشهر الجاري وفي يوم 22 من نفس الشهر ظهرت إدالة مليشية من القوة المغربية فجأة أمام المخيم الإسباني ففتكت الإسبان دون رحمة قبل توجيه المدافع ضد المغاربة.

وغنمت قطعتين وست خيمات وكمية من الأرز وكانت حصيلة هذا اللقاء 25 قتيل وتسعا وثلاثين جريحا من بين رجالهم. وحملوا معهم 7 جثث إسبانية "(27 نوفمبر 1859.

وتضم تقارير القنصل الأمريكي تفاصيل عسكرية وسياسة دقيقة مثل إحصاء عدد الجنود الإسبان في سبتة التي كانت تتكون من فرقة قادس العسكرية وتضم 20000 جندي تحت قيادة الجنرال أودانيل و6000 جندي تحت قيادة الجنرال بريم (Prim) علاوة على فرقة مالقة التي كانت تتكون من 20000 جندي والتي اتجهت نحو سبتة (1 دجمبر 1859).

ووصف القنصل الأمريكي الجيش المغربي بقيادة مولاي العباس في ضواحي طنجة. لقد انحصرت مهمة هذا الجيش الذي وصل عدده إلى 120000 رجل علاوة على 10000 جندي بإمرة أخيه للدفاع عن طنجة (1 دجمبر 1859).

وقدم القنصل الأمريكي وصفا دقيقا لتقدم الجيش الإسباني من سبتة إلى مرتيل عبر شاطئ واد أسمير والرأس الأسود، (23 يناير 1860)، ونلاحظ أن القنصل الأمريكي كان يساند المغرب في تقاريره بحيث أشار إلى الجيش الإسباني على أنه جيش احتلال ، وتأسف لهزيمة المغاربة. نقرأ ما يلي في مراسلته المؤرخة بـ 23 يناير 1860 " ... يوجد مخيم الإسبان عن مرأى العيون في مسافة تبعد عن تطوان بحوالي 3 أميال ...

... أتأسف لقولي إن المغاربة قد خيبوا آمال أصدقائهم مؤخرا. لقد مكنوا

أودانيل (O'Donnell) من المرور عبر الرأس الأسود بمقاومة لا تكاد تذكر. ولقد كانت هذه نقطة قوة المغاربة فهي نقطة كان بإمكان 5000 رجل أن يقاوم منها جيش الاحتلال كله ... " (23 يناير 1860).

ووصف القنصل الأمريكي احتلال تطوان بالعبارات التالية في تقرير 14 فبراير 1860.

" كما سبق أن أخبرتكم في مراسلتي الأخيرة ليوم 23 الماضي سقطت تطوان في أيدي إسبانيا وأصبح شعار العدو المسيحي القديم يرفرف بافتخار فوق ساحة معارك المسلمين القديمة". (14 فبراير 1860).

وتأسف القنصل الأمريكي للسهولة التي تمكن الجنرال أودانيل بها من احتلال تطوان في تقرير يوم 14 أكتوبر 1860 قائلا :

" ومن جديد عند وصوله إلى تطوان، التي وصلها الجنررل أودانيل دون مواجهة للعدو إلا في ضواحي المدينة، أعلن الخبر رسميا يوم 23 يناير".

عواقب الخطة الإسبانية لاحتلال تطوان

يمكن القول إن عواقب حرب تطوان ظهرت قبل الاحتلال الإسباني للمدينة لأن الضغوط السياسية والعسكرية والإقتصادية الإسبانية على المغرب بدأت منذ ربيع 1859.

الضغوط الدبلوماسية:

إن الضغوط الدبلوماسية الإسبانية على المغرب تتبين في مطالبها التعجيزية ولقد تطرق إليها القنصل الأمريكي جورج براون بالتفصيل في تقاريره المؤرخة في مراسلة 4 مارس 1859. ويمكن القول إن مطالب إسبانيا كانت تعجيزية لأنها طالبت بمبالغ مالية باهظة وبأراضي في ضواحي سبتة وأخرى في ضواحي مليلية ثم هددت بقصف طنجة وموانئ مغربية أخرى.

ولقد أدى انتشار هذا الخبر منذ خريف 1859 إلى شعور سكان طنجة بالخوف والرعب كما جاء في تقرير القنصل الأمريكي التالي :

" لقد أدى الاتجاه الحالي إلى قمة التخوف و الإثارة في المدينة، ذلك أن السكان يعرفون معرفة جلية أن الجبليين المجاورين لهم والخارقين للقوانين والأعراف سوف يستغلون هذه الفرصة،كما سبق لهم أن فعلوا في مناسبات سابقة، لتخريب منازل المسيحيين واليهودوسوف يسوؤون أولائك الذين لن يسعدهم الحظ بمغادرة

المدينة لقد اتجهت عدة عائلات يهودية غنية إلى جبل طارق وتتبعها عائلات أخرى في الوقت الذي أكتب لكم فيه."

إن القناصلة الأجانب كانوا يعرفون شهية إسبانيا لاحتلال المغرب منذ مارس 1859. لقد جاء ما يلي في تقرير للقنصل البريطاني نقله القنصل الأمريكي جورج براون في تقريره المؤرخ في 4 مارس 1859 :

" ... إنني أعرف أن السلطان لن يتخلى للحكومة الإسبانية عن شبر من أرضه ولن يقبل المطلب الجديد وغير العادل لأداء مبلغ 000 30 دولار، كما علمت من مصدر مؤكد أنه ولو قبل هذا المطلب فسوف تقدم مطالب أخرى مازالت محتفظة بها لأجل الاعتداء على المغرب. وأميل إلى الظن أن التصريحات التي أدلي بها والقائلة بأن الحرب ضد المغرب لا تلقى تأييدا شعبيا فقط بل إنها ضرورية هي في الواقع صحيحة".

ولقد طلب القنصل الأمريكي سفينة من حكومته قصد حماية الرعية الأمريكية شأن غيره من القناصلة بطنجة، لأن مسألة الاحتلال أصبحت مسألة وقت لا غير. ولقد جاء ما يلي في تقرير مؤرخ في 2 أبريل 1859

" يبدو أن الاعتداءات المنتظرة لن تكتفي بتطويق عدد من موانئ هذه الدولة وقنبلتها بل سوف تجاوزها إلى الاحتلال".

ومن عواقب هذه الضغوط الإسبانية طلب عدد من المغاربة وعلى رأسهم اليهود الحماية الأجنبية. لقد جاء في تقرير القنصل الأمريكي يوم 2 أبريل 1859 أي قبل اندلاع الحرب بأكثر من نصف سنة ما يلي :

" .. في طنجة حصل حوالي 300 من الرعايا المغاربة (جلهم من اليهود) على هذا الامتياز [الحماية الأجنبية] ...

في الواقع لقد ساهمت بعض الأحداث في ترسيخ عدم الاستقرار في المغرب قبل اندلاع حرب تطوان وعلى رأسها وفاة السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام ورفض عدد من القبائل القوية إبنه الأكبر سيدي محمد وليا لعهده. ولقد وصف القنصل الأمريكي الإضطرابات التي نتجت عن هذه القضية في تقرير يوم7 سبتمر 1859 قائلا :

" ... إن البلد في طوله و عرضه يوجد في حالة ثورة" .

كما وصف القنصل في نفس التقرير عواقب هذا الحدث في طنجة قائلا :

" إن الباشا الحالي بطنجة مخلوق مسكين وخجول يتحرك بأوامر الهيئات القنصلية تاركا لنا اتخاذ الإجراءات اللازمة للمحافظة على حياة السكان

وأمتعتهم."
وعبر القنصل الأمريكي عن خوفه من القبائل في قوله :
" يجب أن نخشى القبائل التي تقصد المدينة في كل مناسبة لتقتل وتنهب وتخرب. إنها مشغولة حاليا بالاعتداء على الإسبان في سبتة. مادامت بعيدة عنا فإننا في مأمن. أما التنظيم الذي نجحنا به في تسيير شؤون المغاربة في المدينة، فإنه بمجرد وصول خبر بشأن مجيئهم إلينا سوف نعتبره علامة لفرارنا".

ووصف رعب المسيحيين واليهود في طنجة في تقرير يوم 9 سبتمبر 1859 قائلا:
" إن الهيجان والإزعاج ما يزالان مستمرين. كما أن المسيحيين واليهود يغادرون المدينة في أسرع وقت بمجرد حصولهم على الوسائل الملائمة".

ولقد انتهت الفتن في جميع مناطق المغرب بمجرد إعلان تولية السلطان سيدي محمد على عرشه، وهذا ما جاء في تقرير القنصل الأمريكي ليوم 12 سبتمبر 1859 . لقد لخص القنصل الأمريكي جورج براون الضغوط الإسبانية على المغرب قصد فرض الحرب على المغرب وذلك في تقريره المؤرخ في 5 أكتوبر 1859 والذي جاء فيه :
" منذ السنة الماضية وإسپانيا تقدم مطلبا تلو الآخر وهي مقتنعة بأن الحكومة المغربية سوف ترفض بعض هذه المطالب وسوف تتخذ هذا ذريعة لاحتلال طنجة ثم المطالبة بأداء مصاريف جيش الاحتلال".

وكان القنصل الأمريكي قد عبر عن مفاجأته في تقريره المؤرخ في 19 أكتوبر 1859 وعند وصفه قبول المفوض الإسپاني بلانكو موافقة الحكومة المغربية على جميع المطالب الإسبانية ليعود في اليوم التالي بمطلب جديد من الجنرال أودانيل يقضي بتنازل الحكومة المغربية لصالح الحكومة الإسبانية على بعض الأراضي في ضواحي جبل موسى و أعمدة هرقل (أشقار) وذلك في ظرف تعجيزي لا يتجاوز الساعتين.

لقد أعلنت إسپانيا الحرب ضد المغرب يوم 22 أكتوبر 1859 بعد أن خلقت الظروف المناسبة لتحقيق ذلك. قامت بهذا كله وحكومات الدول الأوربية تشاهد ذلك دون اتخاذ أي موقف معارض. لقد انتقد القنصل الأمريكي موقف بريطانيا المحايد ولكنه لم يتخذ أي موقف فعلي، بل إن الولايات المتحدة الأمريكية كانت آنذاك دولة ضعيفة و منقسمة على نفسها كما كانت مقبلة على حرب أهلية ذات العواقب الخطيرة. لذلك اكتفى القنصل الأمريكي بانتقاد إسپانيا واتهامها بأطماع توسعية و بانتقاد بعض الدول الأوربية لعدم و قوفها بجانب المغرب وبتأييد موقف

الحكومة المغربية واعتباره موقفا عادلا ومشرفا مع تأسفه عن الموقف الحرج الذي فرضته إسبانيا عليه بضغوطها الدبلوماسية والعسكرية.

عواقب حرب تطوان

لقد كانت عواقب الحرب إقتصادية بالدرجة الأولى. إلا أن العواقب الاقتصادية تفرعت ، فمنها العواقب الإقتصادية على مستوى الدولة المغربية، ومنها عواقب اقتصادية على مستوى محلي في تطوان أو طنجة أو في بواديهما، ومنها عواقب اجتماعية كما هو شأن الأهالي الذين هاجروا تطوان تاركين جل أمتعتهم، أو الجالية المسيحية واليهودية التي غادرت تطوان وطنجة متوجهة إلى جبل طارق وقادس تاركة جل أمتعتها. كما يمكن تحليل العواقب الإقتصادية لحرب تطوان على مستوى فردي كما هو شأن القنصل الأمريكي نفسه الذي عانى الكثير خلال الحرب وبعدها من الناحية المالية. ولقد ترتبت عن العواقب الإقتصادية مضاعفات إجتماعية خطيرة يمكن دراستها على مستوى الدولة وعلى مستوى المدينة أو على مستوى الأفراد.

عواقب الحرب الاقتصادية وإفلاس المخزن

لقد تطرق القنصل الأمريكي لعواقب حرب تطوان بالتفصيل، شأنه في ذلك شأن قناصلة بعض الدول التي كانت تربطها بالمغرب علاقات إقتصادية هامة وعلى رأسها بريطانيا. ويمكن اعتبار منافسة الدول الأوربية قصد الهيمنة على المغرب سببا رئيسيا لهذا الاهتمام.

لقد لخص القنصل الأمريكي حصيلة حرب تطوان الإقتصادية في التقرير التالي المؤرخ في 14 فبراير 1860 :

"... 15 .000 .000 دولارا وخسارة ما بين 12000 و13000 من أجود جنودها، سوف تلعب الدبلوماسية دورها الآن. إلا أننا قد نسمع أن تطوان قد سلمت سلبا بشرط أداء المغرب مصاريف الحرب كلها التي تقدرها إسبانيا بـ 80.000.000 فرنكا، يعني حوالي 16.000.000 دولارا ولكن من المؤكد أن الثمن الحقيقي الذي سيدفعه المغرب سيكون أقل من ذلك بكثير".

لقد تطرق القنصل الأمريكي بالتفصيل للعقوبة المالية التي فرضت على المغرب شرط تحرير تطوان. إلا أنني سأترك هذا الموضوع لكونه كان معروفا في المصادر والوثائق المخزنية والإسبانية وغيرهما.

وتطرق القنصل الأمريكي للتخريب الذي عرفته تطوان قبل احتلالها من طرف الجيش الإسباني بقليل. لقد جاء ما يلي في تقرير 14 فبراير 1860 حول السرقات

والنهب الذي عرفته المدينة في 4 فبراير :

" في الرابع من فبراير تراجع الجنود المغاربة عن مواقعهم أمام تطوان وبعد سرقة و إساءة معاملة يهود المدينة ونصاراها، وهم الذين تعرضت أشخاصهم و ممتلكاتهم للتخريب وأعمال عنف من كل نوع من طرف الجيش المغربي ، تراجع هذا الأخير إلى الداخل وارتاح السكان من مضايقتهم لمدة أربعة وعشرين ساعة، وبعد مرور هذا الوقت رفع علم أبيض على القصبة ... وخرج سكان المدينة مسلمين مفاتيحها لماكدونيل. وعمل الجنرال المنتصر كل ما في وسعه قصد إعادة النظام والطمأنينة".

ولقد كانت الأحوال الإقتصادية في طنجة خطيرة جدا كما جاء في تقرير القنصل الأمريكي في 6 يونيو 1861 بعد عودته إلى طنجة من جبل طارق :

" سوف تجدون طيه لائحة المصاريف التي تحملتها خلال الحرب بين إسبانيا والمغرب.

إنني الممثل الأجنبي الوحيد الذي عاد إلى طنجة خلال صراع الطرفين المتحاربين وبطبيعة الحال وجدت المدينة ونواحيها في حالة الطوارئ وأصبحت أسعار المواد الغذائية ، أسعار مجاعات وأدت محاصرة المدينة إلى منع دخول المواد الغذائية إلى المدينة .."

ولقد وصف القنصل الأمريكي الغلاء الفاحش الذي عرفته مدينتا تطوان وطنجة إثر الحرب. يظهر هذا مثلا في التعويضات التي خصصتها عدد من الدول الأوربية لقناصيلها ولموظفي قنصلياتها. و لقد نقل براون معلومات دقيقة في هذا الشأن عند احتجاجه على عدم تخصيص الحكومة الأمريكية تعويضات له وللموظفين في القنصلية. لقد جاء في تقريره المؤرخ في 7 يناير 1860 أن القنصل العام البريطاني أخبره بأن الحكومة البريطانية منحته تعويضا قيمته 300 جنيه كما منحت نائبه السيد ريد (Read) مبلغ 200 جنيه. أما الحكومة الفرنسية فقد خصصت 28 000 فرنك لقنصليتها وزعت على القنصل وغيره. وخصصت الحكومة السويدية لقنصلها العام 5 دولارات يومية منذ اندلاع حرب تطوان.

ومن الطريف أن نجد القنصل الأمريكي يقدم لائحة مفصلة لخسائره الشخصية نتيجة ضياع أثاث منزله وممتلكاته عندما غرقت الباخرة التي كانت تحملها في جبل طارق. فيما يلي هذه اللائحة التي نقلها في تقريره المؤرخ في 7 يناير 1860. : "... بيانو جديد قيمته 500 دولار وزرابي إنجليزية ومغربية وتركية وفارسية، أثاث لا تقل قيمتها عن تلك الموجودة في أي قنصلية في المدينة، علاوة على ملابس قيمتها 300 دولار وكذلك كمية من الشعير لثلاثة خيول وحمارين، كلها غرقت في

مضيق جبل طارق".

ومن الطريف أن نلاحظ بعض المستفيدين من حرب تطوان، وعلى رأسهم التجار الأجانب الذين زوّدوا الجيش الإسباني بحاجاته.

وصف القنصل الأمريكي بنكي في جبل طارق حصّل على ثروة ضخمة عن طريق تزويد الجنود الإسبان بالمؤونة وذلك بتعاون مع بنوك فرنسية وإنجليزية. إن الأمر يتعلق بالسيد كاباييرو (Caballero) الذي نقل عنه الاقتباس التالي في تقرير 14 فبراير 1860: " لقد حاولت بكل ما في وسعي أن أكسب ثروة وأعتقد أنني نجحت في تحقيق ذلك. عاشت الحرب (viva la gerra) ".

لقد كانت هذه الحالات استثنائية فلقد أدت العواقب الإقتصادية إلى أوضاع اجتماعية صعبة للغاية بالنسبة للمجتمع رأفراده على السواء. وذلك في تقريره المؤرخ في 7 يناير 1860 :

" لقد كنت القنصل الوحيد الذي عاد إلى منصبه خلال الحرب. صاحبتني زوجتي الشجاعة والمخلصة وأولادي الثلاثة ولم تبق في المدينة آنذاك أية امرأة مسيحية ولا أي طفل.

في مسافة رمي حجرة من المكان الذي أكتب إليكم منه، خارج أسوار المدينة، هناك قبر في مقبرة المسيحيين ، هناك توجد المرأة المخلصة التي حدثتكم عنها، لقد كانت في العائلة وأدت حادثة الأحوال في هذا البلد المتوحش ، كل هذا أدى إلى نزيف داخلي لا أستطيع أن أشرحه هنا وأدى ذلك إلى وفاتها في ليلة 6 يوليوز 1860".

إن وثائق المفوضية الأمريكية بطنجة تعكس عواقب حرب تطوان على مستويات مختلفة ، منها المستوى الشخصي عندما تطرق القنصل الأمريكي لوفاة زوجته نتيجة معاناتها من ضغوط حرب تطوان النفسية، ومنها المستوى الوطني عندما تطرق للغرامات المالية التي فرضتها إسبانيا على المغرب، ومنها المستوى الاجتماعي عندما تطرق للنهب أو الغلاء في طنجة وفي تطوان قبل حرب 1860 وبعدها. ولقد طالت مدة تأثير هذه العواقب على جميع المستويات المذكورة. فعلى سبيل المثال، نجد وصفا للتخريب الذي تعرضت له مدينة تطوان عشرين سنة بعد الحرب في النص التالي للكاتب واطسون :

" لقد عانت المدينة كثيرا خلال الحرب مع إسبانيا من 1859 إلى 1860 عندما أخذها الجيش الإسباني بقيادة الجنرال أودانيل بعد هجوم عاصفي، ولازالت المنازل المخربة قائمة تؤكد مدى خطورة هذا الاصطدام".

الملحـــق

النصوص الأصلية للوثائق الإنجليزية برائد المفوضية الأمريكية بطنجة حول حرب تطوان وعواقبها

Appendix

Despatches from the U .S Consuls in Tangier,
1797 - 1906 .
No . 117 Volume 7
April 1848 - May 10,1861

Document 1

Consulate of the U . S. of America,
Tangier March 4,1859
Hon. Lewis Cafs

Sir,

In the month of December last, the Government of Spain renewed a demand on the Sultan of Morocco for $2000, this being the

amount claimed for losses incurred by Spanish citizens through the piratical acts of the Sultan's subjects on the coast of the Riff.

After some delay, and through the interference of the Britannic Majesty's Chargé d'Affaires, this amount was paid .

Twenty five days after the claim had been satisfied, a Spanish squadron anchored in the bay of Tangier - the town was saluted - the salute returned - official visits were exchanged, and when the squadron sailed, the most friendly relations appeared to subsist between the two governments .

After the sailing of the squadron, the Moorish Minister of Foreign Affairs was surprised to receive from the Chargé d'Affaires of Spain, a demand for the release of six Spanish prisoners who, some months previously, had been captured by the riffians, whilst in the act of spiking a Riffian cannon near Melilla and the Riffians, to which it has not heretefore been deemed necessary to call the Sultan's attention. The fact, however, that the Sultan had been induced to indemnity Spanish, as he had previously done French and British citizens by paying the $2000 claim for the pillage by the Riffians of a Spanish vessel, was used as a pretext for claiming from the Sultan the restoration of the Spanish prisoners. The Sultan, although looking upon the transaction as not being exactly in accordance with fair dealing, exerted every effort to obtain the release of the Spaniards. In the meantime, and after the Moorish Minister of Foreign Affairs had notified the Spanish Chargé that the efforts of the Sultan had been successful and the prisoners would promptly be delivered at Tangier, another despatch is addressed to the Moorish Minister of Foreign Affairs demanding $30,000 for losses incurred twenty five years ago through the acts of the Riffians.

The Sultan refused to admit this new claim and referred the Spanish government to the notes which had been exchanged in 1845 whereby all pending difficulties and claims between the two governments were amicably and satisfactorily arranged.

The Spanish Chargé then addressed a note to the Moorish Minister of Foreign Affairs, stating that if the Moorish Government would cede to his government a piece of land near Melilla, (about two miles square) he was authorized by the Spanish government to withdraw the claim for $30,000.

The Sultan refused to cede " one inch of the territory which God had given him".

He was willing, however, to set aside a portion of his territory in the vicinity of Melilla as a neutral ground. This on the part of the Spanish government, was declined.

The Spanish Chargé then gave notice to all Spanish subjects to be prepared to embark, and has signified the intention of his government to bombard Tangier and the other ports of Morocco.

This of course has caused the utmost alarm and excitement in the town, the inhabitants knowing full well that the lawless mountaineers in the vicinity, will, as on previous occasions, avail themselves of thi opportunity to pillage the houses of Christians and Jews and ill tre. those who may be unfortunate enough not to succeed in embarking. Many of the wealthy Jew families have already left for Gibraltar, and others are hurrying off as I write.

The British Chargé who has been kind enough to read to me his despatch of this date to Lord Malmesbury and who, as I have before observed, is the advisor of the Moorish Government, informs his. Lordship that he has written to the governor of Gibraltar to send to Tangier, without delay, the man - of - war on that station in order to be prepared to embark his family and all British subjects. The despatch continues as follows:

" The Spanish Chargé has declined to communicate further with me on the "pending difficulty, and has requested the Moorish Minister of Foreign Affairs not to inform me of what is passing. Knowing as I do that the Sultan will neither cede to the Spanish government a portion of his territory, nor admit this new and unjust claim of $30,000, and learning also from a reliable source that even if this demand be acceded to, other demands are in reserve to bring about hostilities with Morocco. I am led to believe that the statements which have heretofore been made that a war with Morocco would not only be popular, but is actually necessary, are correct, and I confess that unless her Majesty's government finds a pretext for a prompt interference, I can see nothing to impede the bombardment and subsequent blockade of the Moorish ports. As the garrison of Gibraltar is dependent on this country for the most part of its supplies, your Lordship will perceive, we are interested in no small degree in the prevention of hostilities. I have also to acquaint your Lordship that I have despatched a Courier for the gun boat " Snail " and trusting to receive from England, I have the honor to be, etc ..."

In conclusion, I have only to add that I have solicited and obtained from the British Chargé a package on a British man - of - war to Gibraltar for my family and all persons entitled to American protection. The same favor will be extended to the families at the different ports, who may be in the enjoyment of American protection.

On the event of a bombardment, all the foreign representatives, with the exception of the British and myself, it is understood, will embark . We have agreed to remain together, trusting for our protection against the Kabyles in the friendship we enjoy with the Moors. By this means we hope to preserve the British and American Consulates from pillage.

With great respect,
I have the honor to be,
Sir,
Your obedient servant
George Brown"

Document 2

"Consulate of the U.S. of America,
Tañgier, April 2, 1859
Hon. Lewis Cafs,

Sir,

The contemplated hostilities, it appears, were not to be confined to a bombardment and blockade of the several ports of this country, but to include an invasion. The point designated for the landing of the troops has not been positively ascertained, but Martin, near Tetuan, or Tangier was to have had that honor.

... In Tangier, over three hundred Moorish subjects (principally Jews) availed themselves of this privilege ... the same thing occurred at Tetuan and other points..."

8000 cavalry and 15,000 infantry under the command of the Sultan's eldest son, has had more to do with the delay of the Spaniards."

Document 3

" Consulate of the U.S of America,
Tangier September 7,1859
Hon. Lewis Cafs,
Sir

.... many of the powerful tribes refuse to receive him, and the country in its entire length and breadth is in a state of revolution.

The present Bashaw of Tangier is a poor timid creature and acts under the orders of the Consular Corps, leaving entirely to us the direction of measures for the preservation of the lives and property of the Inhabitants.

Cannons, loaded with..., are planted at the several gates of the town, and no stranger is allowed to enter.

What we have to fear are the Kabyles, who on each occasion, flock into the town for murder and pillage.

At present, they are engaged in hostilities with the Spaniards at Ceuta. As long as they keep away we are safe, for with the organisation which we have succeeded in effecting we can manage the Moors of the town. The first announcement of their coming will be the signal for our flight.

The families of the Portuguese and Spanish Consul General embarked yesterday. It was at their embarkation that an attempt was made to create a revolution in the town. There remains yet to embark the families of Great Britain, the Consul General of Sweden and Norway, and my own....

The Spaniards are making preparations,on an extensive scale for a war with this country.

I have the honor to be,
Sir,
Your obedient servant,
Geo.V.Brown"

Document 4

"Consulate of the U.S. .of America,
Tangier, Sept.9, 1859
Hon. Lewis Cafs

Sir,

The excitement and alarm still continues, and the Christians and Jews are leaving as rapidly as they can obtain conveyances.

The army movements referred to in the Chronicle, have references to the Spanish troops destined to operate against Morocco.

Since writing the foregoing, intelligence has been received announcing the ....by the kabyles of the Bashaw of Rabat, and the capture of the town.

I have the honor to be,
Sir,
Your obedient Servant

Document 5

"Consulate of the U.S. of America,
Tangier, Sept.12,185 Hon. Lewis Cafs,

Sir,

I have the pleasure to inform you that the new Sultan Sidi Mohamed was yesterday proclaimed in Tangier as the legitimate Sovereign of Morocco, and that all fears of disturbance in the Empire have subsided.

Great rejoicings are now taking place in the town and although it is yet considered unsafe to venture beyond the gates, no fears of the continuance are entertained....."

With much respect,
I have the honor to be,
Sir
Your obedient Servant
Geo. V. Brown"

Document 6

"Consulate of the U.S. of America,
Tangier Oct.5, 1859
Hon. Lewis Cafs

Sir,

On the 3rd inst. the Sultan's reply to the ultimatum of the Spanish Government, acceding to all the demands of Spain, was communicated to M. Blanco, the Spanish Chargé d'Affaires in Morocco.

These demands, four in number, referred to territory in the vicinity of the Spanish fortresses of Ceuta and Melilla, which Spain claims to have been conceded to her in 1845, and to the punishment of the Kabyles...

For the past year Spain has been putting forward one claim after another. Under the conviction that the Moorish govt. will reject some of the demands and thus afford a pretext for the occupation of Tangier, and a demand for the expenses of the army of invasion...

...a telegraph despatch from Mr Buchanan, the British Ambassador at Madrid, dated yesterday, announcing that the invading army is to be augmented to 30,000 exclusive of the reserve at Cadiz, and that Marshal O'Donnell will assume the command of this invading force".

I have the honor to be,
Sir,
Your obedient Servant
Geo. V. Brown"

Document 7.

"Consulate of the United States,
Tangier October 19, 1859
Hon. Lewis Cafs,

Sir,

Since addressing your Department under the date of Oct.5, in relation to the Spanish and Maroquean difficulties, the conduct of Spain has been such as to leave no hope for the preservation of peace. ... and after solemnly stating that the Spanish Government had no other demands to make on Morocco, and that he should personally convey to his government the gratifying intelligence that all the demands of Spain had been acceded to, and peace thereby preserved. This gentleman departed the same evening for Algeciras en route to Madrid.

Great was the surprise to learn of the return on the following day of our friend, the Spanish Chargé, bearing with him a demand which Gen. O'Donnell, in anticipation of the former's arrival at Algeciras had telegraphed to him from Madrid, insisting upon the delivery to the Spanish Government of the territory in the vicinity of Apes Hill (Gvel Moosa, the African Pillars of Hercules) and the giving the Moorish Government but two hours to accede to the demand.

This new demand was refused.

This time expired ... but the bay is fast filling up with the Spanish fleet, and Christians and Jews with their wives, children and personal effects, are escaping to Gibraltar and Cadiz by every imaginable conveyance...

Some 25,000 Kabyles are now in the vicinity of Tangier, prepared to defend the town from Spanish invasion..."

I am, Sir,
With much respect,
Your Obt. Servt.
Geo. V. Brown

Document 8

"Consulate of the U.S. of America,
Tangier. Oct.25, 1859
Hon. Lewis Cafs,

Sir,

I regret to inform your that official information was received last night announcing that War against Morocco was declared in the Madrid Senate on the 22d inst.

Don Juan Blanco del Vallé, the Spanish Chargé d'Affaires,...is embarked on board a Spanish frigate, leaving Spanish subjects and their interests under the care of the Chargé d'Affaires of France.

I have the Honor to be,
Sir,
Your obedient Servt,
Geo. V. Brown.

Document 9

"Consulate of the U.S. of America,
Tangier Oct.27, 1859.
Hon. Lewis Cafs,
Sir,

At the request of the Moorish Govt. I have the honor to transmit for your personal, translated copies of the correspondence between Sidi Mohamed Khateeb, the Moorish Minister of Foreign Affairs and Señor Don Juan Blanco del Vallé, the Spanish Chargé d'Affaires, relative to the difficulties between Spain and Morocco.

It should be understood that Spain commenced her demands over Morocco over ten years ago, and demand after demand has been conceded on the part of this Govt. each concession being followed by a statement that no other demand were to be made on the part of Spain. The territory now asked for, it is evident this Govt. could not concede without giving offence to Great Britain, and calling down upon the Sultan the indignation of the Moors whose houses would thus be incorporated in the grant.

I am aware it has become quite fashionable to stigmatize this government and people as piratical. This is unjust. Every nation has its "mala gente" and the tribes in the vicinity of Ceuta and Melilla, although bad people, are probably no worse than can be found in Spain...

Spain, however, prefers to go war. She cannot await partially the result of the engineers' survey. Morocco is supposed to be weak, and not withstanding the death of the late Sovereign, and the time actually necessary for the present Sultan to select his Councillors and arranging the claims of other governments expects and insists upon Morocco yielding without a .. and without delay, whatever territory she may covet in this Empire either for her own security or aggrandizement...

The British Chargé d'Affaires has just informed me that in accordance with his advices from Madrid an attack on Tangier or Tetuan may be confidently looked for in a few days. His furniture is being shipped off to Gibraltar with the utmost dispatch. With the exception of a portion of the Consular corps, there is not a Christian or Jew in the place.

I regret to state that although war between Spain and Morocco has for months been anticipated in Europe, and has ben constantly referred to in the papers, no American man - of - war has yet made her appearance here .

Although indisposed to complain, I ought perhaps to state that for the past three years no American vessel of War has touched at a Moorish port.

With sentiments of respect,
I have the honor to be,
Sir,
Your Obdt. Servt.
Geo. V. Brown"

Document 10

"Consulate of the U.S.of America,
Tangier Nov.27,1859
Lewis Cafs,

Sir,

It appears that a Spanish force of 7,000 men, composed of mountain artillery, infantry and cavalry, marched out of Ceuta on the morning of the 19th inst...

On the 22d inst. a Militia force of 15,000 Moors of the Anjara tribe suddenly presented themselves before the Spanish encampment impetuously killing the artillerymen before the cannon could be brought to bear upon the Moors, taking possession of 2 fields, six tents, a quantity of rice and codfish, suffering a loss of 23 killed, 39 wounded, and bringing to Tangier seven dead Spaniards. The particularities of these engagements my British Colleague had not secured and I find it next to an impossibility to rely on the Spanish statements.

I have the honor to be,
Sir, Your obedient servant,
Geo.V. Brown"

Document 11

"Consulate of the U.S. of America,
Tangier Dec.1, 1859
Hon .Lewis Cafs,
Sir,

On the 27th last I had the honor to address you in relation to the engagements of the 22nd, 24th and 25th between the Spanish troops and the Moors. The statement that I then made that those engagements were disastrous to the Spanish arms, has since been confirmed.

I have conversed with a young Spanish officer who returned to Algeciras on the 28th ult. in charge of 159 wounded Spaniards, and he assures me that the battle of the 25th was a very grave affair for Spain and much more serious than the previous battles. He said the Spanish loss in killed and wounded was over 1800. Notwithstanding the absurd 'bulletins' which the Governor of Algeciras persists in issuing.

The truth has leaked out that in the engagement of the 25th Gen. Echagais' division was completely beaten by the wild mountaineers of Anjara, with a loss of 2000.

O'Donnell is now at Ceuta with the Cadiz division of 20,000 men, principally striplings. Gen. Prim followed O'Donnell with 6000. The Malaga division of 20,000 was to have left yesterday for Ceuta.

With much respect,
I have the honor to be,
Sir,
Your Obedt. Servt.
Geo. V. Brown"

Document 12

"Consulate of the U.S. of America,
Tangier Dec. 1,1859
Hon. Lewis Cafs,

Sir,

The Moorish force encamped within a half a day's march of Tangier, and kept there for the express purpose of defending Tangier, including the troops in the town, amounts to 120,000 men. This force is under the military command of Prince Moulay Abbas, the Sultan's brother. Another brother of the Sultan has started from Fez for the seat of war, with 10,000 black troops....

Document 13

"Consulate of the U.S. of America,
Gibraltar Jan. 23, 1860
Hon. Lewis Cafs,

Sir,

Since my despatch No. 17 there has been nothing until the 16th inst. but a series of uninteresting skirmishes between the Spanish and Moorish forces.

On the 16th inst. the division of General Rios disembarked at the mouth of Tetuan river. After a few boatsides from the Spanish squadron against the miserable little battery of seven guns' width, before its destruction in November last by the French squadron under Admiral Desfasses, defended the entrance of the river. The Spaniards' light squadron of 12 gunboats and 3 guarda costas entered the stream.

Meeting with no resistance, the Spaniards landed a detachment of 130 men which took possession of the battery and hoisted the Spanish flag.

On the 17th inst. The entire disposable force was under Marshal O'Donnell, moved along the shore to Fort Martil, where it approached Tetuan by the ordinary road.

...The Spanish camp is now within full view and about 3 miles distant from Tetuan..

... I am sorry to say the Moors have of Late, disappointed the expectation of their friends.

O'Donnell has been permitted to pass Cape Negro with little or no opposition. This was the strong point of the Moors, a point where 5000 men could have successfully resisted the whole invading army ...

I have the honor to be,
Sir,
Your Obedt. Servant
Geo . V . Brown"

Document 14

" Gibraltar Feb. 14, 1860
Hon . Lewis Cafs

Sir,

As I intimated in my last despatch of the 23° ult. Tetuan has fallen into the power of Spain and the red and orange ensign of the

ancient Christian enemy now floats proudly over the old Moslem battlements.

I am under the impression that the fall of Tetuan was prepared for the Dons, who, it was well understood, were making no headway against the Mussulmen, but were loosing at the rate of 100 men per day by cholera, fever, etc...

It is well known that on his first arrival at Ceuta, Gen. O'Donnell was especially convinced of the difficulties which encompassed him, that he retired to Algeciras and telegraphed to Madrid to know how peace would lead to revolution...

Again on reaching Tetuan, which O'Donnell did without encountering a foe except at the environs of the town, it was publicly announced ...Jan 23°.

On the 4th Feb. the Moorish troops retired from their positions in front of Tetuan, and, after robbing and maltreating the Jews and Jewesses in the town, whose property and persons seem to have been delivered over to the Moorish soldiery for pillage and brutality of every description, the Moorish army disappeared in the interior, and the inhabitants remained for twenty four hours without farther molestation. At the expiration of that period, a white flag was raised at the Castle, and on the night of the punishment the townspeople walked out with the keys of the town and delivered them over to O'Donnell.

Both parties have had enough of it, and the questionable glory which Spain has reaped, will probably be held the principal offset for the expenditure of at least $15,000,000, and her loss of between 12 and 15,000 of her best troops. Diplomacy will now play its part, and although we may possibly hear that Tetuan has been magnanimously up to the condition that the entire war expenses which Spain places at 80,000,000 francs, $16,000,000 are to be paid by Morocco, depend upon it. The actual sum Morocco will pay will be ever be insignificantly small. The world may never know the exact amount, but, on my return to Tangier which will probably be in a few days, I shall probably be able to put you in possession of the facts...

I have done my best to make my fortune and I think I have succeeded. "Viva la Guerra"..

The victorious General did everything he could to restore order and tranquility.

I have the honor to be,
Sir,
Your obedient Servant
Geo .V.Brown"

Document 15

" Consulate of the U.S.of America,
Gibraltar Feb. 24,1860
Hon. Lewis Cafs

Sir,

I have the honor to inform you that, accompanied by my family, I left Gibraltar for Tangier on the 20th inst. on the S. Sloop of War "Iraquois" and was landed here on the morning of the 21 st.

For some days prior to my departure from Gibraltar, no one in the garrison dreamed of anything but peace...

I must confess that I find myself in a critical position. My British colleague has remained here without his family...

I find myself here with my family, without a man - of war, or any other protection, when the danger may be said to be imminent.

- ...They tell me the Spanish squadron under Admiral Bastillon with troops on board is under the .. of Cape Spartel, and awaiting probably the advance of O'Donnell over land from Tetuan to co - operate in the attack on Tangier...

Sir,
Your obedient Servant
Geo. V. Brown"

Document 16

" Consulate of the U.S.. of America,
Tangier Jan. 7, 1861
Hon. Lewis Cafs
Sir,

With the exception of the United States, all the Governments represented in Morocco have made allowance to their agents at Tangier, for the extra expenses incurred at Gibraltar during the late war between Spain and Morocco.

Mr Drummond Hay, the Consul General of Great Britain, authorizes me to say that his government has allowed $300 ..Mr Reade, the British Vice Consul also authorizes me to say that his Govt. has allowed him $200.

The Viscount de Castillon, the French Chargé d'Affaires, informs me that his government has made an allowance to himself and the other officers of the Consulate, of 28,000 francs. Of this sum...

Mr. Vedim d'Ehnenhoff, the Swedish Consul General, authorizes me to say that he has been allowed by his government from the breaking out of the war in Oct.1859 until his return to his Consulate in June, 1860, the extra pay of $5 per day...

... a new piano valued at $500, English, Turkish and Persian carpets, and furniture not inferior to that of any Consulate in the place, together with articles of vestu, in all valued at $300, as well as my varieties supply of barley for 3 horses and 2 donkeys, having sunk in the bay of Gibraltar. I was the only consul who returned with my devoted little wife and three children. No other Christian female or child resided, at that time in Morocco.

About a stone's throw from where I write, just outside the walls of the town, there is an unpretending grave in the Christian burial ground.

It is there that the devoted woman of whom I have just spoken lies. She was in the family way, and the terror incident on the then state of things in this barbarious country, produced an internal derangement I cannot here explain which resulted in her death on the night of the 6th of July, 1860. Do not misunderstand me, sir, as referring to this affliction in the light of meriting a compensation in this world.

I merely mention it as a matter of history and that there may be placed on our records an additional evidence of the love and devotion of which the American wife is capable.

With sentiments
of respect,
I have the honor to be,
Sir,
Your obedient Servant
Geo.V.Brown"

Document 17

"Consulate of the U.S.of America,
Tangier May 10,1861
Hon.Wm .H. Seward

Sir,

... Civil war in all its horrors has fallen like a curse upon our Land.

...In brief I have just had an interview with Prince Mulay Abbas, the viceroy, and the Minister of Foreign Affairs and ..I have received from those authority the assurance that not only will American vessels seeking shelter in any of the Moorish ports be fully protected but that on my demand, any cruiser sailing under the flag of the revolted states of my country will be arrested and detained, subject to my orders or the orders of S. Government...

Sir,
Your obedient Servant
Geo.V. Brown"

Document 18

"Consulate of the U.S. of America,
Tangier, June 6, 1861
Hon .Wm. H. Seward
Sir,

Enclosed is a statement of the extra expenses incurred by me during the war between Spain and Morocco.

I am the only foreign representative who returned to Tangier pending hostilities between the belligerents. As a matter of course I found the town and vicinity under martial law, with provision of every description at famine prices, and a strict blockade kept up to prevent the town from being provisioned.

The additional expense to which I was put by this state of things, is not included in the statement.

With sentiments of respect
I have the honor to be,
Sir
Your obedient Servant,
Geo. V. Brown"

Document 19

" Consulate of the U.S. of America,
Tangier, Nov. 5,1861
To the Hon. W. H. Seward,
Sir

I have to announce to you an arrangement of the question between Spain and Morocco on the basis of the promise to pay within a few weeks, the balance of one half of the indemnity claimed by Spain from Morocco.

On this payment being made, it is agreed that Tetuan is to be delivered back to the Moorish Government, and that the remaining ten

millions are to be paid from the customs revenue of this Empire - said revenue being subject to the inspection of the Spanish officials.

It has been clearly demonstrated that in view, perhaps, of her designs on Mexico,Spain has been extremely anxious for an early and amicable settlement of this Maroquean difficulty.

I have also to inform you that official information has been received at Malta, announcing the cruising in the vicinity of Messina, of a very suspicious three mastered American built schooner, supposed to be a Rebel pirateer.

Should this vessel visit any of the ports of this Empire, and prove to be a privateer sailing under the flag of our rebellious States, I shall hold this government to the promise made to me in May last, to prevent such craft from sailing hence until orders to that effect are received from your Dept.

I have the honor to be,
Sir,
Your obedient Servant,
Geo. V. Brown"

Document 20

"Consulate of the U.S. of America,
Hon.W.H. Seward,
Nov.17,1861

Sir

...Setting the probability of a war with Great Britain, one can easily understand what serious mischief may be entailed on our commerce, if the privateers appear in the vicinity of the Mediterranean, which they are not unlikely to do, or can have an understanding about the disposal of fringes, which could be easily effected at Tangier. In fact, an examination of the maps, will show that Tangier, occupying as it does,a point midway between the Atlantic and the Mediterranean, may possibly become a point of the very first importance to America and American interests.

Sir,
Your obedient Servant
Geo. V. Brown

المواقف السياسية لعلماء تطوان

خلال القرن التاسع عشر

د..عبد للطيف حسني

كلية علوم التربية - جامعة محمد الخامس..

يبدو، أن عملية فرز المواقف السياسية لعلماء تطوان خلال القرن التاسع عشر، من أجل تناولها بالتحليل والدراسة، تقتضي منا بدءا، تحديد مفهوم العلم والعلماء، من جهة، كما تقتضي من جهة أخرى، تحديد مفهوم الموقف السياسي.

في تحديد مفهوم، العلم، و العلماء :

تعتبر صفة " العلم " من صفات الله تعالى : " العليم والعالم والعلام، و"هو الخلاق العليم" و"عالم الغيب والشهادة " و"علام الغيوب" فالعلم المطلق إذن صفة الأهية ، إلا أن هذا ، لا يعني، أن العلم في مستوياته اللاإطلاقية، لا يعد من صفات البشر، إذ يجوز أن يقال، للإنسان، الذي علمه الله علما من العلوم "عليم" كما قال يوسف للملك " اني حفيظ عليم "، وقول القرآن: " إنما يخشي الله من عباده العلماء".

والعلم في المستوى الإنساني، يحمل، معنى، نقيض، الجهل. علم علما، وعلم، هو نفسه، ورجل عالم، وعليم، من قوم علماء فيهما جميعا ... قال، ابن جني : لما كان العلم، قد يكون الوصف به، بعد المزاولة له، وطول الملابسة، صار كأنه غريزة، ولم يكن على أول دخوله فيه، ولو كان كذلك، لكان متعلما لا عالما، فلما خرج بالغريزة إلى باب فعل، صار عالم في المعنى كعليم ... وعلامٌة، وعلامة، إذا بالغت في وصفه بالعلم، أي عالم جدا، والهاء للمبالغة كأنهم يريدون داهية من قوم علامين ... وعلمت الشيء أعلمه علما عرفته، قال ابن بري:

"وتقول علم وفقه، أي ساد العلماء والفقهاء."[1]

فالعلم، إذن سيادة، سيادة ضد الجهل. وتكريس لتفوق نخبة من الحاملين له، عن باقي مكونات المجتمع.

لقد نمت سلطة العلماء، في الإسلام، على أرضية الواقع العملي، وإن كانت

---

1 - ابن منظور، "لسان العرب"، مجلد 12، طبعة بيروت ، سنة 416 ص.1956 .

أدوارهم مؤطرة نظريا، من خلال بعض الآيات القرآنية، [2] ومن خلال سنة الرسول [3] من هذا المنطلق، تبدو رؤية ابن خلدون للهيئة العالمة في المجتمعات الإسلامية، رؤية تنطوي على الكثير من المبالغة. ومن الحطّ من قيمة العلماء. إذ يقول في هذا الصدد: ".. إن حقيقة الحل والعقد، إنما هي لأهل القدرة، فمن لا قدرة له، ولا عقد لديه، اللهم إلا أخذ الأحكام الشرعية، وتلقي الفتاوي منهم، فنعم والله الموفق، وربما يظن بعض الناس، أن الحق فيما وراء ذلك، وأن فعل الملوك فيما فعلوه، في اخراج الفقهاء و القضاة، من الشورى مرجوح، وقد قال صلى الله عليه وسلم " العلماء "ورثة الأنبياء " " فاعلم أن ذلك ليس كما ظنه، وحكم الملك والسلطان، إنما يجري على ما تقتضيه طبيعة العمران..." [4] إن ابن خلدون يذهب بعيدا في هذا الاتجاه، إذ يقر." أن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها [5] لكن قبل ابن خلدون ، أطلق عمر بن الخطاب ، قولته الشهيرة في الموضوع :" تفقهوا، قبل أن تسودوا [6]"، إن السيادة، تبدو في هذه القولة ثمرة من ثمار العلم، فالعلم إذن سيادة سلطة أهلت حامليه لممارسة أدوار هيمنية، فعلية في المجتمع وأي دور أقوى وأشد فعالية من دور إنتاج وخلق الأفكار، ونشرها ونقدها. لقد شكلت الهيئة العالمة في المجتمعات الإسلامية، هيئة تقارب إلى حد ما الهيئة الحاكمة. [7] وهو ما يبدو سببها بالمكانة التي احتلها رجال العلم في الصين، والبراهمة في الهند. [8]

- في تحديد مفهوم الموقف السياسي:

إن الموقف في المجال السياسي، هو قبل كل شيء، سلوك، رد فعل، استجابة قد تكون سلبية أو إيجابية، اتجاه حدث سياسي معين. والحدث السياسي، هو بصورة عامة، الحدث الذي يكون له تأثير على الدولة، و يعني حياة المجتمع، معنى ذلك أننا ونحن نتناول موضوع " المواقف السياسية لعلماء تطوان خلال القرن التاسع عشر

---

2 - من نموذج : "وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم : يقول آمنا به " آل عمران. آية 7 . " لكن الراسخون في العلم منهم، والمومنون يومنون بما أنزل اليك وما انزل من قبلك.(النساء 162). " شهد الله أنه لا إلاه إلا هو والملائكة وأولوا العلم "آل عمران: آية : 18. " وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك " الحج، آية 54.

3 - انظر على سبيل المثال: محمد بن حجر العسقلاني.فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج.1،مصر سنة 1348 هـ .

4 - ابن خلدون : المقدمة، ص. 223 - 224.

5 - ابن خلدون : نفس المرجع، ص. 542.

6 - محمد بن حجر العسقلاني ، المرجع السابق، ج. 1، ص. 135.

7 - للمزيد من التفاصيل هي هذا الشأن، تنظر المقالة الجيدة لرضوان السيد. السلطةوالمعرفةفي التاريخ العربي الاسلامي. مجلة دراسات عربية. العدد 11. السنة 15. سبتمبر1979، ص. 25 وما بعدها.

8 - ت. بوتومور. النخبة و المجتمع، ترجمة جورج جحا، ص.42. بيروت الطبعة الأولى سنة 1972.

سنكون بصدد دراسة سلوكيات هيئة معينة، هي العلماء، اتجاه الأحداث والوقائع السياسية التي عايشها المغرب خلال هذه الحقبة.

- 2 - لا بد من الأقرار أولا، أن الاطار العام لهيئة العلماء في المغرب، يكتنفه الكثير من الغموض، فنحن كما يقول" إدموند بورك "لسنا أمام هيكلة منظمة تنظيما دقيقا، كما كان عليه الحال في الايالة العثمانية [9]هذا رغم المحاولات التي بدلت من قبل السلطان الحسن الأول.في هذا الميدان، وكذلك السلطان مولاي عبد العزيز،لربط الهيئة العالمة من الناحية المادية بالمخزن. فبحسب شهادة المؤرخ ابن زيدان فقد "جرت العادة منذ بزوغ شمس هذه الدولة الشريفة على أرجاء المغرب الأقصى، بالإحسان إلى العلماء والمنتمين إلى العلم وتشجيعهم على بث العلم ونشره. وإعانتهم، ومد ساعدالمساعدة اليهم ماديا أو أدبيا من الخزينة الدولية تارة، ومن الأحباس أخرى، فمن ذلك ما هو مشاهدة، ومنه ما هو مسانهة، ومنه ما هو عند رأس كل ستة أشهر، فالمسانهة ثور، وثلاث قلل زيتا عنها لترات ستون، ووسق من جيد القمح، وكسوة، تحتوي على مساء، و برنس، وقميص وقفطان ملفا، وفرجية وعمامة، ونصف قيمة غالبا في إبان الحصاد والكسوة في زمن الشتاء فإن وقع تراخ في دفع ذلك كلا أو بعضا، يكتب العلماء للجلالة السلطانية بطلب المؤخر، ولا يكون جوابهم إلا بالتنفيذ المعجل .."[10].

لذا وحتى نتمكن من الاقتراب بصورة أفضل من موضوعنا، فسننتقي له أربعة نماذج من الهيئة العالمة بمدينة تطوان. نموذج الفقيه، ونموذج الأديب، نموذج المتصرف، ونموذج كاتب السلطان، مسلطين اهتمامنا على تبيان مواقف هذه النماذج اتجاه، السلطة واتجاه الواقائع السياسية.

1 - نموذج الفقيه:

يمثل هذا النموذج :" الفقيه عبد الكريم غيلان " (توفي سنة 1856 مما جاء في أوصاف هذا الفقيه نقتطف ما يلي : "...كان على جانب كبير من التقوى والاستقامة، لا يهاب الملوك فمن دونهم، ويقول الحق ولوكان مرا، ويقابل الجبابرة بالقوة والغلظة. ولا يخشى إلا ربه.[11]

إن التركيز على هذا الجانب في ترجمة هذا الفقيه ، يعكس من دون شك، نوعا من إعجاب واضعي التراجم بهذا الموقف، وتحلية الترجمة يكون المترجم له، " لا

9 - إدموند بورك، العلماء المغاربة في:1860 - 1912. تعريب د. امحمد بن عبد وعبد العزيز السعود. مجلة البحث العلمي. العدد :31 السنة 16. أكتوبر 1980 ، ص . 117.

10 -عبد الرحمن بن زيدان." العز والصولة في معالم نظم الدولة". ج.1، ص. 163.

11 - محمد داود. "تاريخ تطوان" المجلد 7 ، ص. 14. المطبعة الملكية ، الرباط سنة 1990.

يهاب الملوك يعني الإشارة إلى افتقاد هذه الصفة في باقي مكونات الهيئة العالمة، التي على ما يبدو، كانت متسمة بعكس صفات المترجم له.

إن هذا الفقيه، رغم مواقفه هذه، نجده، يضطلع ببعض الوظائف ذات الطبيعة الدينية، إذ كان يحترف العدالة، كما يشتغل بالأمامة والتدريس والإفتاء، بالإضافة إلى عمله في تجارة الشمع.

إننا أمام هذا النموذج، المنسجم إلى حد ما، نجد أنفسنا، أمام دور سياسي أساسي، اظطلعت به هيئة الفقهاء بمدينة تطوان، وهو دور سبقت الممارسة التاريخية الإسلامية أن رسخته، دور ترشيد الحياة السياسية، وهو دور مستقى من مبدأ " التضحية " ومن واجب " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر."

2- نموذج الأديب:

لنأخذ نموذجا آخر، نموذج وتنعدم فيه خاصية الإنسجام، ويعكس الضد المقابل للنموذج الأول، إنه " الأديب سيدي مفضل أفيلال " ـ توفي سنة 1886ـ[12] إن موقف وسلوكيات هذه الشخصية من الوقائع والأحداث السياسية التي عايشها، وفي مقدمتها حرب تطوان سنة 1860، ستتحدد، بناء على عامل المصلحة الشخصية تحدثنا كتب التراجم، أن المترجم له، كان يزاوج في عمله بين الأشتغال بالتجارة (إذ تقلب في 6 حوانيت خلال مدة لا تتجاز خمس سنوات) وبين الإشتغال بالإمامة والخطبة والتدريس والعدالة، وهي الوظائف التي استقر بها عند إفلاس تجارته، بيد أن هذا الاستقرار المهني سرعان ما ستعصف به حرب تطوان، لذلك نراه، يتخذ موقفين في هذا الصدد:

- حرصا منه على الإستقرار المهني، الذي نجح في تحقيقه، فإنه لم يكن من أنصار الحرب بين المغرب وإسبانيا.

- من الناحية العملية، سيعمل المترجم له على تحريض مواطني تطوان على الجهاد ضد الغزاة الإسبانيين.

هكذا، يبدو أن المصلحة، والمصلحة الشخصية وحدها، تبدو، المتحكمة في بلورة هذه المواقف المتعارضة، فحياة الإستقرار التي نجح في تحقيقها دعته إلى الدعوة لتجنب المواجهة مع إسبانيا، إلا أن تشريد حرب تطوان له، وسياسة الأمر الواقع التي فرضها الإسبان على أهالي مدينة تطوان، لم تدع له من هامش سوى الدعوة لتحرير المدينة.

---

12 -محمد داود ، المرجع نفسه، ص.177. وما بعدها.

3- نموذج المتصرف:

نستطيع أن نستدل على هذا النموذج، بالمتصرف التطواني "عبد السلام بن ريسون" (توفي سنة 1881)[13] والذي يمكن التمييز في سلوكه السياسي بين موقفين اتجاه المخزن، أ ظاهرة السلطة.

- موقف المداهنة للسلطة:

إذ عرف منه حضه لذوي المناصب المخزنية على الإخلاص للسلطان ، وإلى جانب هذه الممارسة ، فقد اضطلع بدور المهدي، والداعية إلى ايقاف أعمال النهب ولسرقة التي كانت تنتهجها قبائل بني عروس، كما عرف عنه تلقيه، وتقبله لهدايا موظفي المخزن.

- موقف الحياد السلمي اتجاه السلطة:

يتجلى هذا الموقف بشكل واضح، في القولة لتي كانت تجري على لسانه، والتي سرت مسرى المثل، إذ روى عنه قوله : "سلطان من لا شاف سلطان " أو "سلطان من لا عرف سلطان"، إنه موقف سلبي اتجاه ظاهرة لسلطة ، يعكس مخاوف العالم المتصوف من جبروت السلطة .

و استبداديتها، ورفض العيش تحت رحمتها.

سيتخذ هذا المتصوف، إثر حرب تطوان، موقفا سياسيا واضحا، إذ سيشارك إلى جانب أهالي المنطقة في مدافعة الإسبان عن المدينة.

4- نموذج كاتب السلطان:

لنتناول الآن، نموذجا أكثر تطورا من النماذج السابقة، وذلك على مستوى الفعالية السياسية إنه نموذج كاتب السلطان، الذي يمثله بامتياز "السيد محمد بن عبد الله الصفار" (توفي سنة : 1880)[14].

بدأ " الصفار " حياته، عدلا، ثم مدرسا، ثم كاتبا لدى قائد تطوان "محمد أشعاش " ثم لدى إبنه "عبد القادر أشعاش"ليترقى بعذ ذلك الى منصب الوزارة الذي ظل يشغله طيلة حكم كل من السلطان مولاي عبد الرحمن، والسلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن، والسلطان الحسن الأول، وهو بذلك يشكل نموذجا لمواقف السياسية للهيئة العالمة التي كانت مرتبطة بالمخزن.

من منجزاته السياسية، مسارعته بيعة السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن، أثر وفاة، والده السلطان مولاي عبد الرحمن، الأمر الذي أسهم في إخماد نار الفتن

13 -محمد داود، المرجع السابق، ص. 98. وما بعدها.

14 -نفس المرجع، ص.78 وما بعدها.

التي كانت متوقعة آنذاك، لتطلع أولاد مولاي المامون، حفذة، المولى سليمان، للسلطة أيضا، من أهم إنجازاته لسياسية، تدخله لدى السلطان الحسن لإخماد الثورة، التي اندلعت بفاس، بمناسة إجراءات الأمين بنيس، وذلك بطرق سياسية بدل اللجوء إلى العنف والقوة.

وعلى عكس النماذج السالفة، فقد خلف لنا الصفار التطواني مؤلفا عن رحلته إلى فرنسا، سنة 1845 ككاتب للسفارة المغربية، من خلال تصفحه، يتبين، لنا بشكل واضح، مواقفه السياسية، وهي مواقف كما تبدو، مشيرة إلى حد ما، كما تتسم برؤيتها المتفتحة على التطورات التي عرفها العالم، خلال هذه الحقبة.

الموقف من المدنية الغربية:

كتب " الصفار التطواني "بخصوص مظاهر التمدن الأوربي، يقول : " أعلم أن هؤلاء القوم (يعني الفرنسيين، ليس عندهم في مساكنهم أخصاص، لا نواويل، وإنما يعرفون البناء لا غير، إلا أن بناء البوادي متميز عن بناء الحواضر، فقراهم في الحقيقة من جملة المدن ... وقد رأينا في طريقنا هذا وما يشهد شهادة حق لأهل هذه البلاد، بالإعتناء التام، والبصر العام بأمور دنياه وإصلاح معاشهم و إتقان تدبيرهم... "[15].

فكشاهد عن التمدن الأوربي، يكشف " الصفار التطواني "عن اتسام هذا التمدن بخاصية التبصر الإتقان، ينضاف إلى ذلك موقفه من التطور الذي حققته المرأة الفرنسية ، إذ كتب عن ذلك يقول : " .. ولا يجلس إلا النساء (أي أثناء الاحتفالات) وكلهن مزينات بأحسن زينتهن ولابسات أفخر ثيابهن، وحد الستر في لباسهن الشديان، فهما مستوران، وما فوقهما من الصدر والظهر والرقبة، مكشوف، بادي، ويسترن بعض العضد إلى نصف الساعد بأكمام ضيقة على قدر العضد، فهو لا يبلغ المرفق، ويحزمن على الخصر تحت ذلك الثوب بحزام ضيق لرقة خصورهن، قيل إنهن يربينه كذلك حين الضغرفي قالب معدله ... فإذا أقبلت عليك، تشتهي أن تمسكها من ذلك الخصر ... "[16].

إن الأمر هنا، يتجاوز نطاق الإعجاب، إلى مجال التغزل بسيدات المجتمع الفرنسي، وإذ يتبنى " الصفار التطواني " ذلك، فإنه يعكس بذلك موقفه المتفتحنسبيا عن المدنية الغربية.

---

15 -أبو عبد الله محمد الصفار التطواني، "رحلة الى فرنسا". مخطوط ، ص.29 ، الخزانة الملكية ، الرباط، رقم : 113.

16 - نفس المرجع، ص. 105 - 106

- الموقف من التنظيمات الأوربية:

تعكس الرحلة، إلى جانب ذلك، بوادر ميل، أو توجه، يقبل إلى حد ما بالتطور الديمقراطي الذي كانت تعرفه فرنسا آنذاك، لقد توقف " الصفار التطواني" كثيرا، بالحديث عن مظاهر الديمقراطية التي سادت فرنسا خلال هذه الحقبة، إذ كتب في هذا الشأن يقول :"...وفي رابع عشر صفر، ذهبنا للقمرتين الكبيرة والصغيرة. (يقصد بذلك البرلمان الفرنسي بمجلسه : مجلس الشيوخ ، والجمعية الوطنية) والقمرة دار يجتمعون فيها لتدبير قوانينهم، الكلام في أمورهم، وبناء مكان الإجتماع، قبة على شكل بناء "التياتر"وفي أرضها انحدار وكلها مصطفة بالكراسي) وفائدة الإنحدار ليرى كلهم من يكون أماهم، وعند انتهاء الكراسي مرقاة على شكل المنبر إلاأن درجها من جانبها، فمن يريد التكلم يصعد تلك المرقاة[17] بيدأن «الصفارر التطواني» لا يتوقف عند جانب الوصف المعماري لهذه المؤسسة، إذ يتجاوز ذلك إلى الحديث عن الدور الوظيفي الذي تضطلع به، وفي هذا الصدد كتب يقول "... ومن وظيفتها (أي القمرة)، تجديد قانون مفقود، أو إبقاء قانون موجود على حاله والفرق بينهما (أي بين القمرة الكبيرة والضغيرة)، أن القمرة الكبيرة، تحامي عن الملك ورؤساء الدولة .. والصغيرة، تحامي عن الرعية وتنصرها، وتطلب حقوقها ... فكأنها خصم لأخرى ، ولا يمضي قانون من قوانينهم، لا حكم من احكامهم ، إلا إذا اتفق عليه أهل القمرة الصغيرة والقمرة الكبيرة ، والسلطان و وزرائه، وأما، أحكام النوازل، والجزئيات، فهي عندهم مدونة في الكتب ، و لايستقل السلطان وحده، وعدهم بحكم من الأحكام، لكن لا يمضي حكم إلا أنفذ أمره »[18]. إن حديث " الصفار التطواني " يتعلق هنا، بالنظام السياسي، الذي كان قد استنه "لويس فيليب" للفرنسيين ، بمقتضى شرعة سمة 1830، ومن الرجوع لى نص الشرعة يبدو أنها نسخة منقحة عن شرعة سنة 1814، كما أن خاصيتها الأساسية، أنها لم تكن ممنوحة. فالنظام المتحدث عنه هنا، نظام، أقر، بعد اتفاق بين الملك والبرلمان.

كما أن هذا النظام، أقر حرية الرأي، مجسدة في حرية الصحافة [19]وهو ما بدا مثيرا بالنسبة لـ " الصفار التطواني "إذ كتب بهذا الشأن يقول :"... ولأهل باريز كغيرهم من سائر الفرنسيين تشوف لما يتجدد من الأخبار، ويحدثمن الوقائع، في

---

17 -أبو عبد الله الصفار التطواني ، المرجع السابق، ص. 132.

18 -نفس المرجع، ص. 133 - 134.

19 -أندري هوريو ، القانون الدستوري و المؤسات السياسية ، ج 2، ص. 264 ، بيروت، سنة : 1984.

سائر الأقطار، فاتخذوا ذلك الكوازيط، وهي ورقات يكتب فيها كل ما وصل إليهم علمه من الحوادث الوقائع في بلدهم، أو الأخبار. ومنها أن ما شهر له رأي في أمر من الأمور، ولم يكن من أهله ، فإنه يكتب في الكازيطة، و يشهر لسائر الناس حتى يطلع عليه ذووا رأيهم، فإن كان سددا تبعوه، و إن كان صاحبه حقيرا ، فهذا مما يستحسن كما قال الشاعر :

لا تحقرن الرأي و هو مواقـف ** وجه الصواب اذا أته من ناقص
فالدور و هو أجل شيء يقتني ** بأحط قيمته هو ان الفائـظ [20]

إن الأمر هنا ، يتجاوز، نطاق الوصف وإلى نطاق إبداء الإعجاب، إن إشارة الإنتباه إلى أشياء محددة في التنظيمات الأوربية، من قبل "الصفار التطواني" ليعكس من دون شك، موقفا سياسيا مضمرا اتجاه هذه التنظيمات إنه من دون شك، توجه وميل حو المؤسسات الديمقراطية، يعلن عن ذاته من خلال التركيز على أوضاع وموضوعات معينة ضمن التنظيمات الأوربية، وهو ما يجعلنا نستخلص، أحد سمات الهيئة العالمة التطوانية المرتبطة بالمخزن، والتي كان البعض من أعضائها ميالا للإنفتاح على منتجات الحضارة الغربية.

هكذا، نستطيع أن نستخلص، من مجموع النماذج المقدمة في هذا الصدد تصنيفا رباعيا، لمواقف الهيئة العالمة التطوانية، من السياسة.

1- صنف الفقهاء، القائمين بوظائف معينة ذات طبيعة دينية، والمضطلعين في نفس الوقت بواجباتهم الدينية، وفي طليعتها واجب النصيحة، وبتعبير أحدث صنف العلماء الساهرين على ترشيد العملية السياسية.

2 - صنف العلماء، المرتبطة مواقفهم السياسية، بمصالحهم الشخصية.

3 - صنف العلماء المزاوجين بين موقف مداراة ومداهنة السلطة وموقف الحياد السلبي اتجاهها.

4 - صنف العلماء ، المرتبطين بالمخزن و ذوي المواقف المتفتحة نسبيا على مجريات التطورات العالمية.

---

20 -المرجع السابق، ص. 98.

جوانب من علاقة تطوان بقبائل غمارة

خلال القرن التاسع عشر انطلاقا من وثائق محلية

الأستاذ محمد خرشيش
كلية الآداب - تطوان

في البداية نرى من الضروري الإدلاء ببعض الملاحظات حول الوثائق التي شكلت منطلقا لإنجازهذه المداخلة و أفرزت المحاور الرئيسية لها :

أولا : إنها عبارة عن مراسلات بين السلطة المركزية (السلطان) والسلطات المحلية (قيادة قبائل غمارة)، تمتد لفترة زمنية طويلة من نهاية القرن الثامن عشر (1789) حيث نجد رسالة سلطانية للقائد أحمد بن مرزوق تتعلق برفع الجبايات عن هاته القبائل وإلى حدود نهاية القرن التاسع عشر (1895) بوثيقة سلمها قائد غمارة آنذاك لأحد سكان هاته القبائل يأذن له من خلالها بالتجول والترحال في الأسواق و المدن والمناطق التي يرغب في زيارتها أو الإقامة بها .

ثانيا : يمكن اعتبارها جزءا بسيطا من "أرشيف عائلة بن مرزوق "[1] التي تقلدت وظائف رسمية على رأس قبائل غمارة لمدة طويلة وكان لها دور سوسيوسياسي (تأطيري) في الجهة بأكملها من خلال زاويتها المعروفة بنفس الإسم.

بعد أن قمنا بقراءة أولية لهاته الوثائق وقفنا على الرسائل التي تدخل ضمن إطار موضوع مداخلتنا، أي التي تتطرق بطريقة مباشرة أو ضمنية للعلاقات بين هاته القبائل ومدينة تطوان أو التي تنحصر أهميتها في القضايا المحلية الصرفة.

بعد هاته العملية المنهجية الأولية، احتفظنا بتسع رسائل ذات أهمية متفاوتة تصب كلها في صلب موضوعنا؛ لكنها ليست كافية، على أية حال لإعطاء صورة واضحة و مفصلة لطبيعة العلاقات التي كانت تجمع مدينة تطوان بقبائل غمارة في غضون القرن التاسع عشر، للأسباب التالية :

1 - إن هاته الرسائل ليست متسلسلة زمنيا بحيث كتبت في فترات متباعدة (1815 - 1831 - 1846 - 1849 - 1974 - 1875 - 1884 - 1895) لذلك فإن أهميتها لا يمكن أن تكون إلا جزئية.

---

1 - أتقدم بالشكر الجزيل للسيد المختار بن مرزوق الذي أتاح لي فرصة الاطلاع على هاته الوثائق واقتناء نسخ مصورة عنها.

2 - لم نعثر على رسائل متبادلة بين عامل تطوان وقائد غمارة ، بل هي في أغلبها مراسلات مباشرة بين السلطان وقائد غمارة تتطرق لجوانب هامة من العلاقات بين المركز (تطوان) ومحيطه (غمارة).

انطلاقا من هاته المعطيات، يمكن تصنيفها على الشكل التالي :

أ - وثائق ذات طابع إداري وطني.

ب - وثائق ذات طابع محلي.

أقصد بالأولى الظهائر السلطانية (التعيينات) أو رسائل جوابية من السلطان إلى قائد غمارة وتحمل معلومات قيمة وإشارات دقيقة حول مواضيع محددة تهم العلاقة القائمة بين تطوان و باديتها (غمارة).

أما الوثائق المحلية فهي مرتبطة بالعلاقات المباشرة بين المدينة وغمارة.

أضف إلى ذلك أن استئناسنا " بتاريخ تطوان "لمحمد داود[2] سهل مأموريتنا، ولو نسبيا، نظرا للمعلومات المفصلة والمادة الغنية التي يزخر بها هذا المصدر النفيس عن تاريخ المدينة وعلاقتها بالقبائل الجبلية عامة.

إذن، من خلال توظيفنا للوثائق المتوفرة واطلاعنا على المصدر المذكور، توصلنا الى تقسيم كرنولوجي في مرحلتين يأخذ بعين الاعتبار طبيعة العلاقات وسماتها الأساسية ، وهو على الشكل التالي :

I - المرحلة الأولى، تتوقف عند حدود حرب تطوان (1860).

II - المرحلة الثانية انطلاقا من التاريخ المذكور أعلاه إلى نهاية القرن التاسع عشر.

I- تتميز هاته المرحلة في مجملها بوجود علاقات تبعية إدارية مباشرة خاصة في الوقت الذي كانت قبائل غمارة خاضعة للسلطة المباشرة لعامل تطوان أي إلى حدود سنة 1831 تاريخ تعيين القائد أحمد بن مرزوق من طرف السلطان على رأس القبائل المذكورة.

يمكن القول إن الفترة الأولى التي تنتهي سنة 1831، تتميز رلى حد كبير، بنهج سياسة متزنة وهادئة وأخص بها سياسة عبد الرحمن أشعاش التي يقول بشأنها محمد داود ما يلي :

"كانت سياسته مع القبائل الكبيرة المجاملة و الإحسان والإطعام، مع الأحكام الصارمة بينهم ... "[3].

---

2 -أخص بالذكر المجلدين الثالث والثامن.

3 -محمد داود تاريخ تطوان ص .222.

ويظهر من خلال رسالة موجهة من الوالي السلاوي إلى القاضي الطيب بن صالح، أحد أعيان غمارة، سنة 1808 أن السلاوي كان يحاول جاهدا ، إنطلاقا من موقع مسؤوليته، حل المشاكل القائمة بين بعض القبائل الجبلية. ويطلع بن صالح أنه قام باستقبال ممثلي القبائل الذين أوفدهم هذا الأخير قائلا : "... وقد وصلتنا جميع القبائل التي وجهتم فأكرمناهم و أنذرناهم ووجهناهم ومعهم خليفتنا على قبائل الريف ... وأوصيناه و أوصيناهم .."[4]كما يوصي القاضي بن صالح أن يبذل قصارى جهده للتوسط بين غمارة ومتيوة في نزاعهما. ويلح في نهاية رسالته على هذا الموضوع بالذات :"... وأوكد الأمور وأهمها هو الصلح بين هؤلاء المسلمين غمارة ومتيوة "[5].

تلي هاته الفترة تولية أحمد بن مرزوق الغماري من طرف السلطان عبد الرحمن بن هشام . وفي رسالة موجهة إلى القائد الغماري، من طرف السلطان، يخبره فيها بوصول الوفد الغماري و حضوره للعيد"... المبارك معنا وأدوا الهدية المذكورة في كتابك... »[6]كما يشير أنه أرسل له ظهير التعيين مع الوفد المذكور ويحثه على التنسيق و التعاون مع أشعاش[7] لكنه بالرغم من طغيان الخطاب التطميني في الرسالة المذكورة فإنها تحمل عناصر توحي بأن العلاقات بين تطوان وقبائل غمارة كانت تمر بمرحلة صعبة. بحيث أن السلطان يخبر القائد بن مرزوق أنه قد أمر"... أشعاش بتسريح ولد عمك المقبوض تحت يده وأن تتسوق غمارة سوق تطوان في أمن وأمان ...".[8]

مما يدفع إلى التفكير أن سكان غمارة إما أنهم كانوا يتعرضون لمضايقات واعتقالات من طرف سلطات تطوان أثناء قيامهم بزيارة المدينة أو أن محمد أشعاش ، أثناء توليه على غمارة ، كان يمنعهم من ذلك.

بالإضافة إلى ما سبق ذكره فإن الرسالة تشير إلى تولية قائد غمارة على قبيلة متيوة الريف.[9]إلا أنه يجب التأكيد أن هاته الأخيرة لم تخضع لإطار إداري ثابت ومحدد. إذ كانت تابعة في فترة معينة لسلطات تطوان ثم للريف أو لغمارة كما هو

4 -محمد داود "نفس المصدر" المجلد الثالث، ص. 243.

5 - نفس المصدر- نفس الصفحة.

6 -رسالة سلطانية (المولى عبد الرحمان بن هشام) لقائد غمارة أحمد بن مرزوق مؤرخة بمنتصف ذي الحجة 1247 هـ - 1831م (انظر الملحق - وثيقة رقم 1).

7 -"...فكن مع أشعاش يدا واحدة و نفسا متحدة كما ذكرنا له و السلام". نفس الرسالة.(1831).

8 -نفس الرسالة.

9 -الرسالة السابقة / هاته الرسالة وردت في تاريخ تطوان لمحمد داود- الجزء الثامن، ص. 279.

الحال في هذا التاريخ. لكن سرعان ما سيدب الخلاف بين غمارة ومتيوة. وهذا ما يتضح من خلال رسالة موجهة للسلطان من القائد أحمد بن مرزوق،[10] يطالبه فيها بالنظر في قضية لجوء مجموعة من سكان غمارة إلى متيوة "... أصابتهم من أنفسهم مصيبة قتل رقبة مومنة (..) حرضنا عليهم شيخهم ليتحقق له منهم الظالم من المظلوم (..) فلما علموا بذلك فروا نحو متيوة الريف الذين قبلوهم مع كبائر جرائمهم وعصيانهم. ولذا رفعنا الأمر لسيدنا على أن يكاتب عاملهم بن عبد المالك ليقص لهم اليد المباشرة في الفساد عن جيرانهم غمارة".[11]

فهاته الوثيقة تكتسي أهمية بالغة لأنها تثبت أن النزاعات بين القبائل الريفية والغمارية لم تعد محل تحكيم إقليمي (تطوان) كما كان عليه الحال في الفترة السابقة (إلى حدود1831)، بل أصبح يبث فيها في أعلى مراكز القرار السياسي (السلطان). وتكرس بذلك تراجع نفـوذ مـدينة تطوان في هاته المناطق . هذا الاستنتاج يتأكد بالاطلاع على رسالة جوابية من السلطان إلى قائد غمارة عبد الرحمن بن مرزوق ، بخصوص المشكل القائم آنذاك بين الأخماس وغمارة وموقف عامل تطوان من هذا النزاع ، حيث يخبر هذا الأخير أنه (السلطان) توصل برسالته التي تطلعه ".. بتمادي الأخماس على ظلم إخوانك بني زجل وتعديهم عليهم..."[12].

وتقاعس السلطات المخزنية بتطوان لإيجاد حل عادل لهاته الأزمة التي كادت أن تؤدي إلى حرب مفتوحة بين الطرفين، وهذا ما توحي به بعض مقتطفات خبرهم.

الرسالة:

" ... تحرك نفوس القبيلة بسبب ذلك وجمعهم الحركة بقصد الإنتصار لإخوانهم حيث رأوا عاملهم أشعاش لم يكف شرهم ولم يرفع ضررهم بعد تكرار الكتب إليه وشكايتهم عليه وأنك نهيتهم عن ذلك وأمرتهم بالصبر حتى ترد علينا وفي هذا الإطار يخبر السلطان قائد غمارة أنه راسل أشعاش في الموضوع وحثه على رفع الضرر عن المعتدى عليهم".. وإن لم يكف ضررهم فيكون قتالكم لهم شرعا... "[13].

من خلال هاته الوثيقة يظهر أن عامل تطوان لم يعد قادرا على حل المشاكل التي كانت تهدد الاستقرار والأمن ضمن منطقة نفوذه، بل أكثر من ذلك أصبح تقاعسه محل انتقاد من طرف القبائل لدى السلطات المركزية (السلطان).

---

10 -رسالة موجهة للسلطان من طرف قائد غمارة بتاريخ 6 ربيع الثاني1263 هـ-1846 م.

11 -نفس الرسالة (أنظر الملحق وثيقة رقم 2).

12 - رسالة سلطانية للقائد عبد الرحمن بن مرزوق الغماري (9 رمضان 1266) (1849).

13 - نفس الرسالة. (انظر الملحق وثيقة رقم 3).

II- إن خصائص المرحلة الثانية تختلف جذريا عن الأولى، ويظهر ذلك بجلاء من خلال الوثائق المتوفرة لدينا، والمؤرخة كلها بعد حرب تطوان، حيث نلاحظ أن مجموعة من المتغيرات الدالة قد طرأت على طبيعة العلاقة القائمة بين تطوان وقبائل غمارة.

وفي هذا السياق عثرنا على رسالة يعين بمقتضاها قائد غمارة عبد القادر بن مرزوق خليفة له بتطوان في شخص ابن عمه أحمد بن عبد السلام بن مرزوق لينوب عنه في حل مشاكل المتوافدين على المدينة من القبائل الغمارية ويقوم بالاتصالات اللازمة مع سلطات تطوان تنفيذا لأوامره وتعليماته[14].

إن فعالية هذا التعيين على المستوى العملي تبدو واضحة من خلال وثيقة هامة تبرز، إلى جانب ذلك، المنعطف الذي أخذته العلاقات الثنائية (تطوان - غمارة) إذ أنه " ... لما قبض رجل من بني منصور وأناس من بني جرير وبني رزين من القبائل الغمارية بإذن قائدهم السيد عبد القادر بن مرزوق وسجنوا وحيز متاعهم وزمم وأنزل تحت يد السيد المهدي الراعي الأمين بالقاعة وجعله يبيت هنا ... كتب قائدهم .. للفقيه الأجل الباشاسي أحمد الحاضر السلاوي وأذنه في كتابه أن يسرح لرجل المنصوري و يرجع له بغلته وحوائجه، ويبقى من عداه في السجن و يحوز متاعهم خليفته الطالب السيد أحمد بن مرزوق . وأطلق المنصوري من السجن وحاز بغلته وحوائجه المذكورة معاينة ..."[15].

إذن، خلافا للمرحلة السابقة التي كان يتم إبانها سجن أشخاص من القبائل الغمارية من طرف سلطات تطوان وكان يتطلب اطلاق سراحهم في بعض الأحيان التدخل الشخصي لسلطان المغرب[16]، أصبح سجن الغماريين أو إطلاق سراحهم يتم بأمر من قائدهم.

كما أخذ هذا الأخير يحرص على ضبط أسفار سكان غمارة لتطوان بالتنسيق مع خليفته في المدينة ، وهذا يتضح من خلال رسالة يخبره فيها بقرب وصول أشخاص من قبيلة بني جرير".. لقضاء حوائجهم ..."ويوصيه بالاعتناء بهم والسهر على أحوالهم حتى".. لا يضر بهم أحد ..."[17]

14 -ظهير التعيين مؤرخ في صفر 1313 هـ - 1895م.

15 -محضر حرر بتاريخ رمضان 1292 هـ - 1875م.

16 -انظر الرسالة السلطانية المؤرخة 1247 هـ - 1831م.

17 -رسالة موجهة من قائد غمارة عبد القادر بن مرزوق إلى خليفته بتطوان بتاريخ 12رمضان 1291هـ- 1874م.

كل هاته المعطيات تؤكد بالملموس أن سلطة المدينة (تطوان) على محيطها (غمارة) عرفت تراجعا خاصة في غضون العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر. ويمكن القول إن هذا التراجع مرتبط بالتطورات والمستجدات الخطيرة التي عرفها المغرب في النصف الثاني من هذا القرن، والمتمثلة في ازدياد الضغط الأجنبي واحتدام الصراع الإستعماري الذي كانت له إنعكاسات على مختلف مكونات المجتمع وعلى جميع المستويات والأصعدة.

إلا أنه لا يجب إغفال عامل هام ساهم، خاصة في المرحلة الأولى، أي قبل حرب تطوان، في بلورة علاقات طيبة بين تطوان وباديتها (غمارة) ويتجسد في شخصية عمال تطوان وقدرتهم على خلق قنوات للتواصل والسعي الحثيث لحل المشاكل القائمة بين القبائل. وقد رأينا كيف استطاع كل من عبد الرحمان أشعاش والسلاوي التعامل بمرونة مع القبائل الجبلية. في حين أدت السياسة المتبعة من طرف محمد أشعاش إلى تعميق هوة الخلاف بين الطرفين.

إن الخلاصة التي يمكن أن نختم بها هذا العرض تتعلق بأهمية هاته الوثائق كمصدر أساسي لكتابة التاريخ المحلي ، والمساهمة بذلك في إعادة كتابة التاريخ المغربي على أسس سليمة قوامها الموضوعية والصرامة العلمية، لأنها تمثل في رأينا - سلاحا للرد على الطروحات الاستعمارية، التي كان هدفها الدفين إضفاء طابع الشرعية على مشاريع سربها "السلمي" ودحضها بالحجج الدامغة التي تقدمها لنا الوثائق السالفة الذكر[18].

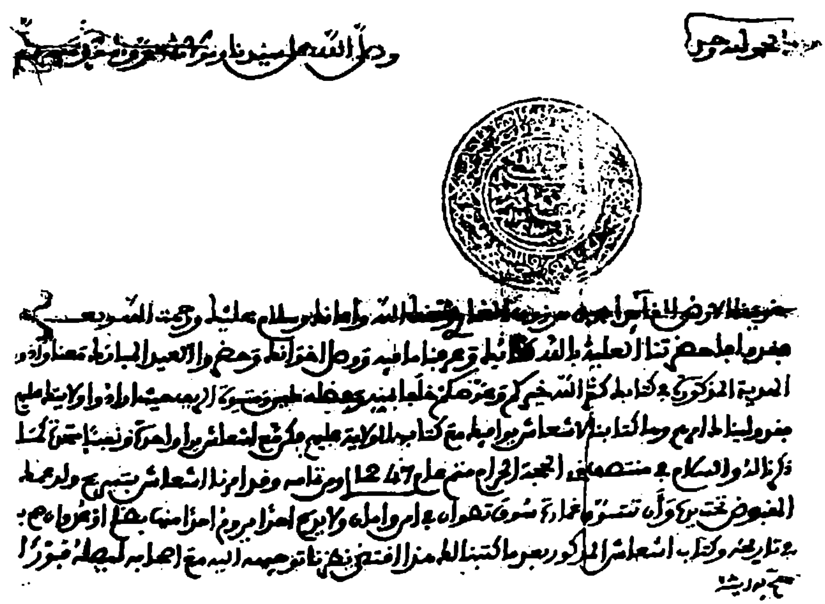
18 -أقصد بذلك المبالغة في وصف " بلاد السيبة " في الكتابات الاستعمارية بمختلف مشاربها وتوجهاتها.

الملحــق:

- وثيقة رقم 1 -

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه.
خاتم السلطان

خديمنا الأرضى القائد أحمد بن مرزوق الغماري وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد فقد وافى حضرتنا العلية بالله كتابك وعرفنا ما فيه ووصل إخوانك وحضروا العيد المبارك معنا وأدوا الهدية المذكورة في كتابك كثر الله خيركم وعوضكم خلفا بينه وفضله، ومتيوة الريف حيث أرادوا ولايتك عليهم فقد وليناك أمرهم وأما كتابنا لأشعاش يوافيك مع كتاب الولاية عليهم، فكن مع أشعاش يدا واحدة ونفسا متحدة، كما ذكرنا له والسلام في منتصف ذي الحجة الحرام وتم عام 1247 هـ ومن تمامه وقد أمرنا أشعاش بتسريح ولد عمك المقبوض تحت يده وأن تتسوق غمارة سوق تطوان في أمن وأمان ولا يدع أحدا يروم أحدا منها بظلم أو عدوان به في تاريخه وكتاب أشعاش المذكور وبعدما كتبنا من اقتضى نظرنا توجيهه إليه مع أصحابه ليصله فورا ..



- وثيقة رقم 2 -

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبـــــه وسلم تسليما.

النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أمير المؤمنين ولنجله الشريف سيدي محمد بن الإمام الأعظم الشريف الأفخم سيدنا ومولانا عبد الرحمن بن مولانا هشام ، السلام التام أيده الله ونصره وبعد أداء ما يستحقه سيدنا من التعظيم والتبجيل والتشريف إننا وجهنا لحضرتك السعيدة بالله أربعة رجالا من أعيان إخواني غمارة بهدية عيد النبوي رزقنا الله وإياهم رضاكم وامتثال أمركم والأدب في جنابكم العالي بالله فالملتمس من مولانا القبول والرضا باليسر من خدامكم غمارة والدعاء لهم بالبركة والهداية فإنهم سيدنا في غاية ما يكون السنة وعدم معيشة البلاد فإن الزرع بها لا يوجد والأسعار لا تنحصر تغمدنا الله وإياهم برحمته وأدركنا جميعا بلطفه وأعانني وإياهم ...

بعض أناس من إخواننا غمارة أصابتهم من أنفسهم مصيبة بقتل رقبة مومنة فرفعت بهم الشكوى لدي وهم عشرون رجلا. فحرضنا عليهم شيخهم ليتحقق له فيهم الظالم من المظلوم. فلما علموا بذلك فروا إلى جيرانهم متيوة الريف فذبحوا عليهم ثورا على أن يدخلونهم في زمرتهم ونسبتهم إلى غير القبيلة الغمارية دون تحولهم منها وعلى ذلك قبولهم مع كبائر جرائمهم وعصيانهم أعانوهم ولذلك رفعناهم لأمر سيدنا على أن يكاتب عاملهم بن عبد المالك ليقص لهم السيد المباشرة في الفساد عن جيرانهم غمارة وغيرها فإنهم مشاغلون بما لا يعنيهم وفعلهم المذموم لا يؤول إلى خير بيننا وبينهم وعلى خدمة من سيدنا وطاعته طالبا منه صلاح أدعيته والسلام.

6 من ربيع النبوي عام 1263
الخاتم و بداخله : خديم المقال العلي بالله

أحمد بن مرزوق

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

الشكر والتمجيد والعتب [illegible] لمولانا أمير المومنين ونجله الشريف سيدي محمد بن
[illegible] الشريف [illegible] ومولاي عبد الرحمن بن مولانا هشام [illegible]
[illegible] على [illegible] ورحمة [illegible] الله [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] صلاح
[illegible] عام [illegible]



- وثيقة رقم 3 -

الحمد لله وصلى الله على سيدنا و مولانا محمد وآله و صحبه.
خاتم السلطان

خديمنها الأرضى القائد عبد الرحمان بن مرزوق الغماري وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته.
وبعد فقد وصلنا كتابك مخبرا لتمادي الأخماس على ظلم إخوانك بني زجل وتعديهم عليهم وما فعلوا بمن رجع إليك من الفريق الذي كان منهم منحازا عليهم من الحركة إليهم وبحريق ديارهم ونهب أمتعتهم وتحرك نفوس القبيلة بسبب ذلك وجمعهم الحركة بقصد الانتصار لإخوانهم حيث رأوا عاملهم أشعاش لم يكف شرهم ولم يرفع ضررهم بعد تكرارك الكتب إليه وشكاياتهم عليه وأنك نهيتهم عن ذلك وأمرتهم بالصبر حتى ترد علينا خبركم .
فها نحن كتبنا لأشعاش فإن كف ضررهم فذلك ما كنا نبغي من السكينة وحقن دماء المسلمين وإن لم يكف ضررهم فيكون قتالكم لهم شرعا. قال تعالى «ولمن انتصر بعد ظلمة تاه فأولئك ما عليهم من سبيل » .

والسلام في 19 رمضان عام 1266 هـ .

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

خديمنا الأرضى القائد عبد الرحمن بن مرزوق الغماري وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته
وبعد فقد وصلنا كتابك مخبرا بتمادي الاهتمام على كلم اخواننا بني زجل وتعديهم عليهم وما فعلوا بهم
رجع النيل من العدو والذي كان منهم شعارا عليهم من الحركة اليهم وقد هم وما رموه وثب استعينوا وتحزبوا
نحو من القبيلة بين ذلك وجميع الحركة بقصد الانتصار لاخوانهم حيث راوا اعلامهم اشعارا لم يكفه ثم منع
ولم يرجع من رهم حتى تكرار الكتب التي وشكايتهم عليه وانا نشيمه عزوك وامرتهم بالصبر حتى نرد عليهم
جوابا فكتبنا الاشعار بأن كففهم ومنزلة ما كنا نبغي من السكينة وحقن دماء المسلمين وان لم يكفهم من ذلك
فقاتلهم ان شا الله تعالى ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ما عليهم من سبيل والسلام في واخر رمضان عام 1266

بعض جوانب العلاقة بين تطوان والقبائل الجبلية

في أواخر القرن 19 و بداية القرن 20

الأستاذ أحمد مهدرها
كلية الآداب بمراكش

هدفنا في هذه المداخلة حصر بعض المستويات في علاقة المدينة كمركز بمحيطها القبلي في الفترة التي تحاول هذه الندوة معالجتها. فبالنسبة لنا، ولا تسمح الفرصة بالرجوع لطبيعة هذه العلاقة حتى قبل الفترة المراد دراستها، لا يمكن تصور التاريخ المعاصر لتطوان دون ربط تاريخ المدينة بالنسيج القبلي الذي توجد فيه. فعلاقة تطوان بالقبائل الجبلية طبعتها بعض فترات الحدة و النزاع كما عرفت مراحل من التبادل والتأثير، فإذا كانت هذه الندوة تحدد لنا تطوان كمجال للدراسة وسنة 1860 كبداية للفترة الزمنية، فإن هذه السنة تحيلنا بالضرورة على ما عرف عند المؤرخين بـ "حرب تطوان" هو الحدث الذي يمكن الانطلاقة منه لرصد العلاقة الوطيدة التي كانت تربط ما بين هذه المدينة والأحواز المحيطة بها سواء سلبيا أو إيجابيا.

فرغم ان هذه الحرب قد أطلق عليها "حرب تطوان" فإن اتخاذ هذه المدينة كمجال للصراع بين إسبانيا والمغرب لم يكن إلا مرحلة من مراحل هذه الحرب. ولذلك فإنها أيضا وعلى الأصح حرب القبائل الجبلية.

فمن المعروف أن السبب المباشر لـ "حرب تطوان" لم يكن لهذه المدينة أولسكانها أي يد فيها، بل كانت غيرة المنضبطة لسكان الأنجرة في حراسة الأماكن الحدودية هي ما أدى إلى قيام المشكل الدبلوماسي بين المغرب و إسبانيا والذي انتهى باشتعال هذه الحرب. فتطوان كمركز حضاري داخل المنطقة الجبلة لم يكن احتلالها إلا رهان بين إسبانيا والمغرب وضمانة لأداء الغرامات المقترحة من طرف الإسبان. أما عن إرادة أهل تطوان في هذه المرحلة، فيشير لنا محمد داود قائلا : "أما في تطوان فلا أظن أن أحدا من أهلها كان يريد هذه الحرب لأنهم "أولا كانوا يعلمون أن الحرب إذا قامت، فإن أول من سيصلى نارها هي تطوان وأهلها، وأنه إذا كانت هناك خسارة ونكبة، فإن أهل تطوان هم أول ضحاياها.

ثانيا كانوا يعلمون زيادة على ذلك، أن المغرب ليس لديه من الاستعداد ما

يستطيع به مقاومة دولة أوربية لها أسطول، ولها جيش منظم، ولها ميزانية ولها رجال أكفاء متخصصون في الشؤون الحربية، ولها من وسائل الحرب وأدواته ما لا يوجد منه بالمغرب إلا أقل القليل.

ولذلك سعوا بكل ما في وسعم لتفادي وقوع هذه الحرب التي كانوا من أول الامر يعلمون أن عاقبتها غير محمودة، ولكن جهودهم ذهبت أدراج الرياح أمام الطمع والجشع من ناحية، والجهل والطيش من ناحية أخرى".[1]

وبالفعل تفيدنا المراجع بأنه ورغم تسمية هذه الحرب بـ "حرب تطوان" فإن أهل هذه المدينة لم يتحملوا أية مسؤولية في نشوبها، فأمام النزعة السلمية التي كانت تطبع أهل المدينة وابنها المفاوض والذي كان نائبا للسلطان بطنجة محمد الخطيب، فإن أهل اللانجرة الذين كانوا متحمسين لهذه الحرب، وكما يشير لذلك الناصري "مشوا إلى الشريف سيدي الحاج عبد السلام بن العربي الوزاني وقالوا له: إن الخطيب لا ينصح السلطان ولا المسلمين وأن كل ما قاله النصارى يساعدهم عليه حتى جسرهم علينا، ونحن جئناك لتعلم السلطان بأمرنا وتسأله أن يمدنا بالقبائل المجاورة لنا و نحن نكفيه هذا الهم." ويضيف الكاتب قائلا : "وكتب له السلطان محمد بن عبد الرحمن (الشريف سيدي الحاج عبد السلام بأمر أهل الانجرة وقرر له مطلبهم مشاور السلطان في ذلك بعض حاشيته فمال إلى الحرب وذلك كان الراجح عند السلطان لأنه عظم عليه أن يمكن العدو من اثني عشر رجلا من المسلمين وفق اقتراحه واختياره بقتلهم بمحضر الملأ من نواب الأجناس".[2]

وإذا كان وقوع هذه الحرب والتي يقترحها البعض كبداية لتاريخ المغرب المعاصر[3] له عدة أسباب، فإن من بين هذه الأسباب ولا شك وجود تطوان الجغرافي ما بين عدة قبائل عرفت بنزعتها المشاكسة والقتالية منذ القديم فعن هذه النزعة يشير لنا ابن خلدون في معرض حديثه عن احتضان الأدارسة من طرف القبائل الجبلية قائلا :«لقد كان لغمارة في التمسك بدعوتهما آثارا ومقامات»[4] علما أن إسم غمارة هو الذي كان يطلق على المنطقة الجبلية بكاملها والتي تضم اليوم جبالة وغمارة، ويشير لنا الحسن بن محمد الوزان كذلك إلى وجود هذا الطابع الحربي لدى القبائل حيث يذكر لنا مثلا عن قبيلة ودراس أن ودراس جبل شاهق بين سبتة وتطاون يسكنه رجال ذوو

1- محمد داود، "تاريخ تطوان"، 196 ج 4، ص. 214.

2- أبو العباس أحمد الناصري : الاستقصا: دار الكتاب، الدار البيضاء، ج 9، ص.84 -85.

3- Germain Ayach, **Etudes d'histoires Marocaine**, Ed. SMER, Rabat, 1979, p.98.

4- عبد الرحمن ابن خلدون : ديوان المبتدأ و الخبر، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية 1988 ج 6، ص.322.

شجاعة فائقة برهنوا عنها بجلاء في الحروب التي دارت بين ملوك غرناطة و ملوك إسبانيا، فكان هؤلاء الجبليون يذهبون متطوعين إلى غرناطة ويقومون بما لا يقوم به كل جنود أولئك الملوك مجتمعين»[5]. ويكررلنا مرمول كربخال تقريبا نفس الكلام عن هذه القبيلة حيث يذكر أن ودراس "جبل شاهق بين سبتة وتطاوين يسكنه قوم تميزوا في حروب إسبانيا، حيث كانوا يجندون ضد المسيحيين فكانوا أفضل جنود ملوك غرناطة ومحط الثقة الكبرى لديهم وقد اعتادوا أن يتخذوا منهم حرسا قوامه خمسمائة رجل يقطنون في الزقاق الذي يسمى من أجلهم زقاق غمارة."[6]إذاكان هذا على مستوى العصر الوسيط والحديث، فإن الكثير من الأدبيات العسكرية الإسبانية التي تعرض لبداية هذا القرن تفيدنا عن وجود هذه النزعة الحربية لدى هذه القبائل.[7]

لقدكان لوجود تطوان داخل هذا الزحم القبلي ضرورة لتأثر هذه المدينة بنتائج هذه النزعة الحربية التي لم تكن المناسبات الجهادية كالحرب الصليبية ومعركة وادي المخازن وحرب تطوان وعهد الحماية إلا فرصا لظهورها، ولكن إذا كانت هذه الأحداث مرتبطة بالحرب مع الأجنبي فإنه ولا شك هناك أسباب داخلية لهذه القبائل تشرح الروح القتالية التي كانت تتمتع بها والتي يحاول جاك بيرك تسليط الضوء عليها.[8]

ولذلك نعتقد أنه لا يمكن فهم هذه الحرب والتي تحملت هذه المدينة وزرها إلا داخل هذه الصيرورة والتي كانت تجعل تطوان تتأثر بالجو الذي كان سائدا داخل القبائل الجبلية وخاصة منها اللانجرة ووادراس والحوز وبني يدر وبني حزمار. وإذا أشرنا إلى حرب تطوان كمظهر من مظاهر التأثير والتأثر ما بين هذه المدينة ومحيطها القبلي وإذا أردنا أن نوضح من خلال ذلك مدى حضور القبائل الجبلية في الحدث العسكري لمدينة تطوان فإن الحرب لم تكن هي الوجه الوحيد لهذه العلاقة بل نجد هناك تواصلا بشريا متبادل بشكل دائم، فيجب أن نشير أولا إلى أن منطقة جبالة كانت الجهة الوحيدة التي كانت تحتوي على كثافة سكانية تفوق 40 نسمة في

5- الحسن بن محمد الوزان : وصف إفريقيا و دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية 1983، ص. 322.

6- مارمول كربخال : إفريقيا، دار نشر المعرفة، الرباط 1989، ص. 228.

7 -انظرمثلا: BerenLaerguerra de marruecos, Ed. Fernando Fuc, Madrid, 1918.

8 Jacques Berque , **L'Intérieur du maghreb XIème-XIXème Siecles**, Ed. Gallimard ,Paris, 1978, p.143.

الكلم2 إضافة إلى دكالة في بداية العقد الرابع من هذا القرن [9] وحيث إنه من الطبيعي في تاريخ المغرب أن تتم الهجرة من البادية إلى المدينة، فإن ما يلفت الانتباه هو تبادل هذا التواصل البشري حيث يمكن العثور على نماذج من الأسرمؤقت للقبائل أثناء حرب تطوان فإذا رجعنا لمؤرخ تطوان محمد داود فإننا نجده يذكرلنا عائلة الزلال مثلا كعائلة قديمة في تطوان حيث كان قاضي المدينة في عهد مولاي إسماعيل يسمى عبد الرحمن الزلال [10] ويكفي الرجوع للوثائق المخزنية المتعلقة بالمنطقة والتي ترجع لبداية القرن العشرين لنعثر أن قائد بني مصور كان يسمى العياشي الزلال حيث لعب هذا الشخص دورا كبيرا في أحداث هذه المنطقة سواء في فترة ما قبل الحماية أو خلال بدايتها إلى درجة جعلت الكتاب الإسبان يصفونه بالرجل الثاني في جبالة بعد أحمد الريسوني. ولم تكن هذه العائلة هي الوحيدة التي نجدها مستقرة في تطوان في عهد مولاي إسماعيل لتكشف لنا الوثائق فيما بعد أنها مستقرة بالقبائل الجبلية في نفس الفترة التاريخية، يشيرلنا محمد داود إسم عائلة الشاط وهو يتحدث عن بعثة إنجليزية وردت المغرب لافتداء الأسرى حيث زارت مدينتي تطوان ومكناس ويعلق على أحد أفراد هذه البعثة قائلا: " ومن غريب ما ذكره هذا المؤلف أيضا، أن من جملة الرجال الذين صحبوا الباشا أحمد في رحلته هذه إلى مكناس رجلا إسمه العربي الشاط فأمر السلطان بقتل هذا الرجل لأنه أقام في بلد النصارى مدة دون علم السلطان وكان يشرب الخمر ويتصل بالنساء فيها ...

وعائلة الشاط كانت عائلة شهيرة بتطوان وكان هذا الرجل قد أقام مدة في جبل طارق كرهينة في مقابل تاجر آخر إنجليزي كان مقيما في تطوان". [11]

وإذا كان محمد داود يشير لنا إلى أن هذه العائلة معروفة في تطوان فإن الوثائق التي ترجع لبداية هذا القرن توضح لنا أن هذه الأسرة تعتبر من أفراد قبيلة اللانجرة وأعيانها حيث كانت محل العدد من الكتابات المخزنية نظرا للصراع الذي كانت تعرفه هذه القبيلة مع بعض السلط المحلية الأخرى بالمنطقة والذي كان يتخذ مدينة طنجة كمجال له أحيانا فإذن نفترض أن هذه نماذج من بعض الأسر التي هاجرت من مدينة تطوان إلى القبائل الجبلية دون قدرتنا على تحديد الأسباب التي دفعت بها إلى هذا الانتقال. وإذا أضفنا إلى ذلك الأسر الجبلية التي استقرت بالمدينة فإن ذلك

---

9 - Jauhar Vignet - Zunz, **Treize questions sur une identité**, in **Jbala: Histoire et société,** Ed. C.N.R.S., Wallada, Casablanca, p.138.

10 - محمد داوود : المرجع السابق ج 2، ص. 36 - 37.

11 - نفس المرجع، ص. 83.

يجعلنا نقول بأن تواصلا بشريا كان حاصلا بين المدينة وأحوازها.

ومن جوانب التأثير والتأثر بين مدينة تطوان والقبائل الجبلية يجب أن نشير أيضا إلى انعكاس الحالة الأمنية الموجودة داخل القبائل على هذه المدينة فنعرف أن مدينة تطوان كانت كمركز اقتصادي وحضاري داخل المنطقة تعرف استقرار جالية يهودية واسعة إضافة إلى استقرار العديد من الأجانب ولذلك فإن هاجس الهجوم عليها وانتهاك حرمتها كان حاضرا بشكل دائم عند أعيان المدينة وسلطاتها إضافة إلى المخزن المركزي. فإذا رجعنا إلى الوثائق التي تتعلق ببداية هذا القرن نجد العديد من الرسائل المتبادلة في هذا الموضوع بين قائد هذه المدينة عبد الكريم اللبادي ونائب السلطان بطنجة محمد الطريس والذي كان هو الآخر إبنا لهذه المدينة، ففي سنوات 1903 و1907 نجد مشكل تحصين المدينة مطروحا بإلحاح حيث يشرح لنا قائد المدينة الإجراءات المتخذة في يناير 1907 مثلا قائلا في رسالته إلى الطريس : "وما طلبت من القيام بحراسة البلد والتحويط بها ورد البال لسائر طرقها... إلخ فنحن في غاية الإحتياط والقيام أما ليلا فعندنا عسة جارية تطوف جول لبلد كما في علمك و اما نهارا فقد اقتضى الحال والمصلحة زيادة في الحزم ترتيب خمسين من العسكر تكون عسة نهارية تفترق فرقتين نصفها يدور لناحية الحوز و فم العليق و بني معدن وبني سعيد والفرقة الثانية تدور لناحية بني حزمر وجهة القنطرة و الحوز الصديني و بسبب هذا تحصل المزية التامة وسدل رداء الأمن على هذه النواحي التطوانية بحول الله."[12]

وإذا كان المجال لا يسمح باستعراض العديد من الوثائق التي تكشف عن الهاجس الأمني لحماية مدينة تطوان الحاصل عند الأجهزة المخزنية فإن تأثر المدينة بمحيطها بقي ثابتا في هذه الفترة كما أن الصراع ما بين مختلف السلط المحلية الاخرى داخل منطقة جبالة كان يوثر بدوره على الحالة الأمنية للمدينة. ففي إحدى هذه الرسائل مثلا، يلاحظ طلب قائد بعض القبائل الجبلية، ونظرا لصراعه مع اللانجرة ولكونها لا تدخل في مجال حكمه يطلب من السلطان المولى عبد الحفيظ القبض على كل اهل هذه القبيلة الذين يترددون على أسواق تطوان، وبالطبع ونظرا للانعكاسات الأمنية المحتملة نتيجة ذلك فإن السلطان في جوابه يرفض الإستجابة لهذا الطلب حفاظا على أمن المدينة واستقرارها كما لا يقر بأن تصبح تطوان مجالا

---

12 -رسالة عبد الكريم اللبادي لنائب السلطان محمد الطريس في 11 ذي الحجة 1324 مواقف 26 يناير 1907.

لتصفية الصراعات الخارجية.[13]

فإذن، يبقى العامل الأمني جانبا من جوانب التأثير والتأثر ما بين تطوان والقبائل الجبلية ولا نعتقد أن الوضعية الأمنية للمدينة يمكن فهمها بدون ربطها بمحيطها القبلي في هذه الفترة التي تحاول الندوة دراستها.

ونرى ضرورة الإشارة إلى جانب آخر من جوانب العلاقة بين مدينة تطوان ومحيطها الجبلي و هو العلاقة الاقتصادية التي كانت قائمة بينهما فهذه المدينة كانت تشكل لترويج البضائع وللتزويد بعدة حاجيات أخرى من طرق القبائل[14]

فمدينة تطوان لم تكن تستطيع الإستغناء اقتصاديا عن القبائل الجبلية المحيطة بها، كما نجد حالة استياء عامة في هذه الأخيرة كلما طرأت ظروف تحول دون ترددها على أسواق المدينة، وإذا كنا نعاني من قلة الوثائق التي تتعرض لطبيعة العلاقات الاقتصادية بين هذه المدينة والقبائل الجبلية فإن تقارير عهد الحماية توضح لنا مدى الغلاء الذي كان يصيب المدينة في حالة عزلتها عن البادية فإذا أخذنا كمثال وضعية تطوان في 20 يوليوز 1915 حيث كانت المنطقة في حالة حرب والتردد على المدينة جد قليل، فإن إحدى التقارير الفرنسية تشير إلى المستوى الذي وصلتها أثمان بعض البضائع كالتالي:[15]

المادة	الثمن
12 بيضة	3 بسيطة أو 0.75 بسيطة لبيضة واحدة
1 كيلو لحم	من 2.75 الى 3.75 بسيطة
1 كيلو سمك	3 بسيطات
1 ليتر حليب	0.75 بسيطة
كيس فحم من الخشب	20 بسيطة
1 كيلو من السكر	1 بسيطة واحدة
دجاجة واحدة	من 3.50 بسيطات الى 5 بسيطات

---

13 - انظر رسالة السلطان مولاي عبد الحفيظ لنائبه بطنجة محمد جباص في 13 شعبان1327 موافق 30 غشت 1909.

14 -انظر في هذا المجال مثلا :

Jean François Troin : **Les Souks Marocains** Col. **Connaissance du Monde Méditéranéen**, Aix en Provence, 1977.

Michaux Bellaire, **Quelques Tribus des Montagnes de la région du HABT, Archives marocaines**, T. 17, 191.

15 - تقرير القنصل الفرنسي بتطوان لوشياردي للوزير الفرنسي المفوض بطنجة في 20 يوليوز 1915.

ويشير التقرير أن ثمن الخضر والفواكه لا يحتمل بل أنها منعدمة داخل السوق ومما لا شك فيه أن الزيادة في الاستهلاك الذي عرفته المدينة على إثر توافد جيش الاحتلال قد لعب دورا في ارتفاع الأثمان الذي شهدته المدينة، لكن ما يهمنا هو التأكيد على نسبة ارتفاع الاثمان الذي تعرفه البضائع حتى خلال عهد الحماية نتيجة مقاطع ة القبائل لأسواق تطوان .

فإذن نستخلص من خلال عرضنا لمختلف هذه الجوانب أن العلاقة بين مدينة تطوان والقبائل الجبلية كانت وطيدة سواء تعلق الأمر بالجانب السلبي كما هو الأمرعلى المستوى العسكري والأمني أو إيجابيا كما هو الأمر بالنسبة للتواصل البشريوالجانب الاقتصادي. ولذلك نعتقد أن علاقة تطوان بالقبائل الجبلية تبقى نموذجاللعلاقات التي سادت خلال القرن التاسع عشر بين مدينة عرفت تطورا في تمدنها ومجالها الحضري وتقدما على مستوى المجتمع المدني الموجود بها والتي بقيت محاطة بقبائل حافظت على نزعتها المشاكسة والذي لعبت فيه الجغرافية دورا حاسما مما جعل هذه العلاقات تعرف صورا متعددة من خصام ونزاع وتنافر إلى تبادل وتواصل وعطاء.

علاقات المدينة / القبيلة

مقاربة سوسيولوجية لجدلية الإقصاء والتكامل

محمد المرجان

إن العلاقات المتعددة والمتنوعة -سواء في طبيعتها أو حجمها - بين المدينة والقبيلة والتي تتكون عبر ظروف تاريخية وثقافية متشعبة ومختلفة لا يمكن اختزالها في النهاية إلى محاور ثابتة وقارة أو إلى علاقات جزئية ومحدودة. وذلك لكون المجال لا يعتبر إطارا فارغا، بل هو نسيج اجتماعي متشابك تتداخل فيه عناصر الثقافة والسياسة والإقتصاد والاجتماع بشكل قد يؤدي في بعض الحالات إلى قيام علاقات التكامل والوحدة بينه وبين المجالات الأخرى، أو إلى حدوث تناقض وتوتر بينهما. ولذلك يمكن تصنيف جل الدراسات المهتمة بهذه العلاقات (البادية/ المدينة) في إطارين :

- علاقات التوتر والتناقض بين المدينة والبادية :

تهتم هذه الدراسات أساسا بإبراز التعارض بين مستويات الحياة ، أو مستويات الحضارة بين القبيلة والمدينة، بشكل يستحيل معه تحقيق أي تقارب بينهما. ولكنها غالبا ما تقيم هذا التفاوت وعلى اعتبار هيمنة المدينة أمرا مبدئيا، حيث تقترب في نتائجها من المنظور الخلدوني الذي يبرز بالأساس مدى التعارض القائم بين العمران الحضري ، والعمران البدوي .

- علاقات التكامل والوحدة :

بالنسبة لهذا الطرح : تتعايش المدينة والقبيلة في ارتباطات عضوية ومتكاملة حيث تتجلى سلوكات مختلف فئاتها الاجتماعية في تجاوز الاختلافات والإبتعاد عن كل ما يمكنه أن يخلق الإحساس بالتناقض بين أهل القبيلة وأهل المدينة.

وكلا المنظورين - على أهميته - لا يعكس حقيقة هذا التقابل/التفاعل سواء في مستواه التاريخي والثقافي ، وبالأخص لا يعتبر الواقع المحلي لكل مجتمع، الذي يتطلب عناصر مغايرة قد تختلف من منطقة إلى منطقة أخرى، وبالتالي لا يقع التشديد في غالب الأحوال - وضمن هذه الدراسات - على أهمية الدولة في ترتيب عناصر ومكونات هذا التفاعل، أوفي تنظيم وتعديل فترات المواجهة والتكامل أو

التناقض والوحدة بين القبيلة والمدينة. فتاريخيا لا يمكن إنكار الصراع الحقيقي بين المدينة والبادية (مراكش حوزها) فاس والقبائل المجاورة ، تطوان وأحوازها، الشاون وقبيلة الأخماس. إلا أنه لا يمكن إغفال بعض الحالات التي تم فيها تحقيق التكامل بين هذه المدن وقبائلها، ولذلك فهي ليست في تناقض دائم، أو تتكامل بشكل مطلق و إنما علاقاتها تتحدد غالبا باستقرار السلطة السياسية وبقدرتها على التحكم في تناقضاتها وعلاقاتها الاقتصادية والثقافية إما بشكل مباشر أو عن طريق وكلائها" أي مثقفيها المخزنيين.

ولذلك نستعرض على سبيل المقارنة مجموعة من الدراسات التي أنجزت بهذا الصدد- علاقات البادية والمدينة - من أجل رصد بعض المميزات المشتركة - أو المختلفة - بين نتائج هذه الدراسة في منطقة تطوان والحوز الجبلي، والنتائج الأخرى التي ارتبطت بمناطق مجاورة أو مختلفة.

في دراسة للدكتور أحمد الغرباوي حول بعض القبائل المجاورة لطنجة (الفحص) نجد التأكيد التاريخي على دور ومسؤولية السلطة السياسية والمدينة في استقرار هاته القبائل حيث يقول :" إن مثل هاته التجمعات القبلية غالبا ما استقرت في أراضيها الحالية، وفي ظروف تاريخية مختلفة، نتيجة للسلطة المباشرة للرؤساء العسكريين أو لعمال المدن المجاورة". [1]

أما دراسة الأستاذ المختار الهراس، فإنها تحاصر مجمل التفاعلات الحاصلة بين المدينة والقبيلة في فترتين تاريخيتين :

- العهد الإسلامي الذي تكاثرت فيه المراكز الحضرية، واتسع نطاق التجارة، بينما بقيت البادية في ركود نسبي تعيد إنتاج نفس الهياكل الإقتصادية والإجتماعية وبالرغم من ذلك، لم تكن هناك تناقضات واضحة وجلية بينهما، نظرا للدور الذي لعبته التجارة في تشكيل مجموعات جهوية متماسكة تتكامل في نطاقها مصالح كل من الحضريين والقرويين.

- أما الفترة الثانية فتبدأ بالاحتلال البرتغالي لأهم المراكز الحضرية بالساحل الشمالي في القرن الخامس عشر، حيث أدى ذلك إلى تجميد الديناميات الاقتصادية على امتداد المنطقة المتراوحة بين البحر ومدينة فاس، وبالتالي : وقف سيرورة اندماج المدن والبوادي بما كان يرتبط بها من تبادل المصالح والمنافع. ومن هنا يمكن

---

1 - A. Gharbaoui, **La terre et l'homme dans la plénitude de Tanger, Travaux de l'Institut Scientifique**, Rabat, 1981, p. 131.

تفسير الصدام الذي عرفته مدينة تطوان وقبائل جبالة سنة 1903 - 1904.[2]

ورغم هذا الإطار التاريخي المفسر لتدهور علاقة البادية بالمدينة، فإن الباحث لا يلبث أن يعترف بأهمية الدولة في احتدام هذا الصراع (أو إخماده) وبالعمق الثقافي الذي تتأسس حوله العلاقات اللامتكافئة والمجحفة بين البادية والمدينة.[3] أما دراسة محمد مزين حول "فاس وباديتها في العهد السعدي" فإنها لا ترصد هذه العلاقة إلا باعتبارها تناحرا مستمرا بين ثلاثة أقطاب (السلطة، المدينة، القبائل) مؤكدة أن التفاعل لم يكن بين جانبين محددين بل هو صراع ثلاثي تتغير فيه الأحلاف فيرتبط كل طرف من أطراف النزاع بالطرف الذي يرى فيه الحليف الذي يساعده على الإنتصار، ثم يغيره في حالة تغيير اتجاهه أو مذهبه".[4] أما أطراف النزاع فهي : العلماء والفقهاء والشيوخ أو رجال العلم والدين من جهة، أهل فاس من تجار وصناع وغيرهم من جهة ثانية، ثم القبائل المجاورة للمدينة عربية كانت أو بربرية من الجهة الثالثة.[5] كيف إذن يمكن رصد خصوصية التفاعل القائم بين مدينة تطوان و أطرافها ؟ و هل تتميز هذه العلاقة عن غيرها بسمات ثقافية أو عمرانية خاصة ؟ فأول الملاحظات التي يمكن تسجيلها بهذا الصدد، هو كون مدينة تطوان لم تندرج كغيرها من المدن الناشئة من مدشر إلى قرية، ومن قرية إلى مدينة، وإنما هي مدينة ولدت كاملة، من أول يوم جدد فيه بناؤها الأخير ..[6] إلا أن الأمر لا يقتضي بالضرورة نموا واسعا لقطاع الخدمات والصناعات الخفيفة، في ذلك الوقت على الأقل، بمعنى آخر لم يؤد ظهور المدينة إلى ضعف الزراعات التقليدية - بل ظلت مسندة غالبا على القرى المجاورة، باعتبارها خلفية اقتصادية أساسية لاستمراريتها وتموينها.

هذا الافتراض يخفف إلى حد ما من حدة التعارض بين المدينة والأطراف. لكنه لا يمنع من وجود عناصر سوسيو- ثقافية ساهمت عبر مختلف التحولات التي عرفها المجتمع المغربي، في تحقيق هيمنة المدينة وسيادتها.

ومرد ذلك في اعتقادنا يرجع إلى الديناميكية الخاصة للبنية الإجتماعية بتطوان، والحركية العميقة الملازمة لها ، والتي اقتضت بروز فئة اجتماعية جديدة،

2 - المختار الهراس ،(1984)، ص. 228 - 241.

3 - نفس المرجع، ص. 242.

4 - محمد مزين ، فاس و باديتها (مساهمة في تاريخ المغرب السعدي 1549 - 1637) منشورات كلية الآداب بالرباط، 1986، ج 1، ص. 210.

5 - نفس المرجع .

6 - محمد داود، « تاريخ تطوان» المجلد الأول، مطبعة المهدية، تطوان 1965، المقدمة، ص. 14.

ساهمت من موقعها الخاص في تغيير الصيرورة الإقتصادية والسياسية للمجتمع المحلي. وهو ما مثلته "الأوليغارشية الحضرية" التي تكونت بعد سقوط الأندلس وبداية الهجرة الأندلسية إلى المدن المغربية. إلا أن هذا النشوء الطبقي رافقته ثلاث فاعليات، اعتبرت - من وجهة نظرنا - كمحددات فعلية لبروز جدلية الإقصاء والتكامل بين مدينة تطوان وأطرافها.

1 - الإنقلاب الوظيفي للمجال:

عرفت الأطراف القروية بمنطقة الشمال، وبالخصوص عند جبالة، نشاطا اقتصاديا وعسكريا واجتماعيا مهما قبل- وأثناء - حرب 1860م. حيث يمكن اعتباره من وجهة أخرى - وداخل الدور الوظيفي المنوط به - كمكون أساسي لمدينة تطوان، ولشرائحها المتعاطية للتجارة بصفة خاصة. بل لقد شكلت حركة الإنتاج الاقتصادي بالعالم القروي مركز استقطاب، ليس فقط للعنصر المحلي، بل للتجار الأوربيين.

ذلك ما يؤكده ليون الإفريقي :"في بني زكار كانت تقام أسواق يوم السبت، تعرض فيها جميع منتوجاتها، حيث كان الإيطاليون يأتون لشراء جلود البقر التي يصدرونها إلى "جين" (Gênes) البرتغال [....] ونصف مداخيلها كان يذهب لبيت المال بفاس.[7]

وفي وصف ريكارد R. Ricard لقبائل الهبط سنة 1848 م نلاحظ تشديده على دورها الأساسي في تزويد المدينة بالتغذية و السكان.[8] وقد أبان فاي Fay عن تخصص بعض القبائل في صناعات معينة كالنسيج والخزف ..[9] أما على المستوى الثقافي، فقد عرفت المنطقة الجبلية نشاطا مهما، تجلى على الخصوص في بروز علماء محليين شهد التاريخ بجدارتهم : وقد ذكرهم مثلا صاحب" الدوحة". ومن علمائها أبو الحسن الصغير شارح المدونة المعروف عند المشارقة، أبوالضياء مصباح الاغصباوي (719 هـ) وولي الله أبو الحسن بن ميمون (917 هـ) والفقيه بن العقدة (911 هـ) والشيخ سيدي أبي محمد الغزواني (935 هـ) الشيخ سيدي عبد الله الهبطي (963).[10]

---

7 - Abderrahim Jabeur, **Una ojeada sobre las familias oriundas del Andalus en Tetuán**, 1948, p. 6.

8 - R. Ricard, "Description du Habt en 1848", **Hespéris**, tome XXIV,1937, p.19.

9 - G. Fay, **Recherches sur l'organisation de la vie rurale et les conditions de la production dans la basse montagne rifaine**, Thèse de D.E.S., Rabat, 1972.

10 - ابن عساكر ( ) المقدمة.

لقد كان في أصل هذا النشاط، خضوع المنطقة لحركة تعريب واسعة النطاق - وذلك إما من خلال عمليات تنقيل، كحركة عرب بني عامر بالفحص الذين أسكنهم هناك يعقوب المنصور في القرن 16 الميلادي. ونقلوا بعد ذلك، بفعل الهجوم المريني عليهم إلى قبائل بني حسان(سيدي علي الرياحي)والخلوط وبني سفيان.."[11]. وإما تحت تأثير بعض الأدارسة الذين هجروا إليها ، محاولين نشر التعاليم الإسلامية في ربوعها،[12] ورغم أن الخلفية المدينية كانت تلعب دورا في هذا النشاط الثقافي والفكري [13]فقد ظلت الأحواز متصدرة لهذا النشاط العلمي سواء في رجالاتها، أو في من استقبلتهم من الأندلس أو من الشرق [14]إضافة إلى قيام هذه القبائل بدور سياسي تمثل في حراسته للشواطئ المغربية بتكليف من السلطة المركزية نفسها.[15]

أمام التنامي التاريخي لدور القبائل، لم يكن هناك اختيار لأهل المدينة - وللسلطة أيضا -سوى العمل على استغلال ظروف تاريخية، متعلقة بالوضع الاقتصادي، وبالعلاقات الدولية تجلت بالخصوص في تدهور الفلاحة، وتعرض جل المناطق القبلية لصراعات عسكرية في الفترة المتراوحة بين 1859 - 1860م [16]سوى العمل على مد وتوسيع المجال الحضري حتى تلعب دورا امبراطوريا بالنسبة لأطرافه القروية ..".لقد كان ذلك مطمحا لفئة اجتماعية حاولت، عبر تنافسها (أو تهافتها) في تحقيق مصالحها المادية، أن تبلورليس مشروعا سياسيا، وإنما أرضية ثقافية تنبني على "أسبقية المدينة" وعلى ضرورة الوعي بهذه الأسبقية. وإذا كان جاك بيرك لا يرى في نمو المدن إلا اجترارا التقابل الكلاسيكي بين الرحل والمقيمين فإننا نعترف بكون سيادة المدينة لا تتحقق إلا "بتكوين هذه الأخيرة صورة عن نفسها، تتحول إلى دليل يوجه مواقفها وسلوكاتها..."[17]وهو ما يبدو لنا واضحا سواء في إسم المدينة،

---

11 - Michaux Bellaire, **Document relatif au territoire de Fahç**, RM.M. Vol, 1911 p.575.

12 - G. Fay, Ibid, p. 35 aussi Marçy (M). - - (1956) p.7.

13 - G. Fay, Ibid, p. 35 aussi Marçy (M). - - (1956) p.7.

14 - Teodoro Cuevas, **Apuntes para la historia de Tetuán**, 1951, p.2.

15 - العافية عبد القادر "الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية في شفشاون وأحوازها خلال القرن العاشر الهجري. منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1982، ص. 240 - 240.

16 - Jean-Louis Miège, **Le Maroc et l'Europe**, Paris, 1962, p. 41.

17 - Placide Rambaud Rambaud, **Société rurale et urbaine**, Paris, Seuil, 1969, p.54.

أو عمرانها. فإسم مدينة تطوان هو في حقيقته استجابة سوسيو- سياسية لضغوطات قبلية سابقة، بل والوعي بخطورة هذه التهديدات من طرف المدنيين.

فتط - وإن : معناه هو أفتح عينيك " أي ضرورة الاحتراس الشديد من هجومات القبائل المغيرة على المدينة.[18] وقد ذكر الناصري أن بناءها كان من طرف السلطان أبي ثابت سنة 708 لنزول عسكره وللأخذ بمخنق سبتة ومنذ ذلك الحين - وبالأخص بعد تجديدها على يد المنظري الغرناطي - والمدينة - في شرائحها - تبحث عن ديناميات تبرز حركيتها و نشاطها، كما تساهم في نفس الوقت في انقلاب الأدوار بينها وبين المحيط القبلي. ولقد ساعدها في ذلك على الخصوص عاملان رئيسيان، هما السيادة الأندلسية وصيرورة التتجير.

2-السيادة الأندلسية:

ابتدأت هذه الأخيرة سياسيا منذ سنة 1490م، عندما تولى القايد أبو الحسن علي المنظري قيادة تطوان بعد وفود المسلمين والمهاجرين من الأندلس إليها أيام السلطان محمد الشيخ الوطاسي.[19] والذي قام بمحاولة تجديد للمدينة انصبت على واجهتين :

- فمن جهة وقع تعضيد مواقع المدينيين بتحالفهم الجديد مع الأندلسيين الذين هاجروا إليها.

- كما تم في تلك الفترة إرساء حضارة المدينة، بما أقامه من حدائق غناء وجنان فيحاء[20] فما هي الديناميات التي خلقها هذا العنصر الأندلسي بالمدينة ؟ لقد كان يعمل على إبراز : أصل مشترك لجميع أفراد المدينة (أولاد البلاد)، وعلى بناء وحدة ثقافية متجانسة، تتسم بالميل والتعاطف مع السلطة السياسية.

ثم أخذ الصدارة العلمية والأدبية.[21]

كما كان يعمل على إقامة وحدة تنظيمية على الصعيد السياسي، أو على الأقل إرساء كيان تتحقق داخله بانتظام عمليات المساهمة والتعاون بين جميع الأفراد، وبشكل مكثف (الزاوية - الحنطة). ولقد ساهم كل ذلك في إيجاد بعد إثني تحالف مختلف مكونات هذه " الأوليفارشية الحضرية " حاولت من خلاله أن تحقق نوعا من

---

18 - خالد الناصري، الاستقصا،1954 جاا، ص. 96.

19 - محمد داود ، "تاريخ تطوان ".1972, ج 2 ، ص . 85.

20 - نفس المرجع.

21 - محمد داود. مرجع سابق ، ص .91. (ج 2).

الإستقلالية ليس فقط اتجاه القبائل المحيطة، وإنما أيضا تجاه السلطة المخزنية، أثناء ظروف تاريخية كانت فيها المدن المغربية بشكل عام مرتبطة مباشرة بالوجود المخزني.[22] ففي سنة 1613 حاول الخضر غيلان، بتحالفه مع أولاد النقسيس، القيام بمواجهة السلطة المركزية، وبسط نفوذه على الغرب ، أصيلا، القصر الكبير ، تطوان بل وتهديد مدينة فاس"،[23] علما أن أبا العباس أحمد الخضر بن علي غيلان ينتمي في الأصل إلى المهاجرين الأندلسيين. غير أن المولى إسماعيل، بقضائه على هذا التمرد وتوليته " لحدو الريفي " على المنطقة الشمالية، اسطاع أن يعيد القوة القبلية من جديد ، وأن ينعش دور العالم القروي مرة أخرى ويجعله مركزا للصدارة السياسية والاقتصادية. وهو ما تعبر عنه جل الكتابات التي أرخت لفترة المولى إسماعيل في تصويرها للأوضاع الهامشية التي عاشتها البورجوازية التطوانية في تلك المرحلة ، سواء على المستوى الإقتصادي أو السياسي، حيث برزت بشكل خاص الأقلية اليهودية كوسيط مهم في المبادلات التجارية بين المخزن والتجار الأوربيين. ذلك ما يشهد به مثلا اليهودي " بريثويط " Braithwaite " وفي عهد المولى إسماعيل كانت كل التجارة تمر بيد الأوربيين خصوصا الفرنسيين والإنجليز [...] بل إن الباشا أحمد الريفي (ابن حدو الريفي) جعل اليهودي بنيدير Benider وسيطا اقتصاديا بينه وبين الإنجليز ...".[24]

إزاء صعود هذا الضغط الإثني (بروز العنصر القروري كفعالية سياسية) وكذا الضغط الاقتصادي الذي همش دور الأوليغارشية المتعاطية أصلا للتجارة الخارجية أو الداخلية، بدأت هذه الأخيرة تسعى لتحصين المدينة وإرساء قدرتها الدفاعية. ولقد كانت المواجهة سنة 1727م، أيام قيادة أبي حفص عمر بن عبد السلام لقاش، بين أهل المدينة وبين الباشا أحمد الريفي الذي حاصرهم بأكثر من 600 رجل،[25] بمثابة نقطة تحول في علاقة المدينة بالقبائل المجاورة.[26] فمنذ انتصار التطوانيين في تلك المواجهة، لم تعد الفئة القروية قادرة على القيام بأي دور سياسي أو اقتصادي

---

22 - André Adam, **La medina dans la ville d'aujourd'hui : urbanisation et vie urbaine au Maroc**, Tunis, C.E.R.E.S. , 1980, p.133.

23- Abderrahim Jabeur, Ibid, p. 11.

24 - Braithwaite, **Histoire des révolutions de l'Empire du Maroc**, Paris, 1927, p.132.

25 - A. Joly, **L'Industrie à Tétouan**, in **Archives marocaines**, tome V. 1905, p.p.213-215.

26 -الهراس المختار. مثال العلاقة بين المدينة والمحيط القبلي في مغرب مطلع القرن العشرين مجلة الجدل، العدد5 - 6 ، السنة 1987.

ملحوظ، كما كان عليه الأمر سابقا، حتى بداية القرن العشرين، حيث كانت محاولة حصار تطوان من طرف القبائل الجبلية والتي اعتبرت في نظرنا كآخر تصدي لمواجهة صيرورة الإدماج الحضري. ويعكس، إذن، هذا التحول بروز العنصر الأندلسي أو الحضري بشكل عام داخل المدينة، كبعد عمراني " في هندسة البناء العمراني"، وكعامل سلوكي وثقافي شكل ما أسماه آدم " بالتمدين".[27]

وإذا كان الهروب من الضغط الإثني قد أفرزلسكان المدن ضرورة سيطرة العنصر الحضاري ، وجعله سائدا في العلاقات الثنائية بين المدينة والقرية ، فقد كانت المبادلات التجارية بينهما تدفع بما سميناه بالأوليغارشية الحضرية ، إلى تحقيق سيادتها أي إلى احتلالها موقع السيطرة ضمن صيرورة " التتجير" التي كانت هدفا للفئات القروية أو المدينية على السواء.

3- صيرورةالتتجير:

لقد مكنت هذه الصيرورة المدينيين من تحقيق انقلاب مجالي، وضع البادية في موقع الزبون بالنسبة للمدينة من جهة، وجعل الفئات الحضرية أكثر استعدادا لتحمل المهمات التجارية، سواء في الخارج أو الداخل، من جهة أخرى. ومما ساعد على مثل هذه السيادة للعناصر المدينية : التأييد المخزني، والمعاهدات التجارية المتتالية. وهكذا فلقد ساعد السلطان نمو مدينة تطوان عن طريق تخفيض الضرائب الجمركية على كل معاملاتها التجارية ومنح حرية التجارة فيها للأجانب،[28] حيث أفصح ذلك عن المراهنة المزدوجة التي كانت تتبعها السلطة المركزية، بتشجيعها لنشوء فئة تجارية وسيطة من جهة، ومحاولة انفتاحها على البورجوازية التجارية الأوربية من جهة أخرى.

وقد كانت الأهمية المعطاة للعلاقات التجارية مع أوربا، سواء من طرف المولى محمد بن عبد الله أو المولى الحسن فيما بعد ، لتكشف عن رغبة مخزنية أكيدة في إرساء الأسس المادية والقانونية لانتعاش الفئات المدينية الوسيطة [29] نظرا لما كانت تحققه من ترويج للسلع الأوربية، وما يترتب عن ذلك من أرباح تتحول إلى إحدى أهم المصادر تمويل خزائن الدولة.[30] وكل ذلك على شرط أن تظل هذه الفئات

---

27 - André Adam, Ibid, p.133.

28 - Mohamed Azuz Hakim, **El Zoco centro de actividades comerciales en Marrueccos, Cuadernos de Estudios Africanos**, 1953, p. 63.

29 - J. Caillc , (sans date), p. 32.

30 - H. De Castries, **Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc , 2è série Dynastie Filalienne**, Paris, 1924-1929.

التجارية الجديدة ممنونة للسلطة المخزنية، خاضعة لاختياراتها، وفية لأوامرها ومصالحها.[31] لقد أصبحت التجارة الخارجية بهذا المعنى وسيلة لتأسيس سلطتين : سلطة داخل التدرج الاجتماعي التقليدي (يكون أساسها الفراغ المالي) وسلطة جديدة مدينية (باعتبار أن أصول غالبية التجار كانت مدينة). ولقد ساند المخزن هذه الصيرورة بإنعامه على التجار التطوانيين بظهائر التوقير والإحترام، نذكر منهم علي سبيل المثال : القايد أبعير ، والباشا أحمد العطار، وعائلتي الخطيب واللبادي .[32]إضافة إلى هذه الأسبقية الاقتصادية والمجالية، استطاعت هذه الأوليغارشية أن تكتسب نمطا خاصا لحياتها[33].تحقق في نظرنا على مستويين: اعتماد ثقافة أهل المدينة على مبدأ التمايز، والوحدة المدينية الفكرية.

إن هذا التمايز، في إطار البحث عن شروط الهوية ومعايير الاختلاف، يزكي عادة تلك الاعتقادات التي ترى بأن الإنسانية تنتهي في حدود المدينة ، وما بعدها يعتبر "كافرا، زنديقا " و"متوحشا".

وقد عثرنا في هذا المجال على عدة نصوص تعبر عن رغبة أكيدة في بناء هذه النسقية المغايرة حيث اخترنا منها نصين أحدهما لشاعر مجهول نظم أبياتا في هجو قبيلة أنجرة وبالضبط لربع البحري لقبيلة الحوز والثاني مقامة شعبية من أواخر القرن التاسع عشر حول معاناة إمام في إحدى قبائل جبالة. وغير خاف أن التصورات التي يعكسها هذان النصان هي تصورات مدينية، تؤمن بأهمية السكن الحضري، وعقلانية الدين ، وبالسلطة السياسية المخزنية.

يقول الإمام الإشبيلي (وهم إسم تقريبي لهذه الشخصية المجهولة) في ميميته :

وسكني البواديلا يحل ويحرم   تكلفت سكناها وكان ضرورة   وفي باطني أمر به الله أعلم

ثوين بها ما بين قوم بيوتهم   كهوف وأعشاب وبين مدوم   حفاة عواة لا يحل جوارهم

رياضتهم لاتستطاع وإنما   يروضهم سوط وسجن ومغرم   زنادقة في طبعهم وإياكم

مساجدهم لاتعمر بصلاتهم   يعجبهم منها الذي يتهدم   نسوا الله بالدنيا فأعمى قلوبهم

ضيافتهم معلومة لقدومهم   دجاج أبيض والمدام المحرم   عوائدهم ترك الصلاة عندهم

---

31 - Mohamd Kenbib, Système imperial et bourgeoisie compradore au Maroc XIX[ème] siècle, Revue d'Histoire Maghrébine,n° 41- 42 , 1986 , p.98.

32 - Mohamed Kenbib, (1981), p. 451.

*يذهب كنبيب بعيدا في افتراضاته، فقدأول العلاقة بين المخزن والتجار حيث يجعل من الأول تشكيلا ضعيفا ، بينما تصبح فئة التجار قوة قادرة على تجاوزه ، كوجود سياسي واقتصادي ، ص. 99.

33 - Claude Lévi Strauss, (1961) p. 21.

بأمر النساء والعاهرات تهمم   غلبت على طول المقام بأرضهم   على أنفي منهم شتيم وأسلم[34]

لقد حاول الشاعر وصف السكن الجبلي (بالقبيلة)، وقسمه إلى الكهوف والأشعاب والبيوت المدومة، وهو شيء مبالغ فيه بالنسبة لقبيلة أنجرة التي كانت تشرف حدودها على مدينة سبتة، وغير مستبعد أن تكون بيوتها من الطين والحجارة. كما تعرض للعلاقات السياسية باستعماله فعل " الترويض" الذي يستعمل عادة بصدد الحيوان المفترس مشيرا إلى استقلالية القبيلة وابتعادها عن مراقبة السلطة المركزية، وهو شيء تكذبه الشواهد التاريخية ، التي أثبتت حضور الممثلين المخزنيين كالقياد والأمناء والقضاة في هذه القبيلة. وألمح في الأخير إلى وجود كفر ظاهر "في خواء المساجد... وترك الصلاة ".

ألم تكن تلك التصورات والأحكام، اجترارالمنطق المثقفين الحضريين (المخزنيين)، الذين كانوا لا يرون في القبائل إلا الكفر والتآمر، ولذلك يحل قتالهم وتستباح دماؤهم ؟.

- لقد لاحظ عبد الله العروي أنه بعد القرن السادس عشر، تكونت حركة أفقية بين المدينة والأطراف القروية - تحت تأثير تحولات اقتصادية وانخفاض المبادلات التجارية - اضطرت معها الفئة الحضرية المثقفة إلى أن تتحول إلى جهاز تعليمي.[35] لكن هذه المهمة لم تكن سهلة التحقيق، نظرا لصعوبة التواصل بين الثقافتين، ولكنها على الأقل - ساهمت في تشكيل وعي حضري بخصوصية الثقافة المدينية، وهو ما يشرح محاولات هذه الأخيرة لاختراق الوجود القروي وإعادة تشكيله في تصوراتها، متجاوزة ما يتضمنه من مؤسسات، أوعلاقات عن طريق الأدباء بانتقادات تتحول غالبا إلى سخرية.

هذا ما تثبته كذلك هذه المقامة الشعبية. التي جاءت على لسان إمام اضطرته ظروفه للعمل بالبادية، حيث يقول :

"فمن انتقل إلى البادية ، فإن كان صاحب صناعة فيالعمر قد أضاعه. وإن كان صاحب تجارة فعاقبته الهم والخسارة ، فإن عمل بها شغلا من الأشغال أخرج له حظ ومطال ... ومن التزم عندهم الإقامة فهناك والله يندم أشد الندامة ... ويرجع على

---

34 - الإمام الإشبيلي ،(م. خ. ع. م.)، بدون تاريخ ولا رقم.

وقد روى لنا محافظ الوثائق أن هذه القصيدة هجائية قالها صاحبها لتعرضه لإهانة الأسر من طرف أهل القبيلة الذين أجبروه على الرقص عاريا أمام الملأ.

35 - Abdallah Laroui , (1972), p. 268.

نفسه بالملامة ... ونسأل الله السلامة".[36]

إن البادية تتحول في هذا المنظور إلى عالم من الخسران والضلالة، وبالتالي فهي غير قادرة على أن تجسد أدنى تطور حضاري، سواء في علاقاتها الاقتصادية أو الثقافية. أما تنظيمها السياسي، فهو لا يخضع لمقاييس مضبوطة أو لعقلانية معينة، بل لا تجسده أي مؤسسات أو هيئات سياسية ثابتة. وفي ذلك يقول الإمام: "وما للبادية شيء يحكمون به سوى العراف والراعي والفقيه ... ولو كان لهم اختيار في الحكام ... أو يسمع منهم كلام ... لبدلوا في كل يوم سلطان ... فما ظنك بالراعي والفقيه والعراف...".[37]

هل كانت هذه التصورات تعكس سعيا فحو إقامة أسبقية ثقافية للمدينة ، أم هي في الحقيقة تعبير عن وحدة إثنية ومجالية لفئة اجتماعية، كانت تشعر بضرورة هذه الوحدة، وتلح أيضا على ضرورة نقل أنماط المعرفة والتفكير السائدة لديها إلى العوالم الأخرى (العالم القروي) ؟[38]

ذلك ما سوف يتحقق بعد حرب تطوان سنة 1860 ، عقب انهزام الجيوش المغربية، حيث تكون بعد ذلك شعور قوي لدى هذه الفئة الحضرية المثقفة، بتخاذل أهل جبالة في الدفاع عن المدينة، وبمسؤوليتهم التاريخية في الهزيمة. وهو ما يثبته الأستاذان المنوني ومحمد داود، في إشاراتهما إلى "المراثي" التي قيلت في سقوط تطوان سنة 1860 ، نذكر منها قصيدة للفقيه العدل السيد محمد "فتحا" بن عمر أسنوس التطواني (من العائلات الأندلسية)[39]، وقصيدة للفقيه أحمد الجنوي يهجو فيها أيضا أهل أنجرة، ويتهمهم بالتواطؤ مع المستعمر.

وهكذا يمكننا إجمال حدود هذه العلاقة بين المدينة والعالم القروي (تطوان - جبالة) على الشكل التالي :

4) تاريخيا تشهد التحولات الاجتماعية واليساسية الكبرى على تأرجح الأدوار بين القبائل المجاورة والمدينة. فهناك فترات شكلت إرهاصا على انشداد المدينة

---

36 -مقامة في مقارنة القرية والبادية. رقم (ت) 75 مخطوط 353 (م.ع.م.)

37 - نفس المرجع.

38- .Fanny Colona. - (1980) , p. 322 .توجد عدة دراسات تعالج نفس هذه الإشكالية في مناطق أخرى من المغرب، نذكر منها على الخصوص :
Kenneth Brown, **People of Salé**, (Manchester, 1976) ; Dale F. Eickelman, **Knowledge and Power in Morocco**, (Princeton , 1985) ; Jacques Pegurier, **Espaces urbains en formation dans le Tensif** , (Rabat, 1989).

39 -محمد داود. -(1965 ج (5) من ص. 244 -238 .ومن 274 -255 أيضا، محمد المنوني "مظاهر يقظة المغربالحديث، الرباط ، 1973 ، ج 1، ص. 286.

للأحواز المجاورة لها اقتصاديا واجتماعيا، وفترات أخرى تحولت فيها إلى مركز استقطاب وجاذبية وإشعاع بالنسبة للقرية.

يختم الفقيه محمد أسنوس التطواني قصيدته بهذا البيت :

يا دال حلضرة كونوا على حذر * * من البوادي وعين الله تحرسكم.

ب) إن مجيء الأندلسيين، ومحاولات التجديد التي قام بها المنظري الغرناطي، سوف تطرح إمكانيات إبرام تحالفات جديدة بالنسبة للفئات الحضرية التطوانية. حيث شرعت انطلاقا من خوفها التاريخي من رجال القبائل، في نسج تمايزاتها الثقافية التي تجلت في التاريخ والأدب الشعري والمقامي، وقامت بإرساء سيطرتها الاقتصادية على الجماعات والمجالات المحيطة بها عبر استحواذها على العمليات التجارية بشكل عام.

وسوف يؤدي ذلك بعد حرب تطوان 1860، إلى إرساء روابط عضوية متينة بين مختلف الفئات الحضرية المثقفة، باعتبارها إعانات ومساندات عمودية، تجمع بين سكان المدن أكثر مما تجمع بين هذه الأخيرة وضواحيها.

المراجع العربية

داود، محمد،
"تاريخ تطوان" ، المجلد الأول ، مطبعة المهدية، تطوان، 1965.

الهراس ،المختار،
" مثال عن العلاقة بين المدينة والمحيط القبلي في مغرب مطلع القرن XX" مجلة : الجدل ، العدد 5 - 6 / 1987.

مزين، محمد،
"فاس و باديتها" (مساهمة في تاريخ المغرب السعدي 1549م - 1637 م) منشورات كلية الآداب بالرباط سنة 1986.

الناصري، خالد،
"الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى" (الجزء لثالث) الدارالبيضاء 1956.

العافية، عبد القادر،
" الحياة السياسية والإجتماعية والفكرية شفشاون وأحوازها خلال القرن العاشر الهجري" الرباط ، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1982.

مراجع باللغة الفرنسية والإسبانية

André, Adam, , **La médina dans la ville d'aujourd'hui**, in **Urbanisation et vie urbaine au Maroc**, Tunis, C.E.R.E.S., Production ,1980.

Braithwaite, C., **Histoire des révolutions de l'Empire du Maroc,** 1927.

Cuevas, Teodoro, **Apuntes para la historia de Tetuán,**

Tetuán, 1951.

De Castrie, H., **Les sources inédites de l'histoire du Maroc**, série **Dynastie Filalienne**. Ed. Ernest Leroux, Paris, 1922- 1924.

Fay, Gerard, **Recherches sur l'organisation de la vie rurale et les conditions de la production dans la basse montagne rifaine** thèse DES. Rabat , 1972.

Joly **L'industrie à Tetuan**, in **Archives** T.V, 1905.

Jabeur, Abderrahim, **Una ojeada sobre las familias oriundar en Tetuán** 1948.

Hakim Azuz; M., **El Zoco centro de actividades comerciales en Marruecos Cuadernos de Estudios Africanos** ,1952.

Michaux Bellaire, **Document relatif au territoire de Fahç**, R.M.M. Vol, 14, Mars, 1911.

Laroui, Abdallah, **Tradition et traditionalisation : le cas du Maroc**, Ed. Dudot, 1972.

Ricard, R., "Description du Habt en 1848" , **Hespéris**, tome XXIV. 1937.

Rambaud, Placide, **Société rurale et urbanisation**, Paris, Seuil, 1969.

Kenbib, M., **Système impérial et bourgeoisie compradore au Maroc au XIX siècle, Revue d'Histoire Maghrébine**, n° 41 - 42, 1986.

من الجالية الهولندية بتطوان

عائلة بن دلاك اليهودية (1827 - 1899)

الدكتور زكي مبارك*

من العائلات اليهودية التي استقرت بمدينة تطوان سنوات عديدة وظلت صلاتها بهذه المدينة وارتباطاتها وطيدة ودائمة، عائلة بن دلاك Bendelac

لم تتحدث عنها أهم المصادر المغربية لكونها كانت تعد من الرعايا الهولنديين. فأفراد الأسرة، أبا عن جد، عملوا بالوكالات القنصلية الهولندية بمدينتي طنجة وتطوان كقناصل، أو كنواب القناصل، أو ككتاب ومترجمين بهذه الوكالات بصفتهم هولنديين. ولعل هذه الصفة هي التي حالت دون ارتباط هذه العائلة بالإدارة المخزنية المغربية بخلاف ما كان عليه الحال مع عائلات يهودية أخرى من أمثال : ميمران - Maimarain ، البلاش - Pellas ، بن أهار- BenAhar ، بن عليل -Benoliel، بن عروس - Benharroc ، الطليطلي - Toledano، السرفاتي - Hassarfati.

عائلة بن دلاك في الأرشيف الهولندي.[1]

أهم وثيقة من هذا الأرشيف تلك التي تحمل عنوان :

Registre des sujets hollandais à Tétouan ouvert le15 juillet 1889.

أي:"سجل الرعايا الهولنديين بمدينة تطوان المفتوح يوم 15 يوليوز 1889.

في هذا السجل قائمة بأسماء أفراد الجالية الهولندية الذين تواجدوا بتطوان من تاريخ 1827 م إلى 1889 م، مع ذكر تاريخ ومكان ولادتهم، وكذا مهنهم وكل ما يتعلق بحالتهم العائلية من زواج ووفاة وملاحظات أخرى تخص عملهم ونشاطهم داخل المغرب وخارجه .

في هذه اللائحة تسعة عشر أسما، وكل هذه الأسماء تنحدر من عائلة واحدة : عائلة بن دلاك (Bendelac) ولايوجد ضمن هذه الأسماء سوىMensikCornelis مبشر، قدم إلى تطوان من لندن، ومسجل في هذه اللائحة ضمن الرعايا الهولنديين،

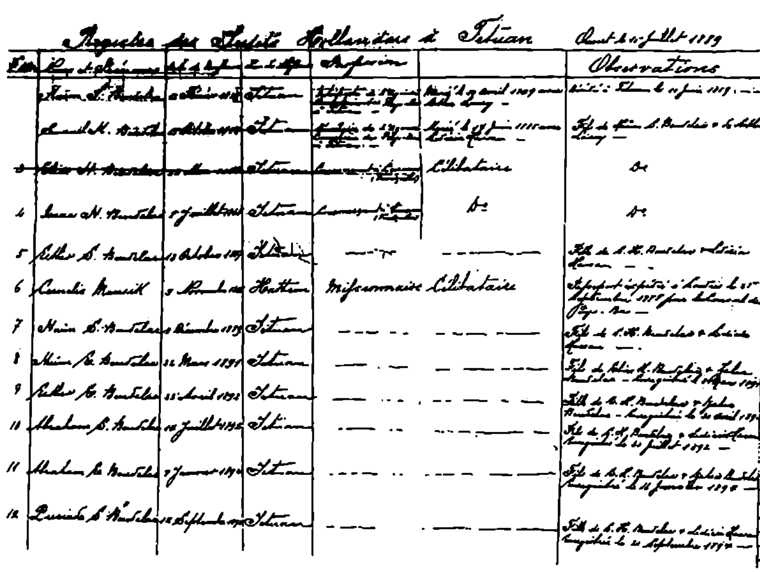
1- الوثائق التي سنعتمد عليها لمعالجة الموضوع من أرشيف الدولة بلهاي - هولندة
Archives de l'Etat - La Haye - Hollande , Numéro d'accès 2-05-15-15- Tanger, 1830-1907.

*أستاذ التعليم العالي بالمعهد الجامعي للبحث العالمي- الرباط .
أشكر الطالب محمد أمزيان الذي وافاني ببعض الوثائق من هذا الأرشيف .

فباستثناء هذا المبشر الذي لا صلة له بهذه العائلة، نجد باقي الأفراد ينحدرون جميعهم من نفس الأسرة وفي طليعتهم حاييم سمويل بن دلاك، الذي ازداد بتطوان بتاريخ 12 فبراير 1827 م وتولى منصب ترجمان بالوكالة القنصلية الهولندية بتطوان، تزوج يوم 10أبريل 1849 م، وتوفي بمدينة تطوان يوم 11 يونيوه 1869 م.

أما آخ أفراد العائلة الذي ازداد بتطوان فهي كلارة سمويل بن دلاك ازدادت بتطوان يوم 19 يوليوز 1889 م. كما هو مبين في الصفحة الثانية من السجل.

(الوثيقة رقم1).


Registre des Sujets Hollandais à Tetuan

Observations

3 ... Tetuan ... Célibataire

4 ... Tetuan

5 ... Tetuan

6 ... Hattem Missionnaire Célibataire

7 ... Tetuan

8 ... Tetuan

9 ... Tetuan

10 ... Tetuan

11 ... Tetuan

12 ... Tetuan

متى استوطنت هذه العائلة مدينة تطوان واستقرت بها ؟ إذا كان حاييم سمويل بن دلاك قد ولد في تطوان يوم 12 فبراير1827، فهذا يعني طبعا أن أسرته تواجدت بهذه المدينة قبل هذا التاريخ ومما يدل على ذلك ما تؤكده وثيقة أخرى من نفس الأرشيف، وهي عبارة عن شهادة منحت لأحد أفراد الأسرة يدعى أبراهام بن دلاك، تولى مهمة ترجمان بالقنصلية الهولندية بطنجة حوالي 40 سنة. هذه الشهادة موقعه من طرف القنصل الهولندي J.A Fressinet الذي زاول مهمته بطنجة حوالي 20 سنة وعمل خلالها أبراهام بن دلاك بجانبه.

(الوثيقة رقم 2).

Consulat de S. M. le Roi des Pays-Bas à Marseille.

Nous soussigné Commandeur de l'ordre Royal de la Couronne de Chêne, Chevalier de l'ordre du Lion Néerlandais, Consul Général de Sa Majesté le Roi des Pays-Bas à Marseille et ses dépendances

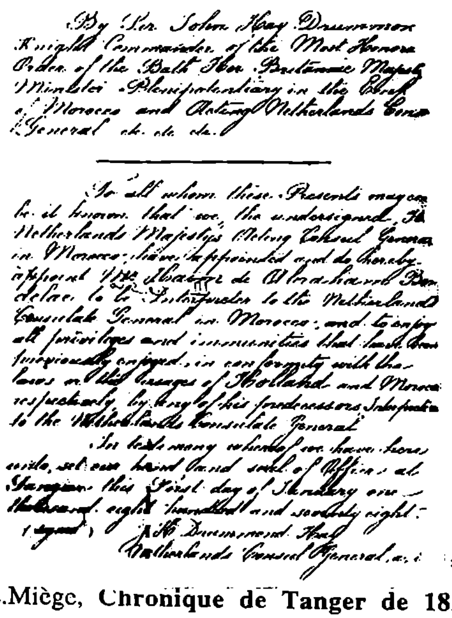
Certifions que le sieur Abram Bendelac a exercé pendant près de quarante ans, les fonctions d'Interprète des Pays-Bas à Tanger et que pendant les vingt années que nous avons été Consul Général au Maroc, il a servi continuellement avec zèle, intelligence et dévouement le Gouvernement que j'avais l'honneur de représenter

En foi de quoi nous lui avons délivré le présent certificat, fait à Marseille le 8 février 1856

(Signé) Mr J. A. Fraissinet

عن أبراهام بن دلاك، يعطينا الأستاذ J.L. Miège معلومات عن حياته ونشاطه ومهامه من خلال مخطوط عثر عليه مؤخرا في الأرشيف الهولندي[2] هذا المخطوط عبارة عن يوميات من 350 صفحة ومن الحجم المتوسط، سجل فيها الترجمان أهم الأحداث التي عاصرها ما بين سنة 1821 م و1828 م، والأخبار التي كان يتلاقاها من مختلف المصادر داخل المغرب، كما دون فيها نشاط وتحركات الدبلوماسيين المستقرين بمدينة طنجة وعلاقاتهم المختلفة مع المخزن وممثليه في ظرف اشتد فيه الصراع من أجل السلطة بين مولاي سليمان ومولاي سعيد عن الكاتب ، يقول عنه Miège بأنه ينحذر من أسرة يهودية قدمت من هولندة لتستقر بمدينة طنجة في بداية القرن الثامن عشر ، وفي منتصف القرن التاسع عشر، تفرع عن الأسرة الأم، عدة فروع من أهمهافرع حاييم بن دلاك الذي استقر بمدينة تطوان.[3] وهذه شهادة أخرى لفائدة حاييم بن دلاك مؤرخة بطنجة بتاريخ فاتح يناير 1878 م وموقعة من طرف جون درامون هاي J.D.Hay الوزير المفوض البريطاني بطنجة والذي كان في نفس الوقت يرعى المصالح الهولندية بالمغرب.

(الوثيقة رقم 3).


By Sir John Hay Drummond Hay Knight Commander of the Most Honorable Order of the Bath Her Britannic Majesty's Minister Plenipotentiary in the Court of Morocco and Acting Netherlands Consul General &c. &c. &c.

To all whom these Presents may come be it known that we, the undersigned, Her Netherlands Majesty's Acting Consul General in Morocco, have appointed and do hereby appoint Mr Haime de Abraham Ben Delac, to be Interpreter to the Netherlands Consulate General in Morocco, and to enjoy all privileges and immunities that have been previously enjoyed, in conformity with the laws and usages of Holland and Morocco respectively, by any of his predecessors Interpreter to the Netherlands Consulate General.

In testimony whereof we have hereunto set our hand and seal of Office at Tangier this First day of January one thousand eight hundred and seventy eight.

(signed) J.H. Drummond Hay
Netherlands Consul General &c.

2- عرض عن هذا المخطوط في العدد الأول من مجلة:
J.L.Miège, **Chronique de Tanger de 1820-1830, Le journal de Bendelac,** p. 15.

3- عن أبراهام بن دلاك وأسرته، المرجع السابق - صفحة 16 الهوامش: 2 و 3 و 4.

وهاهي وثيقة أخرى موقعة من طرف نفس الدبلوماسي لفائدة أبراهام بن دلاك وحاييم بن دلاك بتاريخ 12 يونيو 1886 م تتعلق بنشاط هؤلاء في الميدان الدبلوماسي ومايحظيان به من تقدير كرعايا هولنديين.

(الوثيقة رقم17) .

The undersigned recommends to his successor the Bearer Mr. Haim Bendelac Interpreter of the Netherlands Consulate General as an honorable and intelligent officer. During four generations and for upwards of a century the family of Bendelac have served as Interpreters of the Consulate General and have been known for their probity and integrity.

Mr Haim Bendelac is a Netherlands Subject for his great grand father who held the post of Interpreter was a native of Holland.

The son of Mr. Haim Bendelac, Mr. Abraham Bendelac is also recommended to the good offices of my successor as a well educated young man bearing like his father and forefathers a high character for honesty.

(signed) J. H. Drummond Hay
Netherlands Consulate General
Tangier, 12 June 1886

وهاهي وثيقة أخرى موقعة من طرف القنصل الهولندي إسحاق ناهون تثبت أن أحد أفراد هذه الأسرة، المدعو ساموييل بن دلاك، يعمل بالوكالة الهولندية بتطوان كترجمان، وأنه وأهله من رعايا الدولة الهولندية .

(الوثيقة رقم 7). في تطوان : 10 مارس 1879م.

Royaume des Pays-Bas.

No. d'ordre 4

Agé de 40 *ans*

Cheveux noirs

Sourcils id.

Yeux chatains

Nez régulier

Barbe chataigne

Taille 1 70 [illegible]

Signes particulières

une [illegible]

Signature

Valable pour l'Espagne, France et Algérie

Le Consulat-Général des Pays-Bas à Tanger

prie et requiert, au nom de Sa Majesté le Roi des Pays-Bas, toutes les autorités tant civiles que militaires des Princes et Etats, Amis et Alliés de Sa Majesté, non seulement de laisser passer Monsieur Samuel H. Benlolo [illegible] de l'Agence Consulaire des Pays Bas à Tétuan, sujet hollandais *avec* ses *bagages, mais aussi de* lui *donner ou faire donner au besoin, toute aide et secours.*

Donné à Tanger le 5 Juillet 1898

Le Consul-Général des Pays-Bas.

Signé [illegible]

[illegible]

وهاهي أخيرا، وثيقة أخرى تتعلق بأحد أفراد الأسرة، المدعو ساموييل حاييم بن دلاك، كاتب بالوكالة الهولندية بتطوان، ومن رعايا الدولة الهولندية ويتعلق الأمر بجواز مرور أو شبه جواز سفر، يدعو فيه القنصل العام الهولندي كافة الدول الصديقة والحليفة إلى تسهيل تنقل سامويل بن دلاك ومده بكل المساعدة.

الوثيقة موقعة من طرف القنصل العام الهولندي.
ومحررة بمدينة طنجة بتاريخ 5 يوليوز 1895.

يهود تطوان وعلاقاتهم بيهود هولندة:

تمت دارسة هذا الموضوع ومعالجته في أبحاث جامعية ، وندوات علمية نذكر منها بوجه خاص كتاب (Sarah Leiborici)[4] وكتابات محمد كنبيب،[5] والندوة العلمية التي نظمتها كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط والتي شارك فيها باحثون مغاربة وهولنديون.[6]

من خلال هذه البحوث والدراسات يتضح أن يهود تطوان لعبوا دورا نشيطا في تمتين الروابط بينهم وبين يهود هولندة وخصوصا منذ أن استقلت هذه الدولة الأوربية عن الحكم الإسباني وأسس الهولنديون جمهورية مستقلة سنة 1796 م. فالمصالح الهولندية والمغربية وفي طليعتها التجارية والملاحية أملت على الدولتين التعاون وتوطيد العلاقات لمواجهة الخطر الإسباني المشترك. وهنا سيلعب يهود تطوان ويهود هولندة دورا نشيطا في هذا المجال سيما وقد اعترفت الجمهورية الهولندية الفتية بكل حقوق المواطنة لليهود المقيمين في ترابها، فتقلدوا أهم المناصب في الدولة.

وبما أن تطوان سبق لها أن استقطبت منذ الهجرات الأولى لليهود الأندلسين للمغرب، شخصيات علمية ودينية مرموقة، قامت بواجبها في مجال تعميق الفكر الديني اليهودي والمحافظة عليه، ونشره بين الطوائف اليهودية في المغرب وخارجه. فقد تخرج عن هؤلاء عديد من الأحبار التطوانيين من أمثال :

حييم بباس، Rebbi Haïm Bibas و الربي مير بعل هنس Rebbi Hanes Meïr Baal، والربي إسحاق بن الوليد Rebbi Isaac Benguالid الذين أصبحت لهم شهرة عالمية جعلت من مدينة تطوان مركز إشعاع فكري وحضاري وديني بالنسبة ليهود العالم حتى سموها بالقدس " الصغيرة، ومنارة الغرب" وفي نفس الوقت لعبت مدينة Amesterdamنفس الدور بالنسبة للدول الأوروبية الشرقية فسموها : القدس الكبيرة.

لن أتوسع في هذا الموضوع مادام الزميل الأستاذ عبد العزيز شهبر سيتناول عرضه،"علاقة يهود تطوان ببيعات أوروبا والشرق العربي خلال القرن التاسع عشر".

4- Sarah Leiborici, **Chronique des juifs de Tétouan 1860-1869**, Maisonneuve, Larose, Paris, 1984.

5- Mohamed Kenbib, **Les relations entre musulmans et juifs au Maroc (1859-1945)**, **Hesperis, Tamuda**,vol.XXII, 1985, pp.83-104.
- "Les juifs de Tétouan entre la chronique et l'histoire". **Hesperis, Tamuda**, Vol. XXIV, 1989.

6- أشغال الندوة طبعت في سلسلة منشورات لكلية الآداب ، رقم :8، الرباط،1988.

ماأريد التأكيد عليه هو أن تطوان حظيت باهتمام الجاليات اليهودية في العالم بحكم نشاطها ومركزها الديني ومكانة أحبارها المرموقة. وهذا مايفسر اختيار هذه المدينة من طرف الرابطة الإسرائلية العالمية لتأسيس أول مدرسة إسرائلية فتحت أبوابها سنة 1863 م، ومن بين تلامذتها المسلمين الأوائل : محمد الطريس وعبد القادر الرزيني .

ظلت العلاقات بين يهود تطوان ويهود هولندة وباقي العواصم والممالك تسترعي وتأخذ باهتمام الباحثين، مغاربة، ويهود وأجانب. ومن الكتابات الأخيرة التي تناولت هذه العلاقة كتاب إحدى حفيدات بن دلاك تعرضت فيه إلى يهود تطوان ومكانتهم الدينية ودورهم في الحفاظ على صفاء الديانة اليهودية ونشرها بين الطوائف اليهودية في العالم بل حتى في قلب إسرائيل نفسها.

في مقدمة هذا الكتاب، تتحدث المؤلفة عن أصولها، وأجدادها وأسرتها التي عاشت في طنجة وتطوان، ومنها انتقلت إلى كاركاس، وأمريكا وفرنسا، وتلخص الكاتبة حياة ومسار هذه العائلة قائلة : ". . . ولدت في كراكاس، من عائلة يهودية مغربية، تنحدر من اليهود المطرودين من إسبانيا، كبرت في طنجة، أعيش حاليا في نيويورك وأشتغل بجواز سفر هولندي، متزوجة برجل هولندي الجنسية ولايعرف كلمة هولندية واحدة . "بهذه العبارات تعبر المؤلفة عن مشاعرها وتترجم إحساسها فتعطينا فكرة عن أسر[illegible]ك وما تعانيه حاليا في محاولة ربط الحاضر بالماضي، عائلة بن دلاك الهـ[illegible]جنسية، المغربية الأصول أو الموطن، اليهودية الهوية والفكر والدين.[7]

7- عرض وجيز وشاعري عن هذا الكتاب في العدد 3 و 4، 1992، لمجلة آفاق- لسان إتحاد كتاب المغرب – (ص. 289) .

علاقة يهود تطوان ببيئات الشرق العربي وأوربا خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين

الدكتور عبد العزيز شهبر
كلية الآداب - تطوان -

رغم تعدد الدراسات المقدمة عن تاريخ يهود المغرب، فإننا نجدها حافظت على نسق واحد، ودافعت عن طروحات موحدة، إلى درجة أن الواقف عليها يخالها أعمالا مكرورة [1] والواقع أن التأريخ ليهود العرب ظل موجها بأفكار مؤرخي الإستعمار الذين حاولوا التركيز على تقديم تاريخ طائفي للمجتمع المغربي يتم من خلاله تأكيد الإختلاف بين البربر والعرب واليهود. هكذا نجد تلك الدراسات تجتهد في تأكيد انعزال اليهود المغاربة في ملاحات متواضعة وضيقة، وتركز على قانون الذمية، وعلى فترات خرق هذا القانون، فيحيلون على نص صاحب المعجب في إلباس اليهودله لباسا مميزا على عهد الموحدين، ويقفون على قضية يهود بني رقاصة على عهد المرينين، وعلى ماكان من أمر اليهود عند صدور فتوى أبي عبد الله المغيلي الشيهرة، ويُسرفون في الحديث عن فترة ولاية السلطان مولاي اليزيد (1790-1792) . . . كما تتفق تلك الدراسات في التأريخ لأفراد من الطائفة اليهودية المغربية ممن كانت لهم علاقة بالسلطة السائدة، وتهتم بموضوع هجرة الطائفة إلى خارج المغرب، وتؤكد على النشاط الإقتصادي لهؤلاء ولا تولي نشاطهم الإجتماعي والثقافي كبير عناية، وحتى إذا تطرقت إلى ثقافة يهود المغرب فإنها لاتوظفها في إطار الثقافة المغربية الموسومة بالتعدد داخل الوحدة، كما لا تحاول إبراز الخصوصيات المغربية لهذه الثقافة.

وبالجملة، فالتاريخ المقدم للطائفة اليهودية المغربية، تاريخ نكسات وملاحقات يحتاج إلى التمحيص والمراجعة. إن تاريخ يهود المغرب جزء لايتجزأ من التاريخ

Arrik Diluya, **Nouvel inventaire bibliographique. Travaux1 sur les** -1 **juifs du Maroc**, (Revisé ct completé), Tome, Paris, 1978.
Robert Attal, **A bibliography of Publications concerning North African Jewry, Sefunot, in Jerusalem Annual for Research in The Jewish Communities in the East, Kiriat Sefer**, vol. V, 1961, pp. 467 - 504.
Les juifs d'Afrique du Nord Bibliographie Leiden, Brill, 1973.

المغربي وهو لا يمكن أن يقدم إلا داخل تاريخ عام للمغرب يستثمر كتابات يهودالمغرب مصدرا من مصادره المتعددة والمتنوعة.[2]

وإذا كانت المساجد والزوايا وجهت تاريخ المغاربة المسلمين، وكانت مركزا انطلقت منه أغلب الحركات التجديدية والإصلاحية والجهادية، فقد أطّرت البيع في الطائفة اليهودية ورسمت معالم تاريخها، فكانت من جهة عبارة عن مؤسسات نظمت شؤون اليهود وأحوالهم فيما بينهم أولا، وحكمت علاقتهم بباقي المجتمع المغربي ثانيا، ومن جهة ثانية كانت لهذه البيع علاقة متينة مع بيعات اليهود خارج المملكة الشريفة، وإلى تلك البيعات كان يأوي يهود المغرب في رحلاتهم التجارية خارج المغرب. ومن مظاهر العلاقات بين تلك البيعات الخارجية وبيعات المغرب أن تلك البيعات كانت تبعث إلى المغرب بعض أحبارها لجمع تبرعات وصدقات يهود المغرب.

ومن خلال هذا الإطار، ننتقل إلى ملامسة العلاقة بين يهود تطوان وبيعات الشرق العربي وأوربا خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. ومصادرنا في هذه الدراسة، تلك التقاريض التي كان يضعها يهود المغرب للكتب المغربية المطبوعة خارج المغرب، بالإضافة إلى وثائق خاصة.

تقدم تلك التقاريض أو (السِّكَمُوتْ) معلومات هامة للمؤرخ، فهي تقدم إشارات حول صاحب الكتاب ، وإفادات حول المدينة التي ينتمي إليها أو يستقر فيها، وإفادات حول الكتاب وإفادات حول الطائفة التي ينتمي إليها المؤلف، وإفادات حول علاقة المُقَرِّض بمؤلف الكتاب. ويمكن للمؤرخ من خلال هذه التقاريض أن يرصد تحركات يهود المغرب داخل المغرب وخارجه، مثلا نجد الواحد منهم يَظْهَرُ اسمه مع طائفة صفرو في تقريض ومع يهود تطوان في آخر، ومع طائفة يهود الإسكندرية أو ليفورن في تقريض ثالث ...

وإذا وقفنا على الكتب التي ألفها يهود تطوانيون في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، نجدها قليلة من حيث العدد إذا ماقُورنَتْ بما ألفه يهود تطوان في الفترات السابقة وخاصة القرنين 17 و18. رغم ظهور نوازل جديدة على مجتمع الطائفة التطاونية مثل مسألة زواج اليهوديات بالمسيحيين، ومسألة الهالكين وراء البحر... ولعل من أسباب خفوت التأليف من طرف أحبار تطوان في الفترة التي نحن بصددها، باب الهجرة الذي فُتحَ على مصْرَاعَيْه. وإذا كانت الهجرة في القرنين السابقين إلى بلاد تَيَسَّرَ فيها طبع الكتب (أوربا والشرق العربي)، فإن الهجرة خلال

2-أنا الآن بصدد إعداد مجموع خاص بالنصوص العبرانية المتعلقة بتاريخ المغرب والتي يمكن أن تعتمد مصدرا من مصادر التاريخ المغربي. انظر عرضنا المقدم ضمن أعمال الدورة الخريفية لجامعة مولاي علي الشريف لسنة 1992.

القرن التاسع عشر كانت إلى أماكن منعزلة بأمريكا الجنوبية. وحتى بعض العائلات التي كانت تتولى عملية نشر الكتب (عائلتا برينطي وابن أموزيغ مثلا) أصبحت تهتم أكثر بتنظيم عمليات الهجرة إلى الأمريكتين وتهتم بأعمال حرة أخرى. ولقد كان ذلك الخفوت في التأليف والنشر من مسببات مسخ الهوية الثقافية ليهود المغرب وانحصار الدور التثقيفي للبيعة أمام مد مدارس الإتحاد العالمي، والتي كانت تهدف بالأساس الى تكوين اليهود تكوينا أوليا ومهنيا[3] ومن بين 387 تلميذا متخرجا من مدرسة الإتحاد الإسرائلي العالمي سنة 1870 سوف يمكث بتطوان 120 تلميذا فقط.[4]

ومن المؤلفات العبرانية ليهود تطوان التي وقفت على تقاريضها :

"زكوت أبوت " لإبراهيم بن يهودا كورياط التطواني أصلا " والذي تنقل بين الصويرة وجبل طارق وليفورن وتوفي سنة 1806، وطبع كتابه هذا بـ Pise سنة 1812.

"رحميم بِشُوتيم "لرفائيل حييم موسى بنعيم التطواني مولدا ونشأة والذي انتقل إلى طبرية وعاد إلى جبل طارق، وكتابه هذا طبع بتونس سنة 1910. وهو في النوازل الفقهية .

"فَيُومرْ يسْخَاق" لإسحاق بن الوليد المتوفي سنة 1870، وهذا الكتاب طبع في ليفورن سَنة 1876 وهو في النوازل الفقهية.

" شُوفرية د يوسف" ليوسف بن الدهان، وطبع بـ القدس.

كما وقفت على كتب أخرى لغير يهود تطوان ظهرت فيها أسماء مُقَرِّضين تطوانيين.

لقد وُصفَت مدينة تطوان في التقاريض التي وقفت عليها بأنها مدينة القُداسة والتهاليل اَلتي تَفْضُل غيرها من المدن بكثرة بِيَعهَا. وقد كانت بتطوان خلال القرن التاسع عشر ست عشرة شنوغة (بيعة) تحمل أسَماَء أحبار تطوان وهو :

- يعقوب بن ملكا
- إسحاق بن الوليد

3- انظر مقالنا عن التعليم اليهودي بشمال المغرب على عهد الحماية ، تطوان في عهد الحماية 1912 - 1956، مجموعة البحث في تاريخ المغرب والأندلس، الرباط 1992، ص. 206 - 212.

4- Juan Bautista Vilar, **Tetuán y el resugimiento judeo contemporaneo**, Caracas, 1985, p. 1985.

- موسى بن شتريت[5]
- يهودا ابنصور
- فيدال بيباس
- إبراهيم أبو درهم
- يهودا ناحون
- إسحاق ناحون
- إبراهيم الناعوري
- إبراهيم بيباس
- سليمان أبو درهم
- موسى إسرائيل
- سليمان ناحون
- فيدال إسرائيل
- يوسف أبو درهم
- الليفي

وتفيد التقاريض بأن تطوان كانت تحضى بتبجيل جميع بيعات اليهود داخل المغرب وخارجه.

فمثلا نجد الكاؤون إبراهيم فلاَّجي من أزميز، يقول في تقريضه لكتاب "شوفرية د يوسف" ليوسف الدهان : " تطوان مدينة كبيرة، بها حكماء كُثْرٌ وكُتَّاب منشئون، هذا يَعْظُم هذا جلالا وفخامة ... لهم في أعماق الهلاخا[6] مما لايِعُد الفَمُ نُقَطَهَا الثمينة ..."

ولعل الواقف على تقريض إبراهيم فلاجي يستشف مكانة تطوان الدينية، فهي جمعت من الأحبار كل مُتَمَكِّن وكتبُهم بلغت الآفاق. وما كتاب شوفرية د يوسف "بن نسيم الدهان إلا نموذجا. ونفس الكتاب سوف يقرض له يهود تطوانيون مثل: السموأل ناحون والسموأل إسرائيل نيابة عن يهود تطوان، والسموأل العسري نيابة عن جماعة جبل طارق، ومردخاي بن غاو عن يهود طنجة والشاعر الحَبْر رفائيل موسى الباز عن جماعة صفرو، ورفائيل ابنصور وبنيامين سريرو وإسحاق بن دنان

5-بخصوص هذه الشخصية وقعت يدي على مجموعة من الوثائق. وهي عبارة عن شهادات إعتراف بالمساعدة والخدمة، سلمها له قادة الجيش الإسباني بتطوان مابين سنة 1860 وسنة 1862، من بين هولاء تذكر دون دومنكو أولوزير ، ديمتريو فينيش، مانويل بينافو، خواكين مارتينيس، رفائيل خمولا كريخال، خوسيه تورون أي براطس..وسأعمل لاحقا على نشر هذه الوثائق.

6- الهلاخا : الشريعة، الأحكام التي تبين الحلال والحرام والطهارة والنجاسة مما جاء في التوراة وفسره فقهاء اليهود.

عن جماعة فاس، ويعقوب بيردكو وموسى بيردكو وإبراهيم ابن حسين وحييم مساس والسموأل طوليدانو ... عن يهود مكناس، ويهود آخرون عن طوائف سلا ومراكش... وفي مقدمة الناشر نجد تأكيدا لما ورد على لسان ابراهيم فلاجي بخصوص مدينة تطوان ، فيوسف بن نسيم بن الدهان من "أرض حصْنِ الجبابرة؛ مدينةٌ عظيمة، مدينة الحخامات والكتاب التي يرغب فيها الملكُ، وَتسمى تطوان (طيطوان حسب النص العبري) ... "وهذه الإفادات تتساوق وتسمية تطوان بأورشليم الصغيرة. إنها مدينة الأحبار، وكانت سلطة هؤلاء الأحبار الدينية تتعدى طائفة تطوان لتشمل طوائف المغرب وغيرها. وتزودنا الكتب العبرانية المغربية المطبوعة خارج المغرب بأسماء العديد من أحبار تطوان الذين ساهموا في تقريضها. فمثلا نجد كتاب " ملْحَمَة مصفاه " لإيليعازر الإبيلي السلوي (1714 - 1761) والمطبوع بليفورن مُقَرَّضاً من طرف أربعة من كبار أحبار تطوان في نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي. ويتعلق الأمر بيعقوب بن يوسف بن ملكا، أفرايم بن إبراهيم مونصنونيغو، يهودا بن يوسف أبو درهم ويهودا بن إبراهيم كورياط. وكانت لهولاء جميعا علاقات مع أحبار المغرب والشرق العربي، كما أن المشرف على طبع كتاب "ملحمة مصفاه" هو أحد أبناء اليعازر الإبيلي وهو يوسف الإبيلي نزيل تطوان والناشران هما يهوديان من أصل جزائري استقرا بليفورن ، وظهر اسمهما مع أحبار إيطاليا وهما السموأل سعدون ودنيال سعدون. والجدير بالذكر أن أغلب المؤلفات المغربية المطبوعة بإيطاليا في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر كانت بالمدن التالية : بيزا . البندقية، ليفورن وكان الليفورنيون يتوافدون على تطوان بكثرة بحارة وتجارا.[7] ومن أعلام يهود تطوان في القرن الماضي الذين ظهرت أسماؤهم مع طائفة يهود جبل طارق، نجد يوشع برينطي، بنيامين العسري، إسحاق حسان، بنيامين مامان وأفراد من عائلة كردوسو وناحون وبنزكين، ورفائيل حييم موسى بن نعيم الذي ذكرنا له كتابين سابقا، وإبراهيم بن يهودا كورياط الذيكان ينتقل بين الصويرة وجبل طارق وليفورن . ولقد شجع الموقع الجغرافي يهود تطوانالتردد على جبل طارق، وغالبا ماكانت تلك الصخرة منطلقا للسفن نحو الشرق العربي والسواحل الأوربية ويحكي يوسف بن نسيم بن الدهان في "شوفريته" كيف استقر في جبل طارق أياما قبل أن يستقل السفينة التي توجهت به إلى مالطا أولا، ثم إلى بيروت ثم إلى يافا ليتوجه بعد ذلك إلى بيت المقدس ثم لينتقل منها إلى

7-انظر: Jean Louis Miège, **Les activités maritimes et commerciales de Tétouan:(VIIIème-XIXemesiècle)**,Tétouan, Groupe de Recherches sur l'Histoire du Maroc et d'Al Andalus (Faculté des Lettres de Tétouan), 1992.

الإسكندرية حيث طبع كتابه. ومن اعلام يهود تطوان الذين ظهرت أسماؤهم مع بيعات مشرقية نذكر: سليمان أكريش، حييم أبرياب، إبراهيم الحجوي، موسى بنعليل، سليمان صيريرو، إسحاق بن صموئيل ... مع بيعة وهران وسليمان الرومي، وإسحاق اللاوي مع يهود بلعباس، ويوسف بن الدهان ويعقوب بنطاطا وإسحاق بنزكين مع يهود الإسكندرية. والملاحظ أن أغلب البيعات التي تردد عليها يهود تطوان كانت بيعات واقعة في المدن الساحلية المتوسطية : جبل طارق، ليفورن، البندقية مالطا، بيروت، القدس، يافا، الإسكندرية، تونس، وهران وكلها موانئ نشيطة خلال الفترة التي نحن بصددها، لكن هناك من يهود تطوان من تمكن من التنقل بين البيعات الواقعة داخل أوربا من مثل بنصراف الذي كانت له علاقة طيبة مع بيعة باريس، ودنيال اللاوي الذي تنقل بين بيعات أوربا ووصل إلى أوكرانيا سنة 1854، وصادف حربا هنالك فعمل وصاحبه إبراهيم النقام التطواني ببيع الكور.[8]

كما حضيت بيعات فلسطين بعناية يهود تطوان.[9] وتبرز تقاريض المؤلفات العبرانية المغربية المطبوعة في القدس أو في طبرية في المرحلة التي نحن بصددها تلك العناية، فمثلا نجد رفائيل بمينْطا التطواني يُشرف في طبرية على طبع كتاب "مي منُوحُوت" لرفائيل بيردكو ويقَرض لهذا الكتاب أعلامٌ مثل سليمان أبي العافيَة عن أحبار طبرية، ويعقوب واعكنين ومخلوف شتريت ويعقوب كورياط وموسى كورياط عن يهود تطوان وسبتة والسموأل ناحون التطواني ... وغيرهم ويظهر حسب ما رأينا أن يهود تطوان كانوا على صلة وثيقة ببيعات الشرق وأوربا، ومن خلال تلك البيعات الواقعة خارج المملكة الشريفة، كانوا يشرفون على تنظيم بيعات جديدة في أمريكا الجنوبية، وكانوا يجتهدون في أن تحتل الطائفة التطوانية الصدارة في تلك الآفاق. ولتبين ذلك أُقَدّم ما وقفت عليه في رسالة عثرت عليها مؤخرا بمدينة أصيلة. وهي ليهودي تطواني يدعى يعقوب برينطي، استقر بوهران في نهاية القرن الماضي وهذه الرسالة موجهة إلى ميناحيم كورياط المستقر بكاركاس بفنيزويلا. والرسالة مؤرخة بـ 6- 11- 1927 إلا أنها تقدم معلومات جمة عن تحرك يهود تطوان في نهاية القرن الماضي، وفيها يبين برينطي لكورياط الطريقة المُثلى في الإشراف على تنظيم الصلوات وحفلات رأس السنة اليهودية ويوم الغفران،

8-انظر : Sarah Leibivici, **Mon grand père Daniel et la tribu des Lévy**, in "**Mosaïques de notre mémoire, les judeo-espagnoles du Maroc**", Paris, Ed. Leibovici, Paris, 1982, pp. 151-150.

9-انظر: L. Benarroch, **Algunas notas sobre la emigracion judeo-marroquí a Palestina en el siglo XIX**, Maguen, 41,1981, p.21.

والإشراف على المقابر اليهودية بفنيزويلا. وهذه الأمور كان سبق السموأل برينطي ويعقوب برينطي أن شرعا فيها منذ سنة 1890. ويظهر من خلال الصفحة العاشرة من الرسالة ، إنه كانت هناك علاقة شراكة بين يعقوب برينطي والسموأل برينطي وميناحيم كورياط والسموأل بندلاك (التطواني قنصل ڤنيزويلا بتطوان) وليون ناحون وبنصراف وليون طوريل. وأنّى كانت البيعات التي استقر في ظهرانيها هؤلاء (وهران، كاركاس، تطوان، طنجة، باريس) فقد كان بينهم تنسيق كبير وساهموا في ربط علاقات بين بيعاتهم الأصل بتطوان وبينها . وتبقى التقاريض مصدرا مهما يمكن أن يسهم في توضيح كثير من الغوامض المتعلقة بتنقل يهود المغرب خارج المملكة الشريفة، وعلاقتهم ببيعات خارجية، خاصة إذا تم دعمها بوثائق جديدة .

السلاوي في الكتابات الإسبانية

ذ. مصطفى عديلة
كلية الآداب بتطوان

لنبدأ أولا بتعريف هذا الشخص الذي أشارت إليه واعتنت به أقلام بعض الكتاب الإسبان منذ بداية هذا القرن، وتناولت جوانب مختلفة من حياته. فالشخص الذي سيكون موضوع هذه المداخلة هو السيد علي بن محمد السلاوي التطواني ، وقد تعرض له مؤرخ تطوان الفقيه أحمد الرهوني، صاحب كتاب **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، بقوله :

« هو الأديب الأريب أبو الحسن سيدي علي كان رحمه الله أعجوبة الزمان في الفصاحة والبلاغة والإغراب في الحكايات والأدبيات، مولعا بالأمثال العربية وغيرها والذهاب مذهب التفلسف في أقواله وأفعاله مع الديانة المتينة وملازمة الصلوات وتلاوة القرآن ومطالعة الكتب.

ولي وزارة الأحباس في هذه المنطقة منذ الاحتلال إلى أن مرض مرض موته الواقع في (ذي القعدة) عام 1342 ودفن بباب المقابر رحمه الله تعالى »[1]. وكما يتبين مما أوردناه، فإن المعلومات التي يسجلها الفقيه الرهوني جد مقتضبة ويغلب عليها طابع المبالغة والإطناب، وتلك عادته في ترجمة رجالات وأعيان هذه المدينة.

وعلى العكس من ذلك، فإن النصوص الإسبانية التي رجعنا إليها تمكننا من معرفة بعض جوانب شخصية علي السلاوي ، وهي جوانب ظلت مجهولة إلى عهد قريب. إن معظم النصوص الإسبانية التي سنعتمد عليها هي من تأليف كتاب إسبان عاشوا فترات متراوحة بالمغرب وحصل لهم اتصال ومعرفة بعلي السلاوي، معرفة مكنتهم من تسجيل انطباعاتهم و شهاداتهم حول هذا الشخص،أو من إثبات بعض رسائله.

و صاحب أولى هذه النصوص هو خوصي مونيوث ليورينطي(José Muñoz Llorente) المعروف باسمه المستعار إسحاق مونيوث (Isaac Muñoz). وهو من مواليد مدينة غرناطة إذ ازداد بها سنة 1885 وتابع دراسته بهذه المدينة

1 - أنظر عمدة الراوين في تاريخ تطاوين ، ج. 6 ، ص. 140 - 141، مخطوطة رقم 877 ، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان.

وحصل على درجة الدكتوراه في الآداب بجامعة مدريد، كما درس العربية بالمدرسة العليا بالجزائر وبجامعة القاهرة ، وقام بزيارة عدة دول عربية من بينها المغرب على وجه الخصوص.[2]

ويبدو أنه قضى عدة سنوات في بلادنا منذ سنة 1911، حيث اشتغل كمراسل لجريدة **El Heraldo de Madrid** و هي جريدة ذات نهج ليبرالي تولى إدارتها عدة أشخاص ممن كانت لهم مصالح سياسية واقتصادية بالمغرب نذكر منهم رؤساء الحكومة الإسبانية (José Canalejas) و(Augusto Suàrez de Figueroa).[3] وعمل أيضا كمراسل لأهم المجلات الأسبوعية المصورة التي كانت تصدر في إسبانيا و منها مجلة **Nuevo Mundo** و **La Esfera**. ولقد حظي مونيوث بشهرة كبيرة في عهده، واعتبر من لدن النقاد والدارسين كأحد أبرز الروائيين الإسبان ممن استحوذ المغرب على اهتمامهم بشكل مطلق.[4] كما اعتبر كذلك خبيرا في الشؤون المغربية، عبر من خلال كتاباته و مقالاته الصحفية عن رؤيته للأوضاع الداخلية بالمغرب وعن مواقفه السياسية تجاه ما كان يسمى آنئذ ، " بالمسألة المغربية ".[5] وبخصوص هذه الرؤية يمكننا القول ، ولو بشكل مختصر ، أنها رؤية يشوبها الغموض ، فهو مثلا لا يستعمل كلمة الاستعمار بل يفضل كلمة (Colonismo) بمعنى التعمير. إن مونيوث قلما يدافع عن سياسة الاحتلال ، بل يفضل سياسة ما يسميه بالتسرب الحضاري. وعلى كل فأطروحة مونيوث تبقى استعمارية من حيث وسائلها و أهدافها لأن التسرب سواء كان سلميا أو كان عسكريا يبقى دائما تسربا غايته الأولى والأخيرة الإستغلال والتحكم. وللإطلاع على الأطروحة التي يدافع

---

2 - لمزيد من المعلومات حول هذا الكاتب انظر :
André Bachoud,, "**Issac Muñoz , orientalista y africa nista " in Actas del Ciclo de Conferencias" Africanismo y Orientalismo Español"** publicadas por AWRAQ, Anejo al Vol. XI, Madrid, 1990,pp.164.

3 - حول هذه الجريدة ، انظر :
Jean Michel -Desvois, **La prensa en España (1900 - 1931**), Madrid, Siglo XXI editores, 1977, pp. 15 - 16.

4 - ألف عدة روايات حول موضوع المغرب و نذكر منها :
Morena y Trágica (1908), La fiesta de la Sangre (1909), Alma Infanzona (1919), Esmeralda de Oriente (1914)

5 - من هذه الكتابات :
La corte de Tetuán (1912), Imperialismo Colonista (1912), En el País de los Cherifes (1913), En Tierras de Yebala (1913).

عنها مونيوث يمكن الرجوع مثلا إلى كتابه "La Agonía del Magreb" وترجمته احتضار المغرب. في هذا الكتاب وهو عبارة عن مجموعة من المقالات التي سبق أن نشرها بالصحافة الإسبانية، نجد مونيوث يخصص مقالا بكامله [6] وبعض الإشارات في مقال آخر للسيد علي السلاوي.

علي السلاوي حسب مونيوث:

يقدمه كشخص ذو أصل أندلسي من سلالة بني نصر ملوك غرناطة، وتغلب عليه علامات الإمارة والوجاهة و هي علامات تذكره بالأمراء والخلفاء المسلمين الذين تمكنوا من إخضاع أوربا في العصور الوسطى. و يصفه أيضا بالذكاء الثاقب وبكونه صاحب معرفة كبيرة بأمور الدين مع ميل إلى الروحانيات ، كما أن له ثقافة واسعة لا يباهيه فيها أحد ، خاصة و هي تتميز بروح التفاهم والتسامح. ويعتبره أيضا كوحيد عصره في الأدبيات، وأن له ولعا كبيرا بقصائد شعراء الأندلس وبشعر من تغنوا بليالي غرناطة و بقصر الحمراء على وجه الخصوص. ومن الخصال الحميدة التي تميز السلاوي يذكر مونيوث اللباقة والتريث والحكمة وبعد النظر، وهي خصال جعلت السلاوي يتبوأ مكانة خاصة في وسط أعيان تطوان الذين يعتبرونه بمثابة المستشار في كل المسائل المعقدة، كما مكنته من التأثير الكبير على قائد تطوان عبد السلام بن الحسين البخاري، وكذا الإطلاع الواسع على خبايا وأسرار السياسة المخزنية. أما عن المواقف السياسية لعلي السلاوي فأول ما يلفت النظر هو قول مونيوث أن للسلاوي قناعة تامة بانحلال المغرب. ولذلك فإنه يرى أن لا جدوى من مقاومة مجرى التاريخ، وأن تردي أوضاع المغرب راجعة في أساسها إلى ما يسميه مونيوث " بالتعصب الديني " وانحلال الإنسان المغربي. ويعتبرالسلاوي أن الخروج من حالة التدهور والانحلال التي يعيشها المغاربة مشروط أو مرتبط كل الإرتباط بمسايرة تطور الأجناس المسيطرة والتعامل معها. ويبدو السلاوي كواحد من أنصار فك العزلة التي عاش فيها المغرب والقضاء على الجمود، كما يبدو مقتنعا تمام الإقتناع بأن ذلك سيقع وحجته في ذلك أن القرآن لا يعارض التطور المعقول وأن تاريخ المغرب مليء بالعطاءات الحضارية الكبيرة.

وبخصوص السلاوي إزاء التقلبات السياسية التي عرفها المغرب مع بداية القرن العشرين ، فإن مونيوث يقدمه لنا كأحد أنصار المولى عبد العزيز. فالسلاوي يعتبر العهد العزيزي عهد تجديد وتأقلم مع معطيات العصر، كما يعتبره فرصة وحيدة في تاريخ المغرب لإخراجه من الإنحطاط وتحويله إلى دولة عصرية ذات طابع شرقي،

---

6 - En **La Agonía del Mogreb**, Madrid; Imp. Helénica, 1912, pp. 125 - 131.

دولة تأخذ ما يكفيها من عناصر الحضارة الغربية بهدف تهيئة وضمان أسباب النمو والتطور، وبالتالي تمكن من الحفاظ على التوازن الحضاري. وكمثال حي ، يؤكد منظوره، يستشهد السلاوي بما حدث في الشرق الإسلامي وخاصة في مصر وتركيا حيث يمكن للمتتبع أن يرى كيف تمكنت هذه الدول من مسايرة الركب الحضاري الأوربي. أما بالنسبة للمولى عبد الحفيظ فالسلاوي يعتبره إنسانا بدائيا ومحافظا، ويتبين ذلك في معارضة المولى عبد الحفيظ التعامل مع أوربا، و بكونه أحاط نفسه بحاشية تتألف من أسفل الناس. والسلاوي لا يشاطر رأي أنصار المولى عبد الحفيظ في مقدرة هذا السلطان على فرض وتعزيز سلطة المخزن في جميع أنحاء المغرب وبالتالي ضمان استقلال البلاد و تفادي الخضوع لضغوط الدول الأوربية الاستعمارية.

لذلك فالسلاوي يصف مشروع المولى عبد الحفيظ بالمشروع المستحيل، مشروع يكاد يكون حلما لأن عدة عوامل (كالعصبية القبلية وثورة القبائل على سلطة المخزن وتردي الأوضاع لثقافية بالبلاد)، ستحول دون تحقيق الهدف الذي ينشده السلطان المولى عبد الحفيظ.

وحول العلاقات المغربية الإسبانية يرى السلاوي أن من واجب إسبانيا مساعدة المغرب على الخروج من الأزمة التي يعيشها، ولكنه مقتنع من كون فرنسا ستحول دون ذلك لأنها عملت على تنمية مصالحها بالمغرب، وهو الشيء الذي سيمكن فرنسا من تحويل المغرب إلى منطقة نفوذ خاصة تضاف إلى منطقة نفوذها الموجودة بالجزائر. وبخصوص تطوان فهي في نظر السلاوي مدينة يمكن اعتبارها إسبانية، ليس فقط لأن سكانها ينحدرون من الأندلس ، و إنما لاحتكاكها الدائم بسبتة. ولدعم وتطوير النفوذ الإسباني بتطوان يرى السلاوي أنه من المناسب ترغيب الشركات الإسبانية في الإستثمارات التجارية واستغلال الثروات الطبيعية بالمنطقة، وهو الشيء الذي سيؤدي طبعا إلى جعل هذه المدينة وهذه المنطقة منطقة نفوذ إسباني صرف.

علي السلاوي حسب لوبيث:

صاحب النص الثاني المعتمد في هذه المداخلة هو من رهبان البعثة الفرنسسكانية بالمغرب وإسمه الكامل خوصي ماريا لوبيث (José María López). ولهذا الراهب كتابات عدة عن تاريخ هذه لبعثة ، كما ألف سنة 1927 كتابا ضخما،[7] هو عبارة عن دراسة موثقة لحياة وأعمال أشهر رهبان البعثة الفرنسسكانية بالمغرب وهو

7 - José María López, **El Padre Lerchundi (Biografía Documentale)**, Madrid, Imp. Clásica Española, 1927.

خوصي ليرتشوندي (José Lerchundi).[8]

ورغم أن هذا الكتاب مخصص بكامله لسيرة الراهب ليرتشوندي فإننا نجد فيه إشارات متفرقة لبعض ملوك المغرب، ولرجالات المخزن الشريف ، إلى جانب إشارة خاصة لشخص السيد علي السلاوي. فهذا الكاتب يعتبر السلاوي المغربي الوحيد الذي نال ثقة ليرتشوندي كما يعتبره واحدا من أقرب مساعديه، ويضيف لوبيث (López) قائلا إن السلاوي من أعيان تطوان وإنه " قدم خدمات جليلة لإسبانيا وكان جد معروف في مدريد. ولقد أسند إليه مؤخرا منصب وزير الأحباس".[9] وقد أثبت الراهب لوبيث في كتابه المذكور رسالتين[10] يتبين من خلال نصهما تعلق السلاوي بليرتشوندي وإيفاده ببعض الأخبار.

علي السلاوي حسب أولياغا:

إسم كاتب هذه المقالة هو لويس دي أولياغا (Luis de Oleaga)[11] وقد قام بمهمة الكتابة الخاصة عند السلاوي لمدة تجاوزت العشر سنوات ، وكانت مهمته هي تحرير رسائل السلاوي باللغة الإسبانية. وأول ما يؤكد عليه هذا الراهب هو الإعجاب الكبير الذي كان يعبر عنه السلاوي تجاه البعثة الفرنسسكانية ، وأنه كان صديقا حميما و مساعدا للراهب خوصي ليرتشوندي. ويفيدنا أيضا أن السلاوي اشتغل

---

8 - عاش بالمغرب ابتداءا من سنة 1862 الى أن مات بطنجة سنة 1869، أي ما يزيد عن ثلاثين سنة قضى منها مايقرب من عشر سنوات في تطوان (1867- 1877) .

9- "Este moro prestó buenos servicios a España , fue muy conocido en Madrid,y últimamente desempeñó en Tetuán el alto cargo de Ministro de Los bienes Habús ..." Apud.
José María López , **El Padre Lerchundi** , p. 491 , nota 2.

10 - نفس المصدر، ص. 491 - 492. و نص هاتين الرسالتين متقطع به أكثر من فراغ ،ويرجع سبب ذلك حسب لوبيث إلى أن الكثير من هذه الرسائل التي اطلع عليها لم تصر بعد مادة تاريخية وبالتالي لا يمكن نشرها.

11 - "No siendo aún del dominioo de la Historia muchos de estos asuntos , no posible darlos a conocer por hoy .." (p. 488)
Luis Oleaga "**Sidi Ali Selavi** ", In **Mauritania**, núm. 146, Año XIII, 1 Enero de 1940, pp. 20 - 21.

بهذه البعثة كطالب أي كمدرس للغة العربية واللغة العامية.[12] ويضيف كذلك بأن السلاوي كان كثير الزيارة للبعثة الفرنسسكانية بطنجة خصوصا في المناسبات والأعياد الدينية المسيحية. وأن السلاوي كان ينزل في بعض زياراته لإسبانيا ضيفا في أديرة الفرنسسكان حيث كان يعرف بالمسلم الفرنسسكاني. ويؤكد أولياغا (Oleaga) على اعتبار السلاوي من أخلص محبي إسبانيا والأسرة المالكة الإسبانية، وفي هذا الاطار يفيدنا بأن السلاوي كانت له مراسلة مستمرة مع إسبانيا وأن بعض هذه الرسائل كان يبعثها الى الملكة ماريا كريستينا (María Cristina) وابنها الملك ألفونسو IIX،(Alfonso XIII) ، وكيف أن السلاوي كان كثير الافتخار والاعتزاز بساعة ذهبية أهدته إياها الملكة المذكورة في إحدى زياراته لإسبانيا. ويختم أولياغا مقالته هذه موضحا أنه في بداية نظام الحماية الإسبانية بالمغرب كانت لنصائح السيد السلاوي أهمية بالغة وأنها كانت محط عناية خاصة من طرف سلطات الإحتلال.

هذه هي صورة السيد علي السلاوي التي نستنتجها من خلال النصوص الإسبانية التي وقفنا عليها ، وهي صورة إنسان جعلته ظروف عصره يتخذ موقفا محددا من الأوضاع المتردية التي كان يمر بها المغرب، موقفا دفعه إلى ترجيح أو تفضيل حل معين لتلك الأوضاع و إن كان ذلك الحل مرفوضا كل الرفض من طرف سلاطين المغرب ومن طرف الأغلبية الساحقة للشعب المغربي. إن موقف السلاوي من الأزمة التي كان يعرفها المغرب في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أدى بهإلى تحبيذ فكرة التعاون أو التعامل مع إسبانيا، وهي الدولة الأوربية التي كان يعتقد أن لها ارتباطا تاريخيا وحضاريا بالمغرب، إرتباط يكاد ينعدم مع غيرها من دول أوربا. إن التعاون أو التعامل الذي استحسنه السلاوي تبلور في الواقع في شكل تقديم خدمات، ولكن يبقى علينا أن نتساءل عن نوعية هذه الخدمات التي قدمها السلاوي لإسبانيا و هو تساءل وجد مؤخرا بعض الجواب، عندما قام الدكتور عبد العزيز خلوق التمسماني بنشر المراسلة[13] التي تمت بين ليرتشوندي وبعض الأعيان المغاربة. وأغلب هذه المراسلة تمت بين السلاوي وليرتشوندي، وتحتوي جل

---

12 - يتبين من خلال ما كتبه إسحاق مونيوث في La Agonía del Mogreb أن كتاب ليرتشوندي حول مبادئ تعليم اللغة العامية المغربية (Rudimentos del Arabe Vulgar (Madrid 1872، إنما كان عملا مشتركا مع علي السلاوي ، يقول :

.. sus fundamentales líneas generales fueron trazadas por Alí EL Chelaui moro tetuání , Moro tetuaní de muy singular cultura y de muy clara y alta mentalidad " (p. 116).

13 -التمسماني خلوق ، عبد العزيز ، " مائة وثيقة مغربية غير منشورة حول طنجة : أرشيف البعثة الكاثوليكية الفرنسسكانية " مجلة دار النيابة السنة الرابعة ، ع.16/15، 1987، ص. 50 - 63.

هذه الرسائل زيادة على السلام والسؤال والتمني المعتاد، على أخبار مختلفة يعطيها السلاوي عن مواضيع شتى. ويمكننا تصنيف المعلومات التي تحتويها هذه الرسائل إلى مجموعتين :

- المجموعة الأولى توضح مدى تعلق السلاوي بليرتشوندي وبالدولة الإسبانية، وتشمل كذلك المعلومات والأخبار التي تتعلق بالسياسة الخارجية العامة للمغرب خصوصا ما يرتبط منها بإسبانيا. ومن بين أخبار المجموعة الأولى من هذه الرسائل نذكر على سبيل المثال المعلومات التي يعطيها السلاوي عن التواجد العسكري الفرنسي بشرق المغرب وزحفه في اتجاه فگيگ[14]، أو التي تتعلق ببعض التعيينات في دار النيابة بطنجة ،كتعيين الحاج محمد الصفار خليفة للنائب السلطاني الحاج محمد الطريس.[15]

ومن أهم هذه المعلومات تلك التي لها علاقة مباشرة بالمفاوضات المغربية الإسبانية التي جرت بمراكش إثر إندلاع حرب مليلية في 29 شتنبر 1893، وما تبع ذلك من تبادل السفارات ونوعية وحجم التعويضات.[16]

أما عن تعلق السيد علي السلاوي بالراهب خوصي ليرتشوندي فجل الرسائل تعبر عن هذا التعلق ، ويكفينا الاستشهاد بهذا البيت الشعري الذي استهل به إحدى رسائله.[17]

زالت محاسنك في مساء المجد ترقى*** وأثر صدق طويتك يبقى.

وفيما يخص إسبانيا فهو كثيرا ما يصفها بكونها « أرض التجارة والرفاهية والفخامة »[18]، كما يصف الملكة ماريا كريستينا بالسلطانة العظيمة والظريفة والأديبة « سيدة السادات وسنيورة السنيورات ... أنا أسلم عليها ألف سلام وأقبل يديها ولا ننسى خيرها ولطافتها مادامت الروح في الجسد».[19]

أما المجموعة الثانية فتختص بالأوضاع الداخلية للمغرب وبآراء السلاوي تجاه

---

14 - رسالة رقم 70 بتاريخ 19 أبريل 1889.

15 - رسالة رقم 82 بتاريخ 17 يونيه 1891.

16 - الرسائل رقم 86 و 90 و 93. و ترجع كلها إلى سنة 1894.

17 - رسالة 59 بتاريخ 19 مـاي 1887.

18 - رسالة 58 بتاريخ 27 غشت 1882.

19 - رسالة 77 بتاريخ 14 دجنبر 1889.

بعض رجالات المخزن وعن دوره كوسيط لدى الراهب خوصي ليرتشوندي لقضاء أغراض بعض الأشخاص، كالحصول على الحماية القنصلية الإسبانية أو غير ذلك. ومن جملة هذه الأخبار تلك التي تتعلق بحركة المولى الحسن بشمال المغرب، وكمثال نورد هذه المعلومات المدققة التي تضمنتها إحدى رسائله : « وقد بعث لهنا (تطوان)... خمسمائة جمل حاملين الكورة والبرود والخفيف ونصف مليون من الفوشك ، والجيش الذي هنا من الشاوية وغيرهم .. ».[20] أما الرسائل الأخرى فتتضمن أخبارا عن بعض التدابير السلطانية كعزل الصدر الأعظم وأخيه وزير الحربية وإيداعهما سجن تطوان[21] أو تلك التي يخبر فيها بنشوب الفتنة في بعض القبائل المجاورة لمدينة وزان.

كل هذه الأخبار وهذه المعلومات كانت تصل مباشرة إلى وزارة الخارجية الإسبانية عن طريق الراهب خوصي ليرتشوندي وخاصة في عهد الوزير صيخيسموندو موريط (Segismundo Moret) الذي كان له إتصال ومراسلة مباشرة مع الراهب المذكور. ومن المعلوم أن هذا الوزير كانت له علاقات الصداقة الوطيدة مع ليرتشوندي وكان يطلب منه باستمرار تزويده بالمعلومات الدقيقة حول أوضاع المغرب، والدليل على ذلك ما كتبه خوصي ماريا لوبيث :

"En 23 de marzo (de 1887) necesitando Moret noticias claras y fidedignas acerca su amigo el P. Lerchundi ; el cual de la frontera argelina , acudió como siempre, a se las suministró"[22]

وفي رسالة أخرى، بعثها نفس الوزير إلى ليرتشوندي بتاريخ 7 أبريل 1888 ، يطلب منه إخباره بما استجد في موضع فتنة حدثت في تافيلالت وعن زيارة السلطان المولى الحسن لطنجة.

"L ivamente me escriba su opinión y sus noticias sobre los siguientes puntos :

2 .Insurrección religiosa en el sur del Imperio (Tafilete), 3 Viaje del sultán a Tánger[23]

ومما تبينه نصوص بعض الرسائل التي توصل بها ليرتشوندي من عند السلاوي ،

---

20 - رسالة 74 بتاريخ 18 غشت 1889.

21 - رسالة 94 بتاريخ 15 غشت 1894. ويتعلق الأمر بالحاج المعطي بن العربي المختار وأخيه محمد بن العربي الصغير ، المعروفين بأولاد الجامعي.

22- José María López, Op. Cit., p. 480.

23- Ibid, p. 488.

زيارة السلطان مولاي الحسن الأول لتطوان

من خلال الصحافة البريطانية

ذ. رضوان العيادي
كلية الاداب، تطوان

تحاول هذه المداخلة استقراء ثلاثة نصوص صحفية نشرت في جريدة " أزمنة المغرب" (Times of Morocco)،[1] وتتمحور هذه النصوص حول زيارة السلطان مولاي الحسن الأول لمدينة تطوان. وإذا كانت زيارة مولاي الحسن الأول لمدينة طنجة[2] قد لقيت اهتماما لدى الباحثين فإن زيارة السلطان التاريخية لتطوان لم تلق إهتماما مماثلا.

لقد بدأ السلطان هذه الزيارة من فاس يوم الإثنين 17 شوال عام 1306 هـ، وشملت عددا من المناطق الشمالية نذكر منها صنهاجة ومستارة وبني يحمد والأخماس ومدينة شفشاون ومنها انتقل إلى بني حسان وبني عروس حيث زار ضريح الشيخ محمد عبد السلام بن مشيش وبعد ذلك توجه الى قبيلة بني حزمار ومنها إلى مدينة تطوان التي دخلها يوم الأربعاء فاتح محرم من 1307 الموافق لـ 4 شتمبر 1889. لن أتطرق في هذا السياق إلى الإطار التاريخي للصحافة البريطانية التي كانت تصدر بالمغرب في أواخر القرن التاسع عشر. فتكفي الإحالة هنا إلى بعض الأعمال التي تناولت هذا الجانب ونخص بالذكر أعمال جان لوي مييج[3] وجامع بيضا[4] والطيب بوتبقالت...[5]

إن دراسة النص الصحفي تقتضي الوقوف على البعد الجنسي للخطاب الصحفي

1- **Times of Morocco**, Nos. 199- 200- 201.

2-انظر أعمال الندوة التي نظمتها جمعية تنمية طنجة والمحافظة على مآثرها بالاشتراك مع مجموعة "ماروك سوار" و" الصحراء" في يونيو 1990 بمناسبة الذكرى المئوية لزيارة السلطان مولاي الحسن لمدينة طنجة منشورات ولادة.

3- Jean Louis Miège, « **Journaux et Journalistes a Tanger au XIX^{eme} siècle** », **Hespéris**, 1er Février 1954.

4- جامع بيضا : "قضية (الجوازيط) الأجنبية بطنجة خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر". مجلة دار النيابة، العدد 18، ربيع 1988.

5-الطيب بوتبقالت : " الصحافة الأوربية الصادرة في طنجة في أواخر القرن التاسع عشر". ملتقى مدرسة الملك فهد العليا للترجمة بطنجة، 1990.

وبعض مميزاته العامة.[6] فلغة التمثيل في النص الصحفي ليست مجرد وسيط يقوم بنقل الأخبار والأحداث على نحو محايد . فعملية تقديم حدث ما تخضع لمجموعة من المعايير، ذلك لأنه ليست هناك قيمة كامنة في الأحداث ذاتها تجعل بعضها أخبارا دون البعض الآخر. وعلى سبيل المثال فالحدث الذي نحن بصدده (حدث الزيارة السلطانية) يصنع خبرا لأنه يتعلق بتحركات أسمى شخصية في البلاد وأيضا لأن هذه الزيارة كانت تكتسي أهمية شديدة في نظر بريطانيا، خاصة إذا علمنا أن الزيارة جاءت بعد مرض أقعد السلطان الفراش مما أثار احتمالات كثيرة حول مآل المغرب.

إن ماسبق ذكره لاينفي وجود وقائع صحفية، فلن يجادل أحد في واقعة الزيارة السلطانية إلى تطوان التى قامت جريدة Times of Morocco بتغطيتها . لكن تمثيل هذه الواقعة وتصويرها في نص صحفي لايتم إلا من خلال موقف إيديولوجي يرتكز على جملة من الأحكام القيمية المسبقة . وإن كانت هذه الملاحظة تصدق على جميع الأنماط الخطابية فإنها تتخذ بعدا متميزا في الخطاب الصحفي.[7]

وأقدم فيما يلي ترجمة للنص الأول الذي صدر في جريدة Times of Morocco في عددها رقم 200 (الترجمة بتصرف) :

المشهدخارج المدينة:

<< وقد صف العسكر على جانبي الطريق الذي يمتد نصف ميل من باب المدينة إلى الطريق المؤدي إلى طنجة . وكان يقف خلف العسكر أهل المدينة و" المخازنية " المزودين بالخيول ، ثم تبعتهم جماعة من سائقي البغال المحملة بالمتاع وهم يتغنون بالثناء على السلطان . ثم أتى بعد ذلك رجال يمتطون جيادا ، ويمكن تمييز على الأقل وجهين أوربيين من بينهم >>:

ثم ينتقل المراسل إلى وصف لقاء السلطان بالسفير الإيطالي السيد . S.r Cantagali وبعد ذلك ينتقل إلى الوصف التالي : << على يسار الطريق المؤدية إلى المدينة كانت تقف جماعة من اليهود واليهوديات. كان الرجال يحملون الأعلام والرايات الصغيرة بينما كانت النساء يحملن الدفوف. وعند مرور السلطان أمامهم كانوا يسعون إلى لفت انتباهه بتلويح أعلامهم ودق دفوفهم وهم يغنون " بارك الله سيدنا ". وقد تعرض اليهود لكثير من الشتم وسوء المعاملة . ذلك أنه مع اقتراب مولاي الحسن أمروا بخلع نعالهم >>.

ATeun Dijk, **News as Discourse**, New York, Longman, 1988. -6

R.Fowler, **Language in the News. Discourse and Ideology in the Press**, Routledge, London, 1991. -7

إن إشارة النص إلى وقوف اليهود على يسار الطريق المؤدية إلى تطوان له أكثر من دلالة ولعل أبرز هذه الدلالات دلالة عقائدية. فاليهود ليسوا من أصحاب اليمين في المعتقد الإسلامي، ولذلك فانتباه الكاتب لهذا الأمر قد لايكون من باب الصدفة. والنص من جهة أخرى يصف على نحو دقيق مظهر يهود تطوان وهم يفرحون بزيارة السلطان . إن تركيز النص على سعي اليهود إلى لفت نظر السلطان من خلال غنائهم وتلويحهم بالأعلام يوحي بتعبير اليهود عن وفائهم له.

وقد يكون المقصود انتباها آنيا، أي نظرة من السلطان إلى اليهود لحظة مروره أمامهم، وهو مقصد وارد. إذا ما أخذنا في الاعتبار آخر جملة في النص والتي تفيد سوء المعاملة التي تعرض لها اليهود. ولعل الانتباه المقصود يكون انتباها إلى أحوال وشؤون اليهود عامة. مهما يكن من أمر، فإن الصورة التي يرسمها النص تدعو إلى التعاطف مع اليهود.

وننتقل الآن إلى النص الثاني

الدخول إلى تطوان

كان يتقدم الموكب جنديان راجلان تتبعهما سبعة أعلام وحشد كبير من الحرس الراجلين . يأتي بعد هؤلاء رجال المدفعية ... ثم بعد مرور بعض الفرسان اقتربت الفرقة الموسيقية عازفة أنغاما مفعمة بالحيوية يقودها القائد (ماكلين) على متن صهوة جواده. وكان يبدو على نحو متفق تماما مع صورة ضابط إنجليزي في استعراض عسكري لو لم يكن يرتدي بذلة شبه مغربية. وقد كانت حيوية الرجال الذين يتبعونه ملفتة للنظر وكان منظرهم زاهيا بفعل تباين ألوان عباءاتهم ... بعد أن مر موكب القائد (ماكلين) رأينا " المظلة " تقترب وكان الحماس شديدا . لقد أمرت من قبل بإغلاق مظلتي وهو مافعلته على مضض لأن الشمس في هذه اللحظة كانت حارقة . وقد استشاط أحد الرجال غيظا بسبب اعتقاده الواضح بأنه كان يجب علينا (نحن) أن نبجل هذا الشخص الذي يمتطي جوادا ويرتدي ملابس غير لائقة.

وصف السلطان :

كان يرتدي لباسا مراكشيا عاديا وكان سرج فرسه الأبيض مزكرشا بالنحاس. لقد كانت إبتسامته بهيجة وإن كان وجهه يبدو عليه بعض الغبار من جراء السفر ... على العموم فإن مظهر السلطان كان مخيبا للآمال ليس بسبب نقص في التمجيد والبهرجة ولكن بسبب نقص في النظافة.

ثم ينتقل المراسل إلى وصف اليهود فيقول :

<< لقد احتشد الناس بالبنايات المحيطة بالفدان، وقد أقام اليهود تجمعا ضخما. فما أن أخلى العسكر ساحة السوق حتى اجتمع كل اليهود تقريبا ، رجالا ونساء وأطفالا للتغني بـ " الله ينصر سيدنا " وقد اتخذت تدابير خاصة لحماية اليهود حيث كان الحرس يجلس بباب الملاح >>.

إن هذا النص غني بالإيحاءات والدلالات . فلغة التمثيل في النص توحي بنوع من التجرد في تقديم الزيارة إلى القراء. فمراسل Times of Morocco يوحي بأنه إنما ينقل ماتراه العين بنزاهة وإخلاص. وبالفعل فالإنطباع الأولي الذي يتركه النص عند القراءة الأولى هو أننا إزاء كاميرا تقوم بالتقاط صور حية لدخول موكب السلطان إلى تطوان. غير أن التصوير في الخطاب الصحفي، شأنه في ذلك شأن بقية الأنماط الخطابية الأخرى، لايمكن أن يكون حياديا ومجردا بسبب اعتماده نظاما تواصليا محملا بالأحكام القيمية. فإلى جانب الأحكام القيمية الصريحة في النص، وهي نادرة، نجد أن طريقة بناء الوصف التي تهيمن على النص بدورها تضمر أحكاما قيمية.

تركز الفقرة الأولى في النص على وصف القائد (ماكلين). وبالطبع فالوصف يشمل أيضا عناصر أخرى من الموكب : الجنديان، الحرس، الفرقة الموسيقية .... غير أن هذه العناصر لا تشكل إلا الخلفية التي تساعد على إبراز صورة القائد (ماكلين). فالقائد الإنجليزي يمثل بؤرة الوصف في الفقرة الأولى.

أما الفقرة الثانية فتتميز بتركيزها على تعارض الأنا والآخر من جهة، وبصيغ الإحالة التي تستخدم في تشخيص السلطان من جهة ثانية. يتخذ التعارض صيغة استعلائية حينما يتردد المراسل في إغلاق مظلته لعدم تقديره واحترامه لحضرة السلطان. وتزداد حدة الاستعلاء في قوله : «وقد استشاط أحد الرجال غيضا لاعتقاده الواضح بأنه كان يجب علينا (نحن) أن نبجل هذا الشخص الذي يمتطي جوادا ويرتدي ملابس غير لائقة». إن استعمال الكاتب لضمير جمع المخاطب يكتسي دلالة خاصة في هذا السياق . فضمير (نحن) هنا يحيل على الذات الثقافية والحضارية للإنسان الأوربي في مقابل هذا الآخر الذي لايستحق الإحترام وإن كان الأمر يتعلق برمز سيادة البلاد، أي السلطان. وأما بخصوص صيغ الإحالة على السلطان فنجد صيغتين في الفقرة الثانية. فالصيغة الأولى تحيل كنائيا على السلطان من خلال وصف إقتراب " المظلة " وهي الإحالة الأولى من نوعها في النص (فحتى العنوان " الدخول إلى تطوان " يخلو من أية إشارة إلى السلطان). أما الإحالة الثانية فهي أكثر تصريحا : " هذا الشخص الذي يمتطي جوادا ويرتدي

لباسا غير لائق". ثمة إختلاف دلالي وإيديولوجي بين صيغ الإحالة الممكنة على السلطان. يبدو الفرق واضحا عند مقارنة الصيغتين الواردتين في النص بالصيغة المألوفة لدى المغاربة وهي " جلالة السلطان مولاي الحسن الأول حفظه الله".

تختص الفقرة الثالثة بوصف مظهر السلطان. ويبدو أن صاحبنا لم يرقه لا هندام السلطان ولا فرسه ولا ملامحه ليخلص إلى القول إن " مظهر السلطان العام كان مخيبا للآمال". ولعل خيبة الأمل التي أصابت مراسل Times of Morocco من جراء مظهر السلطان تجد تفسيرها المناسب في الخلفية التاريخية والسياسية للرحلة السلطانية إلى المنطقة الشمالية.

إن جريدة Times of Morocco لم تخف موقفها من الرحلة منذ أن بدأ التهيئ لها والحديث عنها. فابتداءا من فاتح يناير 1889 صدرت مجموعة من المقالات حول هذا الموضوع. فإلى جانب تشكيك هذه المقالات في إمكانية قيام السلطان بزيارة فعلية للمنطقة الشمالية كانت تشكك أيضا في جدوى وقيمة هذه الرحلة.

وهكذا فعملية تقزيم السلطان من طرف المراسل الإنجليزي تكشف عن خبايا إيديولوجية تشير في الدرجة الأولى إلى عدم فهم المراسل لكون مظهر السلطان لاينقص في شيء من هيبته ووظيفة شخصه الرمزية على المستويين السياسي والثقافي. بل يمكن أن نؤول اعتماد السلطان بساطة الهندام والمظهر بتشبثه بإحتكاكه وإنسجامه الفعلي مع عامة رعيته.

وتأتي الفقرة الأخيرة في النص لتركز على اليهود الذين احتشدوا في ساحة الفدان للتغني بنصر السلطان وتمكينه معبرين بذلك عن ابتهاجهم وتعلقهم بالسلطان. وقد وقفنا في النص الأول على فقرة مماثلة في تركيزها على وصف يهود تطوان. من هنا فإختيار وصف فئة اليهود دون غيرهم من طبقات أهل المدينة ليس اختيارا إعتباطيا أو مجانيا لأنه يتم على حساب إقصاء مظاهر وجوانب أخرى من الزيارة السلطانية.

وننتقل الآن إلى النص الثالث الصادر في عدد201.

السلطان وحاشيته بتطوان

لم يتميز صيام عاشوراء بأي استعراض خارج عن نطاق المألوف بسبب زيارة السلطان، غير أنه بما أن اليوم كان يوم جمعة فقد خرج جلالته لأداء الصلاة مع العامة قرب ساحة الفدان... وبالرغم من ذلك فقد كان غياب اليهود أمرا ملفتا للنظر حيث تم إغلاق باب حي اليهود قبل خروج السلطان، ولم يسمح لهم حتى بالصعود إلى السطوح المجاورة لجدران الملاح. وكل يهودي وجد خارج الملاح أرغمه

العسكر على خلع نعله. وعلى عكس مظهره الوسخ أثناء دخول تطوان فإن عباءة السلطان في هذه المناسبة كانت ناصعة البياض. إن سبب إهمال السلطان الواضح لمظهره في الأسبوع الماضي مرده أن الأيام العشر الأوائل من محرم لم تكن قد انصرمت بعد، وليس من عادة "المؤمن" أن يرتدي لباسا نظيفا خلال هذه الأيام. ومع ذلك فقد كانت "المظلة" وهي الرمز الوحيد للسيادة في هذا البلد، بالية ومرقعة.

يرتكز هذا النص على تعارض بين صورتين: تعارض مظهر السلطان في هذا النص مع مظهره في النص الثاني وتعارض صورة اليهود مع صورة المسلمين. فصورة السلطان في هذا النص تتعارض مع صورته في النص الثاني من حيث مظهره العام ويحاول الكاتب تعليل مظهر السلطان غير اللائق الذي ظهر به عند دخول تطوان بعادة إسلامية مفادها العدول عن النظافة في الأيام العشر الأوائل من شهر محرم. إن هذا التعليل، حسب علمي، ليس له سند شرعي. ثم إن دخول السلطان إلى تطوان في الحالة الموصوف عليها في النص الثاني أمر طبيعي وعارض إذا ما تذكرنا ظروف الرحلة ومشقتها. غير أن التعارض في مظهر السلطان بين النص الثاني والنص الثالث لا يعدو أن يكون تعارضا على المستوى الظاهري. فهنالك تعالق ضمني بين النصين يتجلى في صيغ الإحالة على السلطان. فأول إحالة على السلطان في النص الثاني كانت إحالة كنائية من خلال عبارة "اقتراب المظلة" أي اقتراب السلطان. هكذا تختزل هيبة السلطان في "المظلة" باعتبارها رمزا إشاريا. ثم يعود المراسل في النص الثالث للتركيز على المظلة حيث يصفها بكونها "بالية ومرقعة" وهو وصف يمس هيبة السلطان باعتبار التطابق الحاصل في النص الثاني بين السلطان و"المظلة".

ولدعم هذا التأويل فإن الفقيه أحمد الرهوني مثلا لم تحجب عنه بساطة مظهر السلطان الهيبة التي تتجلى في صيغة الاحالة المتميزة على شخص السلطان: "السلطان المقدس مولانا الحسن بن محمد بن مولاي عبد الرحمن ".[8] فقدسية السلطان وهيبته لها إمتداد تاريخي وحضاري أقوى من أن ينقص منها المظهر.

على أن الصورة المهيمنة في النص الثالث ترتكز على التعارض بين صورة يهود ومسلمي تطوان . لقد تعددت أسباب الفرحة في هذا اليوم بالنسبة لأهل المدينة. فاليوم (العاشر من محرم) هو يوم عيد (عاشوراء) ويوم جمعة وهم فوق كل هذا

8 - أحمد الرهوني، " عمدة الراوين في تاريخ تطاوين " مخطوطة المكتبة العامة بتطوان.

فرحين بتواجد السلطان بينهم . على أن صورة الفرحة التي يرسمها النص يشوبها نقص واضح يتجلى في "غياب اليهود الملفت للنظر". وغياب اليهود، كما يصوره النص، كان كرها لاطواعية . فاليهود يضطهدون في عيد المسلمين وفي حضرة السلطان بالرغم من مظاهر الوفاء التي عبروا عنها والتي تم وصفها في النصين 1 و2. وبغض النظر عن التساؤل حول داوعي حضور اليهود في مثل هذا اليوم بالذات فإن تركيز الكاتب مرة أخرى على اليهود، حتى أثناء غيابهم، يظهر مدى اهتمامه بهذه الفئة من أهل المدينة.

نلاحظ أن النصوص الثلاثة تتمحور حول القائد (ماكلين) والسلطان واليهود. صحيح أن الطابع الاختزالي الذي يطغى على النص الصحفي لا يسمح بإدراج كل المعطيات والخلفيات الواردة.

إن إختلاف القراء بحسب إدراكهم لهذه الخلفيات هو الذي يجعل بعض جوانب النص واردة وهامة بالنسبة لقارئ دون آخر. فقارئ هذه النصوص لابد أن يخلص إلى صورة عامة هي أكثر اختزالا من النص الصحفي.

إن تركيز النص على وصف القائد (ماكلين) وتركيزه على وصف اليهود يوازيه تقزيم هيبة السلطان، وإغفال ردود فعل بقية الجماهير المسلمة بالمدينة. ولعل صورة يهود تطوان تبقى عالقة بذهن القارئ . إن قراءة متأنية لهذه الصورة تفضي إلى الاستنتاج التالي : يهود تطوان في حاجة إلى حماية. والواقع أن مسألة اهتمام الصحافة البريطانية باليهود المغاربة تعكس توجها خطابيا عاما في الكتابات الإنجليزية حول المغرب في القرن التاسع عشر.[9]

وحتى نتمكن من الوقوف على بعض الجوانب التي تغاضى عنها بصر المراسل أو تم تغييبها نورد في الختام، من باب الإستئناس، نصا مقتطفا من رواية الفقيه أحمد الرهوني في وصفه للزيارة السلطانية:

«... وبات أهل تطوان أيقاظا يلعبون البارود فرحا بقدوم الأمير، وفي الثلث الأخير من الليل خرجوا جميعا على طبقاتهم من الشرفاء والعلماء والأعيان والطوائف كلها بأعلامها وذكورها وطبولها، والشبان حاملين السلاح تحت رئاسة القائد والقاضي وصلوا الصبح خارج البلد واصطف الجميع من وادي سمسة إلى باب التوت ولم يبق بالبلد إلا النساء والصبيان، وكان العلماء والشرفاء راكبين على بغال مسرجة وكنت فيما بينهم راكبا بغلا ببردعة . فلما أسفر على طلعة الأمير

---

9 - L.A.E Brooks, **A Memoir of Sir John Drummond Hay**, London, 1896، وكذلك:

انظر خالد بن الصغير، "المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر (1856-1886)"، منشورات ولادة، 1990.

وخلفه وزراؤه وأعلامه وجيوشه وطبوله فلما تقابل مع أهل البلد نزل القاضي عزيمان عن بغلته وتقدم للسلام عليه بالنيابة عن الجميع فحظي بتقبيل راحته الكريمة والتفاته العالي وابتسامه الرفيع وبلغه ترحيب عمالة تطوان به وإمتنانهم بنعمة تشريفهم بطلعته البهية فشكره على ذلك ولاحت على طلعته الأريحية الهاشمية، ثم أوقف موكبه وأمر بإركاب القاضي عزيمان على بغلته وتقديمه بين يديه هو ومن معه. وبمجرد ما ولى القاضي والأعيان وجههم شطر المدينة صاحت الموسيقى بصنعة الوصل ما أحلاه.

ثم تقاصفت رعود المدافع من كل برج فرحا بأمير المؤمنين وهكذا استمر الحال حتى دخل السلطان مدينة تطوان ونزل بالدار العالية ونزل الحاجب السيد أحمد بن موسى بدار القائد محمد أشعاش والوزير الصنهاجي بدار الحاج أحمد الرزيني... وهكذا تفرق كبراء الدولة على الدور اللائقة بهم أما القواد وبقية الجيش والعساكر فنزلوا في سهل سانية الرمل ... ثم انهالت موائد الأطعمة الفاخرة والحلاوي على السلطان رحمه الله هنا صباحا وزوالا ومساء كما أطعم عموم أهل البلد عموم الجيش بالأطعمة العادية من كسكوس وغيره ثلاثة أيام ومضت الأيام الخمسة عشر التي أقامها السلطان بين أظهرنا مواسم وأفراحا مابين الموسيقى السلطانية التي كانت تشنف الأسماع صباحا ومساء بأنظامها العديمة النظير في ساحة الفدان عند باب دار المخزن ومابين زيارة السلطان لأولياء المدينة داخلا وخارجا وذبح الثيران بضرائحهم وهو في موكبه السعيد يقف للكبير والصغير ويقرأ الفاتحة لكل من طلبها منه ويدعو بالخير لكل متعرض ويمطر الصدقات والعطايا لكل أحد، ومابين زيارة الأبراج التي ختمها بزيارة لبرج مارتيل ... وفي غد زيارته له ودع تطوان بمثل ماحياها به من البشاشة والدعاء الصالح بعد ماحظي بالمثول بين يديه جميع الأكابر والأعيان من الشرفاء والعلماء والأغنياء والفضلاء وأنعم على مدينة تطوان بقدر عظيم من المال تبنى به قنطرة وادي المحنش فبنيت ومر الناس على ظهرها أول عام 1309 ثم هدمها الوادي وبقيت أنقاضها به إلى الآن ...».

ملامح من أدب تطوان أواخر القرن الثالث عشر للهجرة

الدكتور: عبد الله المرابط الترغي
كلية الآداب بتطوان

إن المتحدث عن أدب تطوان خلال القرن الثالث عشر للهجرة، لابد أن يلفت نظره إلى ثلاثة أشياء بارزة يمكن أن تكون منطلقا لأي بحث حول أدب تطوان خلال هذا القرن .

الشيء الأول : وجود مؤسسات فكرية بتطوان كان لها دور كبير في تنشيط حركة الأدب، وأقصد بهذه المؤسسات مختلف الزوايا التي عرفتها تطوان خلال القرن الثالث. وهي كثيرة ومتعددة، ويتفاوت حضورها الفكري والاجتماعي بتفاوت المستوى العلمي الذي يمثله أعلامها ورجالها آنذاك. فيبرز بينها وبشكل مثير الزاوية الدرقاوية [1] بسلوك أصحابها ومواقف رجالها، وأعمال أدبائها. وتمثُّل الزاوية بهذه الصفة لا يعني بالضرورة وجود فرع تقوم به شكليات الزاوية بمستواها المادي، بل يكفي أن يكون هناك أتباع ومريدون ليتأكد حضور هذه الزاوية أو تلك، في هذه المنطقة أو غيرها.

وأقصد بحضور الزاوية الدرقاوية هنا ما أثمرته حركتا الشيخين أحمد بن عجيبة (ت 1224). ومحمد الحراق (ت 1261) من نشاط علمي وصوفي، وماكان لهما من دور كبير في علمية الأدب وإنتاج مواده.

ومع هذه الزاوية الدرقاوية كان هناك زاوية بني ريسون [2] وقد كانت مجمع أهل تطوان بطقوسها الخاصة، وسلوك شيوخها، وما يجري في مجالسها وحلقاتها من أدب وإنشاد أشعار. ورغم أن زاوية بني ريسون لم تنتج شيوخا أدباء في مستوى ابن عجيبة أو الحراق، إلا أن ماكان يجري في مجالس شيخها السيد عبد السلام

1- نسبة إلى الشيخ محمد العربي الدرقاوي (1159-1239) تنظر ترجمته، في:مقدمة رسائله محمد العربي الدرقاوي : 3 - الدرر البهية 163/2 - " سلوة الأنفاس" 1 / 176 - شجرة النور الزكية 38- قبيلة بني زوال للفاسي : 27 - وقد أفرده الشيخ الشريف بوزيان المعسكري بتأليف في مناقبه سماه : كنز الأسرار في مناقب العربي الدرقاوي وأصحابه ، الأخيار مغ خ ع بالرباط : ك 2841 ضمن مجموع .

2- تأسست زاوية بني ريسون بتطوان عام 1208، على يد سيدي علي بن محمد بن ريسون، راجع " تاريخ تطوان" 3 / 202.

بن ريسون من إنشاد القصائد، وإثارة القضايا الأدبية - وما كانت تحفل به من حضور أدباء وعلماء من تطوان وغيرها - يجعل من هذه الزاوية معلمة في تنشيط حركة الأدب والتقييد في مواده، وإنشاد أعمال الشعر في هذه الفترة.

الشيء الثاني: ما أحدثته تلك الرجّة الكبيرة من حرب تطوان واحتلالها عام 1276. وهي رجّة فجرت التعبير عند أبناء هذه المدينة وغيرهم من العلماء والأدباء ليندبوا ما آل إليه حظ المغرب في هذه الحرب، وفي هذا الاحتلال. وقد أنتج هذا الموقف أعمالا شعرية ونصوص خطب[3] وغيرها من أعمال الأدب شارك فيها أدباء المغرب وعلماؤه من تطوان وغير تطوان، وتشتهر في هذا السياق الكراسة الشعرية التي جمعت بعض قصائد أهل تطوان في الموضوع[4] وهي، على ما تكشف عنه من تدنٍّ في العملية الشعرية ونزوع إلى النظم، تؤكد حضور جانب من الممارسة الشعرية عند الفقهاء والعدول ومتأدبي تطوان في هذه المرحلة.

وأعتقد أن حدث هذه الرجة لم يكن بالشيء الهين، سواء بالنسبة للمغرب عامة أو لتطوان خاصة. ولذلك فالمنتظر أن يتم الكشف عن أعمال أدبية كثيرة، ولّدها هذا الحدث .

الشيء الثالث: وجود قمم أدبية في تطوان تمتد على طول القرن الثالث عشر، تحرك في كل ساحاته فن القول وتثير ذكره. وأعني بهذه القمم، الأسماء الأدبية الكبيرة التي عرفتها تطوان على طول مساحة القرن الثالث عشر للهجرة، أبدأ فيها بذكر :

- الأديب عبد القادر المنون[5] (ت 1214) وهو شاعر مكثر، متمكن ويحتاج إلى دراسة متأنية، واستقصاء لأعماله الشعرية.

- الأديب عبد الله شطير الحساني[6] (ت 1214) قرأ بفاس وتطوان واستقر في الأخير بتطوان يمارس العدالة والتدريس. واشتهر بالأدب نثرا وشعرا، ومايزال مجموعه الأدبي قائما بين أيدينا يشهد بما كان لهذا الرجل من

3- راجع مظاهر يقظة المغرب 1 / 364 وقد ورد نص خطبة عبد الكبير بن المجذوب الفاسي ، وزجلية للشاعر الحاج إدريس السناني - والمصادر للمنوني 2 / 152 ، وراجع تاريخ تطوان لمحمد داود 5 / 236 حيث أورد الكثير من الخطب والشعر في الموضوع - ويحتفظ كناش خ ع . د : 3736 بقصيدتين في الموضوع لشاعرين من مكناس .

4- راجع نصوص هذه الأشعار عند محمد بن تاويت في : وثيقة تاريخية عن تطوان / مجلة تطوان 13 - 50 / عدد أول 1956 - وراجع هذه النصوص في تاريخ تطوان 5 / 250 . 274 .

5- ترجمته في تاريخ تطوان 6 / 197 حيث يشير إلى ما سجله عنه تلميذه محمد الهاشمي أفيلال، في كناشه الكبير.

6- ترجمته في فهرسة محمد بن الصادق بن ريسون (مخطوط) - وتاريخ تطوان 6 / 199 ومجموعة الأدبي المسمى نظار الأصيل، موجود بخزانة داود تحت رقم :70.

نشـــاط في الشعر والكتابة.

- الشيخ أحمد بن عجيبة [7](ت 1224) صاحب التآليف الكثيرة وصاحب تفسير البحر المديد وأحد كبار رجال التصوف والأدب. له قرابة أربعين تأليفا، أكثرها في شرح النصوص الأدبية والصوفية.[8]

- الشيخ عبد الرحمن بن سعيد بن طريقة [9](ت 1127) وقد كان لـه نشاط أدبي واسع مثله في كتابة مجموعة من الشروح الأدبية، مثل شرحه للشواهد النحوية ،وشرح حزب البحر الكبير للشاذلي. ويعتبر شرحه [10]للبردة البوصيرية من أهم الشروح، وأوفرها مادة وتركيزا وأدبية.

- الشيخ محمد الحراق [11](- 1261) وهو شيخ تطوان في التربية وتهذيب سلوك المريدين. مارس المشيخة العلمية فدوس التفسير وغيره، ومارس المشيخة الصوفية، فلقّن الأوراد ووظّف الوظائف، ومارس الكتابة الأدبية فصنع الأشعار الصوفية التي يجري فيها على طريقة ابن الفارض، وصاغ الرسائل المختلفة يخاطب بها أصحابه وأتباعه.

واتسع نطاق الاستفادة منه فكثر تلامذته في تطوان وغيرها من مدن المغرب، فاستقرت معه الزاوية الدرقاوية في طريقته الحراقية التي عرفت باسمه.

* / الشيخ محمد بن عبد الله الصفار[12]الوزير والسفير (ت 1298) برز بطريقته الكتابية وبخاصة في رحلته السفارية إلى فرنسا.

7- راجع ترجمة ابن عجيبة في : فهرسته / طبع مصر - أزهار البستان 207/1. وقد ختم مشاهير القهاء بترجمة نفسه - تاريخ تطوان 6/ 213 والمراجع التي ينقل عنها.

8- راجع لائحة مؤلفاته في تاريخ تطوان 6 / 218 - 241 .

9- ترجمته في تاريخ تطوان للسكرج : 75. مخ ، مكتبة داود - تاريخ تطوان 6 / 259.

10- راجع تاريخ تطوان 6 / 259 وقد تحدث عن مواد الشرح ، وعن النسخة المخطوطة منه بمكتبة الفقيه أحمد بنتاويت بتطوان- من شرح البردة نسخة مخطوط بالخزانة الحسنة 1581.

11- راجع ترجمته المفصلة في تاريخ تطوان 6 / 289 - وقد أفرده تلميذه محمد العربي الدلائي بتاليف في ترجمته وجميع أعماله الأدبية من شعر ورسائل وتأليف أسماه النور اللامع البراق في ترجمة الشيخ الحراق / منه مخطوط بخزانة تطوان العامة رقم 70.

12- تنظر ترجمة الفقيه الصفار في فواصل الجمان :70 تاريخ تطوان 7 / 78 - 97 والمراجع التي ينقل عنها- الأعلام للمراكشي 7 / 34. وتوجد من رحلته نسخة مخطوطة بالخزانة الحسنية رقم 113. وقد قامت الأستاذة سعاد الناصر بتخريج نص هذه الرحلة حيث جعلتها ملحقا برسالتها لدبلوم الدراسات العليا.

* / الشيخ مفضل افيلال (ت 1304) وهو أ ديب تطوان وشاعرها أواخر القرن الثالث عشر، وصاحب القصيدة الشهيرة في بكاء تطوان غداة احتلالها عام 1276 هـ /2هذه الأشياء كأسباب ومظاهر وأعمال رجال كانت المدخل الرئيسي للحديث عن الحضور الأدبي الذي عرفته تطوان أواخر القرن الثالث عشر للهجرة، وعن القضايا الأدبية التي حركتها أعمال الأدباء والشعراء وغيرهم في مجالس تطوان وبين المهتمين بمجالي العلم والأدب فيها.

وأقف عند قضيتين اثنتين فقط لأتبين منهما جانبا من هذا الحضور الأدبي بصورته الحية وممارسته التطبيقية، إذ يتجاوز الموقف فيهما من الإبداع والقراءة إلى ما يلامس النص في مستوياته البنائية فيناقش الموقف، وينتقد الإختيار، ويحاكم الصيغة ويقوّم ما يحتاج إليه من تقويم.

3 / أول هذه القضايا يتعلق الأمر فيها بقصيدة الشيخ الشاعر مفضل أفيلال الشهيرة في بكاء تطوان غداة احتلالها عام 1276، إذ افتتح القصيدة بقوله".[13]

يَادهرُ قل لي علامهْ * كَسَرتَ جَمْعَ السلامَهْ
نصبته للدواهي * ولم تخف من ملامه
خفضت قدر مقام * للرفع كان علامه

فانتقد عليه بعضهم موقفه فيها من الدهر وتوجيه الملام اليه خاصة، فاضطر الشيخ مفضل أفيلال إلى رد هذا الانتقاد والكتابة عليه مبينا وجهة نظره في ذلك وموقفه من لوم الدهر ومحاسبته فقال :" بلغني أن بعض الإخوان من أعيان تطوان لما وقف على قصيدتنا التي سمحت بها القريحة القرحاء في التأسيف على ماحل بنا من فراق الوطن وتشتيت الأهل مفتتحا لها بخطاب الدهر على ماهو شأن الشعراء وعادتهم حسبما يعلم ذلك من مطالعة داووينهم ، وكتب الأدب مشحونة به، أعجب بها وأثنى عليها وعلى منشئها، غير أنه استشكل عليه توجيه العتاب للدهر، مع قوله عليه السلام : لا تسبوا الدهر، فان الله هو الدهر، فطلب مني بعض الطلب رفع هذا الإشكال، فأقول ....".

وقد ارتكز رد المفضل أفيلال في ذلك على النقط التالية :

أولا : تفسير معنى الدهر، وهو الزمان، والاستشهاد على ذلك بما ورد في اشعار المتقدمين، وهو بهذا التفسير انما يؤكد جريان الاستعمال اللغوي للفظة الدهر عنده بهذا المعنى، ليكون العتاب في شعره موجها إلى الزمان

13- راجع نص القصيدة كاملا في : تاريخ تطوان 5 / 251.
" وأما الحديث فلم أقف على ماقال المفسرون فيه، إذ كتبنا كلها ذهبت في تطوان

الذي يتصف بالتقلب والتغير .

ثانيا : التخلص من مراجعة نص الحديث المذكور، ومناقشة مدلوله لعدم وجود مصادر بين يديه يمكن الرجوع إليها. "وأما الحديث فلم أقف على ما قال المفسرون فيه، إذ كتبنا كلها ذهبت في تطوان".[14]

وهو موقف صريح من الشيخ مفضل أفيلال الذي لا يتكلم في نص حديث نبوي إلا بالاستعانة بما أنتجه علماء الحديث وأرباب الشأن في فهمه وشرحه وتخريجه، غير أنه إن لم يفصل كلامه في نص الحديث المذكور، فانه أثار ما يفرق بين الاستعمالين في نصي الحديث والأدب. ففي الحديث يكون الخطاب قد "خرج مخرج الحقيقة " بينما كان " الأدب خلاف ذلك ".[15]

ويستدل على ذلك ببعض ما ورد في كتابات بعض الأدباء وشراح النصوص الأدبية في الموضوع ، وبخاصة ما ذكره الصفدي عند شرحه كلام الطغرائي في لامية العجم :[16]

والدهر يعكس آمالي ويقنعني * من الغنيمة بعد الكد بالقفل

ثالثا : ما استطرد إليه بذكر أشعار كثيرة في موضوع الدهر، وتوجيه العتاب إليه، ولومه ووصفه بصفات الخصم والعدو، وهو في ذلك ينقل عن الصفدي في شرح لامية العجم، وعن المقري في نفح الطيب وعن غيرهما، ليؤكد بذلك جريانه في عتاب الدهر في قصيدته على سنن الشعراء وعادة شعراء العربية، إذ يفتتحون قصائدهم عادة بما يعتبه هؤلاء على الدهر ولومه"... على ماهو شأن الشعراء وعادتهم، حسب ما يعلم ذلك بمطالعة دواوينهم، وكتب الأدب مشحونة به...".[17]

وإذا كانت هذه القضية مما سبق إثارتها في الأدب العربي القديم فكتب حولها غير واحد من هؤلاء القدماء في مصنفاتهم وشروحهم الأدبية، فان حضورها هنا بهذه الصفة في هذه الحقبة وبالذات في تطوان، وفي مجالسها العلمية، يؤكد جانبا من الحركة الأدبية ووجود نشاطها، وحضور الاهتمام الذي يتركز حول أعمال أدباء تطوان وشعرائها، فتحصل قراءة النصوص الأدبية مما أنتجته البيئة المحلية، ويقع الإمعان في تتبعها وملاحظة موادها وملاحقة إدراكها واستيعابها. ويسري مع فهم هذه النصوص جانب التعليق والانتقاد والتقويم. ويبدو أن هذه القضية لم تقف عند هذا

14- نص هذا الرد بكامله وارد عند المرحوم الأستاذ داود في تاريخ تطوان 7 / 212 ، 214 وعند المرحوم الفقيه المرير في فهرسته النعيم المقيم 2 / 131 - 133 .

15- تاريخ تطوان 7 / 213 .

16- راجع الغيث المسجم للصفدي 231/1.

17- تاريخ تطوان 7 / 212.

الحد، فقد استمر حضورها في تطوان بين علمائها وأدبائها إلى مابعد مدة طويلة.

فكأن الشيخ الفقيه محمد المرير رحمه الله (ت 1978 /1398) وهو يعرض مواد هذه القضية في فهرسته النعيم المقيم، لم يجد في جواب الشاعر مفضل أفيلال مايدفع به هذا الإنتقاد، فلا يقتنع به، ولا يرى فيه إسكاتا للخصم وإفحاما للمعترض، وإشباعا للموضوع بما يتطلبه من التحرير الشافي والجواب الكافي. فاضطر إلى كتابة رسالة في الموضوع بناها على خمسة مباحث، ناقش فيها ورود لفظة الدهر في الحديث المذكور آنفا، واستعمال الشعراء له وكيفية ذلك، مما لا يسمح حيز الموضوع الآن بعرضه.[18]

/4 أما القضية الثانية فتتعلق أيضا بانتقاد بيت شعري في مضمونه وصيغة بنائه وادعاء تنافر العلاقات بين موارده. يحدث هذا في مجلس الشيخ سيدي عبد السلام بن ريسون[19] (ت 1299) حين قراءة الهمزية البوصيرية بالألحان، وكان من الحاضرين الفقيه العلامة أحمد بن محمد السلاوي التطواني[20] (ت 1320) والفقيه الأديب قاضي فاس عبد الهادي الصقلي الحسيني الفاسي[21] (ت 1311) وكان كثير القدوم إلى تطوان لزيارة السيد عبد السلام ابن ريسون والجلوس إلى حضرته، والتبرك بطلعته.

فأثير عند ختم القراءة مذاكرة حول بيت البوصيري في الهمزية وهو :[22]

وَمَسِيرِ الصَّبَا بِنَصْرِكَ شَهْرا * فَكَأَنَّ الصَّبَا لَدَيْكَ رخاءُ

فانتقد الفقيه السلاوي صنيع الشاعر في هذا البيت، وتناقش بحضرة السيد مع

18- راجع نص هذه الرسالة في فهرسة النعيم المقيم 2 / 136 - 152.

19- راجع ترجمته المفصلة في تاريخ تطوان 7 / 98 - 176.

20- ترجمته في عمدة الراوين للرهوني 9 / - فهرسة النعيم المقيم للمرير 2 / 96. ويعتبرالفقيه السلاوي أحد أكابر تطوان وفقهائها أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر للهجرة ، اشتغل بالفتوى فكان المبرز فيها، ومارس التدريس فأخذ عنه كثير من علماء تطوان ، واشتهر بمناقشاته لمختلف القضايا الفقهية والأدبية مع ما كان يتسم به من الدقة في معالجة هذه القضايا والانتصار لمواقفه بعد اعمال الجهد في ترجيحها والاستدلال عليها، وقد عرف رحمه الله أنه لا يترك مسألة تمر بين يديه دون أن ينتقد ما فيها من نقص ، ويذكر عنه أنه كان كثير الانتقاد على معاصره الفقيه القاضي محمد بن علي عزيمان (ت 1313) حتى انه قد جرت بينهما مناقشات واسعة في بعض القضايا الفقهية والفتاوي النازلة .

21- توفي وهو في حجه بالمدينة المنورة عام 1311 ودفن بالبقيع، وكان قد تولى قضاء الجماعة بفاس فحمدت سيرته. واشتهر بعلمه وأدبه، له كتابات وأجوبة وأشعار، وينسب اليه كتاب في تراجم رجال القرن الثالث عشر. كان كثير الحضور إلى تطوان وزيارة الشيخ السيد عبد السلام بن ريسون والجلوس الى حلقته. / تنظر ترجمته في : النعيم المقيم 1 / 111 نقلا عن الدرر البهية للفضيلي . وتاريخ تطوان 7 / 118 . 189 . المصادر العربية للمنوني 2 / 101 - وترد بعض فتاويه في النوازل الصغرى للوزاني 1 / 319 ط، فاس.

22- النعيم المقيم، ج 1، ص. 105 - وراجع ديوان البوصيري ، ص. 69 وهو البيت رقم 329 في الهمزية.

القاضي عبد الهادي الصقلي، الذي كان له موقف يناصر به ما استقر عليه هذا البيت عند الشاعر البوصيري.

وافترق المجلس على أن يكتب كل من الفقيهين تقييدا في الموضوع كل يعرف فيه بموقفه، ويعرض حججه في ذلك، فكان هناك تقييد الفقيه السلاوي، وهو ينتقد الشاعر البوصيري ويؤاخذه في الاستعمال الذي جاء عليه البيت المذكور في شطريه معا. وكان هناك أيضا التقييد الذي كتبه الشيخ القاضي عبد الهادي الصقلي، وهو يرد فيه على موقف السلاوي انتقاده. ويختار في ذلك مااستقر عليه وضع البيت بتلك الصفة، معتمدا على ما يتميز به التعبير الأدبي من خصوصية الانفتاح وعدم التقييد بما يثيره الوضع العلمي من مُرَاعَاة دقائق الأعمال فيها وارتفاع أوجه التعارض بين موادها.

وفيما يلي عرض مفصل لموقف كل من الرجلين، متمشيا مع نص التقييدين اللذين احتفظ بنصهما كاملا الفقيه المرير في فهرسته النعيم المقيم.

أولا : في نظر الفقيه السلاوي[23] فإن بيت البوصيري يؤاخذ فيه صاحبه ويحاسب لأمرين :

الأمرالأول: وهو تخليط البوصيري لمضمون حديثين في الشطر الأول. فالحديث الأول هو قوله صلى الله عليه وسلم : نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور، والقصد بهذا الحديث هو ذكر النصر الذي وقع يوم الأحزاب حين أرسل الله على الأعداء الرياح العاصفة، فكانت سبب فشلهم. فريح الصبا لم يتم تقييدها في نص الحديث بشهر ولا بغيره، ولا معنى لتقييدها، إذ في ذلك خروج على نص الحديث ومضمونه. الذي يقتصر على الإخبار بنوعية هذه الريح التي هي الصبا.

والحديث الثاني هو قوله صلى الله عليه وسلم : نصرت بالرعب مسيرة شهر ومعناه أن هيبته صلى الله عليه وسلم استولت على قلوب الأعداء في كل موضع مسافة شهر، ومن جميع الجهات، وليس من جهة هبوب رياح الصبا، ولذلك لا معنى لتقييد هذا الرعب بجهة من الجهات، حتى لو سلمنا أن الحامل له هو الريح.

الأمرالثاني: وهو انتقاء أدبي محض، ويقوم على محاسبة البوصيري في الشطر الثاني من البيت المذكور، لتشبيهه الصبا بالرخاء، "فكأن الصبا لديك رخـــــاء"

اذ في تشبيه هذا بذاك ما ينجرّ إلى تشبيه الشيء بنفسه. وهذا مما لا يقبله المنطق أو يسلم به العقل، وهو من الأشياء المرفوضة في حد التشبيه عند البلاغيين. ومنطلقه في ذلك أن الصبا لغة هي الريح الشرقية الشمالية، سواء كانت رخاء أو

23 - تقييد السلاوي في فهرسة النعيم، ج، 1، ص.107.

جافة. والرخاء لغة هي الريح اللينة، سواء كانت صبا، أو دبورا، أو غيرها. فالصبا هي الرُخاء وغير الرخاء، ولذلك كانت تستوعبها لمَا بَيْنَ اللفظتين من عموم وخصوص يندرج تحته. والرخاء أيضا هو الصبا وغيره. ولذلك كان الرخاء يستوعب الصبا من جهته لما بين مدلول اللفظتين من عموم وخصوص يندرج تحته أيضا.

الجدول

العموم		الخصوص		العموم	الخصوص
1) الصبا	تكون	رخاء	رخاء	تكون	صبا
2) الصبا	تكون	جافة	رخاء	تكون	دبورا
3)			رخاء	تكون	غيرهما

فيجتمعان -الصبا والرخاء- في الحالة الأولى التي يكون الصبا رخاء، والرخاء صبا.

ومعنى هذا أنه في لحظة اجتماعهما، لأجل إمكان قيام التشبيه بينهما، يكون كل طرف منهما هو نفس الطرف الآخر، فالصبا المقصودة في بيت الهمزية هي الرخاء وليست الجافة. والرخاء المقصودة في البيت أيضا هي الصبا، وليست الدبور أو غيرهما. فقد أصبح بهذا الصبا والرخاء شيئا واحدا.

وحتى لو تم الافتراض بأن وجه الشبه في البيت بين الصبا والرخاء هو التسخير، وأن المقصود منه إثارة ما تحمله الآية القرآنية في الريح الرخاء الذي سخره الله لسيدنا سليمان، في قوله تعالى :

"وإذ سخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث يشاء. "فإن ذلك في نظر الفقيه السلاوي يتطلب أن تكون رخاء علما على الريح التي سخرت لسليمان. وهذا مما لم يرد فيه النقل أولا، ويمنعه وضع رخاء في الآية منصوبا على الحال ثانيا، إذ وقوعها حالا يفرض أن تكون اللفظة صفة مطلقة لشيء، وليست تعبيرا عن ذات قائمة بنفسها، أو علمية مخصوصة بها. والملاحظ أن هذا التخريج هو الذي .اعتمده ابن

حجر الهيثمي في شرح البيت المذكور من همزية البوصيري [24] حينما ربط بين مدلول الصبا في شطري بيت الهمزية منتقلا في ذلك إلى تبيين وضع التشبيه الوارد في البيت، فقال : " فكأن الصبا لديك رخاء : هي الريح اللينة المسخرة لسليمان صلى الله عليه وسلم. غدوها شهر، ورواحها شهر. لكن معجزة نبينا صلى الله عليه وسلم أظهر وأعظم، لأن تلك سخرت لذات سليمان عليه الصلاة والسلام، وهذه سخرت لصفة من صفات نبينا صلى الله عليه وسلم، وهي هيبته عليه الصلاة والسلام، وأيضا، فتلك إنما كانت تسير بعد أمر سليمان لها، وهذه تسير بأمر ربها من غير توسط أمر من نبينا صلى الله عليه وسلم. فهو من تشبيه الأعلى بالعلي، نظير كما صلّيت على إبرهيم، في صلاة التشهيد ..." [25].

وقد جرى شراح المهزية في المغرب وغيره على طريقة ابن حجر، فنقلوا عنه ما خرّج به صورة التشبيه الواردة في الشطر الثاني من بيت الهمزية [26].

ثانيا : أما الفقيه القاضي عبد الهادي الصقلي [27] فقد بنى جوابه في ذلك على شيئين :

الأول: ما يتعلق بالشطر الأول من البيت المذكور، وهو تجاوزُ ما اتُّهم به الشاعرُ البوصيري من خلط بين الحديثين. وقد اعتمد في ذلك بالدرجة الأولى على ما قرره ابن حجر في شرحه لبيت الهمزية المذكور، وأقره عليه غيره من الشراح الذين تواردوا على شرح الهمزية.

وقد جرى ابن حجر على شرح الشطر الأول من البيت كما صوره الشاعر، دون انتقاد عليه خلطه بين الحديثين، لأن تصور الشعر هو غير تصور الحديث. فالرعب الوارد في نص الحديث :... نصرت بالرعب مسيرة شهر "يحتمل أن يكون بواسطة أو بغيرها. وقد اختار البوصيري أن يبنى بيته على أن الرعب قد وقع بواسطة الريح . ورشح - حسب ما يظهر- ريح الصبا، إستلهاما لنص الحديث الثاني :" نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور"، واقتباسا منه واستحضارا لمشهده وواقعيته، ليكون " الرعب من جهة واحدة، مع أن الواقع حصوله في جميع الجهات ... معجزة لنبينا صلى الله عليه [28]. ولم يكن اختيار الصبا وذكر لفظها لأجل تقييد الرعب أو حصره

---

24 - شرح ابن حجر لهمزية البوصيري ، ص. 261.

25 - شرح ابن حجز لهمزية البوصيري ، ص.261.

26 - راجع شرح بنيس، ص. 267- وشرح الجمل ، ص. 102- والارشادات الربانية لبرادة الفاسي، ص.129 .

27 - تقييد القاضي عبد الهادي الصقلي وارد في : فهرسة النعيم المقيم، ج 1 ، ص. 108.

28 - النعيم المقيم، ص. 109 .

بها . وإنما قدم ذكرها لمزيد الاختصاص بها لوقوع النصر يوم الأحزاب بالصبـــــا .

وقد شرح ابن حجر هذا التصور، وجرى عليه في فك ما تحتمله ألفاظ بيت الهمزية، فقال بعد شرح نص الحديثين :" ومنها يعلم أن الصبا كانت تسير بسبب نصرته صلى الله عليه وسلم، وهو الرعب أي الخوف منه المزعج لأعدائها مسافة شهر من سائر نواحي المدينة، فلم يرفع أحد منهم رأسه إلا اختطفته لوامع سيوف نصره صلى الله عليه وسلم، وقواصف أسنة قهره ..."[29].

الثاني : ما تعلق بتشبيه الصبا بالرخاء الوارد في الشطر الثاني من بيت الهمزية المذكورة، ويرد فيه التخريج على أن المقصود في هذا التشبيه، هو عملية التسخير لهذه الريح، وذلك بتشبيه تسخير ريح الصبا لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، بالريح الرخاء التي سخرت لسيدنا سليمان عليه السلام. واقتصر في ذكر المشبه به على لفظ الرخاء الذي هو وصف للريح المسخرة لسيدنا سليمان عليه السلام، وذلك لما يثار معه من الدلالات التالية :

أولها : وورد ذكره في القرآن، في الآية التي تتحدث عن تسخير الريح لسيدنا سليمان عليه السلام. فهو وصف أساسي لهذه الريح اللينة التي تتحرك بأمر سيدنا سليمان حيث يشاء. وهو بذكره ينبه على استذكار الآية الكريمة واستحضار صيغتها لتكتمل المناسبة.

ثانيها : ما يحمله لفظ رخاء من استلهام لحالة تسخير الريح بالصفة التي تمثلها معجزة سيدنا سليمان، وخطور ذلك علي الذهن، ليصبح اللفظ بهذه الشحنة أشهر في دلالته وإحالته، وروده على الحس عند التلفظ به، حتى كأنه قد غلب عليه، فلا يذكر الا به. لذلك كانت لفظة رخاء في البيت المذكور بمثابة تضمين حسن يلمّح به الشاعر إلى ما يرتبط بهذه اللفظة في الآية القرآنية، مشيرا إلى استحضارها بكل حمولتها اللفظية والمعنوية، كما هو جار في أحكام التلميح عند البديعيين.

ثالثها : ما تثيره قرينة المقام من توجيه اللفظ على هذه الإحالة. وترشيحه ليكون التشبيه قائما به، جاريا عليه بهذه الصفة، مستوعبا من جهته ما يولده السياق، وتناسب الألفاظ والصيغ الواردة فيه. فالحديث على وضع الشطر الأول من البيت المذكور، بإشارة هذه المعجزة النبوية بتسخير ريح الصبا لنصر الرسول صلى الله عليه وسلم، مدة مسيرة شهر، وما أرعب به الأعداء منها، ليسري قهره فيهم، وتتم الغلبة عليهم - يناسبُه إيرادُ ما يناظر صورة تسخير ريح الصبا هذه، بوضع صورة تسخير الريح رخاء بأمر سيدنا سليمان، مقابلا لها، واكتمال الصورة بعقد علاقة التقارب

---

29 - شرح ابن حجر لهمزية البوصيري ، ص. 261 - وتقييد الصقلي في النعيم المقيم ، ج 1 ، ص.109.

والتشبيه بينها.

ولكي يؤكد القاضي الصقلي ما يحمله وضع هذا التشبيه من دلالات، مع صحة قيامه على الطرفين المذكورين، فقد التجأ الى الاستشهاد بأقوال البلاغيين في الموضوع ، فنقل عن القزويني في تلخيص المفتاح وعن شروحه ما تحدث به عن التشبيه والتقسيمات التي خص بها وجه الشبه ، ليكون وضع ذلك التشبيه الوارد في بيت همزية البوصيري، واردا بين تلك التقسيمات وحاضرا بينهما.

ويختم القاضي الصقلي موقفه بالتأكيد على صواب ما هو وارد في بيت الهمزية المذكورة، وسلامة صيغه ومعانيه، "وبما قرر يعلم أن كلام الناظم رضي الله عنه وأرضاه لا شيء فيه أولا وثانيا عند من تأمل معناه، وأنه في غاية الصواب لا تخليط فيه ولا غلط عند ذوي الألباب "[30].

---

30 - فهرسة النعيم القيم، ج 1، ص. 110.

«الحمد لله رب العالمين [31] والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيئين وإمام المرسلين . هذا وقد اجتمع عبد ربه، وهو عبد الهادي بن أحمد الصقلي في زيارته للقطب الكبير والغوث الشهير مولانا عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه وأرضاه ونفعنا به بجاه سيدنا محمد بن عبد الله سنة اثنين وتسعين ومائتين وألف بالولي الصالح ، والنور اللائح، سلالة الأشراف الطيبين ونخبة أولياء الله العارفين، الدر المكنون، سيدي عبد السلام بن ريسون عشية يوم الجمعة التاسع من شهر النبي شعبان ، وحضرنا معه على قراءة الهمزية بالألحان . ولما ختمت وقعت مذاكرة من الشيخ رضي الله عنه في معنى قول الإمام شرف الدين البوصيري رضي الله عنه ونفعنا به

ومسير الصبا بنصرك شهرا * * فكأن الصبا لديك رخاء

وكان من جملة من حضر الفقيه السيد أحمد السلاوي التطواني فتكلم بكلام فيه تعنيف، ولما قصده الناظم فيه تعقيب، فتحاورنا معه في ذلك بقصد رده عما سلكه من أضيق المسالك، فأبى إلا ما عليه صمم، ومن الغد أتى بتقييد على نحو ما قدم. ولما نظر إليه الشيخ وأملي عليه، ظهر منه عدم الرضى به، بل كره الاصغاء إليه، فأمرني رضي الله عنه، مع إذنه لغيري بالكتابة منتصرا للناظم وسالكا سنبيل الاستقامة ، فقيدت من بركته ما أمكنني تقييده في الحال، مع ضيق الوقت وشغل البال. ولما أتيته بما رسمته في النازلة، فرح غاية، ودعا لي ولولدي بخير الدنيا والآخرة، وها أنا أقيد لك ما كتبه السلاوي بلفظه، ثم ماقيده العبد الفقير من بعده، ونسأل من جلت قدرته وتعالت عظمته أن يخلص أعمالنا لديه، ويحقق انتماءنا إليه، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير».

نص الأول بلفظه:

«حاصله أنه وقع للبوصيري في هذا البيت أمران : أحدهما في الشطر الأول، وهو أنه خلط مضمون أحد المدنيين بمضمون الآخر، مع تباينهما وذلك أنه صلى الله عليه وسلم حدث بحديثين : أحدهما قوله : نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور، فإن النصر المشار إليه في هذا الحديث هو النصر الواقع له صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب حيث أرسل الله على عدوه الريح العاصفة التي كفأت قدورهم واسقطت

---

31 -النص بكامله وارد في فهرسة النعيم المقيم للفقيه محمد المرير التطواني، ج1، ص.106-110.

أخبيتهم ،فكانت سببا لفشلهم وانقلابهم خائبين " ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المومنين القتال "، وكانت هذه الريح الريح المسماة بالصبا، ولم يقيد النبي صلي الله عليه وسلم مسيرها بشهر كما ترى ولا بغيره، بل لا معنى لتقييدها بذلك كما فعل الناظم، لأن مضمون الحديث إنما هو كون المصطفى أخبر بأن الريح التي نصره الله بها يومئذ هي الصبا، وأن الريح التي أهلك الله بها عاد وقت إصلاكم كانت الريح المعروفة بالدبور.

والحديث الثاني هو قوله صلى الله عليه وسلم : نصرت بالرعب مسيرة شهر . والمراد أن الرعب والفزع والهيبة منه صلى الله عليه وسلم استولت على قلوب كل من كان من موضعه مسافة شهر فأقل من جميع الجهات. وهذا الرعب، على تسليم أن الحامل له هو الريح، فمن الواضح أنه لا يستقيم تقييدها بالصبا مع كون الفرض والموضوع عموم الرعب بجميع الجهات كما هو واضح، فمحاوله تصحيح هذه الشطر بحمله على أن الناظم أشار له بهذا الحديث الثاني مما لا يمكن بحال.

والأمر الثاني في الشطر الثاني، وهو أنه شبه الصبا بالرخاء، وبين مدلوليهما في أصل اللغة العموم والخصوص الوجهي، إذ الصبا هي الريح الشرقية الشمالية، رخاء كانت أولا. والرخاء هي الريح اللينة كانت صبا أو دبورا أو غيرهما. فيلزم على تشبيه إحداهما بالأخرى في الصورة التي يجتمعان فيها تشبيه الشيء بنفسه، ويلزم معناه هكذا : فكأن الريح الشرقية الشمالية التي نصرت بها ريح لينة.

وهذا مما تأباه الأسماع، فإن قيل : يمكن تصحيح هذا التشبيه بادعاء أن وجهه إنما هو التسخير في كل من الطرفين ، ويكون حينئذ من تشبيه الأعلى بالعالي نظير اللهم صل على سيدنا محمد كما صليت على ابراهيم، قلنا حمله على هذا المحمل يتوقف على ثبوت كون مسمى الرخاء هي الريح اللينة المسخرة لسليمان فحسب ، وأنه علم عليها ، ولا نقل يساعد هذا ، بل كلامهم صريح في أن لفظ الرخاء وصف يوصف به كل ريح لينة في أي وقت كانت، ومن أي جهة هبت، وأنه ليس من قبيل الأعلام في شيء. وهذا أيضا مفاد الآية حيث ذكر فيها على وجه يتعين فيه اعرابا منصوبا على الحال، إذ ليس من الأعلام بمنصوب على الحال.

انتهى ما قيده الأول بحروفه ».

ونص الثاني بلفظه :

«الله أحمد، وبرسالة نبيه أقر وأشهد، والصلاة والسلام على سيدنا محمد لا يخفى على كل من أنصف، وبحلية العلم والتسليم تحلى واتصف، وعن طريق الحق ما حاد ولا انحرف. إن بيت الإمام العلامة الهمام العارف بالله المحب لمولانا رسول

الله شرف الدين البوصيري رضي الله عنه ونفعنا به وسقاني من صفي شرابه، وهو قوله :

ومسير الصبا بنصرك شهـــرا * * فكأن الصبا لديك رخـــــاء

من أعلى الكلام بلاغة في بابه ، يعلم ذلك كل من أمعن النظر في ألفاظه :

وليس يصح في الأذهان شيء * * إذا احتاج النهـار إلى دليـل

أما الشطر الأول فأشار إلى قوله صلى الله عليه وسلم : أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر ... الخ فإن الرعب الذي اسند عنه في الحديث الشريف يحتمل أن يكون واقعا لأعدائه دون واسطة شيء، ويحتمل أن يكون بواسطة حمل الريح له، وعلى هذا حمله الناظم رضي الله عنه، وبه قرره الشارح، وأقروه عليه مع كمال عرفانه واطلاعه على مالم يطلع غيره عليه، فإن قلت إن الصبا هي التي تهب من مطلع الشمس على أحد تفسيرين لها، فيكون الرعب في جهة واحدة، مع أن الواقع حصوله في جميع الجهات ... معجزة لنبينا صلى الله عليه وسلم، وعليه حمله العلامة ابن حجر، فإنه قال بعد هذا الحديث، وبعد حديث نصرت بالرعب ما نصه : ومنها يعلم أن الصبا كانت تسير بسبب نصره وهو الرعب أي الخوف المزعج لأعدائه مسافة شهر من سائر نواحي المدينة، فلم يرفع أحد منهم رأسا إلا اختطفته لوامع سيوف نصره، وقواصف ألسنة قهره، انتهى المراد منه بلفظه. فتنبه إلى قوله من سائر نواحي المدينة ، وأيضا : فعلى تسليم عدم العموم لسائر الجهات بالصبا ، فإن الناظم رضي الله عنه ليس في كلامه ما يدل على نفي التبليغ بغير الصبا لأنه لا حصر في كلامه، وإنما اقتصر عليها لما لها من مزيد الخصوصية وذلك لوقوع النصر بها وحدها يوم الأحزاب.

وأما الشطر الثاني فمعناه جلي عند ذوي الأفكار، ظاهر ظهور الشمس بالنهار، وذلك أنه شبه الريح المسخرة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهي الصبا بالريح المسخرة لسيدنا سليمان عليه السلام الموصوفة بكونها رخاء، واقتصر على هذا الوصف، وذلك لذكره في القرآن العظيم وتكريره على الحس، وشهرته به، حتى كأنه غالب عليها مع ما احتفت به من قرينة المقام ، وهذا كاف في التشبيه. قال في التلخيص وشرحه عند تقسيم وجه الشبه عاطفا على ماقبله ما نصه : أو لكون وجه الشبه قليل التفصيل مع غلبة حضور المشبه به في الذهن، أما عند حضور المشبه لقرب المناسبة بين المشبه والمشبه به، اذ لا يخفى أن الشيء مع ما يناسبه أسهل حضورا منه مع ما لايناسبه . ثم قال بعذ ذلك، ومطلقا بتكرره أي المشبه به على الحس. انتهى، وبما قرر يلعم أن كلام الناظم رضي الله عنه وأرضاه لاشيء فيه أولا

وثانيا عند من تأمل معناه . وأنه غاية الصواب لا تخليط فيه ولا غلط عند ذوي الألباب. وهذا ما تيسر لدى العبد الفقير المعترف بالعجز والتقصير، رادا العلم إلى العليم الخبير : عبد الهادي بن أحمد الحسيني الصقلي جعله الله من أهل الشهود والتجلي».

الحركة الثقافية في تطوان

(سيدي المفضل أفيلال نموذجا)

الأستاذة سعاد الناصر
كلية الآداب بتطوان

بسم الله الرحمن الرحيم

قبل أن أعرض عليكم مداخلتي عن "الحركة الثقافية في تطوان قبل الحماية" لابأس أن أذكر هنا أن الهدف منها بالأساس هو تلمس مدى مساهمة الحركة الثقافية بطرقها المتجمدة ، على وضع معين وفي إطار محدود وهو إطار التقليد الآلي - أقول مدى مساهمتها - في خلق جو معين لتقبل الهزيمة أولا واستقبال المستعمر ثانيا، بروح مدمرة داخليا ومغلقة على نفسها حتى لاتتنفس أسس الثوابت الحضارية التي كانت كامنة في جذورها.

إن الباحث عن النشاط الثقافي في هذه الفترة الممتدة من 1860 إلى 1912 يدرك أنه لم تكن هناك حركة ثقافية منظمة واضحة المعالم ذات أسس محددة لأن التصدع الذي كان في مختلف ميادين الحياة : الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، وغير ذلك ، انعكس على الحياة الثقافية والفكرية، ومع ذلك، فهناك عدة معطيات تغري الباحث باستكشاف مظاهر هذه الحياة الثقافية باعتبارأن هذه الفترة قد اتسمت بتغيرات اجتماعية وسياسية وفكرية، سواء على المستوى الدولي أو الوطني أو المحلي.

فهذه الفترة ابتدأت مع حرب تطوان . الحرب التي أزالت كما يقول الناصري في الاستقصا[1] :" حجاب الهيبة عن بلاد المغرب واستطال النصارى بها وانكسر المسلمون انكسارا لم يعهدوا له مثيلا وكثرت الحمايات ونشأ عن ذلك ضرر كبير."

فحرب تطوان ارتبطت في أذهان التطوانيين بالمذابح التي ارتكبتها إسبانيا في

1 - أحمد الناصري، " الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى " - القسم الثالث ، الجزء الرابع تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري ، 1956، ص.101.

ن المسلمين بالأندلس [2]، وكان الهروب من تطوان دليلا على الاستسلام والتهيؤ لإعادة مأساة الأندلس ثانية، كما كان دليلا على تهاون الناس في أمر دينهم ودنياهم ،

الأمر الذي مكن العدو من السيطرة رغم ضعفه، ونجد صدى هذا الاستسلام في قصيدة الأديب المفضل أفيلال الذي يرثي بها تطوان ومطلعها :

يادهر قل لي على مه * * كسرت جمع السلامه

فالقصيدة كلها حزن وبكاء على الدين ، والمساجد، والدور التي هدمت، والشمل الذي تفرق، ولا نجد فيها حسا جهاديا تتحمس به المشاعر وتشحذ النفوس.

وقد صور هذا الأديب عقلية الناس الذين كانوا يواجهون العدو فقال [3] : "يقولون السبنيول أقل الجنوس ولا يقدر على الخروج ويحلفون على ذلك بالأيمان المغلظة، ولما خرجوا ، صاروا يحلفون على ألا يقدر على الزيادة وعلى أنهم يدخلون سبتة ويحلفون أيضا في كل واقعة على أن من حضر فيها من المسلمين أشجع من الصحابة، وبعضهم يقول أفضل من الصحابة، وإذا أنهَيْتهم عن ذلك قالوا هذا يذل الإسلام، وتسمع الخبر اليقين من قائدهم وأمنائهم وأعيانهم ويحلفون على صدقه ثم لا تفارق مجلسهم حتى يتبين كذبه ... وقد شرحت ذلك في قصيدة مطلعها :

يروم الروم رميا بالمدافع * * بتطوان وليس لها مدافع

ومن لهم التصرف مخذلون * * وعقل كليمهم خرق ويافع

فهذا النص يدل على أن من لم يهرب من تطوان كان يواجه العدو باستهانة وعدم تبصر يقول سيدي المفضل أفيلال في موضع آخر مبينا سيطرة الأهواء على العقول والنفوس لما أشار عليه سيدي عبد السلام بن ريسون باستيطان الجبل :

"فلم تطاوعني الإمارة الدنيّة على استطان البرية وامتنعت عن التقشف في المأكول والملبس ومن لم يقدر على محاربة العدو فكيف يخالف النفوس".

بالإضافة الى هذه العقلية السائدة في هذه الفترة فإن الطابع العام الذي كان يطبعها هو التصوف.

فقد انتشر بتطوان وظهرت فيها الطرق الصوفية كغيرها من المدن المغربية كالوزانية والحراقية والناصرية والتجانية والريسونية وغيرها، ولذلك نجد أن أغلب الأدباء والعلماء في هذه الفترة كانوا ينتمون لإحدى هذه الطرق على طريقة

---

2 - التهامي الوزاني ، " الزاوية "، ص. 12.

3 - من كناشه المخطوط بالمكتبة الداودية.

الآباء والأجداد[4]. فنجد مثلا المفضل أفيلال يتعلق بسيدي عبد السلام بن ريسون شيخ الزاوية الريسونية في ذلك الوقت، ويتلقى عنه العلم والمعارف التي كان يتقنها الريسوني، وقد خرج معه في عدة رحلات وصفها بدقة وسجل أخبارها حيث قدم لنا صورا مهمة من جوانب الحركة الثقافية ، لأنهم حين كانوا يخرجون للرحلة أو النزهة (وهذه عادة دأب عليها أهل تطوان) كانوا يخصصون وقتا للمذاكرة ودراسة بعض العلوم إلى جانب الالتقاء مع بعض الأدباء والعلماء كذلك، وكانت الزاوية في ذلك الوقت تُعْنى بتخريج العديد من الفقهاء. وكان لها تأثيركبير على حياة الناس بصفة عامة، ولكن للأسف كان التأثير سلبيا يتعلق بالكرامات الخارقة والتواكل المطلق على الأولياء .

ولهذا نجد أن العقلية الخرافية كانت مسيطرة على النفوس بشكل مهول ولافت للنظر. فمثلا نجد الشريف الريسوني يؤمن أن الزاوية هي زاوية جهاد ورباط في حياة الامة، ولم يكن يتعلق بالكرامات بل كان يعمل جاهدا من أجل تنوير العقول وإبعادها عن الخرافة. لكن الناس نسبوا إليه من الألقاب الصوفية ماكان يستنكرها في حياته. مثلا كان يمارس الطب ويعطي للناس بعض الأدوية وحين يشفون ينسبون الشفاء للنية والبركة بسيدي عبد السلام ويقولون : «متاع الله لله أسيدي عبد السلام »، لكنه كان يستنكر قولهم ويقول : " هي علوم وقواعد وتجارب وإرشادات لا دخل فيها لما يظنون أنه من الولاية أو الكرامات "[5](وقد سقت هذا المثال حتى نتبين سيطرة الخرافة على العقول) . وهذا الأديب سيدي المفضل أفيلال رغم اتصاله بالعديد من مفكري وأدباء المغرب -كما جاء في كناشه- وأخذه عنهم ومناقشتهم في شتى الأمور إلا أن العقلية الخرافية كانت غالبة عليه، فكان يعتقد بقداسة الأولياء والتوكل عليهم في كل الأمور فيقول مثلا :

"ومررت بضريح سيدي عرضون مشفي البلاغيم" وهذه الهيمنة الصوفية السلبية أثرت على العقلية التطوانية وبالتالي على الحركة الثقافية بشكل عام، فانحصر الاهتمام على الموروث وتقديسه والاتكال عليه دون بذل أي مجهود في عطاء جديد. ولكي نلم أكثر بطبيعة الثقافة السائدة في هذه الفترة أعتقد أنه يجب البحث في أمرين :

- الأمر الأول : الروافد

4- د. إدريس خليفة، «الحركة العلمية والثقافية بتطوان من الحماية إلى الاستقلال»، أطروحة لنيل الدكتراة، دار الحديث الحسنية بالرباط ص 232.

5 - محمد داود " تاريخ تطوان " ، القسم الأول ، المجلد السابع ، تطوان ج 9 1 ص. 117 .

- الأمر الثاني : التعليم وطرقه ومواده .

الروافد:

الرافد المشرقي : ظل التواصل بين المشرق والمغرب من المؤثرات في الثقافة المغربية بصفة عامة سلبا أو إيجابا ذلك أن عددا من المغاربة شدوا الرحال إلى الشرق سيما في مواسم الحج، وتلقوا من علمائها ونقلوا ماتلقوه إلى بلادهم. كما وردت الكتب المشرقية على المغرب وتداولها العلماء والأدباء والفقهاء ودرسوها، وكغيرهم من المغاربة فقد تلقوا بدورهم علوم المشرق وآدابه على مر العصور. وفي الفترة التي نحن بصدد الحديث عنها، اتصل أدباء تطوان وعلماؤها بالمشرق سواء عن طريق رحلات الحج، أو عن طريق دارسة الكتب المشرقية، في جوامع تطوان، أو جامع القرويين بفاس ، كما كانت رياح الحركة السلفية تهب من المشرق بخجل وظلت بمثابة الخميرة في أذهان العلماء والأدباء، فقد سافر العديد من علماء القرويين إلى المشرق واتصلوا بأقطاب الدعوة السلفية في مصر والحجاز وتأثروا بهم واقتنعوا بأفكارهم. وحين رجعوا إلى المغرب أثروا في تلاميذهم وأتباعهم. وكان سيدي المفضل أفيلال من جملة الأدباء والعلماء الذين اتصلوا بهذا الفكر بطريقة غير مباشرة وذلك باتصاله بالعديد من العلماء والأدباء بفاس.

وقد عمل العديد من المفكرين المغاربة على ربط الوضع الفكري والثقافي في المغرب بالحركة الإصلاحية السلفية في المشرق أمثال إبراهيم التادلي(-1894) وأحمد بن خالد الناصري (-1897) وغيرهم. وقد ظل هذا المؤثر خامدا إلا أنه اشتعل بعد الحماية .

وبالنسبة للرافد الأندلسي فإن تطوان تعتبر وريثة حضارة عرناطة وتراثها كما يقول ذ حسن الوراكلي ، وإذا نحن تصفحنا الكتب المدروسة في تطوان نجد أن الكتب الأندلسية تحظى بحصة وافرة، وفي هذا ما يغني عن الاسترسال في الكلام عن هذا الرافد.

وقد ظل الرافد المشرقي والرافد الأندلسي متلازمين، فالكتب المشرقية والأندلسية كانت تدرس إلى جانب الكتب المغربية، كما كانت الرحلات بين المشرق والمغرب لا تنقطع وبذلك يمكن القول إن هذين الرافدين كانا يشكلان دائما المنبع للثقافة والمعرفة في تطوان وفي المغرب بصفة عامة.

أما الرافد الغربي ، فقد تفاوت التأثير به سلبا أو إيجابا خاصة وأن الرحلات المتجهة نحو الغرب قد بذرت بذور الاحتكاك الحضاري بين الشرق والغرب، وأظهرت (الآخر) في صورة ما ، وجعلت المغرب رغم تقوقعه يحاول إدخال مظاهر المدنية الحديثة، وما الحركة التي قام بها السلطان الحسن الأول من إدخال الأساليب

العصرية والمخترعات الجديدة وتوجيه بعض الطلبة إلى مختلف عواصم أوربا للدراسة إلا نتيجة التقارير التي كان يقدمها مختلف السفراء الذين يقصدون أوربا [6] على عهد المولى عبد الرحمن . وتعتبر رحلة الصفار نموذجا من هذه الرحلات، وقد وصف فيها معالم المدنية في فرنسا من موقع الانبهار والإعجاب من هذا (الآخر) الذي ملك وسائل عجيبة تهدد - في نظره - الهوية الحضارية للمسلمين في مقر دارهم، كما وصف مدى حرص القوم على التعلم واكتساب المعارف والتشجيع على الإبداع، كما سجل إعجابه الشديد بدور العلم والثقافة وقدم فكرة واضحة عن دور الصحافة في الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية وعن دورها في حرية الرأي وتحقيق العدل وانتشار العلوم والإبداع . ومع هذا الكشف عن بعض مظاهر الحضارة الغربية إلا أن تأثير مثل هذه الرحلات ظل محصورا ومحدودا.

وكذلك يمكن تلمس الرافد الغربي مع حرب تطوان، وبعدها، فلا شك أن احتلال تطوان في 1860 قد أثر في التطوانيين من ناحية الاحتكاك بالحضارة الأخرى المغايرة للحضارة العربية الإسلامية . فقد أدخل الاستعمار بعض معالم حضارته كالمطبعة التي دخلت إلى تطوان لأول مرة من طرف الاستعمار وأصدرت فيها بعض الصحف كصدى تطوان (El Eco de Tetuán) ثم بعدها مخبر تطوان(El Note Cierto de Tetuán) ولاشك أن هذا الاحتكاك قد ولد تأثيرا معينا من طرف المثقفين رغم محاولة محاربته . يقول الأستاذ محمد داود في هذا الصدد : "ولقد سمعت من بعض شيوخ تطوان والدي ج أحمد داود، والسيد علي الخطيب والسيد أحمد الغنمية رحمهم الله أن بعض أهالي تطوان كانوا يستحسنون تلك الإصلاحات المادية الحقيقية النافعة ويودون لو أن قومنا حافظوا عليها ونسجوا على منوالها ولكنهم صاروا بذلك الاستحسان أنصاف الكفار في نظر بعض الناس الذين كان منهم بكل أسف من ينتسب للعلم "[7] فبسبب هذه الفكرة التي وردت في نص الأستاذ داود كان التأثير ضعيفا، لأن التطوانيين كانوا يحاربون كل ماله صلة بالغرب الذي هو في نظرهم يمثل الاستعمار والهيمنة فقط، وقد أشرت في بداية المداخلة إلى أن حرب تطوان كانت تمثل بالنسبة إليهم إعادة مأساة الأندلس ثانية ، وحين خرج المستعمر حاولوا أن يبيدوا كل ماله صلة به.

(وهذا طبعا موقف سلبي لم يفيقوا منه إلا بعد هزة الحماية) . ويعلق الأستاذ محمد داود : "وياحبذا لو أن مواطنينا استفادوا مما رأوا عند أولائك المحتلين في

---

6 - " الرحلات القارية " ، مجلة البينة " - 1963 ، ص. 21.

7 - محمد داود " تاريخ تطوان " ، القسم الأول ، المجلد الخامس " ، ج . 15

ذلك العهد من وسائل الحضارة والتقدم ، ليتهم أسسوا الصحف وعبدوا الطرق وبنوا القناطر وفتحوا المدارس والمستشفيات ونظموا الجيوش وقلدوا أولائك المتغلبين في جميع تلك الأشياء التي بها وبأمثالها تغلبوا ، وملكوا البلاد"[8].

ولذلك نجد أن أدباء الفترة وعلماءها قد أهملوا ذكر ما جاءت به إسبانيا من أساليب المدنية الحديثة . فهذا سيدي المفضل أفيلال رغم تدوينه لبعض أحداث حرب تطوان وأحوالها بعد ذلك إلا أنه لم يذكر مطلقا ما أتى به النصارى من أساليب الحضارة المادية ، باستثناء العدوان على المساجد ، والزوايا ، والنهب والمجون.

التعليم :

ظلت حالة التعليم كما هي عليه في الفترة السابقة فقد كان العلماء والفقهاء يقومون بتدريس مختلف العلوم والفنون في مختلف الجوامع والزوايا كجامع القصبة والجامع الكبير وجامع السويقة والزاوية الريسونية ، حيث لم يكن هناك مدارس تعنى بإخراج المتعلمين .وكان التعليم التقليدي لا يتناول في الغالب إلا مسائل الدين واللغة والتراث، وكان يقوم عليه شيوخ يأخذون بالطرق التقليدية في التعليم من حفظ ورواية وإدمان على قراءة المتون العلمية، وكان التعليم الأساسي هو التعليم الديني .والطلبة الذين يرغبون في إتمام تعليمهم يتجهون إلى فاس ليدرسوا في جامع القرويين التي كانت في ذلك العهد قبلة المثقفين والعلماء. وجل مثقفي تطوان شدوا الرحال اليها ودرسوا على يد علمائها وفقهائها. ولذلك يمكن القول إن التواصل الفكري كان كائنا بين مختلف مدن المغرب . ومن علماء الفترة وأدبائها الفقيه الطيب اليعقوبي (- 1287) الذي كان كثير التدريس للرسالة والمرشد المعين، ومختصر خليل، في جامع السويقة. والفقيه محمد بريدة الأندلسي (-1285) وكان فقيها أديبا مشاركا في عدد من العلوم كما يقول عنه الشيخ الرهوني في «عمدة الراوين»، ويدرس في داره كما كان موقتا بالجامع الكبير وهو الذي وضع حصة تطوان.

والأديب العالم سيدي المفضل أفيلال الذي كان يهتم بالشعر وتدوين رحلاته ويدرس في جامع السويقة. ومما درسه أفيلال الأجرومية بجامع الرزيني، والألفية ولامية الأفعال والمرشد المعين بالزاوية الريسونية ، كما ذكر أنه ختم مع تلامذته مقامات الحريري والحدائق ورسالة اليوسي وغيرها من الكتب.

ومن علماء تطوان، أيضا في تلك الفترة، الفقيه شيخ الجماعة أحمد الزواقي الذي تصدر للتدريس بعد رجوعه من فاس. إلى جانب مهنة العدالة وقد ذكر الشيخ الرهوني أنه قرأ عليه دروسا في اللامية والشمائل والمرشد المعين وجمع الجوامع.

---

8 - نفسه 338 . تطوان ص. 338.

والفقيه الأديب محمد الزواقي الذي كان يهتم بالأدب ، والسياسة أكثر من اهتمامه بالفقه خلاف أخيه، وقد اشتغل أيضا بالتدريس والعدالة . وغيرهم من الأدباء والفقهاء الذين كانوا يقومون بالتدريس في تطوان لمختلف العلوم التقليدية كالفقه والتفسير والحديث والنحو، ومن الكتب التي كانوا يدرّسونها ويدرسونها " المجالس السنية في ، شرح الأربعين النووية " والأنيس المغرب " للعلمي " ورسالة اليوسي" و"الأكتفاء للكلاعي " وصحيح البخاري" " ونزهة الأذهان " لداود الأنطاكي، وغير ذلك من الكتب القديمة التي كانوا يضعون لها شروحا بجانب الشروح القديمة وهوامش وحواشي كالحواشي التي كتبها الفقيه محمد الزواقي على شرح التسولي على تحفة ابن عاصم ، وقد جمعها في مؤلف مطبوع تلميذه العلامة الحسن بن عبد الوهاب مع حواشي على نفس الشرح . وكتاب البهجة المذكورة للتسولي في شرح تحفة ابن عاصم الأندلسي الغرناطي، وقد ظل كثير من فقهاء المغرب يعتمدون عليه في القضاء والفتوى سنين عديدة [9] .

إلى جانب دراسة الكتب القديمة وشروحها وهوامشها كانت تدرس بعض الكتب المؤلفة حديثا ، فمثلا ذكر سيدي المفضل أفيلال أنه درس كتاب الأجوبة على أسئلة المجاهد عبد القادر محي الدين الجزائري ، وهذا الكتاب يعتبره العلامة ذ. محمد المنوني أول مظهر لليقظة الوطنية بالمغرب الحديث[10] .

ومن خلال جردنا للكتب التي كانت تدرس في تلك الفترة نجد أنها محصورة كما ونوعا، وهذا ينبئنا عن طبيعة الثقافة التي كانت سائدة.

وفي الختام أود أن أذكر أن هذه المداخلة لا تعني الإلمام بكل جوانب الحركة الثقافية في الفترة المشار إليها ،ولكنها فقط محاولة تسليط الضوء على بعض المعالم الموجودة.

---

9 - نفسه، القسم الأول ، المجلد السابع ، ج . 20 ص. 231 .

10 - محمد المنوني " مظاهر يقظة المغرب الحديث " ج . 1 بيروت. ص. 28.

أخبار سيدي الحسن أقجاوج التطواني

- تقديم وتقييد -

الأستاذ جعفر ابن الحاج السلمي
كلية الآداب - بتطوان

تميل الروايات الشفهية عن تاريخ تطوان في القرن التاسع عشر إلى الاندثار، باندثار الرواة، وتطاول الأزمان. ولا شك في أن كثيرا منها قد قيده مؤرخو تطوان، كعبد السلام السكيرج في نزهة الإخوان، (ت 1835)، وأحمد الرهوني (ت1953م) في عمدة الراوين، بتاريخ تطاوين، ومحمد داوود (ت 1984 م) في تاريخ تطوان، والتهامي الوزاني (ت 1972)، في الفصول التاريخية من الزاوية.

غير أن ما قيد من هذه الروايات هو قل من كثر، وغيض من فيض، وقطر من بحر. وقد خضع في تقييده إلى منزعات المقيدين. فقد مال التهامي الوزاني إلى تقييد أخبار شيوخ التصوف، كمحمد الحراق وإدريس الحراق، وأحمد بن عجيبة، والفقراء الدرقاويين .[1]" الزاوية " : 155 - 213.

مثلما مال محمد داوود إلى تقييد أخبار حرب 1860.[2] ومن هذه الروايات الشفهية ما ينتظر أقلام الإناسيين والمؤرخين والمتأدبة. ذاك أن هذا التراث مشترك بين علم الإناسة وعلم التاريخ والنقد الأدبي.

ونريد أن ننبه الباحثين إلى بعض موضوعات الرواية، التي ما يزال في الإمكان تداركها، قبل أن تندثر[3] :

أ - أخبار حرب 1860 م.

ب - أخبار الهجرة التطوانية الكبرى (الهربة).

ت - أخبار أهل تطوان الذين ظلوا بها ولم يهاجروا.

ث - أخبار رحلات التطوانيين إلى فاس ومصر والحجاز وتركية وأورية.

ج - أخبار المهاجرين الجزائريين إلى تطوان .

1-" الزاوية " : 155 - 213.

2-" تاريخ تطوان " : 4 / 194 - 196 . مثلا.

3-" عمدة الراوين " ، 1 / 1 - 19 مثلا.

- أخبار الخلاف العزيزي الحفيظي ، وموقف أهل تطوان من الأمر.
خ - أخبار اتصال أهل تطوان بالزاوية الكتانية .
د- أخبار الأوبئة .
ذ - أخبار حصار تطوان. (1904 م) .
ر - أخبار زيارة مولاي الحسن لتطوان .
ز - أخبار المحميين والأعيان والتجار .
س- أخبار الأولياء والمجاذيب .
ش - أخبار الفتيان والفساق .

ونود في هذا المقام أن نقيد أخبار رجل من أهل تطوان ، كادت ذكراه أن تضيع، وهو سيدي الحسن أقجاوج، لما لها من الصفة التاريخية والأدبية. وهي أخبار من الأدب العامي المغربي، منزعها فكاهي، اعتاد أهل تطوان أن يدعوها "نوادر" سيدي لحسن أقجاوج . فما أن يذكر اسمه، حتى تعلو على الشفاه البسمات، وتستبشر القسمات . فلقد كان سيدي الحسن بمثابة ولي ظريف، يتناقل الناس "نوادره"، إعجابا وتفكها بها. ونموذج سيدي لحسن أقجاوج ليس بالنموذج المتفرد في الأدب المغربي . فمثله نموذج أبي العباس السبتي[4]، وابن شاطر المراكشي[5] وسيدي عبد الرحمان المجذوب، وغيرهم كثير . قال عنه أحمد الرهوني في مادة أقجاوج من معجمه :

" أقجاوج : كلمة مولدة كانت علما على عائلة انقرضت الآن، وكان منها السيد الحسن أقجاوج. وهو رجل متجرد كان يتزين بزي الصوفية، ويلبس المرقعة، ويظل يذكر الله في الأسواق، ويطلب القوت من الناس. وكان الناس فيه صنفين : صنف يعتقد صلاحه، وصنف يعتقد خلافه . وربما يذكر له بعض الناس كرامات. والله أعلم".

يحكى أن الناس قحطوا في سنة من السنين، فكلمه المرحوم الحاج محمد داوود في ذاك. فقال له: إن ضمنت لي عشرة مثاقيل، نزل المطر. فضمنها، فصار يطوف بالأزقة، ويذكر الله، حتى نزل المطر في مدة قريبة.

وكان كثيرا ما يأوي طنجة، حتى توفي بها في حدود 1290 [1872=م]. وكان كثيرا ما يأتي الأمور الغريبة.

يحكى أنه نزل إلى مرسى طنجة يوما، فوجد بعض الأجانب أسلم فكساه الأمناء

4-انظر عنه : أخبار أبي العباس السبتي لابن الزيات التادلي ".

5-انظر عنه : " نيل الابتهاج " ، 248 .

كسوة حسنة. فاستقبلهم ورمى بطاقتيه الأرض، وقال : أشهد أن لاإلاه إلا الله، وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله (ص). وطلب كسوة حسنة مثل كسوة ذالك الأجنبي. فقالوا له : ذلك كان أجنبيا فأسلم، وأنت مسلم من قديم. فقال : سبحان الله. تكسون من أسلم من جديد، ولم تعلموا سبب إسلامه، وهل يثبت على الإسلام أم لا، ولا تكسون من هو مسلم أصلا.

والله لا أرجع إلا بمثل كسوته . فضحكوا وكسوه .

وله أمور غريبة . رحمه الله ".[6]

هاذا هو كل ما كتبه مؤرخ تطوان أحمد الرهوني عنه. والظاهر أنه كان يعرف من أخباره أكثر مما أثبت منها، والظاهر أن أخباره انقسمت عند الناس إلى صنفين : صنف " الكرامات "، وقد ضرب لها مثلا بكرامة انحباس المطر ونزوله، وصنف سماه الرهوني " الأمور الغريبة "، أو " النوادر "، باصطلاح تطواني شائع. فلنرجع إلى ما كتبه الرهوني عنه .

لقد بدأ الرهوني كلامه عنه بالكلام على أسرته . وهذا يعني أن السي الحسن لم يكن رجلا مجهول البيت . بل كان ينتمي إلى عائلة ذات اسم معروف ومحدد، استحق أن يدخل معجم الرهوني. والظاهر أن هذه العائلة كانت خاملة، غير ذات مال ولاجاه، ولا نسب شريف أو أندلسي، أو غيرهما من الأنساب التي درج أهل تطوان على الاعتزاز بها . ولعلها كانت أسرة بدوية في أصلها ، ولم تندمج في العشائر التطوانية . وكل مالاحظه الرهوني عليها أنها عائلة " انقرضت الآن". ولعل أبرز من ظهر فيها هو السي الحسن نفسه. ولم يكن ظهوره بمال ولابجاه، ولابعلم ولا بعلاقة بالمخزن. بل على العكس من كل هذا، كان السي الحسن رجلا فقيرا مستولا في الأسواق والطرق. والظاهر أن فقره وتسوله كان اختيارا في الحياة اختاره . ذلك أنه "رجل متجرد كان يتزيا بزي الصوفية، ويلبس المرقعة، ويظل يذكر الله في الأسواق ، ويطلب القوت من الناس". ولعل السي لحسن أدرك مولاي العربي الدرقاوي (ت 1823 م)، فتفتقر على يده. فإذا لم يكن أدركه أو اتصل به، فلابد من أنه أدرك الشيخ محمد الحراق (ت 1844 م)، وسلك الطريق الصوفية على يده، واستهوته حتى لبس المرقعة، وطلب التصوف من باب " الفقر".[7]

وإذا كان الحسن اقجاوج لم يدع المشيخة الصوفية، وعاش متجردا، فالظاهر أنه لم يدع كذاك، أو لم يدع له أنه "مجذوب"، بل كان " فقيرا "من عامة الفقراء،

6- " عمدة الراوين "، 3 / 186 .

7- انظر عن نشاط الزاوية الحراقية الدرقاوية بتطوان : " الزاوية " ، ص. 155 - 213 . " تاريخ تطوان "،6 / 289 - 328 . " عمدة الراوين "،4 / 142 - 161 . مثلا .

غير أن شخصيته الإشكالية الخلافية جعلت رأي أهل تطوان فيه يضطرب، بين من يعتقد صلاحه وولايته، ومن يعتقد غير ذلك، مثلما اضطرب رأي الناس في شخصية أبي العباس السبتي.[8]

وإذا كان أحمد الرهوني من الطبقة الثانية من رواة أخباره، فهو لم يدركه، أو لم يدركه وهو يافع، بل يذكر اختلاف الناس في أمره، فهذا يعني أن ذكراه أثرت على العامة كثيرا، وأن الخلاف فيه ظل زمنا طويلا بعد موته، بين العامة ورواة الأخبار. لكن مرور الزمن كان لصالحه. فالرهوني تحفظ كثيرا عند إشارته إلى الصنف الثاني من الذين كانوا لايرضونه. ولعل عدم رضاهم عنه، يعود إلى رضاهم عن الفقراء والمتفقرين الدرقاويين جملة ، وربما زادتهم "الأمور الغريبة" التي كان يأتيها تشككا في صلاحه وولايته و" بركته".

أما الطبقة المتأخرة من رواة أخباره ، كوالدي الحسن بن الحاج، والحاج محمد ماشان ، وسي محمد الدكالي ، القشاش بسوق الحوت القديم بتطوان، فلا يذكرون عنه إلا " نوادره " و" كراماته " ، وقد نسوا ما كان من الخلاف في شأنه. والظاهر أن " نوادره " أو " الأمور الغريبة " التي له، بتعبير الرهوني، هي التي استهوت الرواة، وقررت الخلاف فيه بين معاصريه. وبهذا، ليس لنا إلا أن ننتظر رواية المعجبين بأخباره وسيرته ، وما دمنا لم تصلنا - فيما نحسب - روايات الناقمين عليه .

وقد قمت بتقييد أخبار سيدي الحسن أقجاوج نقلا عن والدي، بعدما فاتتني فرصة تقييدها على الحاج محمد ماشان وسي محمد الدكالي، لما استأثر الله بهما إلى جواره. هذا وقد تعذر علي حتى الآن أن أجد رواة آخرين، وإن لم أيأس . وتقييدي لها جاء بالعربية الفصيحة، بعدما سمعتها باللغة العامية . ولاشك في أن ترجمة النص من مقام لغوي إلى آخر قد تقتل روحه، وهذا مزلق منهجي نحن واعون به، مثلما إننا واعون بأن نصوص الأخبار التي قيدتها هي نصوص نهائية، أي نصوص ذويت الخلاف في الرواية للخبر الذي يأتي به الراوي . فالراوي لايحكي الخبر الواحد بنفس الصيغة دائما. وإنما يزيد وينقص، لأجل التفسير والإيضاح. ونظن ظنا أن التقييد يواطئ الترجمة في خنق روح الأخبار، إذ يقصي الخلاف الروائي، وإذلا يستحضر عنصر المقام السردي .

وقد سمينا هذا الذي قيدناه عن سيدي الحسن أقجاوج " أخبارا "، مواطأة منا لمصطلح قديم في التراث الصوفي المغربي ، استعمله ابن الزيات التادلي لضبط ما

8- " أخبار أبي العباس " ، ص، 451.

وصله عن أبي العباس السبتي. (ت601 هـ). وقد أردنا منه أن يكون شاملا لمفهوم " الكرامات " و" النوادر "، وإن كان هذا ليس بمقام ضبط هذه المصطلحات. فلقد حددنا مفهوم الخبر، كما استعمله ابن الزيات (ت 628 هـ)، وجعل منه مصطلحا نقديا، في مقال سالف لنا، عنوانه : " المصطلح النقدي في أخبار أبي العباس السبتي ".[9]

أخبار سيدي الحسن أقجاوج

(1)

سيدي الحسن أقجاوج كان فقيرا درقاويا متجردا، يلبس المرقعة. ويذكر الله في الأسواق والطرق، ويحمل قفيفته معه دائما، فيسأل الناس من متاع الله.

(2)

يحكى عنه أن كان يأخذ طعامه من دار أشعاش، بزنقة القائد أحمد. فإذا وصل إلى الفدان، وهو يومئذ ساحة خالية، دار به الكلاب وأخذوا ينبحونه، فكان لايعبأ بهم، بل يضع قفيفته على الأرض، ويبدأ يذكر الله. حتى إذا عيي الكلاب من النّباح، حمل قفيفته وانصرف.

(3)

واجتاز سيدي الحسن اقجاوج يوما ببعض الكلاب ، فأخذ الكلب ينبحه . فقال للكلب : لاتنبحني ولا أنبحك . سيدي وسيدك الذي يجوز الصراط .

(4)

وكان الفقراء في الزاوية قد وظفوا على أنفسهم في رمضان نوبة للخروج إلى الاستعطاء . فإذا جاءت نوبة سيدي الحسن، تباطأ عليهم في الخروج . فكان الفقراء يلومونه في التباطؤ، ويقولون له : آسي الحسن. قد قرب المغرب فاخرج . فكان يأبى عليهم ويقول لهم : اصبروا.

حتى إذا صلى الفقراء المغرب، وأحس بأن الناس قد افطروا وتعشّوا، خرج . فكان يرجع إلى الزاوية بطعام كثير يكفي الفقراء مدة طويلة. فكان الفقراء يتعجبون منه ويقولون له : كيف تجيء بكلّ هاذا الطعام، ولا نجيء نحن بمثله ؟ فكان يقول لهم : أنتم تدقّون على بيبان الديار، وتسألون الناس ، وهم صائمون، يحسبون أنهم سيأكلون الدنيا كلّها، فلا يعطونكم من الطعام إلا شيئا قليلا. أما أنا، فأدق، على بيبان الديار، والناس قد أفطروا وشبعوا، فيزهدون في الطعام، فيعطوني ما ترون.

(5)

9- " المصطلح النقدي "، 199 - 209 .

ودخل سيدي الحسن إلى وزان، ليزور دار الضمانة، فوجد رجلا يتجاذب، فنافره . فقال له الرجل المتجاذب : سأشقك نصفين. فرد عليه سيدي الحسن قائلا : وأنا سوف أرميك إلى الثلث الخالي من الدنيا.

ومضى وقت قبل أن يقول سيدي الحسن للرجل المتجاذب : أنا وأنت كلانا كذاب، فأنت ما شققتني نصفين، وأنا ما رميتك إلي الثلث الخالي من الدنيا.

(6)

وكان سيدي الحسن أقجاوج جالسا مع سفير الإنجليز في طنجة. فأقبل أسطول كبير في البحر، فسلم على سفير الإنجليز بأن ضربت له المدافع، وتظاهر في البحر. فقال السفير لسيدي الحسن، معرّضا به وبسلطان المغرب : هل عند سلطانكم مثل هذا الأسطول ؟ فسكت سيدي الحسن، وأسرّها في نفسه.

حتى إذا كانت ليلة شديدة المطر، وفتحت أبواب السماء بماء منهمر، وقال لها الكريم : "كن"، فكانت، جاء سيدي الحسن إلى باب سفير الإنجليز، ودقّه دقا عنيفا، فخرج إليه الحرّاس ، مستغربين من دقه للباب ليقابل السفير. فقالوا في نفسوهم : ما جاء سيدي الحسن في هذه الساعَة إلا لأمر عظيم وقع. ومكّنوه من مقابلة السفير. فلما دخل على سفير الإنجليز، قال له : وهل عند سلطانكم مثل هذا المُلْك ؟

(7)

وانحبس المطر عن الناس في بعض السنين، واشتدّ بهم الحال، وضاق عليهم الأمر . فجاء سيدي لحسن أقجاوج إلى الحاج محمد داوود في حانوته بالسوق الفوقي، عند سيدي علي بركة، فقال له : أعطني ريالا، ترى ما عليه حالة الناس من الشدة والبأس . فعزم عليه سيدي الحسن أن يعطيه الريال، وضمن له نزول المطر. فالتزم له الحاج داوود بالريال، وحينئذ، اصفر وجه سيدي الحسن، واغرورغت عيناه بالدموع، وأخذه حال عظيم، فصار يقطع ما بين السوق الفوقي، وبين ضريح سيدي عبد الله الفحل بالمقابر ، يمشي ويجيئ بينهما ، وهو يقول :

1- مولانا نسعوا الخبز * وعلى الزبدة واقفين

2- لا من يرحمنا سواك * يا أرحم الراحمين

فما لبث المطر إلا قليلا حتى نزل . فجاء سيدي الحسن أقجاوج إلى الحاج محمد داوود، وقال له : أعطني ريالي.

(8)

وطلق رجل متسول امرأته، وكان له معها ستة من الأولاد. فلزمته نفقتها وفرض

أولادها. فرفعت المرأة أمرها إلى قاضي البلد. فحار القاضي فيما يقدره من نفقة وفرض على رجل متسول لامرأته. وقال : هذه مسألة لا يحلّها إلا سيدي الحسن أقجاوج. ادعوا إلي السي الحسن. فدعوه له.

فلما حضر عنده، قال له القاضي : افرض لهذه المرأة فرض أولادها ونفقتها على رجلها المتسوّل . فقال سيدي الحسن : نعم أفرض لها. ثم قال للقاضي : كم تفرض على أغنى رجل في البلد طلق امرأته ؟ فقال له القاضي : أفرض عليه درهما للصبي -، فقال سيدي الحسن : صبيانها ستّة. لابد أن أفرض لها عليه عشرين درهما أو ثلاثين [10]- مثلا -.

فأخذ القاضي يتعجّب من المبلغ الكبير المضروب، وأنكر على سيدي الحسن تقديره. فقال له سيدي الحسن : إن كنت دعوتني لأقدّر لك مبلغ الفرض، فقد قدرته لك. وإلا، خلّني أنصرف. فحكم القاضي على المتسول بما قدّره سيدي الحسن. فلما رأى المتسول أن الحكم قد لزمه، أكبر المبلغ، فقام إلى امرأته ، فباس ما بين عينيها، وراجعها.

فلما خرج المتسول وامرأته، التفت القاضي إلى سيدي الحسن اقجاوج وقال له : كيف قدّرت على رجل متسوّل أضعاف ما يقدّر على أغنى رجل بالبلد ؟! فقال له سيدي الحسن ؟:

أنا أصلّي الصبح في جامع العيون كلّ يوم . فحين أخرج ، أجده رافعا صوته يستعطي، فأدور دورة في البلد، فيحصل لي منها طعام يومين أو أكثر أما هو، ففي الصبح يكون في الموضع الفلاني، وفي الزّوال، يكون في الموضع الفلاني، وهكذا يقيل طول النهار، فكم يحصل له من استعطائه؟!

هذا ما تيسر لنا تقييده من أخبار سيدي الحسن أقجاوج، برواية الحسن بن الحاج والدنا. والحمد لله أولا وأخيرا.

10- زيادة من الراوي للتبرؤ من عهدة الضبط.

المصادروالمراجع

1) - لابن الزيات التادلي (ت 628 هـ)، " أخبار أبي العباس السَّبتي"، في آخر كتاب : التشوف إلى رجال التصوف، للمولف نفسه. تحقيق أحمد التوفيق. منشورات كلية الآداب بالرباط 1984.

2) - محمد داود (ت 1984 م) "تاريخ تطوان"، المطبعة المهدية. تطوان. 1384 - 1390.1964 - 1970.

3) - التهامي الوزاني (ت 1972). " الزاوية، أو كيف أحببت التّصوف"، مطبعة الريف - تطوان 1942.

4) - جعفر بن الحاج. " المصطلح النقدي ، في أخبار أبي العباس السبتي"، مقال لنا بمجلة المناهل ع 39. سنة 1411 - 1991. ص. 195 - 210.

5) - أحمد بابا التنبكتي السوداني (ت 1926) " نيل الابتهاج، بتطريز الديباج". على هامش الديباج لابن فرحون. دار الكتب العلمية. بيروت. د.ت.

6) - أحمد بن محمد الرهوني (ت 1953م) "عمدة الراوين، في تاريخ تطاوين" مصورة مخطوط الخزانة العامة بتطوان.

رمزية المكان في رحلة محمد الصفار التطواني

الدكتورة سوسان ميلر (Susan Miller)
(جامعة هارفارد Harvard Uinversity)

I- أهمية أدب الرحلة مصدر للمؤرخ .

أ- يشكل أدب الرحلة مصدرا هاما للمؤرخ نظرا لكونه يتيح لنا فرصة الاطلاع على عقليات العصور الغابرة. فعند قراءة وصف رحلة ما نندهش لتمركز مختلف مستويات التجربة في سرد الرحلة. وتقدم لنا القراءة الأولى لهذه الرحلات معلومات عن البعد الخارجي للسفر، وعن اللقاء المادي والمرئي للرحالة مع أماكن بعيدة عن المعتاد . فمثل هذه الأوصاف للأشياء الغريبة وغير المألوفة غالبا ماتستعمل من طرف المؤرخين عبارة عن لقطات سريعة لإعطاء بعض التفاصيل عن أوساط يصعب تحديدها بطرق أخرى رديئة. غير أن أحسن هذه الأوصاف تسمح لنا بالدخول في كنه تجربة الرحلة، وفي تلك الحالة نصبح رفقاء لها نتعرف عن كاتبها وعن أذواقه وقيمه وميولاته الفكرية، وبذلك فإن أدب الرحلة مثل السيرة الذاتية أو اليوميات أو المذكرة يمكن أن يكون بمثابة مرآة للذات الخفية أو نافذة على ماسماه الكاتب الجزائري بوصف الرحلة بجلاء L'itinéraire de lucidités[1]

ب - تسعف تقارير الرحلات في الإطلاع على العقليات الجمعية التي تختلف عن ذواتها من حيث خاصية المكان والزمن والتوجه الثقافي. ويتم تسجيل رؤية البلد في خلد الرحالة. ففن الكتابة في الرحلات تفتح الأبواب على الأقل نحو موضعين اثنين :

- الغاية أو الهدف من الرحلة والمكان الذي جاء منه الرحالة.
- تقدم صورا عن المكانين.

ولعله من المهم أن نذكر أن الرحلة هي سرد ، إنها حكاية مركبة تعكس إدراك المؤلف، وتطلع فيها ميولات ومواقف القارئ المحتمل بدور مهم.

فالناقدة بربرة سميت هرنستين Barbara Smith Hernstein تقول : إن السرد كيفما كان شكله هو ذلك " الإجراء الإجتماعي " المصاغ بالتفاعل بين اهتمامات

Mildred Mortimer, **Journey through the French African Novel**, - 1 **Studies in African Literature** , New series C- Portsmouth , N.H . Heineman, 1990 , p. 1.

المؤلف وتوقعات القارئ.[2] وهكذا فإن لتقرير وصف الرحلة القدرة على تجاوز فرد معين ليصبح نوعا آخر من المرآة التي تعكس عقلية المؤلف من حيث المكان والزمان.

ج- وأخيرا فإن تقارير الرحلات غالبا ماتكون مدونة ضمن سياق تاريخي واسع، فتلك الرحلات لاتقتصر الدواعي إليها على جانبها النفعي الخالص، بل نجد من بين أسبابها العميقة أزمات وحركات تاريخية بارزة. وعلى سبيل المثال فقد سافر الرحالة الأوربيون إلى الشرق الأقصى خلال القرن التاسع عشر بنوع من الفضول والمتعة، لكن حكاياتهم وانطباعاتهم استعملت لأهداف إستعمارية شنيعة. فقد أصبح ابن البلد، البسيط والساحر الذي يزين أولى الصور الفوتوغرافية، هدفا للتدجين والتدريب.

لقد عرض الناقد إدوارد سعيد لنتائج الأدب الإستشراقي مدعيا أنه كان ثمة تعاقب منطقي بين تصور الشرق كآخر وبين إخضاعه السياسي والإقتصادي في آخر الأمر. ويقدم أدب الرحلة معلومات عن المناخ النفسي لجميع الفترات والحركات في التاريخ البشري.

تلك كانت مقدمة لما أود أن أقوله عن وصف رحلة معينة، ويتعلق الأمر برحلة محمد الصفار التطواني التي كتبت في الأربعينات من القرن التاسع عشر . إنها عبارة عن تقرير خاص برحلة إلى فرنسا، قام بها المؤلف في أيام شبابه لما كان في خدمة عبد القادر أشعاس قائد تطوان.

تعتبر رحلة الصفار وصفا للجانب الآخر من لقاء الشرق بالغرب، فهي تحكي نظرة شرقية إلى الغرب لحظة اللقاء الأول. إنها تنتمي لذلك الجنس الأدبي الذي نسميه الآن الاستغراب أو الاستشراق المعكوس، وتدخل ضمن هذا السياق أعمال كثيرة لمشارقة : مصريين ،وأتراك، وفرس، وهنود، ومغاربة .. سجلوا انطباعاتهم عن الغرب ، وأغلب هذه الرحلات كتبت في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وهذا النوع من الأدب مصدر هام بالنسبة للمؤرخ ، للأسباب التي ذكرتها سابقا. فإذا نظرنا إلى هدف الرحلة نظرة شمولية ومقارنة نجدها تحكي عن الجانب الآخر من قصة اللقاء الشرقي - الغربي.

ولاأقصد اليوم إلى الغوص داخل هذا العمل الواسع والمقارن. لكني أود فقط أن أقول لكم شيئا عن رحلة محمد الصفار باعتبارها تحتوي على نتائج تاريخية فريدة من جانب وجهة نظر أدبية .

إن مقاربتي في تحليل هذا النص تشمل جوانب متعددة تتضمن عناصر من

2- " Narrative Versions, Narrative theories ", **Critical Inquiry** 7 (1,1980): , and especially, pp. 231 - 236.

الأنتروبولوجيا والنقد الأدبي، وكذلك السرد التاريخي. وأتمنى أن تطلعكم بأشياء جديدة حول الطرق التي يجب على المؤرخين أن يقرأوا بها هذه النصوص، وخصوصا كيف يمكن استعمال الرحلات كأدوات حساسة لقياس العقليات الفردية والجماعية.

II-المكان والعمل :

محمد الصفار التطواني هو فقيه شاب من مدينة تطوان، وإسمه معروف لدى جميع المؤرخين المغاربة خلال القرن التاسع عشر، ازداد في أسرة أندلسية متميزة ، كان يلقب بالجياني، وأصبح وزيرا لثلاثة سلاطين ، من المولى عبد الرحمن إلى المولى الحسن الأول.

وحياته موضوع عدة صفحات من مؤلف محمد داوود "تاريخ تطوان" ولازالت أسرته تسكن بهذه المدينة. ولكن ما يعرف عنه، بدرجة أقل، هو أنه سافر إلى فرنسا في شبابه، وكتب رحلة عجيبة، ألفها عام 1846 للسلطان، ثم اذخرت في المكتبة الملكية. وقد اكتشفها السيد محمد المنوني في الستينيات، ولفت انتباهي إليها، وقد تمت ترجمتها وطبعها بالإنجليزية في الولايات المتحدة من طرف منشورات جامعة كاليفورنيا. وهناك عدة مقاربات لمناقشة هذا النص، غير أني سأركز اليوم على رمزية المكان داخل الرحلة، بالإضافة إلى الدور الذي كان لمدينة تطوان في تأليفها .

أ- إن أهمية مدينة تطوان في تأليف رحلة الصفار متراكبة في شخصية وذهن المؤلف نفسه، فالصفار ابن تطوان، ازداد وتربى بها. وأثرت ذاكرة هذه المدينة فيه، ولم يكن من قبيل الصدفة أن يتحول السلطان مولاي عبد الرحمن إلى تطوان لكي يعين أعضاء أول وأهم سفارة رسمية إلى أوربا في القرن التاسع عشر. فقد كانت هناك طبقة من التطوانيين على صلة بأوربا ... والكثير منهم سافر إلى هناك كرجال أعمال. وضمن حاشية أشعاش، وبالإضافة إلى الصفار،كانت هناك العديد من الشخصيات البارزة من رجال تطوان كالسي اللبادي صهر أشعاش، والحاج العربي العطار الذي كان يتكلم الإسبانية والذي كان ماهرا في التعامل مع الآخرين والذي كان كثير التجول والتردد على البلاد العربية الأخرى. وغالبا ما استضاف أشعاس نفسه بعض الأوربيين ، واستطاع أن ينسجم معهم إلى حد كبير، فضلا عن أنه كان غنيا جدا. ووافق على الإنفاق على السفارة بنفسه مما شكل عاملا حاسما في انتخابه. بعبارة أخرى فإن الصفار قد نشأ في محيط حضر فيه العامل الأوربي وغير الإسلامي حضورا قويا. ويمكن أن نشير كذلك إلى الروابط العديدة ليهود تطوان مع كل من وهران ومارسيليا والمراكز الأوربية الأخرى، مما أدخل عنصر العالمية إلى هذه البيئة التطوانية أيضا . هكذا فإن الصفار وأشعاش ومن يحيط بهما لم يكونوا

منقطعين عن أوربا رغم أن معرفتهم المباشرة بها كانت ضعيفة.

ويجب في نفس الوقت، أن نوضح أن هؤلاء الأشخاص كانوا مسلمين مخلصين، والصفار نفسه كان منهمكا في التعليم التقليدي، وقد كان خبيرا بالتأليف، وملما بأهم مصادر الفقه المالكي، مطلعا على الفهارس . ونعرف من خلال ترجمته التي أوردها المؤلف الرهوني أنه درس على يد شيوخ تطوان المحليين، وذهب بعد ذلك إلى فاس حيث درس بجامع القرويين مدة ثماني سنوات، وكان يقيم مع صديقه محمد عزيمان الذي صار بعد ذلك قاضيا بتطوان.

عندما عاد الصفار إلى مدينته أصبح عَدْلاً، فدرَّس بجامع الساقية الفوقية، وكان يعطي دروسا في العبادات والمعاملات. ولما طلب منه أشعاس مرافقته إلى باريس كان ذلك من أجل أن يقوم بمهمة الفقيه، فقيه الجماعة يأُمُّ المصلين ، ويثبت التقاليد الشعائرية، ويكتب الرسائل إلى بلده بفصحى سليمة (توجد هذه الرسائل بمديرية الأرشيف بالرباط)، ويؤلف رحلة تكون أكثر من مجرد قصة، وتكون عبارة عن تقرير يسلم للملك الذي بعثهم. كان الصفار في السابق صديقا وناصحا للقائد وكان حُسْن تَرْبِيَته يشكل دعامة وعي أخلاقي مثالي للبعثة وهو الأمر الذي لفت نظر القائد إليه. ولعله من الأهمية بمكان أن نذكر لماذا كانت الحاجة إلى مثل ذلك الوعي الأخلاقي، فقد كان السفر إلى أوربا بالنسبة لمغربي مسلم عام 1845 خطيرا، سواء من الناحية الأخلاقية أو البدنية. فالعبور يمكن أن يكون صعبا، خصوصا في فصل الشتاء، إلا أن الأهم من ذلك هو ذلك الخطر الذي كان يهدد شخصية الرحالة المسلم في أوربا ، فقد كانت خارج دار الإسلام مخاطر وإغراءات تكمن في الطعام الذي لم يكن حلالا ، وفي صعوبة أداء الفرائض الدينية المتعلقة بالصلاة، وفي لقاء أناس وأماكن مجهولة ومدنسة. فكان وجود الفقيه ضروري للحيلولة دون الوقوع في المحرمات ولضمان رجوع الجماعة سالمة إلى بلدها من الناحيتين الأخلاقية والمادية. وكان دور الصفار يكمن في ذلك.

III- تطوان ورمزية المكان :

هذه هي الأهمية التي كانت لمدينة تطوان في الظروف المحيطة بهذه الرحلة، فأين تكمن فكرة تفاعل تطوان كموطن أصلي مع النص ؟ كيف يستعمل الصفار فكرة الموطن الأصلي لكي ينقل للقارئ معنى التجربة سواء،كانت فردية أو جماعية ؟ .

1- صورة تطوان كإطار للرحلة:

يعتمد الصفار نموذج الرحلة الحجازية منهجا لوصفه، حيث غالبا ماتبدأ بالخطبة أو الدعاء لله وللرسول ، وللسلطان راعي الرحلة. وغالبا ما تحتوي كذلك على أبيات شعرية في حق الموطن الأصلي الذي هو نقطة الانطلاق. ورحلة الصفار لا تشذ عن

هذه القاعدة. إننا نجده يكتب أبياتا مثيرة للمشاعر حول مسقط رأسه تطوان. وهذه الأخيرة كانت نقطة الإنطلاق، ونقطة الرجوع كذلك. إن رحلته الى الغرب تأخذ شكلا دائريا تماما كما لو كان ذاهبا للحج . فجزء من إنجازها يتجسد في العودة المبتهجة إلى البلد الأصلي . وأظن أن اختيار شكل الرحلة للحديث عن السفر إلى الغرب وإلى أرض مدنسة هو إختيار مقصود، لقد كان المؤلف يعلم أن إيقاعات الخطبة والخاتمة تحاكي السفر إلى الحجاز، هكذا فرحلته إلى بلد الروم تتشرف بمشروعية الرحلة المقدسة إلى الحرمين.

2- تطوان تجسيد لمفهوم الصفار عن المدينة الفاضلة .

كانت تطوان نقطة المقارنة حين وصف الصفار مدينة باريس. وكانت نظرته إلى بلده توجه الصورة التي رسمها لفرنسا . صحيح إنه بدى منبهرا بعجائب فرنسا : القطار، الحافلة، القناطر، الطرق العظيمة والمكتبات ... الخ) لكنه بقي يمتلك أيضا إحساسا بقيمة حضارته. كانت تطوان بالنسبة له عبارة عن عمران بالمفهوم الخلدوني، ومكانا لطلب العلم والدماثة ، ومكانا للفنون والحرف ، ومكانا للحضارة . إن إحساسه بقيمته الشخصية جعله يكون متسامحا مع الآخرين على عكس بعض الرحالة الذين سافروا إلى فرنسا فيما بعد كالفاسي. لقد رأى عدة أشياء جميلة بفرنسا ، ولم تكن الأشياء سلبية، وأظن أن مرد ذلك يرجع إلى إحساسه بنفسه واندماجه القوي في بعض الأماكن التي منحته معنى ومنزلة رفيعة.

3- الروابط الاجتماعية التي كانت تجمعه براعيه وببلده الأصلي كانت من أهم العوامل التي ساهمت في تأليف الرحلة.

كانت تطوان تشكل المجتمع الذي جاء منه الصفار، كما كانت أيضا المجتمع الذي كان يريد العودة إليه. ورحلته هي انعكاس لأهمية ذلك المجتمع بالنسبة إليه. فقد تعب في توليفها لإرضاء القائد. إختار وانتقى ألفاظه حتى لايغضب قراءه، وركز على القيم والأحكام التي من شأنها أن تصون سمعته وسمعة مرافقيه . يقول الصفار :" كنا نادرا ماتجازف لأننا لم نكن نرغب في المحافظة على سمعتنا وكبريائنا، وكرامتنا سبحان الله ، فقد كانت لنا قيمتنا في أعينهم كما حضينا باحترامهم".. (ص. 172) كان السياق الاجتماعي للرحلة هو العودة إلى الاندماج داخل المجتمع التطواني بعد تجربة الغرب المشوبة بالخطر وهذا هو السياق الذي يمكن ان نستوعب عبارته الختامية التي وردت في خاتمة الرحلة حيث يقول : " إنهم يعرفون جيدا مظاهر حياة هذه الدنيا ، إلا أنهم يجهلون تماما الآخرة ... ص. (22) اللهم اغفر لي ما اقترفت يداي ".... ص. (221) إن المغزى من هذه العبارة هو أن الصفار ومرافقيه رأوا مفاتن فرنسا، إلا أنها لم تغير فيهم شيئا .إنها التماس إعادة

القبـول من طرف المجتمع التطواني، والرغبة في العودة إلى نفس العلاقات التي كانت توجد قبل السفر. وكخلاصة، نرى أنه يجب قراءة هذه الرحلات قراءة دقيقة ومتأنية وبطرق متعددة.

أولا : يمكن قراءتها كمجموعة من الحقائق والانطباعات المفيدة والمسلية، تهم المظهر.

ثانيا: يمكن قراءتها عبارة عن جولات خاصة أو رحلات من أجل اكتشاف الذات . إن اللقاء يحكي لنا عن الذات ومكانة الشخص داخل المجتمع أكثر مما يحكي عن الآخر. والمهم عند الصفار أن صورة باريس هي صورة المغرب وتطوان ومكانه فيها .

ثالثا : وأخيرا يمكن أن نقرأ هذه الرحلات كخطاب أخلاقي وكحكايات تكتسي صبغة عالمية. فالسفر إلى البلدان النائية هو إنسلاخ نموذجي، والأسى الناجم عن البعد عن الوطن يعتبر تجربة إنسانية وحضارية واسعة، نتقاسمها جميعا سواء كنا مغاربة، أو أمريكيين، أو فرنسين ... إنها تجربة تتجاوز المكان والزمان. إن رغبة الصفار في الإندماج من جديد في مجتمعه التطواني هي رغبة إنسانية يمكننا أن نستوعبها جميعا. وعليه فإن رحلة الصفار تأخذ معناها الكامل من مستوى الخطاب الإنساني الشامل .

تعريب سعيد بنسباع.

التراتبية الإجتماعية بمدينة تطوان

في القرن التاسع عشر

ذ.عبدالعزيزالسعود

إن التصنيف الذي كان يعيش بحسبه المجتمع الحضري في المغرب بصفة عامة يذكرنا بتقسيمات المجتمع القديم. وبالرغم مما يمكن أن تلعبه الثروة داخل هذا المجتمع من دور هام في تشكيل التصنيف المجتمعي ، فإن ذلك يعسر تمييزه على أساس الثروة فحسب. ذلك أن العلم والشرف والمنصب تعد من وسائل الترقية الاجتماعية وهو ما عرفه ، ابن خلدون بـ " الجاه " ، ومعنى ذلك أن المال لم يكن مقياسا للصدارة داخل المجتمع. فالجاه يحتل مكانة بارزة في حياة الحاضرة ويساهم في تشكيل النخبة الحضرية. وعلى هذا الأساس فالبنية السياسية كان لها تأثير هام على البنيتين الاقتصادية والاجتماعية. فالمخزن عندما يمنح أحد خدامه أو موظفيه قسطا من هذا الجاه ، فانه يخوله بذلك مناسبة لتكديس ثروة هائلة.[1]

ومما لا شك فيه أن التفاوت الإجتماعي على أساس الثروة وإن لم يلعب دورا حاسما في تأسيس التصنيف داخل المجتمع المغربي ما قبل الطبقي ، فإنه مع ذلك كان من العوامل الرئيسية التي حددت العلاقات الإجتماعية وتحكمت في التراتبية الاجتماعية. وبالرغم من ذلك فالمجتمع التطواني لم يكن مجتمعا طبقيا حسب المفهوم المادي، فالتفاوت في امتلاك الثروات في هذا المجتمع ما قبل الرأسمالي كان تفاوتا نسبيا وظرفيا وأحيانا معقدا. وبغض النظر عن الظروف الطبيعية والتقنية التي لم تكن مساعدة في الغالب لتوفير فائض إنتاج، فإن وضعية الغنى كانت غير قارة داخل السلم الاجتماعي فلقد فقد عدد من كبار التجار ثرواتهم أو قسما منها بعد معركة "عيطة السبت " سنة 1727 وكذلك نتيجة لحرب تطوان سنة 1860.

ونجد التراتبية حسب الجاه والثروة معا إنطلاقا من رسالة السلطان مولاي الحسن. حيث نرى التراتب الحقيقي (النسبي) والواقعي لمجتمع تطوان في القرن

---

1 - أحمد توفيق، " مساهمة في دراسة المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (انيولتان من 1850 إلى 1912) ج 2، الرباط 1980. ص. 30.

التاسع عشر: "خدامنا أهل تطوان خصوصا وصيفنا الأنجد القائد أحمد الخضر السلاوي والقاضي السيد محمد عزيمان والأعيان من الشرفاء والفقهاء والمجاهدين وأهل البلد كافة وفقكم الله وأرشدكم وسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته..."[2]

وإن مجتمع تطوان حسب هذا الترتيب يعكس إلى حد ما تشكيلة البنية الاجتماعية التقليدية في الحواضر المغربية. و داخل هذه التشكيلة الاجتماعية الحضرية نجد حدين يتقاطعان فيما بينهما " أحدهما ترسمه العناصر المستحوذة على المقاليد الرسمية (الخاصة) من جهة، والآخر تمثله العناصر المستفيدة من الامتيازات (الأعيان) من جهة أخرى.[3] وإن التفوق المادي والمعنوي" للطبقتين " يمكنهما من القيام بدور سياسي واجتماعي مهم ، يتمثل في توجيههما لشؤون العامة حسب مصالحهما. وهذا الواقع يوضح ما لهذه التراتبية من عواقب اجتماعية لا تقل آثارها عن عواقب التناقض الطبقي في المجتمع البرجوازي.[4]

الخاصة :

إذاكانت التراتبية الاجتماعية تقوم بالأساس على عنصرين هامين وهما : الجاه والثروة فإن ذلك يعني السلطة التي تمسك بجهازها الخاصة، إذ على عاتق هذه " الأوليغارشية " تقع مسؤولية تدبير الشؤون السياسية والإدارية للمدينة ، وعلى كاهلها يقوم ضمان الأمن والنظام بالمدينة، وحمايتها من التهديدات الخارجية. وهذه " الطبقة " تستمد نفوذها مباشرة من السلطان وتخضع لمراقبته. وبالتالي فأفرادها لم يكونوا يتمتعون بنفس التأثير الذي تمارسه فئة الأعيان على العامة لكون سلطتهم كانت زمنية محضاً.

ولكن منذ بداية القرن التاسع عشر بدأت تظهر تحولات على صعيد المخزن تمثلت في الهيمنة التدريجية للعناصر الحضرية على المناصب المخزنية. وتميزت أساسا بصعود فئة التجار التي ينتمي جل أفرادها الى المدن ، والذين أصبحوا منذ منتصف القرن يلعبون دورا هاما في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية للبلاد.

وهكذا نجد في مدينة تطوان صنفين من الموظفين المخزنيين : صنف يؤخذ من بين أكثر الأسر ثروة، وكان السلطان، يحتاج كثيرا إلى تجربتهم وخصوصا في علاقاته

---

2 - رسالة السلطان مولاي الحسن إلى تطوان مؤرخه في 18 رجب عام 1873/1292، تاريخ تطوان، المجلد السادس، ص. 160.

3 - Driss Ben Ali, " **Le Maroc Précapitaliste. Formation économique et sociale**", Rabat, 1983, p. 93.

4 - إنيولتان (من1850 إلى 1912) ، ج. 2، ص.19.

مع أوربا. وقد خول لهم الجاه المخزني إمكانات الزيادة في ثرواتهم ، وحصلوا بسبب ذلك رتبة الصدارة داخل النخبة الحضرية أمثال آل أشعاش وآل بريشة بصرف النظر عن الوظائف التي زاولوها كالعمالة والسفارة، ونادرا ما كان بينهم فقيه يعتمد على كفاءته في التحرير وتضلعه في الفقه مثل أبي عبد الله محمد الصفار وصنف آخر يتكون من وصفان وخدام المخزن أمثال الصريدي والسلوي وبنيعيش وبنغازي، وهؤلاء لم يتمكنوا إلا نادرا من إحراز مكانة داخل المجتمع.

وهكذا يتبين أن الأصول السوسيو - جغرافية لهذه " الطبقة " متنوعة، وبالتالي فهي لم تكن هيئة قارة قادرة على حماية مصالحها، إذ لم يحتفظ من بينها بالسلطة سوى عدد قليل من الأسر خلال القرن التاسع عشر، ومن جانب آخر فالهيئة المخزنية لم تستطع تكوين طبقة مسيرة حقيقية نظرا لغياب عامل التجانس بين مختلف عناصرها. ولهذا لا يمكننا أن نتحدث عن وجود طبقة مخزنية متميزة تماما بتطوان.

الأعـــــيـــــان : ضمت فئة الأعيان ثلاث هيئات إجتماعية :

- **الشرفاء** : تمتعت الأسر الشريفة في تطوان بحكم مكانتها الدينية وبفعل ما حصلت عليه من دعم مخزني بتقديركبير من لدن السكان، وذلك ما أكسبها موقعا متميزا في التراتب الاجتماعي للمدينة.

وبالرغم من ذلك، فقد كان التمييز داخل هذه الطبقة في درجة الغنى أو الفقر، وكذلك في انتماء بعضها إلى عائلة أكثر شهرة من غيرها. كما كان حرص بعض الأسر على شجرتها النسبية بهدف تبرير تميزها عن باقي السكان وإضفاء المشروعية على وزنها السياسي ومكانتها الإجتماعية.

وكان يعين على رأس كل مجموعة من الشرفاء نقيب بعد موافقة المخزن ، ويكون بمثابة صلة الوصل بين الشرفاء والسلطة فيما يتعلق بتوزيع الهبات الممنوحة لهم من قبل المخزن ، وإلى جانب أوامر السلطان بالبرور والإعتناء بالشرفاء،كان يخصص لبعضهم مداخيل شهرية يقبضها من أحباس الجامع الأعظم [5] و يعفى من بحوزتهم ظهائر التوقير والإحترام من التكاليف المخزنية وذلك بسبب قيامهم ببعض المهام كالشرفاء أولاد العلوي القاطنين بحوز تطوان نتيجة انقطاعهم للجهاد وحراسة حدود سبتة، [6] أو لمساعيهم الحميدة في الفصل في النزاعات التي تنشأ بين القبائل المجاورة لتطوان، وذلك ما اشتهر به الشريف سيدي الطيب بن عبد السلام البقالي

---

5 - رسالة السلطان عبد الرحمن بن هشام إلى القائد محمد أشعاش مؤرخه في20 محرم 1243، تاريخ تطوان، المجلد الثامن، ص.122.

6 - ظهير السلطان المولى الحسن لشرفاء أولاد العلوي ، " الوثائق " المجموعة 3، وثيقة 472، ص. 43.

الذي كان على اتصال كبير بالقائد عبد الرحمن أشعاش.

ونجد بعض الأسر الشريفة في تطوان قد استرعت الإنتباه مثل العائلة الريسونية والتي كانت لها إلى حدود نهاية القرن التاسع عشر، صبغة دينية نجمت أساسا عن اشعاع علمائها ، وتمتعت بنوع خاص من التأثير - هو البركة يورث أبا عن جد، كما كانت لها صبغة سياسية برزت بشكل جلي في الأمور التي نهض بها رجالها لصالح الحكم المركزي ، كقيامهم بدور الوساطة بين المخزن والقبائل الجبلية ، أو فض النزاعات بين القبائل نفسها، بل ويتوسطون لبلوغ الوظائف. فقد كان للشريف الصوفي والعالم سيدي عبد السلام بن علي بن ريسون مكانة واعتبارا كبيرلدى السلطانيين سيدي محمد بن عبد الرحمن، وولده المولى الحسن. كما كان له تأثير سياسي في أوساط القبائل الجبلية نظرا لما عرفت من زهده وورعه مما جعل السلاطين يطمئنون إلى هذه الناحية في عهده. وبهذه المكانة التي كانت له في الدولة و لهذا الاتصال الوثيق ، توصل جماعة من مريديه إلى نيل الوظائف العالية في الدولة الحسنية ، واتصل ذلك إلى العصور المتأخرة. و نذكر من بينهم الحاج عبد الكريم الحميدي بريشة السفير المفوض للسلطان مولاي الحسن إلى مؤتمر مدريد سنة 1880، وأخاه الحاج العربي بريشة الذي شغل منصب الأمانة بمختلف ديوانات المغرب، وبعثه السلطان إلى أوربا لشراء الأسلحة، والحاج محمد الحميدي بريشة وكان أمينا للصائر ببنيقة السلطان ، وكذلك الحاج محمد بن عبد الخالق الصفار الذي عمل أمينا للمستفادات وعبد الكريم الغنمية والحاج محمد اللبادي وغيرهم .[7]

- **العلماء** : لم يشكل العلماء هيئة مميزة داخل المجتمع على غرار ما كان عند أهل الحنطة ، إذ لم تكن هناك أية مؤسسة دينية لها تنظيم داخلي ، فطبقة العلماء جمعت بين القضاة والشرفاء وشيوخ الزوايا والمدرسين ، ولم يكن عمل هؤلاء يجعلهم يظهرون كهيئة إلا في وقت تقديم البيعة للسلطان والتي تقع على عاتقهم مسؤولية صياغة نصها،[8] ومع ذلك فإنهم تمتعوا بتأثير كبير ولعبوا دورا ذا أهمية في الحياة الاجتماعية. فقد كان العلماء يحتكرون وظائف القضاء والتدريس ويمارسون وظيفة الإفتاء، إذ لم تكن هذه في مغرب القرن التاسع عشر متميزة عن سائر الوظائف الدينية الأخرى، وكان السلطان يعين المفتين من بين العلماء بناء

7- Abderrahim Jebbor Oddi, "**Vida y carismas del mitico tetuani Sidi Abdeslam Ben Raison**", Ed. Marroqui, Tetuán, 1951. p.27.

8 - إدموند بورك، " العلماء المغاربة في 1860 - 1912 "، تعريب د. امحمد بن عبود وعبد العزيز السعود ، مجلة البحث العلمي ، عدد : 31 سنة 1980.

على اقتراح القاضي، وللحصول على مرتبة العالم جرت العادة في تطوان أن يكون الشخص قد أكمل دراسته على يد شيوخ القرويين، وعندما يرجع إلى بلده فإنه يشتغل في التدريس والإمامة والخطبة بأحد الجوامع، وكذلك بالإفتاء في النوازل، أو يحترف خطة العدالة، وقد يتولى القضاء. وتلعب العلاقات الاجتماعية دورا مساعدا في بلوغ الشخص مرتبة أسمى في الوظيفة المخزنية، ومثالا على ذلك الفقيه أحمد الزواقي الذي مارس مهنة العدالة وشغل منصب الإفتاء، ثم استخدم كاتبا بدار النيابة السعيدة عام 1871 مع النائب السلطاني الحاج محمد الطريس ، وألحقه السلطان بأهل المرتبة الأولى من علماء فاس بتدخل من الطريس [9] ثم عين قاضيا بتطوان بعد وفاة التهامي أفيلال. وهذا يبين سهولة انتقاله من الخدمة المخزنية إلى خطة القضاء. وباعتبار الوظائف التي زاولها هذا الفقيه، نستبين أن العلاقة بين الإدارة المخزنية والوظائف الشرعية كانت وطيدة في المغرب خلال القرن التاسع عشر.

وإن معظم علماء تطوان، كسائر العلماء في مختلف الحواضر المغربية، كانت لهم هوية اجتماعية، فأقلية هم الشرفاء شيوخ الزوايا المتصدون لتلقين التربية الصوفية والأوراد أمثال الشيخ سيدي عبد السلام بن ريسون والشيخ سيدي محمد الحراق. وكانت مواردهم المادية مكونة من الإنعامات المخزنية وهبات المريدين ونحوها. أما جلهم فممن تعاطى للتجارة أو اشتغل في بعض الوظائف المخزنية، فمن الأمور التي كانت قائمة خاصة منذ منتصف القرن التاسع عشر الجمع بين العلم وتعاطي بعض الوظائف ، فنجد مثلا الفقيهين محمد بن أحمد النجار الأنصاري وعلي بن المفضل أفيلال يحترفان التجارة في الصوف ويتوليان الإمامة والخطابة ، الأول في جامع السويقة والثاني في الزاوية الريسونية، وكما اشتغل الفقيه محمد بن الأبار بالتدريس والتجارة واستخدم بالديوانات حتى فاضت عليه أموال كثيرة [10] وإذا كان بعض العلماء قد تمكنوا من تحقيق كل أو بعض التوازن في حياتهم الاجتماعية في الجمع بين العلم والثروة ، فإن البعض منهم " كان مختارا لحالة الفقراء والعزلة عن الأغنياء "، وذلك هو العلامة " الأديب الثائر " أحمد بن محمد المرابط الذي اشتغل بحرفة العدالة [11] ولتحقيق نوع من التوازن دأب السلاطين على الإحسان إلى العلماء الذين ينقطعون للعلم والعبادة، فيخصصون لهم من مال الأوقاف رواتب

9 - رسالة السلطان مولاي عبد العزيز إلى النائب الحاج محمد الطريس مؤرخة في فاتح ذي القعدة عام 1318، " وثائق تطوان "، مج. 148/18.

10 - أحمد بن محمد الرهوني، "عمدة الراوين في تاريخ تطاوين "، مخطوط ، الجزء السادس، ص. 136.

11 - نفس المصدر السابق ، المجلد السابع، ص. 13.

شهرية وسنوية وكسوة.[12]

ولقد كان للعلماء أدوار متعددة، لكن وضعيتهم ، كعلماء لها أهمية في تسيير أنشطتهم خلال ظرف ما لم تكن واضحة، ولذلك فإنه يصعب تصور عمل مشترك فيما بينهم. فالعلماء المغاربة بصفة عامة لم يؤلفوا طائفة موحدة في الظروف العادية ، بل جلبتهم اتجاهات مختلفة بسبب المراكز والأدوار التي لعبوها داخل المجتمع. فلقد اختلفت مواقفهم تجاه التدابير الإصلاحية التي قام بها المخزن، والتي استهدف بعضها مصالح و امتيازات العلماء، وقد تجلت معارضتهم للمخزن بصفة خاصة في مسألة الضرائب. فعدد من العلماء كانت لهم مصالح تجارية، وفرض جبايات جديدة مثل ضريبة المكس قد يؤدي إلى قيام " تحالف " بين العلماء وفئة التجار، فقد كان السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام قد بعث سنة 1851 المكي القباج الفاسي إلى تطوان لجمع متروك آل أشعاش بعد نكبتهم، فقام بفرض المكوس بها، وقد وصفه الفقيه سيدي امفضل أفيلال بأنه " صار يسعى بالفساد فوظف الوظائف والكنطردات "، ونظم أرجوزة في ذمه.[13]

واعتمد علماء آخرون على علاقتهم بأصحاب السلطة لحل المشاكل والتأثير على سياسة المخزن ، فقد كان للشيخ سيدي محمد الحراق من النفوذ ما جعل قائد تطوان محمد أشعاش لا يكاد يقطع أمرا دون مشاورته، ولذلك لم يكن العلماء في حاجة إلى مواجهة السلطة كطائفة متلاحمة عند معارضة بعض الإجراءات المخزنية. ولم يقف العلماء في مواجهة المخزن إلا في نهاية القرن التاسع عشر لما بدأوا يحسون بتأثير نتائج المستجدات.

التجار: شكل التجار فئة اجتماعية واقتصادية متميزة نسبيا عن الفئات الإجتماعية الآنفة الذكر، ولكنها وثيقة الصلة معها، وهي تندرج ضمن طبقة الأعيان، وتتمثل بصفة خاصة في كبار التجار الذين يباشرون تجارتهم خارج المدينة، بل وفي خارج المغرب قصد تنمية مبادلأتهم، ولهذا لم يتردد البعض منهم في المقام مدة طويلة بالخارج فقد تاجر كل من محمد الرزيني ومحمد الخطيب مدة في وهران والجزائر كما كان التاجران عبد الله أفروخ وأحمد الرزيني وكيلين على المغاربة في مصر، وإلى جانب ذلك، ذهب بعضهم نحو أوربا خاصة إلى المدن الإيطالية وجبل طارق بقصد المتاجرة، فأقاموا هناك مدة ليست بالقصيرة، وجمعوا ثروات مهمة.

وإن " السطوة " المالية لهذه الفئة من التجار الكبار أتت من تحكمهم في جزء هام

---

12 - رسالة السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام إلى قائد تطوان " وثائق تطوان "، محفظة 41/19.

13 - " تاريخ تطوان " المجلد الثالث ، ص. 313.

من الثروة العامة نتيجة استحواذهم على قسط مهم من التجارة مع أوربا، وممارستهم للاحتكار وتمتعهم ببعض الامتيازات، وكان من البديهي أن يمنحهم ذلك حظوة وتأثيرا لدى المخزن حيث كان من بين هؤلاء التجار من حمل لقب : "تاجر السلطان". وكانت علاقة المخزن مع هذه الفئة التجارية تتميز كذلك بالمساعدة لما في ذلك من " المصالح العامة ". فقد كان التجار مثلا يستفيدون من بعض الامتيازات كالتخفيض الجزئي للحقوق الجمركية أو تأجيل تسديدها، فمثلا السلطان أجل التاجر محمد الرزيني سنة واحدة لأداء ما بذمته من مال السلف، على أن يؤديه وفق الكيفية التي أمر بها السلطان " فقضية الحاج محمد الرزيني الأول استفدنا منه أن مولانا أعزه الله وسع على التاجر محمد الرزيني في العشرة آلاف ريال التي بذمته لجانب بيت المال عمره الله بأن يدفع ربعها عند تمام كل ثلاثة أشهر من تاريخه يكمل دفع جميع العدة المذكورة عند تمام السنة من تاريخه.."[14].

ويتدخل السلطان كذلك لأجل إعانة تاجر آخر على تكوين شركة تجارية، فيبعث إلى القنصل المقيم بجبل طارق " أما بعد فيصلك صاحبنا عشعاش ولابد قف معه واخترله أصحابا و تجارا من أهل الأمانة و الصدق يتاجرهم ويكاتبهم من جبل طارق وكذلك بأجبوكة يكونون كبانية له فقد أردنا بحول الله وقوته أن تعمر به مرسى تطوان .."[15].

وكان السلطان يعين من بين هؤلاء التجار الكبار المكلفين بماليته وكبار موظفيه في " الديوانات ". وكان ذلك من أسباب ثرواتهم وتأثيرهم الاجتماعي والسياسي، وبذلك أصبح لهم قدر عند المخزن ، وبالرغم من أن هؤلاء التجار الكبار لم يكونوا في الواقع يمثلون سوى جزء من الرأي ضئيل عددا ، فإن أفكارهم وآراءهم كان لها وزن لدى المخزن[16]، إلا أن وضعيتهم الإقتصادية والسياسية قد دفعهتم أحيانا إلى اتخاذ مواقف متباينة فيما يخص العلاقات مع الخارج. وهكذا نجد تباينا في موقف كل من التاجرين محمد الرزيني ومحمد الخطيب بخصوص المفاوضات التي سبقت فرض معاهدة 1856 على المغرب.

وبالرغم من ذلك، فقد شكلت الفئة التجارية هيئة منسجمة. فالعلاقات بينها كانت قائمة على أساس تكافلي، ومن أبرز مظاهره تسليف التجار لبعضهم

---

14 - رسالة مؤرخة في فاتح شعبان عام 1278 ، " تاريخ تطوان " ، المجلد السادس ،ص.45.

15 - رسالة السلطان مولاي سليمان إلى قنصل المغرب ، بجبل طارق يودا بن عليل، مؤرخة في3 صفر عام 1238. " تاريخ تطوان " المجلد الثامن " ، ص،60.

16 - لوطورنوروجي ، " فاس قبل الحماية " ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر في جزئين، بيروت ، 1986 ، الجزء الأول، ص. 643.

البعض مقادير مالية بقصد التوسعة والمتاجرة. وقد اتسعت هذه المعاملة خصوصا بعد حرب تطوان حيث كان قد أفلس العديد من التجار، وهاجر الكثير منهم مدينة تطوان في اتجاه المدن والقبائل المجاورة فرارا من الإسبان.

الحمد لله أشهد المكرم الأرضى السيد محمد بن العربي بن السيد عبد السلام المدينة التطواني المستقر وقته بشفشاون أن من ماله وذمته للتاجر الأرضى الأخير المرتضى الأبر الحاج أحمد بن المرحوم السيد الحاج أحمد الرزيني التطاوني القاطن حينه بشفشاون جميع ماية ريال وثمانية ريال الكل من الريال الفرنصيصي من سلفاحسان وتوسعة مقبوض بيده العدد المذكور يؤديه ما ذكر بحكم الحلول .. في خاس عشر صفر الخير عام ثمانية وسبعين بوحدة ومايتين والف."[17].

وهذا النوع من التكافل لم يبق محصورا في وسط التجار المسلمين، بل شمل كذلك التجار اليهود لما كان لهم من اختلاط وامتزاج بتجار المسلمين، فبقدر ما كان يتم الوفاق بين الملتين بقدر ما كانت تزداد المخالطة التجارية بينهما. ولقد كان بإمكان التاجر اليهودي أن يحصل على وجه السلف ما كان يحتاجه من مال من عند التاجر المسلم. وهذه المسألة تعددت بصفة خاصة منذ عودة الحكم المغربي الى تطوان وجلاء القوات الإسبانية عنها سنة 1862. وقد صادف ذلك هجرة كبار التجار اليهود إما نحو طنجة أو وهران ، وإما نحو أمريكا الجنوبية. فيكون ذلك الأمر قد دفع التجار المسلمين إلى دعم صغار التجار اليهود التطوانيين في محاولة استعادة النشاط التجاري و إحيائه بالمدينة. وكمثال على ذلك :" الحمد لله معاينة شهيديه دفع المكرم البار التاجر الأمين السيد الحاج أحمد بن المرحوم بالله السيد أحمد الرزيني التطاوني للذمي سمويل بن يوسف اكويهن من يهود ملاح تطوان جميع أربعين ريالا فرنساوية محل جهة السلف والإحسان والتوسعة يؤديه ما ذكر حلولا لا يبريه إلا الواجب عرفا قدره شهدا به ... وفي خامس عشر جمادى الأولى عام ثمانين ومائتين و ألف (العدلان) "[18].

العامة : كانت العامة تتألف من رتبتين من السكان وضعية إحداهما أقل حظوظا من الأخرى، وإن كانت حالة واحدة منهما دون حالة الأعيان بكثير. ونميز فيهما بين :

- صغار التجار من أصحاب الدكاكين والحرفيين من المعلمين الخرازين والدباغين وصانعي السلاح وأرباب الدرازات وغيرهم، وهم يشكلون قسما مهما من السكان،

17 - رسم بالخزانة الداودية ، تطوان بدون ترقيم.

18 - نفس المصدر.

وكان معظم هؤلاء يقل متوسط ثروتهم عن ثروة الأعيان، بينما تقع على عاتقهم كل التكاليف والوظائف المخزنية، وفي نفس الوقت لم يكونوا يتمتعون بأية إعفاءات. وجل هذه العناصر تنتمي إلى المدينة ومتشبعة بأفضل تقاليدها، كما كانت تشكل الاحتياطي الذي كانت تنتظم فيه ثانية النخبة التطوانية باستمرار.

- الأجراء ممن يشتغلون كمتعلمين عند أصحاب الحرف والصنائع، والحمالين والحمارين ممن يقومون بحمل البضائع أو نقلها أو إفراغها وغيرهم، ويؤلفون عامة من عناصر قروية لم يستقروا بعد كما ينبغي، ويعيشون على هامش السكان الحضريين محتفظين في غالب الأحيان بطابعهم القروي وبعيدين عن كل التقاليد والعادات المدينية، وكثيرا ما نعتهم الإخباريون بأوصاف مذمومة كالرعاع والأوباش والفساد الخ. ورغم وضعية الاستغلال والفقر شبه التام الذي كانوا عليه، فإن دورهم السياسي كان يتميز بالإمحاء شبه التام حين يمسك المخزن بزمام الأمور ، ولم يشذوا عن ذلك إلا لما ينفلت من يده زمام الأمر، كما حدث قبل احتلال تطوان من طرف القوات الاسبانية سنة 1860. بيد أن هذه الحالات الاستثنائية والظرفية لا تعكس السلوكات القارة للعامة.

ويمكننا أن نتساءل هل شكلت الطائفة اليهودية جزءا من هذه العامة. فكما كان هناك أثرياء مسلمون وأثرياء يهود ،كان هناك يهود آخرون يعيشون في نفس وضعية العوام المسلمين. وبصفة عامة فأحوال هذه " الطبقة " في تطوان لم تكن بأسوأ من أحوال سائر العامة في المدن المغربية الأخرى. فبالرغم من كونها الفئة الأقل حظوظا في المجتمع، فإنها شكلت قاعدة الأساس الإقتصادي للمدينة. فتطوان كمدينة تجارية وصناعية كانت سوقا نافقة لليد العاملة، كما لم تعدم بها مشاركة العامة في التجارة ولو على أقل مستوى. وبالإضافة إلى ذلك فهذه الفئة هي التي تحملت عبء الخدمات لفائدة الفئات المحظوظة داخل المجتمع. ومن ثمة، فإذا كان من تناقض أساسه علاقات الإنتاج في المجتمع الحضري، فهو بين فئتي الخاصة والأعيان من ناحية، وفئة العامة من ناحية أخرى.

ولا يتأتى لنا الحديث عن علاقات الصراع الطبقي في مجتمع كهذا الذي نحن بصدده ، لأن ذلك يفترض توفر عدة شروط قد لا يتمكن المؤرخ من الاستدلال على وجودها. فالسمة العامة التي تميز العلاقات بن الخاصة والأعيان تكمن في عنصر التكامل بينهما، ويتضح هذا العنصر في المصلحة المشتركة. فالفئتان معا تحصلان على قسط من الموارد عن طريق استغلال واستخدام العامة، ولأجل ضمان ذلك ودوامه يتم بينهما نوع من توزيع المهام. فالخاصة غالبا ما يحتكرون السلطة

المخزنية ويحمون النظام بالمدينة . أما الأعيان فيجمعون أحيانا بين التسيير الاداري والتدبير الإقتصادي. ويمارسون وظيفة التأطير الفكري والعلمي، ويشكلون في نفس الوقت سندا للخاصة وحينما يتوفر لأحدهم ما يمكنه من جلب تقدير العامة من جاه وثروة فإنه يحصل على امتياز مقرر بظهير سلطاني.[19] وكان المخزن لا يستغني عن تأييد الأعيان ومساندتهم ، خاصة عندما يتمتع أحدهم إلى جانب الثروة بنفوذ اجتماعي وعلمي. وقد كان أعيان تطوان من قبل يختارون من بينهم من يحكمهم

بعد موافقة السلطان. وعند مجئ الجيوش الإسبانية، فإن الأعيان هم الذين تفاوضوا حول استسلام المدينة وهذا الواقع يجعلنا نقتنع بأن مصادرة الرأي السياسي من طرف لأعيان ترجع إلى امتلاكهم" لوسائل الحركة و التحريك "[20].

وهكذا نستنتج بناء على ما سبق ذكره أن اقتصار التصنيف الإجتماعي على خاصة وأعيان وعامة وفق ما جاء في الرسالة السلطانية، حري بأن ينطبق على مجتمع حضري مثل تطوان الذي لم تتميز داخله الفئة " البرجوازية " الناشئة عن فئات الأعيان الأخرى إلا قليلا، ولم تتناقض مع الخاصة تناقضا خطيرا. لكننا بالمقابل نلاحظ التفاوت شاسعا بين الطبقة التي في أعلى سلم الثروة من خاصة وأعيان وبين الغالبية الساحقة من العامة. ثم إن التفوق الإقتصادي والأديولوجي للطبقة الأولى كان يجعل من الثانية مسخرة لها ومنقادة لمشاريعها.

19 - ظهير التوقير و الاحترام لأولاد القائد أحمد الحداد في 15 شوال الأبرك عام 1275، تاريخ تطوان " المجلد الثالث، ص. 337.

20 - إينولتان، ج . 2، ص. 20.

حرب تطوان في "Aïta Tettauen"

التاريخ والإلتباس

الأستاذ: إبراهيم الخطيب
كلية علوم التربية - الرباط -

تهتم هذه المداخلة بقراءة رواية "عيطة تطاون"[1] لبنيتو بيريس گالدوس من زاوية التقاطع بين زمن الحكاية وزمن الكتابة : ذلك أن هذه الرواية هي ليست فقط عن حرب تطوان، وإنما عن صورة الحرب كما انعكست في التخييل الإسباني، هذه الصورة المتحولة التي اكتست دلالات أخرى مع تبلور المشروع الاستعماري وإقرار الحماية في مطلع القرن العشرين.

لقد كتب (گالدوس) "عيطة تطاون " بين سنتي 1904 و1905، ووضعها موضع الحلقة السادسة والثلاثين من سلسلة " أحداث قومية " (Episodias Nacionales) تتألف من 44 حلقة. وشأنه شأن الكتاب الطبيعيين فقد وضع للرواية مسودة دقيقة تشمل القسم التاريخي، الذي خصه بعناية كبيرة، والقسم الإجتماعي - التخييلي، الذي يلاحظ بعض النقاد أنه لم يحالفه التوفيق في صياغته. بخصوص المادة التاريخية للرواية اعتمد (گالدوس) على مصادر متنوعة، أبرزها: كتاب :

Descripción de la Guerra de Africa

وهو سفر ضخم مزين بعشرات الخرائط والرسوم ، وضع بعيد الحرب من طرف ضباط وموظفين رسميين إسبان، ثم كتاب :

Diario de un testigo de la Guerra de Africa

لبيدرو أنطونيو ألاركون، وهو مستشرق إسباني رافق الحملة على المغرب وسجل انطباعاته المباشرة عنها ، فكتاب "الاستقصاء" (الجزء الخاص بالدولة العلوية) للناصري، ثم "مخطوط تطوان " المنسوب لمجهول. وبما أن (گالدوس) لم يكن على دراية باللغة العربية فقد استعان في الإستفادة من "الإستقصاء" بمستعرب إسباني من مواليد طنجة هو ريكاردرويث أورساتي الذي ترجم له القسم الخاص بحرب تطوان . وتجب الإشارة إلى أن المصادر العربية استعملت بصفة استثنائية لصياغة

1-طبعة، Alianza - Hernando مدريد 1979.

الفصل الثالث من رواية " عيطة تطاون"، وهو الفصل الذي يروى - خلافا لبقية الفصول - على لسان مولّد هاجر إلى المغرب ويدعى " الحاج محمد بن سور الناصري".

أشرت قبل قليل إلى السنتين 1904 و1905 باعتبارهما السياق الزمني لتهيئ مادة الرواية وكتابتها. ويبدو لي أنه من الضروري القول بأن هذا السياق الذي كان يعتمل بتطورات دبلوماسية، وتقلبات سياسية حاسمة، قد ألقى بظلاله على عملية الكتابة ووضع التخييل التاريخي في حالة احتكاك مع الواقع اليومي. هكذا يخيل لي أن (گالدوس)، المسيّس بامتياز، لم يكتب روايته تحت تأثير ذكريات الحرب التي، كما يقول (فيگيراس) في "المغرب"(Marruecos)، : " تواصلت في إسبانيا إلى نهاية القرن التاسع عشر بعد أن حمل أصداءها إلى منازلهم أولئك الجنود الذين شاركوا في الحملة ..." (ص.82)، وإنما أيضا تحت تأثير اتفاقية 27 يونيو 1900 بين فرنسا وإسبانيا ثم الاتفاقية الفرنسية الإسبانية لسنة 1902، فالاتفاقية الإنجليزية الفرنسية لثامن أبريل 1904 التي التزمت فيها فرنسا بمراعاة " الحقوق المشروعة " لإسبانيا في الشاطئ الشمالي للمغرب، ومن الناحية الثقافية والعقلية، يمكننا أن نؤكد على أهميــة أفكار "جيل 98" (La Generación del 98) ورؤاه الإنعزالية - الإنكفائية في صوغ النزوعات السلمية للشخصية الرئيسية "خوان دي سانتيوستي".

هكذا يتعلق الأمر بمؤثرات مختلفة، متناقضة أحيانا، لكنها تفاعلت فيما بينها لتحديد خصائص زمن الكتابة، فكيف انعكس ذلك على صعيد الخطاب الروائي ؟.

تلتزم "عيطة تطاون"[2] على صعيد بنائها السردي، بناءا متتابعا للوقائع حسب التسلسل الزمني، ويمكننا أن نلاحظ في هذا الصدد أن الوقائع التاريخية تهيمن تماما على صياغة النسيج التخييلي للأحداث : هكذا تبدأ الرواية بإعلان الحرب على المغرب ، وعلى إثر ذلك يظهر "خوان دي سانتيوستي" الذي سيتغنى، على نحو ملتبس يجمع بين السخرية (Ironia) والحماس، بمعارك إسبانيا الظافرة في استرجاع الأندلس أو في نشر عقيدة المسيح بالقوة في أمريكا اللاتينية، قبل أن يشعر بفضاعة الحرب على مشارف تطوان عندما يرى الأرض مزروعة بجثث المغاربة والإسبان، إن ضعف الخاصية الواقعية لتلك الشخصية لايمكن تأويله إلا على ضوء هيمنة المنظور التاريخي من جهة، ومن جهة أخرى على ضوء الوظيفة الوجدانية،

2-يمكن ، في هذا الصدد ، مراجعة مقالة (روبير ريكار) : " رسائل ريكاردورويث أورساتي إلى گالدوس حول المغرب (1901 - 1910) المنشورة ضمن، (1968)Anales Galdosianos , Vol .III. وكذا مداخلة د. ربيعة حاتم ضمن أعمال هذه الندوة.

الأحادية من نحو ما المسندة إليها من طرف الكاتب والمتمثلة في شعور "خوان" بالتناقض بين الحرب كحماسة وطنية وبينها كوقائع قتل وتدمير خالية من أي حس إنساني. ويبدو لي أن النزوع إلى السلام الذي يميز خطاب الرواية على هذا المستوى إنما يستقي معناه الحقيقي من هذا الإختلال الجسيم بين رؤية الواقع الروائي كتاريخ ورؤية التاريخ كواقع روائي .

تتطور الأحداث، زمنيا، إنطلاقا من أكتوبر 1859 مرورا بنوفمبر وديسمبر من نفس السنة ثم يناير وفبراير من سنة 1860. ويجدر بنا أن نشير إلى أن أحداث الفصل الثالث من الرواية (وهو الفصل الذي يرويه "الحاج محمد بن سور الناصري") يتم التأريخ لها حسب التقويم الهجري، إن هذا التأطير الزمني الذي يعكس مراحل خروج الجيش الإسباني من مدريد متوجها برا إلى قادس ثم بحرا إلى سبتة قبل بدء توغله داخل الأراضي المغربية واشتباكه بالمقاتلين المغاربة في ضواحي تطوان ثم دخوله إلى هذه المدينة ظافرا، يشكل بحركيته اللاهثة ، خاصة على صعيد ارتباط المكان بمواجهة الآخر، سياق الرجة العنيفة التي فجرت بسرعة وحدة كوامن الالتباس في شخصية "خوان دي سانتيوستي " مما أدى به إلى الفرار من الجيش والتسلل إلى [illegible] بدوي يحمل اسم " يحيى" وينطوي على ازدواج لارجعة فيه.

إن "خوان "هو الشخصيه الرئيسية للرواية، وإن كان يتوفر على بعض ملامح "البطل المضاد". إنه يتميز بروح شاعرية تتمثل في حبه للموسيقى وحفظه للشعر والأغاني الشعبية التي تمجد استرجاع الأندلس واكتشاف أمريكا. بيد أن هذه الروح ذاتها هي ما يجعله منساقا بحذر الأوهام مجتمعه : فعندما أعلنت الحرب ضد المغرب، أعتقد "خوان " أن هذه الحرب ستردد أصداء ماض ملحمي لا يخلو، مع ذلك، من آفاق معتمة فينخرط في الجيش كمسجل وقائع، وخلال رحلته جنوبا في اتجاه سبتة لم يكن يكف عن التطلع للحظة التي ستلامس فيها قدماه أرض "بلاد البربر" مع بدء المعارك، سيهتز يقينه بقوة، خاصة عندما شاهد أحد رفاقه وقد مزق جرح بليغ، ثم عندما شاهد جثث الجنود وهي تدفن بعد صلاة وجيزة من طرف الراهب أو جثث المغاربة التي تظل ، بين البر والبحر، طعاما سائغا لجوارح الطير والوحوش الضالة. تشكل هذه الوقائع مايشبه الزلزال الوجودي بالنسبة لـ "خوان": وحين يقترح عليه أحدهم الذهاب إلى سبتة لأخذ قسط من الراحة، يجيب محتدا بأنه لن يتراجع وسيستمر ليرى إلى أي مدى يستطيع البشر إيذاء بعضهم البعض.

غير أن "خوان"، رغم الصدمة، سيحاول تفهم ما يجري من خلال تبادل الرأي هكذا يلتقي ، تحت خيمة على مشارف الميدان، بالكاتب (آلاركون) الذي كان من

أنصار الحرب فيحدثه هذا الأخير عن العنف كطبيعه بشرية وكيف أن كل تطور يقتضي نوعا من الصرامة. وعندما يلاحظ "خوان" أن البشر إخوة فإن (ألاركون) يعبر، من جهة، عن ألمه لموت المغاربة ودمار قضائهم الفاتن لكنه يعتبر، من جهة أخرى، أن موتهم ضروري وحتمي لأن حياتهم تشكل باستمرار تهديدا لطموح إسبانيا.

ويعتبر الفصل الثالث من "عيطة تطاون" رؤية داخلية إلى تطوان وهي تواجه الحرب بمعنييها : حرب انتظار انقضاض الجيش الإسباني وحرب الفوضى والسلب والنهب من طرف عصابات قادمة من جبالة أو الريف. في البداية تهيمن على خطاب الراوي لهجة متحمسة تستقي مجازاتها من الموروث الديني الإسلامي المتسم بالتفاؤل إزاء الحرب الدينية، لكن هذه اللهجة سرعان مايخيم عليها اليأس والكآبة عندما تبدأ المعارك الأولى فيلاحظ "الناصري" سوء نظام المقاتلين المغاربة وتخاذل بعض المتطوعين، ورداءة الأسلحة المستعملة، وضجر الجالية اليهودية من عسف البدو والنهابين. تتحول تطوان إلى متاهة مهجورة، فقد غادرتها العديد من الأسر في اتجاه طنجة أو شفشاون، وأن منازلهم قد تحولت، بعد أن نهبت أبوابها إلى مراتع للمشردين والهائمين على وجوههم. إن الفصل الثالث، المكتوب في شكل تقارير موجهة إلى "الحاج محمد بن الطاهر الزبدي" مفوض الملك في طنجة، يبرز أن حرب تطوان كانت، في العمق، حربا أهلية بين المسلمين بعضهم وبعض، وبينهم وبين الجالية اليهودية، فضلا عن كونها حربا ضد معتدين أجانب يحملون تصورات صليبية.

ككل رواية تاريخية، يتلاعب سرد "عيطة تطاون" بالتخييل والتاريخ، خالقا بين هذين النسيجين علاقة احتكاك بالغة الجاذبية ولايقتصر الأمر في هذا التنافذ على الأحداث، وإنما يتعداها إلى الشخصيات التي يشكل ظهورها في مجرى السرد مايشبه المفاجأة التي دخل، مع ذلك ضمن أفق انتظار الشكل الأدبي المشار إليه، هكذا نلتقي، إلى جانب شخصيات متخلية مثل "خوان دي سانتيوستي "والحاج محمد بن سور الناصري" واليهوديتين "موثالطوب" و"جوهر" إلخ، شخصيات تاريخية مثل الجنرالين (بريم) و(أودونيل) ومولاي العباس (أخي سلطان المغرب محمد بن عبد الرحمان) والحاج أحمد بن علي أبعير (باشا تطوان) والشاعر المفضل أفيلال (الذي رثى المدينة سقوطها بقصيدة مؤثرة) و(بيدرو أنطونيو دي ألاركون) مؤلف كتاب "يوميات شاهد عيان لحرب إفريقيا" الذي يشكل، في نسيج الرواية، شخصية على التخوم ما بين التخيل والتاريخ ومرآة Antenne عاكسة لمعضلة ارتباط " خوان دي سانتيوستي". غير أنه من النافل القول أن الرواية التاريخية، خلافا للتاريخ،

لاتشكل من هذه الشخصيات بؤرة سردها وإنما تجعلها ، للمفارقة، في خلفية الشخصيات المتخلية التي تغدو، بفعل الكتابة، مدار اهتمام القارئ ومفجرة استثنائية لأدق دلالات العمل الأدبي .

بقي أن نتساءل عن معنى حرب تطوان في رواية (گالدوس) من زاوية اشتغال الصيرورة التاريخية على الكتابة.

إنه لابد من الإشارة إلى أن تركيب الرواية لايعتمد على أي تحليل سياسي يبرز تصرف شخصياتها أو تقلباتهم المفاجئة على نحو مدقق. لكن هذا لاينفي، بطبيعة الحال، أن الرواية ككل كتابة، تردد ضمنيا أصداء الخطابات التأويلية السائدة ليس فقط إبان الجريان الفعلي لحرب تطوان وانما أثناء عمل (گالدوس)[3] على روايته أيضا بعد مرور خمس واربعين سنة. ومع أن الدلالة الدينية حاضرة منذ بداية الرواية وإلى مراحلها المتأخرة - باعتبار أن حرب تطوان هي استمرار لحرب استرجاع الأندلس وطرد المسلمين بالنسبة للأسبان، وحرب جهاد ضد صليبيين يهددون أرض الإسلام بالنسبة للمغاربة، فإن الملمح البارز الذي يتخلل هذا الصدام هو ظهور نزعة إنسانية تميل إلى النظر إلى الحرب ككارثة وعبث لا طائل من ورائه مهما كانت نتائجها، إن هذه النزعة تجد جذورها الإيديولوجيه في التطور السياسي (گالدوس) ذاته.[4]

كما تجدها في "الأخوة" التي تربط بين الإسبان والمغاربة الذين ينتمون، مثل "الحاج محمد بن سور الناصري"، إلى شجرة أنساب إسبانية، إن هذا ماحدا بإحدى الشخصيات، في بداية الرواية، للميل إلى تصوير الحرب كحرب أهلية : "إن المغربي والإسباني أخوان أكثر مما يبدو : فيكفي أن ننزع منهما قليلا من الدين وبعضا من اللغة حتى تتجلى القرابة والوئام العائلي بارزين للعيان . أليس المغربي هو الإسباني المسلم ؟ والإسبان، أليسوا جماعة من المغاربة مقنعين بقناع المسيحية؟ إن الحرب التي نخوضها اليوم هي، إلى حدما، حرب "أهلية". ويعتقد خوان غويتيسولو أن النزعة الإنسانية في الرواية هي من مخلفات El mudejarismo[5] (أي واقع تلاقح الحضارات الإسلامية واليهودية والمسيحية في القرون الوسطى)، وأنا أوافقه تماما على ذلك، لكنني أظن أيضا أن النزعة المذكورة تعكس، على نحو مقلوب مذهب العزلة والإنكفاء الذي دعا إليه "جيل 98" كما

3- راجع موجز حياة (گالدوس) ضمن الطبعة التي أعدها Puértolas لرواية " الفارس المنشرح "، والصادرة سنة 1982 عن دار النشر Catedra ،حيث توجد إشارات مدققة لتطور مواقف (گالدوس) السياسية .

4- نفس المصدر السابق.

5- راجع بحثه، Vicissitudes du mudéjarizme ضمن كتاب Chroniques sarasines الصادر عن، Fayard ، باريس،1985.

تعكس ظهور العلامات الأولى لأطروحة استعمارية تعتبر "الأخوة " المشار إليها مبررا للعبورقسرا إلى الآخر بغية تدمير هويته .

إن هذه الأطروحة ستتبلور أكثر مع تطور المشروع الاستعماري الذي كانت السنوات الأولى من هذا القرن (وهي الفترة التي كتبت فيها الرواية) حبلى به، والتي ستغدو جزءا من إيديولوجية التوسع وتبرير الاحتلال الإسباني المستعملة من طرف (فيگيراس) وغيره من منظري فترة الحماية .

إن (گالدوس) ليس مسؤولا سوى عن نواياه الحقيقية : هذا أمر مفروغ منه، لكن الرواية، شئنا أم أبينا، هي كتابة رعناء، والمشروع التاريخي، حتى وهو في حالة كمون ، لابد أن يجرب بصماته في مجموع الخطابات القابلة للالتباس .

أصداء نكبة تطوان في الآثار الأدبية

د. حسن الوراكلي
جامعة أم القرى - مكة المكرمة

حرصت، حضرات الزملاء المؤرخين، مثلما حرصت، من قبل، في مجالس للمؤرخين منيفة لمجلسكم هذا في يومكم هذا، أن أصطحب معي إليكم (شاهدا) لست أشك مثلما أنكم لا تشكون في عفويته وصدقه، بل وعدالته، أستجوبه، على مسمع الحضور ومشهد، وأسائله بين أيديهم فيلقي بما في جعبته من (حقائق) ويطرح ما في وفاضه من (معلومات) مما حمله أصحابه واستودعوه من هذه وتلك. هذا (الشاهد) الذي حرصت، اليوم، أن يمثل أمامكم ليحدث مجلسكم الموقر، حضرات الزملاء المؤرخين، بما سمع ورأى ليلة القبض على (الحمامة) الحالمة، من قبل وحش كاسر أهوج، منذ أزيد من قرن، وما تلا ذلك من أحداث ووقائع، هذا (الشاهد) له بالتاريخ، محور القول في هذا المجلس، وشائج قربى وصلات رحم ليس ينكرها إلا من جهل . . . إنه (الأدب).

وقبل الشروع في مساءلة (الشاهد) المذكور أحب، بادئ ذي بدء، أن أوضح المرادبـ (مصطلحين) إثنين وردا في عنوان هذا الحديث. أولهما مصطلح (النكبة)، فقد أردنا به ماتعرضت له الآمنة المطمئنة من هجمة صليبية شرسة شنّها عليها الجيش الإسباني عام 1276 هـ (1860) م وكانت لها آثار عميقة الغور في حياة المدينة الدينية والإجتماعية والعلمية والإقتصادية. وليس من شرطي هنا التعرض بالتحليل والتفسير، لدوافع هذه الهجمة وغاياتها فإن ذلك موكول إليكم اليوم . غير أنني، وإن كنت لا أجرؤ على (الفتوى) و(مالك) في المدينة، لا أحب أن تفوتني الإشارة إلى أن الهجمة المذكورة، وهي أصل النكبة المزمع الحديث عنها، التي اصطلح على تسميتها، إخفاءا لحقيقتها وتمويها، بـ (الحرب الستينية) أو (الحرب الإفريقية) ليست في تصورنا إلا حلقة ضمن مسلسل الغارة على العالم الإسلامي، وهو مسلسل طويل كانت بدايته، غير بعيد عن تطوان بأرض العدوة من الأندلس، في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري حين شنّ الصليبيون الأوربيون وليس الإسبان وحدهم، بدعم من (البابوية) في روما أولى حملاتهم على أرض الإسلام وهو ما أسمته المدونات العربية بـ (حروب الاسترداد وحقها أن تسمى بـ (الحروب

الصليبية) وتبعها في استعمال المصطلح، دونما نظر إلى حمولته (العقدية)، غير واحد من المتخصصين في تاريخ الأندلس من المسلمين، ولاتزال حلقات مسلسل الغارة الصليبية على العالم الإسلامي، ومن ضمنها كانت حلقة الهجمة على تطوان عام 1276 هـ ، تتوالى إلى يوم الناس هذا. ومن أحدثها عهدا وأوضحها للعيان حلقة الغارة الحربية على مسلمي البوسنة والهرسك، ومن أقدمها عهدا وأخفاها على العيان غارات تشن، صباح مساء، على حصون المسلمين من داخل حصون المسلمين .

أما (المصطلح) الثاني، وهو مصطلح (الآثار الأدبية)، ففي إطلاقه على (النصوص) التي بين أيدينا من أدب النكبة التطوانية شيء غير قليل من (التجاوز) و(التساهل)؛ ذلك بأنّ جُلّ هذه النصوص، وهي (شعر) ونثر، ملحوظ الضعف في أسلوبه وتعبيره ، وبنائه وإيقاعه، وصوره وأخيلته، وضعفه من ضعف عام كان يعاني منه الأدب المغربي بعامة والشعر بخاصة في فترته، ومن ضعف خاص في موهبة أصحابه، وجلهم من الفقهاء. ومن هنا أبادر إلى القول بأنه بالنظر من جهة، إلى غايات هذه الندوة، وهي غايات تاريخية بدرجة أولى، ثم بالنظر، من أخرى، إلى المستوى الفني الإبداعي في (الآثار الأدبية)، مدار الحديث، وهو ملحوظ الضعف فيها أو في جلها فإنني سأقصر عنايتي في هذا الحديث على ما استرعى الانتباه في (الآثار الأدبية) المذكورة من إشارات وتلميحات، هي على وجازتها وسرعتها، ذات فائدة محققة لمن ينذب نفسه لتأريخ حياة المدينة ورصد حركات أهليها وشعورهم وتفكيرهم خلال نكبتها على يد الصليبيين الإسبان.

إن المادة التاريخية التي تضمنها الأدب (الشاهد) تكشف لنا عن جوانب مختلفة من واقع المدينة الساقطة في براثن الغزو الصليبي. بعض هذه الجوانب يتعلق بحركة الهجمة ووقائعها وبعضها يتصل بآثار الهجمة على مرافق المدينة ومؤسساتها الدينية والعلمية، وثالث يمس هجرة السكان المستضعفين من النساء والشيوخ والولدان الذين لايستطيعون حيلة وتصدي المجاهدين للمغيرين ومقاتلتهم، هذا فضلا عما وعته ذاكرة هذا (الشاهد) من أحداث شنيعة زادت في تغوير جروح المدينة ومن صيحات مؤمنة أطلقها أصحابها في الدعوة إلى الجهادكانت لها آثارها في توعية جماهير الأمة بأخطار الصليبيين المحدقة بهم.

1- وأول مايبادرنا به الأدب (الشاهد) من حديث النكبة وصفه مشهدَ المرتزقة الصليبيين يتحركون في فلولهم من سبتة السليبة باتجاه (مرتين) لينطلقوا منه لغارتهم على تطوان (بعد وعدة وجيش مقدم) بتعبير الفقيه محمد القيسي الذي يقول في ذلك :

فأوقدوا نار الحرب في سبتـــة ** وزادوا بها برا وبحـــرا لقدم
حتى نزلوا مرتين من حول برجها ** بأخبية مثل السمـاء المغيـم

وبعـد أن يحدد تاريخ الهجمـة باليـوم والشـهر والعام (الإثنين الثـالث عشـر من رجب عام ست وسبعين ومائتين وألف) :

وفي ضحوة الإثنين من (يج) يومها ** ومن رجب الفرد الشهير المحرم
نعم زعموا بالأمن راموا دخولهـــا ** بعام (وع شر) لتاريخها أفهـم

يلتقط في حديثه صورة مفزعة لليلة الهجمة :

ففي ليلة شاب الشباب لشينها ** كأنها يوم الحشر بالدمع والـدم
بقتل وضرب وانتهاب حوانـت ** وتكسير أبواب وفعل المحـــرم

وينقل لنا القيسي في حديثه عن وقائع القتـال مشهدين إثنين من التقاء الجمعين انتهى أولهما بهزيمة المسلمين قضاء من الله وقدرا :

وقابلهم بعد المقـــام محلـــــة ** بها اجتمع الإسلام من كل موسم
فكم قتلوا منهم ألوفا ففي لظـى ** وبالعكس منا في النعيم المنعـم
حتى غلب الرحمن جيشهم علــى ** محلتنا قهـــرا بحكـــم ملـــزم

أمـا المشـهـد الثـاني من التـقـاء الجـمعين، وقـد كـان، فـيـمـا يبدو، بعد الاحتـلال فـينتـهي بجنوح الصليبـيين إلى السلم بعدمـا رأوا من صلابة عـود المجاهدين بقـيـادة المولى العباس واستـماتهم في أرض المعركة. والقيـسي في تصوير هذا المشهد يحدد إسم المكان الذي جـرت بـه وقـائع الحـرب بين الجـمـعين مـشـيـرا إلى نكوصـهم على أعـقـابهم بالعـودة إلى المدينة المحتلة بعـد أن قـهـرتهم فـرسـان الجـهـاد وأسـقطت من صفوفهم على كل ربوة عديدا :

وحين التقى الجمعان بالصبر جاهدوا ** حتى قتلوا منهم وقـود جهنــــم
وفي (وادراس) خيب الله رأيهـــم ** وودوا فرارا من غـزاة المســـوم
به جنحوا للسلم من فزع بهـــــم ** أجيبوا عن علم بسلـــم مسلـــم
وكروا إلى تطوان عن قهر ضدهـم ** وأخمدوا نار الحرب في كل مضرم
وقد تركوا القتلى على كل ربـــوة ** كأعجاز نخل في القبائـــل ترجـم

2- وثمـة مشـهد آخر من مشـاهد هذه النكبـة المؤثرة سجله الأدب (الشـاهد) عند غـيـر واحـد من الذين قـالوا فـيـهـا وأنشـأوا. ذلك هو مـشـهـد الهـجرة من البـلد الذي تغلب عليـه العـدو. وقد صور القـيـسي جـمـوع المهـاجرين يموج بعـضـهم في بعض وقد

اختلط صياح الشيوخ بنواح النسوة :

وفي بعضهم بعض يموج كأنهـــم ** سكارى وضجوا بالصياحة بالفـــــم
حتى التبس الشيخ الفني بنجله ** وأجنبي أضحى يلـــــوذ بمحـــرم
نساء وأبكار حسان عوامـــــر ** خرجن بكشف الوجه غيـــر ملثـــم
ينحن على حر الفراق تأسفـــا ** عن الأهل والأوطـــان والأخ والحم

وصور غيره المهاجرين يغادرون المدينة المنكوبة باكين جزعين :

في ليلة الأحد كان فرارهـــم ** بالمال والأهل والصبيـان والخــدم
يمشون ليلتهم من خوفهم جزعا ** ويبكون بكاء حزن دمعه بــــدم

وصـور آخـر طوائف من سكان المدينة سـارعت بالفـرار من بطش العـدوالمتـغلب.

وقد تركوا الأملاك والمال والحلى ** وجملة دين في الرســوم مزمــم

ثم كـان بعـد الفـرار التيـه والبـحث عن الملجـأ والمأوى، وهو مـاسـجله الأدب :

وتاهوا هياما بالمداشر والقرى ** على حبهم في الله حـب المتـيم

وكـان من بين القـرى التي آوى إليـهـا الفـارون قـرية (بني مـصـور). ومـن المدن (شفشاون) :

وجلهم حل في (شفشاون) في نكد ** وضيق عيش مع السكنى بمزدحـم

وكان الذين هاجروا من المدينة السـاقطة، وكـان فيـهم العلماء والقضاة والمدرسون، لايرون في ذلك غـضـاضـة؛ بل إنهم كـانوا يرون عكس ذلك فـإن الفـقـهـاء وغـالـبـيـة أصحاب هذا الأدب (الشاهد) كانوا معدودين فيهم، أفتوا، منذ قرون، بوجوب ترك المسلمين مدنهم إذا تغلب عليها النصارى، بل إننا نجد في بعض أشعار من هاجر من هؤلاء تعليـلا، بـل تنويهـا بإقـدام الناس على الهـجـرة لما فـيـهـا من روح الاقـتـداء بالمهـاجـرين الأوائل من مـكة المكرمـة بعـد أن أوذوا في دينهم ونفـوسـهم وأمـوالهم، وهذا ما عبر عنه الفقيه الجندي، وكان ممن هاجر إلى شفشاون، في قوله :

فأهل تطوان هاجروا لبارئهم ** والعز في الهجرة والقرب والنظر
نالوا بهجرتهم ما ناله الأول ** أعلى العلا وكذاك القرب والجور

كما عبر عنه الفقيه القيسي في هذا البيت من منظومته :

بهجرتهم فروا بدين محمد ** به تاركين الكفر في كفره عم

وسجل هذا الأدب (الشاهد) من مشاعر هؤلاء المهاجرين وأحاسيسهم وما عكس حبهم الصـارم لمدينتـهم وشـوقـهم إليـهـا على نحو مـا نجـد في أبيات الفـقـيـه المفـضل أفيلال التي قالها بعد إنقضاء عام على خروجه من تطوان :

هل للوصال سبيـــــل ** فالهجر أكمل عامـــه
والقلب ذاب اشتياقـا ** وحســرة وهيامـــــه
والوجد أضعف جسما ** وكاد يبــري عظامــه

ومـثلمـا ظلت قلوب المهـاجـرين تـخـفق، علـى البـعـاد، بحب المدينة ظلت، بذات الوقت، تختلج بالأمل في العـودة إلى الديار يوم ينجلي عنهـا ليل الغـزاة، وهذا مـا صوره الشاعر نفسه في قوله :

دوام حال محـــالٌ ** وهل لظل إقامـه ؟
إن غاب نجم سعود ** ولاح نجم شآمــه
فسوف يطلع بـدرٌ ** يمحو سناه ظلامه

3- ولم يفت الأدب الشـاهد أن يســجل، للتـاريخ ولأبنـاء المغـرب المسلمين من الأجيال التـالية ، مـا ارتكبه جيش الصليب الحاقد من جرائم شنيعة تمثلت في أعمـال النهب والسطو والتهديم والتخريب التي تطالعنا صور منها في هذه الأبيـات:

فكم وسقوا منها أثاثا كثيــرة ** وماتركوا فيها غنيمة مغـنم
كما أخذوا منها المدافع كلـها ** وآلة حرب من خزين متخـم
وأسواقها هدَّت ودور تهدمت ** ولا أثر يبقى لكل مهـــدم

كمـا سجل هذا الأدب فجيـعة الإسلام والمسلمين في مـساجدهم وكتـاتيـبهم حين حوّلها الصليبيون إلى كنائس أو مرابط خيول :

مساجدها أضحت كنيسة كفرهم ** ومربط خيل للعدو المؤيـــم

أو إلى حانات وخمارات :

والمساجد بعضها لبيــع عقـــار ** وبعضها لخيلهم خـــــــباء

ومثلها كتاتيب القرآن :

شعائر الإسلام اضمحلت وكيف لا ** ومكتب صبيان ببنت الدنانين

وعلى نحو ما عطل الصليبيون شعائر الدين في المساجد مما صور الأدب (الشهاد) أثره في مثل هذا البيت:

فالمحاريب تبكي وهي جمـــاد ** والمنابر ترثي وهي خرســاء

وفي هذه الأبيات للمفضل أفيلال :

فالدين يبكي بدمـع ** يحيكه صوب الغمامه
على مساجد أضحت ** تباع فيها المدامــــه
كم من ضريح ولـيٍ ** تلوح منه الكرامــــه
علق فيـه رهيـــبٌ ** صليبـه ولجامــــــه

عطّلوا كذلك مجالس العلم وحلق الدرس وهو ماعبّر عنه الفقيه السلاسي :

وكم من مجالس بها ومحافل ** يبين بها نور العلوم ويجتـــلى
تلاشى جميع ذا وزعزع ركنـه ** وصار بها الدين القويم معطلا

وأكرهت المدينة المسلمة بذلك على أن تستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.
وهو مايرسمه لنا الفقيه السلاسي نفسه في الأبيات التالية :

وصارت محل الكافرين ودارهم ** وموطن من في الكفر حقا تغلغلا
فكم من خنازير وكم من نواقيس ** وكم من خمور ياأخي وكم طبـــلا
وكم من سفاهة وكم من نجاسـة ** وكم من خبائث ترى لهم كالحـــلا

ويضيف الأدب (الشاهد)، إلى هذه الملامح الكريهة في صورة المدينة بعد تغلب النصارى عليا، ملمحين آخرين أحدهما اقتصادي في غلاء المعيشة وثانيهما صحي ويتمثل فيما انتشر من أمراض وأسقام بدنية ونفسية :

وطي دروس والعلوم تباعدت ** وميل لأيام يحق به المكـــــــر
وهدم بأسواق ودور تزايـــدا ** وغلو بأسعار تمادى بنا الضـــــر
وسقم وأشجار تموج بمهجـتي ** ومكث بدار قد أحاط بها الجـــور

4- ومع أن النغمة التي طغت على صوت الأدب (الشاهد) في حديث أصحابه عن الغارة الصليبية تكشف لنا عن موقف التسليم عندهم بما قدر الله تعالى وقضى فإن ذلك لم يمنعهم من الدعوة إلى الجهاد وحث الناس على القتال. وكان للخطباء بخاصة دور ملحوظ في ذلك فقد تناول عدد منهم موضوع الجهاد متوسلين بنصوص القرآن والسنة ووقائع التاريخ، في استنهاض الهمم لاسترخاص الأرواح والأموال في مقاتلة الغزاة الكفار. ومن الخطب التي وصلتنا في ذلك خطبة ذات مسحة أدبية غير خافية كتبها الفقيه عبد الكبير الفهري الفاسي وألقاها من أقدم وأهم منبر في بلاد المغرب وهو منبر جامع القرويين.

وقد تحدث فيها عن غارة الكفار على (عقد المدائن تطاون) مشيرا إلى مكرهم وطمعهم فينا وغفلتنا وتهاوننا في أمرنا فقال (دهينا بأمر يروع الأفئدة ويذهل العقول، ويفني الحيل ويكل فيه المقول (...) قويت فينا أطماع الخبيث، ومنه يساق الحديث، وشنّ علينا الغاره، وأنشب فينا أظفاره وأعلى بنا أطماعه، ومدّ إلينا ذراعه وباعه مع ما بنا من التغافل والتهاون، إلى أن فاجأ بالمكر يتيمة عقد المدائن تطاون).

ويمضي الخطيب، بعد أن يشير إلى مكانة المدينة الدينية والعلمية وفضل أهلها وصلاحهم، مصورا هول المصيبة، التي أصابت المسلمين بسقوط تطوان في أيدي

الكفرة حتى أنستهم مصيبتهم في غزو الجزائر (... دار إسلام من لدن نشأتها، على حسنها وبهجتها، مابها من العلم والدين وشعائره ، وعدة الجهاد وذخائره، والفضلاء والصالحين، وضعفة عباد الله المومنين. باتت دار إسلام ودين، فأصبحت مثوى كفرة متمردين، كانت في مدائن الإسلام تاجا وإكليلا، فصار مقر المردة يعبدون ، الأوثان ولايهجعون إلا قليلا. فما أعظمها من مصيبة طامة، أصابت الخاصة من المومنين والعامة، وما أفزعها من رزية، فتت أكباد المومنين من البرية، هل يأسف المومن على خصوص دينها وإسلامها، أو على ذلك مع ضعفة أهلها وذراريها وحريمها وأيتامها، أنستنا مصيبة الجزائر وأعمالها، وذهاب دينها وملكها ومالها، ولم يقع منا بذلك اتعاظ واعتبار، بل اتخذنا قصصا وخبرا من الأخبار حتى سرى شؤم ذلك إلينا وطمحت نفس العدو الكافر للهجوم علينا...)

ثم يعقب الفهري الفاسي بالحث على قتال الأعداء المعتدين وحماية بيضة الإسلام (فانهضوا، رحمكم الله، لإعلاء كلمة الله سراعا، وكونوا قتال أعداء الله أطول الناس باعا، وتداركوا رمق الدين قبل أن يفوت، وبادروا عليل الإسلام قبل أن يموت ، فهاهو ينظر إليكم نظرة السقيم إلى الطبيب، ويتشوف إليكم تشوف المحب للحبيب، فاجعلوا، أعانكم الله، يد الإسلام واحدة على جهاد أعدائكم، وخيبوا مطمعهم الفاسد في نيل بلادكم، ولاتقتصروا على نصر كنصر النساء بالبكاء والتحسر، والتأوه والتشكي والتضجر عسى الله أن يهيئ للمسلمين فرجا، ويجعل لهم من أمرهم مخرجا...).

5- وثمة، إلى ما تقدم من حديث الأدب (الشاهد) عن وقائع الغارة والهجرة والدعوة إلى الجهاد، إشارات أخرى وردت في هذا الحديث تتعلق بمواقف ومبادرات عرفتها المدينة في نكبتها فزادت أهلها ضغثا على إبالة كما يقال ومن ذلك هجمة طوائف من الرعاع على المدينة المرزأة قصد النهب والسرقة على نحو ما نقرأ عند الفقيه الجندي في قوله :

وأما أهل البوادي والعمود معا ** فإخوة للنصارى ويلهم كفروا
تحزبوا للديار قصد نهبهم ** ولم يكن لهم عقل ولا وقر

وإلى ذلك يشير أيضا الفقيه السلاسي حين يقول :

أتوا للقتال ظاهرا وقلوبهم ** ترى النهب غاية وقصدا مؤملا
أحاط بهم جيشان : جيش من العدا ** وجيش من العربان بالكفر مثلا

6- وفضلا عن هذا وذاك فإن الأدب (الشاهد) لم يفته أن يسجل، في معرض تصويره المكانة العلمية والأدبية والفنية، لمحات من حياة المدينة في مجال العلم

والأدب والفن على حد مانقرأ عند الفقيه السلاسي :

وكم من محقق بها ومـــــدرس ** ردا العلم والآداب تسربـــــلا
وكم من مغن مطرب ساحر النهى ** وكم من أديب بالآداب تجمــلا
وكم من مجالس بها ومحافـــــل ** يبين بها نور العلم ويجتلــــى

وإلى زمن هذه المجالس العلمية والأدبية والفنية وأصحابها عبر الفقيه أفيلال عن شوقه في هذه الأبيات :

ماكان أحلى زمانا ** وما ألـــــذ غرامــه
مضى لنا مع بدور ** ذوي النهى والفخامة
مابين إنشاد غزل ** وبين إنشـــاد مقامــه

إن هذا الأدب لم ينس الحـديث، وهو يشـيـد بالمدينة، عـن المنتـوجـات التـي كـان التطوانيـون يقصدون إليـها في الشتـاء والصيف، وهو في ذلك كـان (يوثق) لنا، صنع الجغـرافي البلداني أو عـالم المواقع (معلومات) عن هذه المنتزهات التي اكـتـسحـهـا اليـوم أو أغلبهـا (الإسمنت المسلح) بانتشار العمران وانبساط التشيـيد وهذه أطراف من ذلك الحديث :

أكرم بها بلدة بالحسن افتخــــــرت ** على البلاد وبالصـــدق وبالنعـــم
وبجنة (كتان) مع بهجتـــــهـــــا ** تهدي لزائرها الأزهار في الأكـــم
منظر فسيح ونهر ما بـه كـــــدار ** وماؤه العذب قد يشفي من السقـم
وبـ (المحنش) نزهـــة وفاكهـــــة ** ونهر سلســـلُ زهـــور لمغتنـــــم
و(عدوت الأندلس)في منظرها عجب ** تسبي عقول ذوي الألباب والفهـــم
وبـ (الضر ضارة) مع (أوهار) وصولتـه** و(ورگان) حسنها كالزهـر مبتســم
وبـ (الطوابل) مـــنظر وفاكـــــهة ** هواؤها طيب يبـري من الوخـــــم
وبـ (أبي سافو) مع واديه وبهجتـــه ** وبـ(أبي جراح) في الفضل والكـرم
و(وادي شجرت) هامع سواقيهـــــا ** ريحانه حسنهـــا كالـــدر منتظـــم

تكلم كـانت، حضرات الزمـلاء المؤرخين، بعض ما توفر عليه هذا (الشـاهد)، الذي اصطحبـتـه مـعي اليـوم الى مـجلسكم الموقـروسـعـدت وإياه بإنصـاتكم، من (حـقـائق) و(معلومات) آمل أن يكون لهـا، ولو بقـدر محـدود، إسهـام في إغنـاء بحثكم الجاد عن تاريخ مدينة أشهدكم أن حبها في الشغاف لم يزده البعاد إلا ضراما:

زعموا أن من تباعد يسلو ** ولقد زادني التباعد وجدا.

المراجــع

- "تاريخ تطوان"، للأستاذ محمد داود.
- "مظاهر يقظة المغرب الحديث" ، للأستاذ محمد المنوني.

" تطوان في الرحلة البريطانية "

الدكتور محمد لعميري
كلية الاداب - بتطوان

مدخل :

قبل الحديث عن "تطوان في الرحلة الإنجليزية خلال القرن التاسع عشر"، لابد من إعطاء الإطار العام، الذي تندرج فيه هذه المداخلة. ولابد من الاستئذان قبل الدخول، إذ قد يسأل سائل مادخل متخصص في الأدب الإنجليزي ، بموضوع ندوة تنظمها شعبة التاريخ حول مدينة تطوان . وهو سؤال مشروع يفضي بنا الجواب عنه إلى رصد العلائق الموضوعية التي تربط المداخلة بموضوع الندوة ككل من جهة كما أنها ستجيب عن الرؤيا التي تنطلق منها المداخلة والمنحى المتبع فيها. وإن الحديث عن تطوان في الرحلة الإنجليزية في القرن التاسع عشر موضوع متشعب ومتعدد التخصصات له ارتباط بجوانب عدة :

1) فهو مرتبط بالأدب من حيث كون الرحلة جنس أدبي له مقوماته، ووسائل البحث فيه مرتبطة بالنقد الأدبي .

2) إن هاته الرحلة تنطلق في بعدين، فهي انطلاقة من المغرب إلى الشرق فترتبط بذلك بموضوع الإستشراق من ناحية، ومن الشمال إلى الجنوب من ناحية أخرى لترتبط بذلك بموضوع الشمال والجنوب، وموضوع الاستعمار بكل ماتحمله هاته العبارات من فوارق دينية وحضارية وإقتصادية.

3) للموضوع بعد ثالث، يتعلق بالعمران الذي تدخل فيه الهندسة المعمارية وتصميم المدن بكل ما يترتب عن ذلك من أبعاد اجتماعية واقتصادية وحضارية. إذ لا يمكن الحديث عن مدينة دون الحديث عن بناياتها وحدائقها وأسواقها وأحيائها وأزقتها وعن التفاعلات الإجتماعية المرتبطة بذلك. وقد ورد هذا البعد بإلحاح في الكتابات الإنجليزية حول تطوان .

4) والبعد الرابع المرتبط بالموضوع، هو علاقة هاته الكتابات بالاستشراق البريطاني عامة، كما يطرح مسألة موضعة المغرب ككل في الاستشراق البريطاني الذي يحدد بدوره موقع المدينة في هذه الكتابات .

5) والبعد الخامس الذي لامناص من أخذه بعين الاعتبار، وربما هو البعد الذي

يهمين على كل الأبعاد السابقة والمتعلق بالبعد التاريخي. إذ لا رحلة خارج التاريخ كما يقول Levy Strauss[1] وهذا يفرض على الباحث الاستعانة بالمؤرخ لضبط بعض الأحداث والوقائع كما سجلها المؤرخون والاستئناس بها لقراءة الصورة التي تقدمها الرحلة وربما مساءلة نص الرحلة والنص التاريخي بوضعهما جنبا إلى جنب وقراءتهما...

6) البعد السادس، هو البعد الثقافي والحضاري؛ فإذا كانت الرحلة رحلة في الزمان والمكان فهي أيضا رحلة بين حضارتين بمقوماتهما الدينية والثقافية، ولفهم الصورة التي تعطيها هاته الرحلات عن المدينة لابد من الأخذ بعين الإعتبار، المعطيات الثقافية والحضارية للذات المصورة (بكسر الواو) أو الناظرة وتلك المتعلقة - في حالتنا هاته - المدينة المصورة (بفتح الواو) في الرحلة.

إن الهدف من الإشارة إلى بعض الجوانب التي يرتبط بها الموضوع لايعني أن المداخلة ستسبر أغوارها كلها، لأن ذلك يحتاج إلى عشرات الدراسات المتعددة التخصص بل فقط لأبين وعي المداخلة بتعقيدات الموضوع وتشعبه، مع التأكيد على أنها ستتطرق لبعضها وتترك البعض الآخر لزملاء آخرين ولأبحاث أخرى.

وبعد وضع الإطار العام الذي تندرج فيه المداخلة لابد من الحديث والتذكير بأن العلاقات الدبلوماسية بين المغرب وبريطانيا بدأت حسب المؤرخين في الربع الاول من القرن 13، عندما بعث ملك بريطانيا John(1167 - 1216) يطلب مساعدة السلطان الموحدي محمد الناصر (1199 - 1213) لمواجهة تهديدات فرنسا[2] كما كان المغرب دائما حاضرا في الوعي البريطاني، وكانت الرحلة البريطانية ومذكرات السجناء البريطانيين الذين وقعوا في أيدي المجاهدين المغاربة مصادر ظلت تغذي عبر القرون صورة المغربي في الوعي البريطاني.

وقد كان المغرب حاضرا بقوة في العصر الذهبي للمسرح الإنجليزي، أي مسرح عهد إليزابيت عند شكسبير وجونسون وغيرهم من المؤلفين المسرحيين المشهورين.

غير أن القرن التاسع عشر عرف عشرات الرحلات، جاء أصحابها إلى المغرب إما في رحلة دبلومسية أو طبية أو في رحلات سياحية فردية .

اهتم هؤلاء الرحل بمواضيع لم تكن لتثير اهتمام المؤلفين ومن هاته المواضيع:

- الإسلام وتأثيره على الحياة اليومية للسكان.

1- Lévis Strauss,**Un voyage s'inscrit dans l'espace et dans le temps** , Trists Tropiques,1955,p.79.

2-انظر : خالد بن الصغير المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر (1856 - 1886) وخصوصا الفصل التمهيدي ، ولادة - الدار البيضاء،1990.

- الرق وأسواق النخاسة.
- اليهود.
- المرأة.
- التجارة والصناعة المحلية.
- تحصينات المدينة وإمكانياتها العسكرية.
- المعمار إلخ ...
- الأكل / اللباس / السحنة.

ودون الإلحاح على الخلفيات الأيديولوجية والاستعمارية، لابد من القول إن أغلب الرحل نظروا إلى المغرب على أنه متحف أثري يرمز إلى كل ماهو عتيق وغريب.

أهمية الكتابات الإنجليزية:

إذا كانت الدراسات التاريخية قد أعطت للعلاقات المغربية البريطانية الأهمية التي تستحقها كالدراسات التي قام بها الأستاذ خالد بن الصغير. فإنه من الملاحظ أن تلك الدراسات لم تستفد بما فيه الكفاية من المؤلفات الأدبية التي تناولت المغرب بشكل عام، والرحلات بشكل خاص. والأدهى والأمر هي أن الدراسات الأدبية نفسها لم تدرس ذلك الكم الكبير من الكتابات التي تناولت المغرب إما في شكل رحلات أو روايات أو مسرحيات أو شعر، لأن ماكتب عن المغرب ليس بالقليل، ولأن تلك الكتابات هي التي كونت صورة المغرب في مخيلة البريطانيين وطريقة تعاملهم معنا. وتطوان تكتسي أهمية خاصة في الرحلة البريطانية إلى المغرب لعدة أسباب نذكر منها :

1- قربها من طنجة وجبل طارق المحطات الأولى لـ 90 ٪ من البريطانيين القادمين إلى المغرب مما يجعل أكثر الرحل لا يتأخرون عن زيارتها وتخصيص صفحات لها في كتاباتهم.

2 - وجود نائب القنصل البريطاني في تطوان مما يضمن الاستقبال والحماية للزائر البريطاني.

3 - وجود طائفة يهودية مهمة بالمدينة مما دفع بالبريطانيين إلى الاهتمام بها، وأعطى للمدينة تفتحا نسبيا على أوربا عبر هاته الطائفة اليهودية.

4 - جمال المدينة وأصالتها وسحر الجبال المحيطة بها مما جعل الرحل يتواصون بزيارتها.

5 - بعد حرب 1859 ودخول الإسبان إلى المدينة أصبحت محط اهتمام الأوربيين

عامة والبريطانيين خاصة ونظرا للدور الذي لعبته بريطانيا في المفاوضات التي أدت إلى إرجاع المدينة إلى أهلها.

6 - أهمية ميناء مرتيل الذي لعب دورا تاريخيا مهما في استقطاب الإهتمام بالمدينة.

وقد اعتمد هذا العرض على دراسة لعدة رحلات تغطي مختلف عقود القرن التاسع عشر وينتمي أصحابها لمختلف المهن والطبقات الإجتماعية فمنهم السفير ومنهم العسكري ومنهم الطبيب، ومنهم الغني السائح إلخ.[3]

دواعي الرحلة وطرق الوصول إلى المدينة:

كان الرحل يصلون إلى تطوان انطلاقا من طنجة إما برا مرورا بالفندق أو بحرا عبر واد مرتيل. ويعطي John Buffa الذي زار المغرب سنة 1805 وصفا دقيقا لوصوله إلى تطوان، وقال إنه كان هناك حصن يحمي الدخول إلى واد مرتيل سماه بواد Boosega.[4] يقول Buffa إنه قد وضعت مدافع فوق الأبراج الأربعة للبناية وكانت هناك سفن أو قوارب حربية لحماية مدخل الواد. وقال Buffa أيضا إن واد Boosega (Martil) كان قابلا للملاحة إلى ضواحي تطوان.[5] يستنتج من مختلف الرحلات البريطانية في القرن التاسع عشر أن الملاحة من البحر إلى ضواحي تطوان عبر واد مرتيل ظلت تتقلص شيئا فشيئا إلى أن انغلق الواد تماما في وجه الملاحة.ويضيف Buffa أنهم بعد مدة في اتجاههم نحو مدنية تطوان وصلوا إلى مكان يدعى "الديوانة"؛ Custom house وهي بناية كبيرة بيضاء الجدران بها ساحة

3-لايمكنني ذكر كل الرحلات التي اعتمدتها لكن تم التركيز على بعضها نذكر منها :

3-1 **Travels Through the Empire of Marocco A journey To Marocco**

3-2 **A journal of Residence in the Esmailla of Abdelkader and of Travels in Marocco and Algiers**

3-3 **El-Maghreb :1200 Mile's Ride Through Marocco**

3-4 **Mysterious Marocco and how to Appreciate it**

3-5 - **" Tetouan " in Fraser's Magazine**

3-6 - **A Visit to Wazzan**

3-7 - **The Chaplet**

4-لم تسعفني المراجع التي اطلعت عليها في العثور على اسم Boosega وقد أشار الأستاذ مصطفى غطيس في كتابه تمودة (منشورات كلية الآداب بتطوان) الدار البيضاء،1991، ص.(9 و82 و83) استنادا إلى الفقيه المرحوم محمد داود، إلى الأسماء العديدة التي يحملها الواد في كل منطقة من المناطق التي يمر بها ولم يرد فيها إسم Boosega فيبقى السؤال مطروح على مؤرخي مدينة تطوان عن أصل هذا الإسم.

5- John Buffa, **Travels Trough the Empire of Morocco**, London, 1810,p.65.

فسيحة يتوسطها بئر. وقد لاحظ Beauclerk - الذي زار تطوان في 1826 بحرا-أن واد مرتيل كان قابلا للملاحة لمسافة حوالي أربعة أميال وللقوارب الصغيرة فقط. ولا يمكن دخوله إلا عند المد لأن الحاجز الرملي في مصب الواد يحول دون دخول السفن إلى الواد.[6]

وللحقيقة أيضا نذكر أن بعض هؤلاء الرحل أعطى معلومات خاطئة تماما مثل Colonel Scott الذي زار تطوان في 1840 وقال إن المدينة تبعد عن الشاطئ بميلين فقط بينما كل الرحلات السابقة تؤكد أن المسافة تتجاوز هذا الرقم.[7]

ومن جهة أخرى أكدت هذه الرحلات أن الرحلة برا بين طنجة وتطوان، كانت تقدر ب 45 ميل وتقطع عادة في مرحلتين حيث يقضي المسافر ليلة في الفندق الذي يقع في نصف الطريق بين المدينتين[8] غير أن Stutfieldيقول إنه قطعها في يوم واحد وفي 11 ساعة.[9]

ضواحي المدينة وأسوارها :

جمال المدينة :

اتفق الرحل البريطانيون وبدون استثناء في الإشادة بمنظر مدينة تطوان عن بعد وبجمالها وموقعها الاستراتيجي. وإذ لا يمكن ذكر كل ما قيل فيها نكتفي ببعضها. فأول ما أثار إعجاب هؤلاء الكتاب هو نصاعة بياض المدينة وهي تظهر من بعيد وسط اخضرار الروابي والجبال المحيطة بها، وهكذا شبه صاحب مجلة The Frasier's Magazine البنايات البيضاء الناصعة للمدينة، بعقد من الجواهر فوق غطاء أخضر.[10] ويقول في مكان آخر " إنه من الصعب إعطاء فكرة عن الجمال الخلاب لهذه المنطقة لأنها تشبه جبال ألب سويسرا في عظمتها، وإيرالندا في اخضرار طبيعتها، ووسط إنجلترا في جمال أشجارها وسعة حدائقها، أضف إلى

6- Captain G. Beauclerk, **Journey to Morocco**, London 1828, p.329.

7- Colonel Scott, **A Journal of Residence in the Esmailla of Abdelkader and of Travels in Morocco and Algiers**, London 1842, p.1.

8- "One day is sufficient for a well mounted horseman, but for those who do not care to spend eight hours on the saddle, a halt can be made in tents pitched outside a Fondak half way ", H.J. War **Mysterious, Morocco and how to apprediate it**, London (بدون تاريخ)، ص.185.

9- E.M. Stufield, **El- Maghreb : 1200 mile's Ride Through Morocco**, London, 1886.

10- **Frasier's Magazine**, Vol. N° 64, April 1875, London, p. 441.

ذلك سماء إيطالية ونباتات نصف مدارية (Demi tropicales) لتكوين فكرة عن الطبيعة الخلابة المحيطة بتطوان. "ويضيف : " لماذا يذهب السائح البريطاني الى اليابان وجزر المحيط الجنوبي والنيل وكل الزوايا الخفية من المعمور ولا يزور المغرب الذي هو على مرمى حجر منه".[11]

وما هذه إلا نماذج من عشرات الفقرات التي أشادت بموقع المدينة وجمالها الخلاب .

الغنى الفلاحي لنواحي المدينة :

وإلى جانب إشادتهم بجمال وموقع المدينة فقد أشاد هؤلاء الرحل بالغنى الفلاحي لضواحي المدينة. وأكدوا جميعا على خصوبتها وغناها بحدائق البرتقال والفواكه ومزرعات الخضر، مؤكدين أن تطوان كانت تصدر الفواكه الى أروبا كل سنة. كما لاحظ صاحب The Frasier's Magazine كثرة الماشية في بادية تطوان وكيف أن رؤوس الماشية كانت تصدر من هذه المدينة إلى جبل طارق ومناطق مختلفة من إسبانيا.[12] وقد أكد غنى المنطقة كل من Beauclerk و Buffa وStutfield و Watson وغيرهم من الرحل.

الأسوار والتحصينات:

ومن الجوانب التي أكد عليها هؤلاء الرحل وكانت تتكرر في كتاباتهم ، هي ملاحظاتهم حول أسوار المدينة وتحصيناتها وهكذا عندما زار Buffa John المدينة في 1805 لاحظ أن تحصينات المدينة لم تكن لها أي قيمة عسكرية لحماية المدينة.[13] أما Captain Beauclerk الذي زار المدينة في 1826 أي حوالي20 سنة بعد Buffa فقد لاحظ أن موقع تطوان استراتيجي من الناحية العسكرية ،إذ لايمكن أن تفاجأ سهول المدينة الغنية بهجوم مباغث. مؤكدا أن القوة العسكرية للمدينة تكمن في موقعها. أما الأسوار فقد وجدها Beauclerk عادية جدا ، رغم وجود بعض التحصينات التي وضعت فوقها بعض المدافع التي لاقيمة لها.[14] ونفس الملاحظات أبداها الكولونيل Scott الذي زار المدينة سنة 1840 .

-11 Ibid. p. 442.

-12 Ibid.p. 445.

-13 Buffa, Ed.c.t,p. 65.

-14 Beauclerk,**Journey To Morocco**, pp.329-330.

أما الرحلات التي تمت بعد خرب تطوان فقد تحدثت جميعها عن آثار الحرب . يقول Stutfield الذي زار المدينة سنة 1886 أي حوالي 16 سنة بعد الحرب :" إن المدينة لم تتجاوز بعد، ما لحق بها من أضرار الحرب ولا زالت آلاف المنازل مهدمة وقد انخفض عدد السكان بها من 40.000 إلى 25.000 نسمة.[15] أما Watson فيقول :

"لقد عانت المدينة كثيرا في 1859-1860 في حربها ضد إسبانيا. والمنازل المهدمة لازالت شاهدا على ضراوة الحرب التي عاشتها هاته المدينة.[16] ويقول رحالة آخر زار المدينة سنة 1875 : "كانت الساعة العاشرة عندما وصلنا إلى المدينة... وكان فوق سطوحها البيضاء آثار الرصاص الذي أصابها لان تطوان مرت بمرحلة عصيبة ولو نطقت تلك التحصينات لروت عن الدم والموت أكثر من قصة.[17]

الفضاء الداخلي للمدينة:

بعد وصف ضواحي المدينة وأسوارها ندخل مع أحد الرحل إلى قلب المدينة التي وصل إليها ليلا :

"كانت الباب الجنوبية التي كنا نود الدخول منها مغلقة، ولم نستطع إيقاظ الحارس الذي كان نائما إلا بعد طرق قوي ومتواصل، وبعد أن اقتنع بهويتنا وسبب مجيئنا، دخلنا عبر قوس ضخم على شكل حدوة حصان، ومشينا عبر ساحة فسيحة تحيط بها منازل في طريقنا إلى النزل الذي كان يوجد بالحي اليهودي.[18] إن هذا النص يؤكد على ثلاث جوانب تتكرر في الرحلة البريطانية إلى تطوان :

1 - إنغلاق المدينة على الأجانب وراء أسوار وأبواب تقفل ليلا .

2 - سبات الحارس الذي كان يرمز إلى كسل المغاربة، وهذه سمة ملازمة للمغربي في الرحلة الأوروبية عامة والرحلة البريطانية خاصة .

3- مكان الأوروبيين الطبيعي في كل زياراتهم للمدينة هو النزل الموجود في الحي اليهودي وسنعود للحديث عنه فيما بعد.

أول ما يلاحظه البريطانيون في مدينة تطوان ، هو ضيق أزقتها وقد أشاروا جميعا وبدون استثناء إلى هذا الجانب، فقد لاحظ Buffaأن أزقة المدينة غير معبدة

15- Stufield, **El-Maghreb:1200 Miles Ride Trough** Morocco, p.23.

16- Watson Robert Spence, **A Visit to Wazzan**, London1880, p. 284.

17- Anonymous '**TETOUAN**' in **Frasier's Magazine**, Ibid.p. 441.

18- Ibid.

وغير مستوية، زيادة على كونها ضيقة جدا ومتسخة كما لاحظ أن جدران المدينة بدون نوافذ، ولهذا سماها جدرانا عمياء أو ميتة. وقال إنك عندما تمر بين جدارين تحس بالاختناق،[19] وقد أكد Scottعلى عفونة الازقة.[20] أما رحالة مجلة Frasier فقد كتب أن الأزقة ضيقة لدرجة أنه يمكن للشخص أن يسلم من بيته على جاره في الجهة المقابلة.[21] أما صاحب العقد The Chapletفقد سجل سعة البيت التطواني خلافا للازقة التي كانت ضيقة جدا.[22] وفي هذا الإطار يقول Scitt : " إن كوني مسيحيا حرمني من دخول بيوت المسلمين لكن بيوت بعض أغنياء اليهود التي زرتها كانت أنيقة وجميلة ومصممة بالطريقة الشرقية.[23]

بعض الرحل رأوا بأن واقع المدينة لايعكس تلك الجمالية التي تعد بها عن بعد وقد لاحظ أحدهم أن - ماسماه - بانعدام جمالية معمارية وهيمنة الجدران العمياء أو الميتة على المدينة، يوحي بخيبة الأمل التي يحس بها كل من دخل المدينة الشرقية، أما Watsonفقد وجد أسبابا أخرى لغياب الجمالية في المدينة حيث يقول: "أول مايستقبلك وأنت تدخل المدينة العدد الهائل للمتسولين والبؤساء وهكذا يفقد ذلك المكان الذي كان جميلا من بعيد رونقه و سحره".[24] أما Stufieldفقد وجد أن المدينة حافظت على طابعها الأصلي بالمقارنة مع جارتها طنجة ، التي كانت أكثر تفتحا علي أوربا مضيفا أن غياب العنصر الأوروبي من المدينة يعطيها طابعا أكثر بربرية.[25] أما رحالة مجلة Fraser 'sفقد علق على معمار المدينة كما يلي " هندسة المنازل بتطوان تلبي أول شرط للحياة الإجتماعية لهؤلاء البرابرة وهي حجب حياتهم العائلية عن أنظار الآخرين".[26]

وهكذا وجد هؤلاء الرحل التصميم العربي لتطوان غير مطابق لمفهومهم الأوروبي للمدينة بخلفياتها الدينية والإجتماعية، لكن رغم هذا، وبالمقارنة مع ما كتب عن

-19 John Buffa, **thravels Trough the Empire of Morocco**,p. 69.

-20 Colonel Scott, **A Journal of residence in the Esmailla of Abdelkader and of Travels in Morocco and Algiers** London 1842,p.1.

-21 Anonymous, **TETOUAN in Frasier's Magazine**, Ibid. p.442.

-22 Anonymous, **The Chaplet**, not dated, p. 130.

-23 Colonel, Ibid, p.1.

-24 Watson Robert Spence, **A Visit to Wassan**, p.280.

-25 Stufield," **El - Maghreb : 1200 Milles "Ride Throught Morocco**, p.22.

-26 "**Anonymous Tétouan**" in **Frasier's Magazine**, Ibid, p.446,

مدن مغربية أخرى في القرن التاسع عشر، فإن تطوان كانت تعتبر من أحسن المدن المغربية غنى وتقدما ، وهكذا فضلهاBeauclerk من الناحية المعمارية على طنجة.[27] ولاحظ غيره من الرحل أن تطوان هي التي احتفظت بما تبقى من المدنية والذوق الرفيع من العهد الذهبي للمسلمين في الأندلس إلى درجة أن Watsonقال :" لو كان لي الإختيار لفضلت العيش في تطوان".[28] ولا غرو في ذلك إذا علمنا أنه نزل ضيفا على الحاج ابراهيم بريشة في قصره الفخم وقد علق Watson على ذلك بقوله :"لم أر قط في حياتي قصرا أجمل من هذا ولا ترفا بهذا الذوق الرفيع ».[29]

السكان:

وقد أعطتنا الرحلة البريطانية بعض الأرقام حول سكان المدينة وهكذا قدر Beauclerk سكان المدينة في سنة 1826 بـ 40 الى 50 ألف نسمة نصفهم من الطائفة اليهودية.[30] أما Scottفقدر عدد السكان في سنة 1840 بـ 15 الف نسمة منها 14000 من الطائفة اليهودية،[31] بينما لاحظ Stutfield أن عدد سكان المدينة قد انخفض من 40.000 إلى 25.000 نسمة بسبب الحرب.[32] ويبقى للمؤرخ التعليق على هاته الارقام أو الاستئناس بها أو رفضها جملة وتفصيلا وقد سردتها هنا فقط لاعطاء مثال على بعض المعطيات التي قد تفيد الرحلة بها المؤرخ. إن الحياة اليومية في مدينة تطوان لم تنج من التصوير الغرائبي الذي عرفت به الكتابات عن العالم الإسلامي عامة. وهكذا يستغرب أحد الرحل لما رآه من تنوع وغرابة اللباس في زحمة تطوان ويقول :

"في زحمة تطوان شاهدنا أنواعا غريبة من البذلات والملابس فهؤلاء مغاربة تطوانيون وبجانبهم برابر من الريف بجبات صوفية قصيرة وسيقان عارية وهاته نساء مسلمات متواريات خلف أثواب بيضاء تغطي كل أجسامهن بحيث لاتظهر منهن إلا الأعين ويظهرن وكأنهن أشباح تجوب المدينة في صمت ".[33] ويضيف نفس الرحالة

-27 Captain Beauclerk : **Journey to Morocco**, p.330.

-28 Watson, p. 286.

-29 Ibid.p. 281.

-30 Beauclerk Op. Cit., p.329.

-31 Scott, Op. Cit., p.1

-32 Stufield,Op. Cit., p.23 Frasier's.

-33 Ibid, p. 44

قائلا:

"وأنا أمشي في مدينة تطوان يخيل إلي أني أرى مشاهد وشخوصا خرجت لتوها من صفحات ألف ليلة وليلة. هنا الراوي محاطا بحشد ينصت باهتمام ... هناك الحلاق الذي يعمل في هذا البلد كمعالج بمص الدم وكطبيب أسنان ... وهذه عائشة وفاطمة بردائها المحتشم في طريقها إلى الحمام وبحياتي هاهو الأحدب الشهير نفسه يعمل كبواب للحي اليهودي ! الخ ...".[34]

إن هذا التصوير الفلكلوري للحياة في المدينة وتغليب الجانب الغرائبي Exotic بل وربطه مباشرة بالصور المسبقة للمسلم التي علقت بأذهان البريطانيين والتي وجدت الجزء الكبير من مرجعيتها في صورة الشرق كما جاء في صفحات ألف ليلة وليلة تدفعنا إلى وضع السؤال التالي : هل شاهد هؤلاء الرحالة تطوان والحياة في تطوان خلال القرن التاسع عشر أم اكتفوا بإعادة تركيب الصورة المختزلة عن المسلم والعربي والشرقي كما ظلت تتكرر من قرن إلى آخر ، وفي هذه الحالة هل نقول أنه لا جدوى من استنباط أي شيء من هذه الرحلات مادامت تكرر نفس الصورة في قوالب مختلفة ؟

الحياة الإجتماعية:

أما عن الحياة الاجتماعية بمدينة تطوان خلال هذا القرن كما صورها الرحل البريطانيون ،فيمكن القول بأن تطوان كانت تعتبر إحدى أكثر المدن المغربية تقدما وكانوا عادة مايرتبونها مباشرة بعد فاس العاصمة السياسية والاقتصادية لمغرب القرن التاسع عشر. وهكذا حسب رحالة مجلة Frasir's فإن تطوان كانت إحدى المدن التي كان ينزح إليها ويستقر بها الأغنياء الذين جمعوا ثروات كبيرة من شتى أنحاء المغرب نظرا للاطمئنان الذي كانت تمنحه لهم.[35]

وكما لاحظنا سابقا فإن وجود جالية يهودية مهمة مرتبطة بأوروبا لعبت دورا مهما في فتح المدينة على الحضارة الأوروبية . وفي هذا الصدد لابد من الإشارة إلى أن رحالة Frasir's Magazine تحدث عن وجود 62 عائلة عربية من أصل جزائري كانت تعيش تحت الحماية الفرنسية وأشار إلى أن هاته العائلات لم تكن تستطيع إدخال أبنائها الى المدرسة اليهودية لتلقي تعليم أوروبي عصري نظرا لخوفها من الإهانات التي يمكن أن تلحقها من الأهالي المسلمين. وكانت الطائفة اليهودية تمثل

34- Ibid,p.445.

35- Ibid,p. 446.

نسبة مهمة من السكان بالمدينة.[36] وقد خصص الرحل البريطانيون قسطا كبيرا من كتاباتهم للحديث عن هذه الطائفة وعن نمط عيشها داخل المدينة ودورها الإقتصادي والإجتماعي .

كل الرحلات التي تحدثت عن تطوان أشارت إلى أن نائب القنصل البريطاني في تطوان كان يهوديا بل لقد توالت على هذا المنصب وطيلة هذا القرن نفس العائلة وهكذا أشار الرحالة إلى نائب القنصل البريطاني باسم ناحون وقد ورد إسم سليمان Nahon وبعده إسم Isaac Nahon وأشارت رحلات أخرى إلى الاسم العائلي دون ذكر الاسم الخاص. ومن المؤكد أيضا أن هذه العائلة هي التي كانت تستقبل كل الرحالة البريطانيين الوافدين على تطوان في النزل الوحيد الموجود آنذاك والذي كان في الملاح وفي ملكية هاته العائلة.

ومن جهة أخرى اهتم الرحل الإنجليز بمدرسة الإتحاد الإسرائيلي العالمية بتطوان. وصفت إحدى الرحلات هذه المدرسة وأعطت عنها بعض المعلومات الدقيقة نذكر منها: التأسيس الذي تم سنة 1860 وكان يتعلم بها 500 طفل من الجنسين وكانت المدارس من هذا النوع توجد في تطوان وطنجة وآسفي فقط، وكانت هذه المدرسة مدعمة من جمعيتين يهوديتين L'Alliance Israelite de Paris وJewish Board of Deputies في لندن. وكانت خطة الجمعيتين هي التخفيف مما يعانيه - حسب زعمهم- اليهود في المغرب بتوفير تكوين عصري لهذه الجالية يسمح لها بتحسين أوضاعها والتحرر من ضغط المغاربة . كان مدير المدرسة سنة 1874 فرنسيا ويدعى Gogmann وتقول الرحلة إن تلاميذة هذه المدرسة يذهبون فيما بعد إلى الجزائر لتحمل مسؤوليات في الإدارة الإستعمارية الفرنسية بها.

ومن المعلوم أن بريطانيا ودول أوربية أخرى كانت تستعمل وضع اليهود كورقة للتدخل في الشؤون الداخلية للمغرب، كما أشار إلى ذلك مؤرخو هاته الفترة.

وأخيرا إذا أعطيت هاته النقطة حيزا من الوقت والتفصيل فلأنها وردت بشكل قوي وملح في هاته الكتابات.

الجانب الاقتصادي :

أكد جميع الرحل على التنظيم المحكم لاقتصاد المدينة ولاحظ Buffa بإعجاب التوزيع المتقن لفضاء الاسواق بين ارباب الصناعات والتجارات المختلفة وكيف تم توزيعها على أماكن مخصصة يسهل التعرف عليها. وعند زيارته لسوق الخضر

36- Ibid, p.448.

واللحوم لاحظ وفرة كبيرة في المواد . ومن جهة أخرى لاحظ هؤلاء الرحل أن أغلب سكان المدينة من التجار والحرفيين كما أشادوا " بالقيصرية" التي كانت تضم مختلف التجارات والتي كانت توجد بها سلع أوروبية وسلع من فاس وتونس والجزائر والإسكندرية وغينيا وغيرها من الدول مما يضع المدينة في المرتبة الثانية على الصعيد الوطني بعد فاس - دائما حسب هؤلاء الرحالة - وقد لاحظ Watson في 1877 أن تطوان أكثر رحابة من المدن المغربية الأخرى وأن بها حركة دائبة ويضيف أن : "السوق بهذه المدينة حي جدا ، لكن كان يشوبه شيء واحد وهو كثرة اللباس الأوروبي الذي نسيناه منذ مدة ".[37]

ويقصد Watson هنا بعض اليهود أو التجار الذين استعملوا اللباس الأوروبي في آخر القرن، وهناك نرى أن صاحبنا لم يأت ليزور مدينة وحضارة عريقة عمرت لعدة قرون، بل جاء ليحلم ويعيش في عالم ألف ليلة وليلة، فكان اللباس الأوروبي يذكره بالواقع ويوقظه من نومه . وهذا طبعا يحيلنا على الجانب الرومانسي للإستشراق في التشبيه بكل ماهو بدائي وغرائبي . وفي هذا الإطار نجد أن كثيرا من الرحل أولوا أهمية كبرى لسوق البيع بالمزاد العلني في ساحة "الغرسة" مع كل الصخب الذي يصاحب هذا النشاط التجاري الذي بدا لهم غريبا وغير مألوف.

لقد دونت الرحلة البريطانية، ليس فقط الحياة الإجتماعية والإقتصادية لمدينة تطوان، بل سجلت كذلك مواطن الضعف والقوة في قدرات المدينة العسكرية . لقد سبقت الإشارة إلى ملاحظات الرحل حول أسوار المدينة وتحصيناتها لكن هناك جوانب أخرى لابد من الوقوف عندها. إن الملاحظة العامة التي يتفق عليها كل الرحل هي ضعف هذه القوة من حيث العدد ومن حيث العتاد ، يقول أحد الرحالة يصف حرس الباشا في تطوان :

"إن هذا النموذج من الجنود لايجعلني أحترم المقدرات العسكرية لهذه الإمبراطورية لأنه يصعب تصور جيش في زي غريب ومضحك بهذا الشكل لا إنسجام فيه ولا ذوق كانت قوة هذا الحرس تضم 150 رجلا ذوي سحنات وألوان مختلفة ... كان بعض الجنود بطرابيش فاسية وبعضهم بالعمامات وكانت بعض البذلات بأزرار وأخرى بدونها وكانوا جميعا يلبسون نعالا صفراء وكانت سيقانهم عارية وتكمل هذه البذلة البسيطة سراويل فضفاضة متسخة ... ومن خلال الأرقام التي كانت على الأقمصة يتضح أن بعضها كان للفرقة الثالثة عشرة (في الجيش

37- Watson, P. 280.

البريطاني) وأخرى كانت للفوج الواحد والثمانين الخ ..".[38]

ويضيف هذا الرحالة أن المادة الخام كانت ممتازة ويقصد بذلك الرجال أنفسهم إذ يتوفرون على بنيات قوية ولا تنقصهم إلا الأسلحة والتدريب الجيد ليكونوا جنودا من المستوى الرفيع.

خاتمة :

نظر الرحل إلى تطوان على أنها كيان مقفل على نفسه ومحاط بأسوار تقفل أبوابها ليلا، فتميزت المدينة بالانغلاق والخوف مما وراء الأسوار، وكان طابعها المميز هو رفض الآخر، أي المسيحي الأوروبي، رفضا دينيا وحضاريا وأحيانا إقتصاديا. فليست المدنية وحدها هي المغلقة على نفسها، بل حتى المنازل والبنايات محتشمة بل ملثمة وراء أسوار تخفي ما بداخلها فالبيت المغربي عامة والبيت التطواني خاصة - في القرن التاسع عشر - محتشم ومنغلق على نفسه. وقد لاحظ كل الرحل انعدام النوافذ في الأزقة وحتى عندما توجد فهي عبارة عن فتحات صغيرة لا تؤدي مهمة النافذة الأوروبية. وقد لاحظ كل الرحل أن ضيق الأزقة وانعدام النوافذ أعطى لتطوان وللحياة الإجتماعية فيها طابع الحرص على الحياة الخاصة Intimité وهكذا كانت الحياة الإجتماعية حياة محتجبة تمر خلف أسوار ترفض الغريب.

كان الزائر الأوروبي بصفة عامة والبريطاني بصفة خاصة، يحس بالغبن لأنه يريد أن يرى كل شيء وجدران المدينة وتصميم عمرانها يمنعه من ذلك. فالبيوت مصممة بشكل لا يسمح بتكوين أي فكرة عما بداخلها إذ تحجبه عن عيون الناظرين بأسوارها، وهكذا كان الزائر البريطاني يجد نفسه ملفوظا من المدينة المسلمة ولا يبقى له إلا الحي اليهودي (الملاح) الذي كان كل المسيحيين يبيتون فيه.

والملاحظ أيضا أن الزائر البريطاني يريد أن يرى كل شيء ويعرف كل شيء فهدف الرحلة هوقبل كل شيء إزالة الحجاب عن حضارة وثقافة الآخر وهاته الرغبة تخفي رغبة أخرى هي رغبة الامتلاك، امتلاك الفضاء الثقافي بمعرفته وتحليله وتصنيفه ووضعه في قوالب غربية وإخضاعه لمرجعية حضارية أوروبية. وامتلاك الفضاء الثقافي ما هو إلا خطوة نحو امتلاك الفضاء الجغرافي.

38- Frasier's Magazine, p.443.

وهكذا وحتى عندما يستطيع الرحالة الأجنبي أن يدخل المدينة متخطيا سورها (وهذا ليس بالسهل، فإلى أواخر القرن التاسع عشر كانت بعض المدن محرمة تماما على الأجانب كوزان وزرهون إلخ...) قلت عندما يتخطى الزائر الحاجز الأول وهو سور المدينة يجد أمامه أسوار البنايات. وإذا كان من المحظوظين وكتب له أن يزور بيتا تطوانيا فإنه لا يرى إلا نصف المجتمع أي الجزء الرجالي منه، ولا يسمح له برؤية النساء اللواتي يكن ملثمات إذا اضطررن للذهاب إلى الحمام أو لزيارة الأقارب. وهكذا كانت تطوان ترفض دائما أن تتعرى لضيوفها فبقيت دائما غيورة على أسرار حضارتها.

إن الإطار التاريخي الذي تمت فيه الرحلة هو القرنن التاسع عشر، أي القرن الذي عرف توسع الإمبراطورية البريطانية وهيمنتها على أجزاء هامة من المعمور، بينما كان المغرب في ركود إقتصادي وسياسي واجتماعي وثقافي مما جعله محط الأطماع الإمبريالية الأوروبية. كما أن بعض هذه الرحلات تم قبل الحرب واحتلال تطوان وبعضها تم بعد ذلك، وقد ظهر انعكاس الحرب جليا على المدينة.

أما الإطار الجغرافي فيتمثل في كون تطوان تمثل أقرب مدينة من طنجة التي كان ينزل بها كل الزوار والدبلوماسيين القادمين من أوروبا عامة و من بريطانيا وجبل طارق خاصة، وكان الرحل يعرجون عادة لزيارة تطوان قبل الذهاب إلى فاس أومراكش، كما كان أولئك الذين يأتون في زيارات قصيرة إلى المغرب يكتفون بتطوان وطنجة.

إذا كانت الرحلة البريطانية إلى تطوان قد سجلت جمال الطبيعة الخلاب وحسن موقع المدينة وغنى بواديها والضاحية المحيطة بها. فإنها من جهة أخرى كانت قاسية معها في كل ما هو إنساني وحضاري. إن كل ما سمعناه عن ضيق الأزقة وانعدام النوافذ والفقر والملابس الغريبة في تناقضها مع جمال الطبيعة وغنى المنطقة وأحيانا تفضيل أهل البوادي على أهل المدينة ترمز في الحقيقة إلى شيء أعمق وأهم وهو أن هؤلاء الرحل أرادوها مدينة بلا أهل ولا حضارة، أرادوا البلاد بدون أهلها وبدون تاريخ، أرادوها خالية كما خلقها الله بل أرادوا الطبيعة ورفضوا الثقافة. وما التركيز على ضعف المدينة العسكري وغنى طبيعتها إلا دعوة تكون أحيانا مباشرة لأصحاب القرار ليتدخلوا ويستعمروا البلاد، والمؤرخون يعرفون كيف فلت المغرب من يد الإنجليز ليقع في فخ الإسبان والفرنسيين.

وفي الختام أود أن أقول إن الهدف من هذه المداخلة هو :

أولا :

إثبات حضور المدينة في الكتابات الإنجليزية (رغم أن الظروف التاريخية للمدينة تحيلنا على الكتابات الإسبانية نظرا لأسباب يعرفها الجميع. لكن هذا لا يعني أن نكتفي بها، لأن الدراسات الإنجليزية يمكن أن تكمل تلك الصورة التي اختزلها الأوروبيون عن المدينة).

إذن المداخلة هي إثبات الوجود.

ثانيا :

لقد تعمدت اتباع المنهج الوصفي على المنهج التحليلي الصرف، لأن هذه الدراسات لا زالت في بدايتها ونحن الآن في حاجة أولا إلى تقويم كمها ورصد مجالاتها، وهذه مناسبة للباحثين المتمكنين من اللغة الإنجليزية لاستغلال مآت المصادر التي أنتجتها الكتابات الإنجليزية حول المغرب.

وختاما أقول :

لقد ذهب الرحل وذهب الاستعمار وبقيت تطوان ناصعة بيضاء بين روابيها الخضراء وجبالها الخلابة - ذهب الرحالة وبقيت الأصالة.

" النهضة الفنية بتطوان قبل سنة 1912
" مدرسة سيدي عبد السلام ابن ريسون ودورها "

بقلم
الأستاذ مالك امحمد بنونه
وزارة الثقافة، تطوان
مكلف بمهمة لدى أكاديمية المملكة المغربية الرباط

بسم الله الرحمان الرحيم
والصلاة والسلام على سيدنا محمد واله وس

شكر وتقدير
أشكر (مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي) بكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة عبد المالك السعدي بتطوان.

شكرا خالصا قوامه الاعتزاز بهذه المجموعة الشابة الناهضة التي تعمل جاهدة وبكل حماس من أجل التعريف بتاريخنا المجيد تعريفا قوامه الدراسة والبحث العلمي الأكاديمي .

شكرا نقدمه لهذه المجموعة في شخص الدكتور الجليل النابغة سيدي امحمد بن عبود - رئيس شعبة التاريخ بكلية الآداب بتطوان.

هذه المجموعة التي طافت بنا في بستان من المباحث الشيّقة التي تناولت باقة من التاريخ والسياسة والحياة الاجتماعية والأدبيات والنوادر التي عاشتها منطقة تطوان قبل سنة 1912 - أي ما يعرف بما قبل عهد الحماية.

وأشكر هذه المجموعة ثانية على تفضلهم باختياري ضمن المنتدبين . وحيث أن الفترة تفرض على المشارك الالتزام بها فلا بأس أن تكون مساهمتي معهم بهذا الجانب الفني الثقافي الذي عاشته تطوان في القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلاي . تحت عنوان : (النهضة الفنية بتطوان قبل سنة 1912- مدرسة سيدي عبد السلام بن ريسون- ودورها)

والله ولي التوفيق

مالك امحمد بنونة

النهضة الفنية بتطوان قبل سنة 1912م
مدرسة سيدي عبد السلام ابن ريسون ودورها)

عرفت تطوان كغيرها من حواضر المغرب حركة فنية مهمة على عهد السلاطين عبد الرحمن بن هشام ومحمد الرابع والحسن الأول.

فخلال الفترة نجد عددا لا بأس به من المهتمين بالفن الموسيقي الأندلسي المغربي بفرعيه - أي الغناء الدنيوي والغناء الصوفي - الآلة والسماع أوكما يقولون أيضا التغزل والمديح.

فإلى جانب الممارسة الفنية نقف على مؤلفات من كتب ورسائل منها ما قصد به اختصار كناش الحايك ومنها معارضة له بمجموع مديحي ومنها أيضا إبداعات شعرية وتوشيحية وزجلية أضفي عليها اللحن الأندلسي المغربي ودخلت في الغناء في تلك الفترة. وتعقب هذه الأعمال يحتاج إلى دراسة منفردة.

فتطوان خلال المرحلة التي سبقت هذه الفترة عرفت القطب سيدي محمد الحراق الذي أغنى هذا الفن بإنتاجاته الأدبية - شعرا وتوشيحا وزجلا - إذ نجد من إنتاجه في الغناء الأندلسي المغربي ما يقارب الثلاثين صنعة موزعة على ميزان الدرج وميزان القدام لنوبات الأصبهان والماية والرصد وغريبة الحسين والحجاز الكبير والحجاز المشرقي وعراق العجم. وهي إما ذات لحن واحد أو بأكثر من لحنين، وأغلبها لا زالت مستعملة إلى اليوم في تراثنا الغنائي هذا. فوجود هذه الصنائع الحراقية بالآلة الأندلسية يدخل ضمن الأعمال الفنية المغربية في هذا التراث.

وعرفت خلال الفترة وبعد سيدي محمد الحراق القطب النابغة سيدي عبد السلام ابن ريسون والمعروف في تطواننا بـ << السيد >> والذي يعتبر ظاهرة فريدة في منهجه وأسلوبه فهو يعد بحق مدرسة يمكن ان نطلق عليها << المدرسة الريسونية>>. قال ذ . الحاج امحمد بنونة عند ترجمته لحياة << السيد>>.

" إن السيد قرأ القرآن ودرس بتطوان وغيرها العلوم التي كانت تدرس كالنحو والفقه والسيرة والأدب والتاريخ والطب والفلك والرياضيات والأسرار. حتى كان مشاركا عبقريا يسبي العقول ... وما تكلم في علم من هذه العلوم الا وظن سامعه أنه اختصاصي فيه . شهد له بذلك علماء عصره وأدباء قطره) ".

فالسيد كان باحثا دؤوبا يحب التجديد ويريد التعرف على الإكتشافات والإبتكارات المحدثة في الميادين المختلفة بأوربا وغيرها، مسخرا في ذلك خواصه من أصحابه الذين ارتقوا مناصب مهمة في الحكومة المغربية << المخزن >>، ممن

كانت لهم علاقة بالخارج أمثال المندوب السلطاني محمد الخطيب والوزير الصفار والأمينين والسفيرين الأخوين الحاج عبد الكريم والحاج العربي بريشة.

فالسيد الذي كان على هذا القدر من التفتح المعرفي كان يحب أن يكون أصحابه متفتحين، وعلى درجة من المعرفة . وأحس مثال على ذلك ما أخبر به عنه جدي الحاج العربي بنونة إذقال :

" إن شيخنا سيدي عبد السلام ابن ريسون - رحمه الله - أمر العلامة سيدي المفضل أفيلال أن يقرأ مع أصحاب السيد النحو لينصلح لسانهم، والعبادات ليكونوا على علم من أمرها والسيرة النبوية .. ليقتدوا بالأسوة الحسنة في أخلاقهم ومعاملاتهم ...".

وأخبر أديب تطوان العلامة سيدي المفضل أفيلال أنه درس على السيد <<حركات الأفلاك السبعة ومقابلتها بالأنغام السبعة >> مما يدل على معرفة دقيقة واطلاع واسع بمحتوى كتاب الطبوع ومباحثه عند الكندي وابن سينا والفارابي وغيرهم مع تطبيق القواعد الموسيقية الأندلسية المغربية واستخدام الموسيقى حسب الفصول والبروج الفلكية بما يوافق نفسية السامع وملاءمتها لظروفه وزمنه.

وقال سيدي المفضل أفيلال أيضا .. <<كما أخذت عن السيد علوما كثيرة في الطب والكمياء وكيفية تحليل العناصر واستخراجها من المعادن والنباتات والأزاهير... وفوائد جمة في علم التوقيت .. وأصول التشريح والطب للسيوطي .. ومثلت الغزالي>>.

فالسيد صاحب هذا الفكر المتفتح الواعي كانت له مجالس للطرب والسماع فيها متعة روحية له ولأصحابه من خواصه ومريديه.

وكانت جلساته الفنية على نوعين :

- جلسات عامة بالزاوية الريسونية ينشد فيها البردة والهمزية والصلاة البغدادية - على الطريقة الريسونية.

- جلسات فنية مع خواصه المقربين إما في رياض الشرفاء[1] أو في دار أحد أصفيائه. وغالبا ماكانت بتلك الجلسات تستأنف في مساء الجمعة ليلة السبت.

لست أقصد بما تقدم من إشارات عن السيد وحياته مع أصفيائه التركيز على صنف الحياة التي كان يحياها، وإنما القصد من تلك الإشارات وما ترتب عليها من أعمال فنية تدخل في مجال التجديد من الناحية التلحينية أو في مجال استعمال آلات موسيقية لم تكن مستعملة في طربنا الأندلسي المغربي أو صنعه للآلات مثل

1- رياض يقع في نهاية الزقاق الضيق << الزنقة الضويقة >> المفضي إلى الجامع الكبير. وكان يعرف قبل ذلك برياض باجة (أو ابن باجة).

التي كانت تجلب من أوربا أو اختراع أصناف منها لم تكن معروفة في المشرق والمغرب . فجوق السيد كان يستعمل فيه الآلات التالية:

1) البيانوا (أو - البيان). 2) القانون . 3) السنتير . 4) الكمان (أو الكمنجة) 5) العود الرباعي . 6) العود الرباعي الريسوني . 7) الجناح الهارب). 8) الرباب 9) الكمبري (السويسي) . 10) محسن النغم . 11) الطار . 12) الدربوكة.

وكان يعزف على هذه الآلات من أصحاب السيد السادة :

1) الحاج عبد الكريم بنونة - عم والدي - وكان آية في العزف على جميع الآلات الوترية بما فيها (محسن النغم) والبيانو.

2) محمد بن عبد اللطيف عازف على الكمان. وأستاذ العزف فيه.

3) العربي الحمار وهو أول تلميذ تعلم العزف على الكمان عن ابن عبد اللطيف.

4) أحمد بن عبد السلام ويدان عازف الرباب.

5) محمد بن عبد السلام ويدان عازف العود.

6) محمد النبخوت على العود أيضا.

7) المفضل الخراز عازف على الكمبري السويسي.

8) الحاج العربي بنونة على الدربوگة .

ومن أصحاب الأصوات الحسنة :

- الحاج محمد النبخوت.

- أحمد الرباح (المعروف بين رفقائه بـ << يامنه >>.

فكان من الآلات المجلوبة من الخارج :

1) البيانو : فلم تخل دارا من دور أصفيائه من هذه الآلة عرفت منها ولحقت وجودها بدور آل بنونة والصفار والحاج العربي بريشة والحاج عبد الكريم آخية وآل ابن عبد اللطيف. بالإضافة إلى بيت السيد.

فالسيد استعمل هذه الآلة في الموسيقى الأندلسية في وقت مبكر غير أنه لما جلب له الحاج العربي بريشة آلة البيانو من نوع « استيل لوزير 14 » من فرنسا أراد ان يدخل على تلك الآلة بعض التعديلات لتكون موافقة - فيما أعتقد - للآلات الوترية المستعملة، ويكون بعدها الصوتي في مستواها دون طغيان عليها بأن أضاف عدة مسامير تحت المضاغط البيضاء.

فالسيد بذلك يعتبر أول من اهتدى في العالم الإسلامي والعربي إلى هذه

التحسينات المدخلة على آلة البيانو[2] وقد عرضنا صورته بالمعرض في المكتبة الكلية.

2) الكمان (أو الكمنجة) : الكمنجة لم تكن مستعملة عندنا في جوق الآلة في تطوان وأول من جلبها إلينا سيدي محمد بن أحمد بن عبد اللطيف الذي أتى بها من تلمسان بعدما حذق العزف عليها على يد المعلم بقشيش « ابي كشيش» من يهود الجزائر (وهو أحد البارعين في العزف على الكمان آنذاك حيث شارك في حفلات البلاط النمساوي وحفلات البلاط العثماني).

فتطوان كانت أسبق حتى من القاهرة في إدخال آلة الكمان في جوقها.[3]

3) السنتير (أو السنتور) : آلة شبيهة بالقانون وهي ذات أوتار نحاسية يشدون عليها 54 سلكا نحاسيا كل ثلاثة منها على نغمة واحدة ويعزفون عليه بزخمتين من خشب كشفرة السكين.

4) - القانون : والقانون آلة معروفة، غير أن السيد طلب من الحاج عبد الكريم بريشة عندما كان بلندن أن يصنع له آلة في شكل القانون فقال له في رسالته : <<وقد تعلم غرضنا في السماع وتم آلات يستطاب الضرب بها مثل مسيقة الجلد بقانون الزقع (هكذا ولعها الزق ...) مثل قانون الوتر إلا أننا نحبها حين يوضع الأصبع على ما يصوت نحب أن يكون محركا لشايت واشتباب مساوين كمانضرب في القانون بجملتين واحدة فيماية (أي نغم) الحسين وأخرى في مايةالذيل فيكون كل أصبع يحرك أربع نغمات فتكون تلك الموسيقى اثنين وثلاثين صوتا من داخل وثمانية ثقب من فوق بهم يقع ضرب النغم يخرج من كل ثقب في الظاهر أربعة أصوات متساويات على ما يسوى به القانون في تعقيد أوتاره >>.

5) الجناح أو الهارب : وهو آلة مجلوبة أيضا من أوربا استعمله السيد في جوقه وفيَ صبايا عرفت بقايا منه في أحد مخازن بيت العم الحاج عبد السلام بنونة بالجامع الكبير.

6) العود الريسوني : وهو عود صغير الحجم، صنعه بيده ،قطعته من قطعة

2-أول (بيانو) أدخل عليه التعديل بإضافة (الربع تون) حتى يكون صالحا للأنغام الشرقية، تم إنجازه بعد المؤتمر الأول للموسيقى العربية بالقاهرة - س/ 1932م وكان معروضا بمتحف معهد الموسيقى الشرقي - بالقاهرة. (راجع/ ماقاله الموسيقي الملحن ذ. أحمد شفيق أبو عوف -كتاب/ أصوات وألحان عربية- كمال النجمي- كتاب الهلال ص.131 ع/ 209- أغسطس 68.

3-قال ذ. كمال النجمي(إن تاريخ الآلة الموسيقية الساحرة (الكمنجة) يبدأ في مصر بأنطون الياس الشوا-من عرب حلب-... سنة 1867م وكانت خالية تمام من عازف يحاول ولو محاولة أن يعزف ألحانا عربية على الكمنجة)، سحر الغناء العربي،كمال النجمي كتاب الهلال " ، ص.112، 115 عدد،261 شتمبر 1972م.

واحدة محفورة من الخشب، (عرضنا صورته بمعرض الندوة هذه في خزانة الكلية) ولازال هذا العود موجودا بتطوان ويحتفظ به الأخ الأستاذ الحاج عبد السلام الصفار وهذا العود في شكله وحجمه مخالفا للحجوم المعروفة اليوم.

7) السلاكة أو صندوق الآلة :

جلب أيضا من أوربا في أيام السيد صناديق موسيقية ذات أسطوانة مستطيلة مستديرة على صفحتها مسامير وبجانبها مشط نحاسي، وتدار الأسطوانة بلولب فتقع المسامر على أطراف المشط فتحدث الأنغام المسجلة على تلك الأسطوانة. وعندما أطلع عليها وعلى طريقتها الميكانيكية اتفق السيد مع رفيقه سيدي عبد الله شقور (وكان يسكن بمدشر الحصن) بتازروت - بني عروس - وصنع آلة مثل الآلة المجلوبة من آوربا فسماها السيد بـ << السلاكة >> وقال «هنا نحن نصنع مثل صنع أوربا ». لم تعد موجودة بتطوان.

8) محسن النغم [4] :

آلة من اختراع السيد : قال في وصفها الأستاذ الحاج امحمد بنونة : (آلة عبارة عن عود ذي قصعة صغيرة ودرع طويل لها وتر واحد يضرب عليه جميع الأنغام وهي ذات صوت رخيم فيه حنان عجيب.

وكان يضرب - يعزف عليه عمي الحاج عبد الكريم بنونة وبقيت بعد وفاة السيد أصناف منه فيها الجيد والصحيح والمكسر. وبعد وفاته نقلت جميعها إلى والدي الحاج العربي وبقيت عندنا بعد وفاته إلى أن أتلفها الدهر وضاعت كما ضاع غيره والأمر لله >>.

أما في مجال التلحين : فقد قلب السيد نوبة العشاق من الخمريات والغزل إلى المديح، واستفاد من الأنغام الغرناطية الجزائرية التي جاءت مع المهاجرين من الجزائر أمثال آل ابن عبد اللطيف واستعملها مع ما يوافقها من الأنغام الأندلسية. انظر في هذا ما أثبتناه عنه في ميزان << مرصع النغم >>.

وأعتقد أنه استفاد أيضا من الأنغام المشرقية التركية التي جاءت مع الجواري مثل (إقبال - جارية الحاج العربي بريشة) و(روزة) و(كنزة) كلهن من الشركس أحضرهن الحاج العربي بريشة من مصر عام 1295هـ، 1878م فكن يعزفن بإتقان

4-في هذه الآلة أنشد قاضي الصويرة سيدي أحمد المامون البلغيثي فقال :

<<إن رُمتَ إجلاءَ عبءَ الغَمِّ والسَّأمِ * فَرَوِّحِ الخَاطِرَ المَكْدُودَ بالنَّغَمِ
واخْتَرْ لها مُطْرِباً تَطْفُو مَشَارِبُهُ * وَخُصَّ مِنْ نَوْعِهَا (مُحَسِّنَ النَّغَمِ)
فَإِنَّهُ مُفْرَدٌ حاوٍ لِسَائِرِهَا * فَاعْجَبْ لِمُنْفَرِدٍ يُغْنِيكَ عَنْ أُمَمِ >>

والقاضي البلغيثي كان صديقا حميما للحاج عبد الكريم بنونة - عم الوالد -أيام كان هذا أمينا بالصويرة والبلغيثي قاض بها .

على مختلف الآلات كالقانون والعود والكمنجة والبيانو ويحضرن السهرات الموسيقية - وطبعا في أماكن تعد لهن إذ كان الإختلاط محرما وغير مسموح به آنذاك - التي يحييها السيد. فكان لجواري الشركس أثرهن في تطوير الغناء بين نساء تطوان من زوجات أصفياء السيد وأبنائهم مما جعل أسلوب الغناء عندنا يجمع بين الأنغام المغربية الأندلسية والأنغام الجزائرية الغرناطية والأنغام الشرقية التركية والعربية.

وكان آخر نموذج عاصره وتربى في أحضان هذه المدرسة الرسونية سيدي الوالد الحاج امحمد بنونة الذي كان يجمع بين هذه المدارس الغنائية في تلاحينه.

ترصيع النغم لصنائع القدام
لسيدي عبد السلام ابن ريسون

مراجعة وتحقيق مالك امحمد بنونة

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله

«ترصيع النغم لصنائع القدام»

تمهيد

اهتم (سيدي عبد السلام ابن ريسون - المعروف في تطاون بالسيد-) بالمدرسة الأندلسية المغربية وبالألحان التي تعزف فيها والإيقاعات التي تضبط بها وبالآلات المستعملة فيها محاولا في ذلك كله إدخال التجديد والتحسين دون إلحاق ضرر بالترات الأندلسي المغربي.

واهتمامه هذا بعث فيه فكرا خلاقا منهج به الطريقة التي تعلم المتفنن كيف يستفيد من الترات الموسقي الغني.

فألف لنا قداما منوعا بالحان مختلفة سماه << ترصيع النغم لصانع القدام - أو/ القدام >> وهو صورة نموذجية للتلحين فيه تجديد مع المحافظة على أصول المدرسة التراثية. إذ الترصيع يقتضي الجمع بين الدرر والجواهر على نسق جميل متجانس لا نشاز فيه بين ألحانه ولانفور بين فقراته كي يأخذ السامع في رحلة شيقة تطفو به فوق أمواج أنغام مختلفة تجمع بين الأصول الأمهات والفروع المتجاورات مع الاستفادة بالأنغام الدخلية على محيط الموسيقى الأندلسية المغربية مثل << رمل الماية الجزائرية >> وموحدا حركاتها بإيقاع واحد هو الميزان القدام.

فحبذا لو استفاد المتفنن المغربي من هذه المنهجية في تلاحينه .وترصيع الأنغام التراثية يعطينا بعدا جديدا في التلحين يمكننا به - حسب طريقة (السيد) - أن نصنع ترصيعا آخر لصنائع البسيط والقائم ونصف والبطاحي دون الإقتصار على القدام مع المحافظة على التجانس والإنسجام والجمالية.

ويبقى الفضل في هذا كله للبارقة الفكرية الريسونية الخلاقة.

فالنص الموسيقي الذي فقدمه بين أيديكم نص تطواني يرجع عهده إلى ما قبل عهد الحماية عاصر فترة المولى محمد بن عبد الرحمن وفترة المولى الحسن الأول . وهو نص موثوق به لانعدام حلقة مفقودة بين رواته إذ نقله - والدي - ذ. الحاج سيدي امحمد عن - جدي - الحاج العربي عن واضعه << سيدي عبد السلام ابن

ريسون >>.

فهو نص خاص وطريف لا يوجد بغير مكتبتنا - مكتبة الحاج امحمد ونجله مالك كما أنه من الناحية التاريخية لا يخرج عن موضوع هذه الندوة التي تقيمها مجموعة البحث في التاريخ المغربي الأندلسي شعبة التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة عبد المالك السعدي بتطوان -و بتعاون مع المجلس البلدي للمدينة.

لم يكن دوري مقتصرا على نقل هذا النص - ترصيع النغم .. - من كراسة والدي الحاج امحمد، بل تعداه إلى تحقيق النص بمراجعته ومقابلته مع النسخ التاريخية القديمة ومع نسخ كناش الحايك المتوفرة مع إثبات البحور الشعرية والتعريف بشعرائها والبحث عن المقابل الغنائي لصنائع الترصيع التي اعتبرتها من اختراعات << السيد>> ولا وجود لها بنسخ الحايك أو النسخ القديمة أو المقابل لصنائع أخرى تحركت مع الزمن من هذه النوبة إلى تلك أو في نفس النوبة من هذا الميزان إلى آخر . وعلى سبيل المثال فصنعه <<أسعد أخي وغنني بحديثة>> من فائية ابن الفارض المستعملة عنده في قدام رصد الذيل تعتبر من اختياراته ولا وجود لها بنسخ الحايك أو غيره ويقابلها في نفس القدام حسب اللحن وعدد الأدوار صنعة <<إني رأيت حمامة بالوادي >> كما أن كلتاهما من بحر الكامل .(انظرهامش 8).

كما أثبت مع هذا النص ما استطعت الوقوف عليه من صنائع مكتوبة بالكتابة الموسيقية - النوطة - اعتمادا على تدوينات ذ. الشامي وذ. اركاديودي لا ريا. وكل ذلك دفعني أيضا إلى مراجعة خزانتي الصوتية التراثية لاستخلاص ما يمكن جمعه من صنائع النغم معتمدا في ذلك على تسجيلات جوق الإذاعة الوطنية وجوق المعهد التطواني وجوق البريهي وجوق العربي السيار.

ونظرا لكون كل قدام له توشية موسيقية يصدر بها، وخلو ترصيع النغم لصنائع القدام من مقدمة موسيقية اتبعت طريقة (السيد) وألفت في تسجيل صوتي بين توشيات قدام النوبات المختلفة التي اختار منها (السيد) ترصيعه المذكور حتى تكون تلك التوشيات مقدمة موسيقية تعزف قبل الشروع في ترصيع النغم.

وكنت أود أن يعزف هذا الترصيع على طريقته القديمة مقتصرا على الآلات التي كانت مستعملة في وقت صاحبه أي على :

1) العود الرباعي بتسوياته المعروفة آنذاك.

2) آلة الرباب.

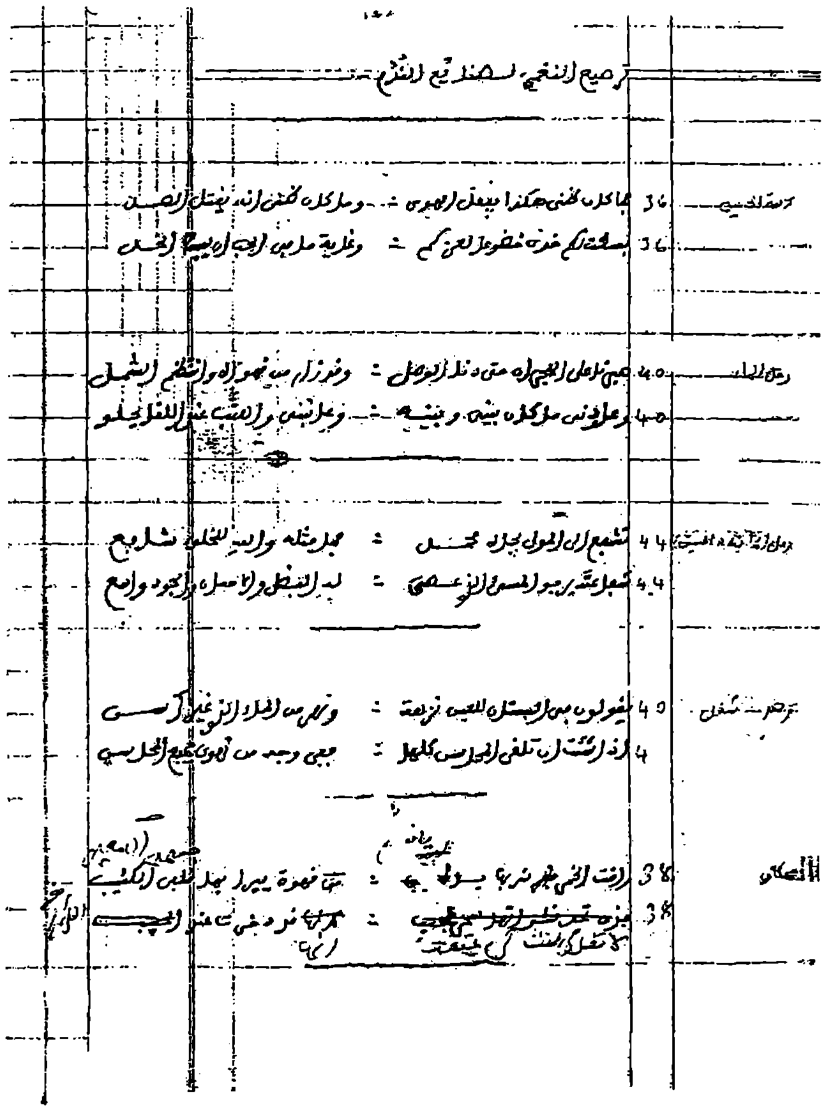
3) الكمنجة الواطية.

4) آلة القانون.

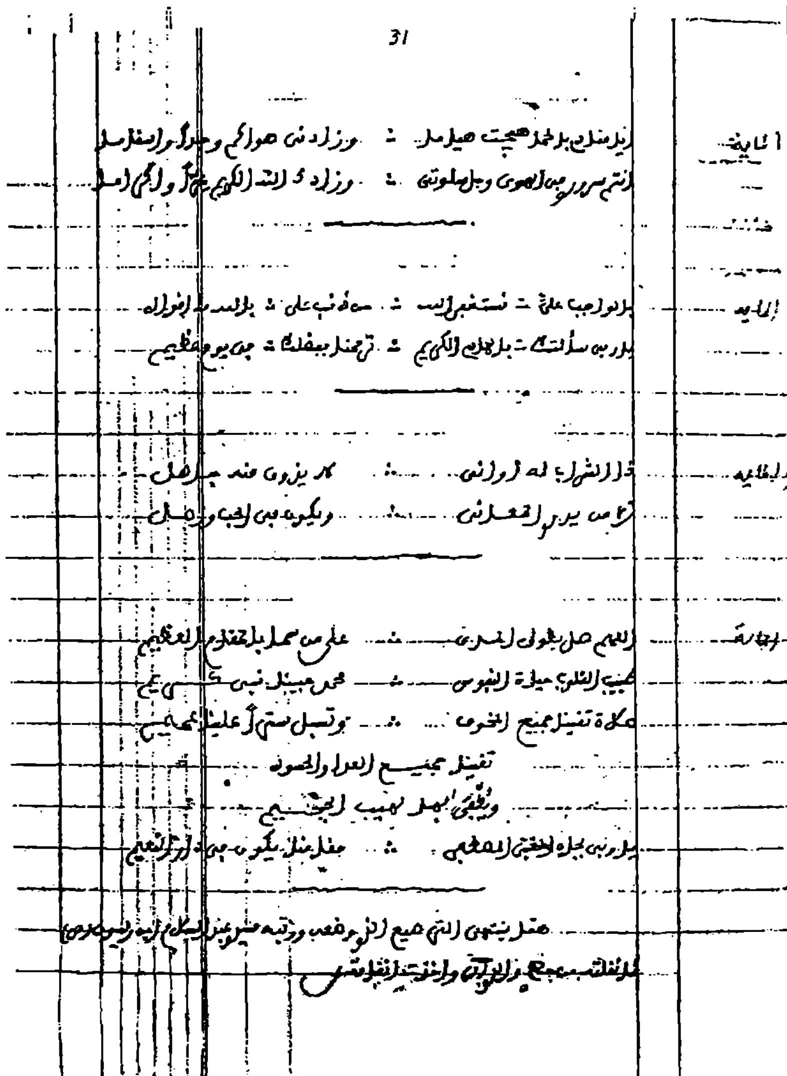
5) آلة السنتير.

6) الجناح << الهارب >>.
7) الكمبري << السويسي >>.
8) آلة البيانو.
9) آلة الناي.
11 -10) الطار أو الدربوكة.
ولكن الظروف والإمكانيات حالت دون ذلك.
والله ولي التوفيق وله الحمد والشكر.
حرر " بكرمة شيخ الجبل " بتطاون يوم 5 نوفمبر 1992م.

مالك امحمد بنونة



1) الصفحة 25 من كراسة الاغاني والاناشيد ، الاولى من : (ترصيع النغم لصنائع القدام) بخط والدي ذ. الحاج امحمد بنونة



صورة الصفحة الاخيرة من : - ترصيع النغم لصنائع الفدام

تطوان قبل الحماية / القرن التاسع عشر
ترصيع النغم لصنائع القدام

من وضع وتأليف / سيدي عبد السلام بن ريسون (ض).

(كما نقله والدي الحاج امحمد عن جدي الحاج العربي بنونة عن سيدي عبد السلام ابن ريسون)

- إخراج ومراجعة مقارنة / مالك امحمد بنونة -

1) - في نغم / غريبة الحسين [5] **طويل**

فما كان ظني هكذا يفعل الهوى ... وما كان ظني أنه يقتل الصدّ

بسطت لكم خدي خضوعا لعزكم ... وغاية ما في الحب أن يبسط الخد

2) - في نغم / رمل الماية [6] **طويل**

صبرنا على الهجران حتى دنا الوصل ... وقد زار من نهواه وانتظم الشمل [7]

وعاودني ما كان بيني وبينه ... وعاتبني والعتب عند اللقا يحلو

3) - في نغم / الحسين [8] **طويل**

تشفع إلى المولى بجاه محمد ... فما مثله والله للخلق شافع

شفاعته يرجو المسيء الذي عصى ... له الفضل والإحسان والجود واسع

4) - في نغم / الرصد [9] **طويل**

يقولون في البستان للعين نزهة ... ونهر من الماء الذي غير آسن [10]

إذا شئت أن تلقى المحاسن كلها ... ففي وجه من تهوى جميع المحاسن

5) - في نغم / الحجاز الكبير [11] **رمل**

راقت الخمر شربا يا نديم ... قهوة يبرا بها جسمي السقيم

لا تقل بنت كرم عتقت ... إنها قد ذخرت عند الكريم

5- صنعة لازالت مستعملة في قدام غريبة الحسين.

6- صنعة لازالت في قدام رمل الماية كما يستعمل بدلها من شعر أبي بكر ابن شبرين : << ألا يا محب المصطفى زد صبابة وضمخ لسان الذكر د أبا بطيبه>>...إلخ.

7- نفسه.

8- لا زالت بقدام رمل الماية وتستعمل في نغم (انقلاب الرمل) بدل نغم الحسين.

9- لا زالت بقدام الرصد.

10- البيتان من شعر أبي العلاء المعري عند النواجي في حلبة الكميت : 28ط/1.

11- لا زالت في قدام الحجاز الكبير.

6) - في نغم / رصد الذيل[12] — **كامل**

أسعد أخي وغنني بحديثه ... وانثر على سمعي حلاه وشنف[13]

يا أخت سعد من حبيب جئتني ... برسالة أديتها بتلطف

7) - في نغم / الحسين[14] — **طويل**

أصلي صلاة تملأ الأرض والسما ... على من له أعلى العلا متبوء[15]

أقيم مقاما لم يقم فيه مرسل ... وأمست له حجب الجلالة توطء

8) - في نغم / الاصبهان[16] — **خفيف**

كل صعب يهون إلا جفاكم ... فعساكم أن ترحموني ساكم

ليس يقوى على البعاد محب ... مستهام عود تموه رضاكم

9) - في نغم الاستهلال[17] — **طويل**

أخلاء من يحصي مديح محمد ... وفي مدحه كتب من الله تقرأ[18]

أيمدح من أثنى إلا له بنفسه ... عليه فكيف المدح من بعد ينشأ

10) - في نغم / الاصبهان[19] — **سريع**

قلت لليلى ما دواء السهر ... قالت وصالي في طلوع السحر

قلت وما أقصر وقت اللقا ... قالت وما أعذب ذلك القصر

قلت لقد أمرض جسمي الهوى ... قالت شفاك الله عندي الخبر

قلت ومن دلك على حالتي ... قالت على الوجه يدل الأثر

11) - في نغم/ المشرقي[20] — **توشيع/منهوك الخفيف**

يا محمد يا جوهرة عقدي ... يا هلال التمام

12-يستعمل اليوم على قياسها بحرا شعريا ولحنا صنعة :
<< إني رأيت حمامة بالوادي ... تبكي على إلفها وتنادي >>

13- البيتان من فائية ابن الفارض - ديوانه /97.

14- لا زالت مستعملة بقدام رمل الماية بنفس النغم.

15- البيتان لأبي عبد الله محمد بن رشيد البغدادي الوتري - انظر/ القصائد الوترية في مدح خير البرية أو ما يعرف بالصلاة البغدادية .

16- لا زالت مستعملة في نفس النغم والإيقاع (الميزان).

17- يستعمل اليوم على قياسها بحرا شعريا ولحنا صنعة :
(أيا معرضا عني ولست بمذنب ... بماذا تجازيني إذا كنت مذ نبا >> ...إلخ

18-البيتان من الصلاة البغدادية.

19-لا زالت مستعملة في قدام الأصبهان.

20-كذا عنده ولا ندري إن كان لحن الصنعة في نغم المشرقي الصغير المستعمل في نوبة الحجاز الكبير أو أنها نغم الحجاز المشرقي وأرجح الأول - المشرقي الصغير- لما له من علاقة بالماية الاصل.

المحبـــــة قــد هيـجــت وجــدي   وفـنـــانــــــــي الــغـــــرام

* * * * * * * * * * * * *

أنــــت أسكرتنــي على سكــــري   مـــــن لـذيــــذ الشـــــــراب
ثــــم خــاطبتنـي كــلـمـــا أدري   فــفــهــمـــــت الخـطــــــاب
ثــم شاهـــدت وجهـــك البــدري   عنــــــد رفـــــع الحـجـــــاب

* * * * * * * * * * * * *

نلـــت سؤلــــي ومنتهـــى قصـــدي   وبلغـــــــــت المــــــــرام
قـــــد شـغـفـــت بــدرة المجـــــــد   تــــــاج رســـــل كــــرام

12) - في نغم / رمل الماية الجزائرية [21] توشيح / رمل

أحمـد الهـــادي الــرســول المجتبــى   دوحـــة المجد وينبـــوع الشــرف[22]
الكريــــم الأصـــل أمـــا وأبـــــا   وعطايـــا وسجايـــا وسلـــف
هو في الآبـــــاء أعلـــى نسبــــا   وهو في الأبناء أزكـــاهـــم خلــف

* * * * * * * * * * * * * *

ابن عبـد الله نجـــل الكــــرمــا   لابسيـــن المجـــد أسنـــى ملبــس
هــم شمـــوع وبـــدور فـــي سمـــا   والـــــورى أنجمــرا فــي الغلـــس

13) - في نغم / رمل الماية الجزائرية [23] توشيح / رمل

---

21 2- تستعمل اليوم أيضا في قدام رمل الماية في نغم الحسين.

22 2-صنعة خماسية تشمل الدور بقفله من موشح لأبي العباس أحمد بن سعيد المكناسي (ت /872 هـ = 1467م) يعتبر هذا الدور آخر دور يعرف من موشحة ابن سعيد في المصادر والمراجع الأدبية. وقد عثرت على النص الكامل الموشح وعرفت به في مقالة (بدعوة الحق) - فهو تحت الطبع - انظر/ المنتقى المقصور/2 : 821 وموشحات مغربية (الجراري) : 148ظ/1 والموشحات الأندلسية (د. عنانس) : 206 رقم 88 والمستدرك على ديوان الموشحات / موشح رقم 125 (المالك بنونة - تحت الطبع . دمشق).
فابن سعيد عارض موشحة << هل درى ظبي الحمى ... >> لابن سهل وموشحه من صنف الموشح المرؤوس - حسب الاصطلاح الأندلسي أو التام حسب الاصطلاح الشرقي.

23 2-خماسية تشمل الدور السابع من موشح ابن سعيد المكناسي. والجدير بالذكر أن الدور الخامس من ذات الموشح والدور السابع هذا حافظت عليهما المصادر الغنائية دون الأدبية وهما صنعة << والذ لو وزن الخلق به ... >> في مطلع قدام رمل الماية. وصنعة << يا رسول الله يا بحر الوفى ...>> - هذه - المستعملة باتفاق النسخ القديمة والحديثة من كناش الحايك في ميزان القائم ونصف من رمل الماية وأيضا ببسيط عراق العجم - ببعض النسخ - بدل صنعة << يا عريب الحي من حي الحمى >>.

يـا رسـول اللـه يـا بحـر الوفـا   يـا شفيـع المهتـدي والمعتـــدي
إننـي إن كنـت عبـدا مسرفـا   وذنوبـي مـا لها من عــــدد
فيدي لـم تخـل منكـم وكفـى   ليـدي استمسـاكهـا بالأحمــد

* * * * * * * * * * * * * *

كن مجيري لا تواخذ ني بما   خضت فيه من قبيح الدنس
فكرام العرب تحمي كرما   مستجيرا أو مطيعا أو مسي

14) - في نغم / رمل الماية [24]   زجل موشح

مـــدح النبـــي فيـه فـائـــده   مـــدح النبـــي مـــا أحـــــلاه
ريــــق النبــــي إذا دخــــل   جــــوف العـــلـــيـــل أبــــراه
يا سعد من أمسك ، الشباك بيديه
وانطق وقال : الشفاعة يا رسول الله

15) - في نغم / رمل الماية [25]   زجل موشح

قلبي عاشــق في سيـــد الأبـــرار   والنـــوم بـــــاري
والدمع مـن عينــي كالأمطـــار   فـي خـــدي جـــاري
متى نكون لـه مــن الـــزوار   نرمــــي جمـــاري

* * * * * * * * * * * * * *

ونشـــاهـــد مقـــــام   الهـــادي الامـــام
ونقول يا رسول الله يا خير الأنام   عليـــك الســـلام

16) - في نغم / رمل المايــة [26]   زجـــل مـوشـــح

يا مدير كأس الحماية   قولوا لي بشرى هنيا   على خلع العـذار
النجوم مـع الثريـا   كلهـم شهـدو عليـا   في هواك يا قمـر
سيدي واعطف عليـا   يا طلع نجم الثـريـا   يا هلال بين البشر

17) - في نغم / بوامر الماية [27]   زجل موشح

24-لا زالت تستعمل في انصراف قدام رمل المايـة .

25- صنعة تستعمل في نغم الحمد ان في انصراف قدام رمل المايـة

26-كانت مستعملة في انصراف قدام رمل المايـة حسب نسخ الحايك القديمة واليوم في قدام لا صبهان وغريبة الحسين.

27- لا زالت مستعملة في قدام بواكر المايـة.

يا صباح مهلا　　ليش عليك تعجل عليا　　خد شواى عطلـه
نغتنـم ليلـــة　　خدها شمـس المضيـا　　في حليها تجلـــى
بتنا في ليلـه　　كـانـت ليلـة هنيـا　　ما أبدعك يا ليله

* * * * * * * * * * * * * *

وبلـغ قلبـي المعنـى مطلبـه　　وانكيـت الحسـدان فيمـا أرادوا
الذهـب الاحمـر　　غرني وعشقت لونـه　　قل لي كيف نصبر

18) - في نغم /رمل المابة الجزائرية [28] زجل / موشح - مجزء الرمل

الصبـاح انشـر علامـه　　وبـدا لونـه شـريـق
الفـجـر جـرد حسـامـه　　لونـه يشـبـه للعقيـل
الأطيـار نشـدوا وقـامـو　　زادو شـوقـا للعشيـق

* * * * * * * * * * * *

المليـح لـه عـلامـه　　الكـرم والسجيـه
سادتي ابقـوا بالسـلامـه　　والهنـا والعافيـه

19) - في نغم / رمل المابة الجزائرية [29] زجل / موشح

كم وكم يا عيني　　بالنظرة تنشبنـي　　ولا مـن يعذرنـي
نشتكي بأمـري　　للذي يعلم ما بيـا　　عـالـم السـر
هو الإله يعفو عليا

الغرام أفنانـي　　وسكن في اكناني　　والمليح سلطانـي
نشتكي بـأمري　　للذي يعلم ما بيـا　　عالـم السـر
هو الا له يعفو عليا

الله يهديك　　ويلهمك لوصالي　　ولا بـوريـك　　صدي وكره أهوالـي
عاف يالله　　من ذا الهـوى　　سحـت يـاللـه　　سحـت يـاللـه
عقلي مضى　　رد يـاللـه　　امسـي تصبـح　　صبـاح تربـح
بالفرح دايم　　والعز قايـم　　أعطف على عبدك　　وجود الدايم باللـه

28-صنعة في بسيط وقدام العشاق وقدام البواكر بالطرب الأندلسي كما تستعمل في الطرب الغرناطي في مخلص المابة .

29- صنعة مستعملة في قدام الجديد (وهو في مقام رمل المابة الجزائرية).

20) - في نغم / رمل الماية الجزائرية [30] رجل / موشح

أيا ترى ترى إن كان تعـود أيامنـا ويعـود الشمـل دانـي

أهل نغم ما قد مضى مـن فرحنـا ويعـود سبـع المثانـي

الطار والعود والرباب وشباب ما بيننا والكمنجة بنـت المثانـي

عفاكم الله

21) - في نغم / رمل الماية الجزائرية [31] خفيف

بذمام الهوى وحفـظ الـوداد إرحمـوا غربتـي وطـول انفـرادي

حفـظ اللـه ليلـة جمعتنـا نلـت فيهـا مـع الحبيـب مـرادي

صنعة تغطية

كم ليال قعتها في رضاكم جمع الله شمل تلك الليالي

22) - في نغم / رمل الماية الجزائرية [32] طويل

كلفت ببدر أنحل الجسم من هجـر وأضرم نـارا في الجوانـح والصـدر

فيما أسفا من هاجر لا يرق لـي ويا كبدي صبـرا على لهب الجمـر

23) - في نغم / الماية [33] طويل

وناديت لما أن تبدى جمالهـا لعـمـرك يا جـمـال قلبي قـاطع[34]

فسيروا على سيري فإني ضعيفكـم وراحلتي بيـن الرواحـل ضالـع

24) - في نغم / الماية [35] من شعر ملحون

أيا منادي بالحمى هيجت هيامـا وزادني هواكـم وجـدا واسقامـا

أنتم سروري في الهوى وجل سلوتي وزادكم الله الكريم عـزا وإكرامـا

25) - في نغم / الماية [36] زجل / موشح

بالواجب عليهـا نستغفـر اللـه

30- في الطرب الأندلسي تستعمل في قائم ونصف الماية.

31- البيت صنعة تغطية. في .

32- صنعة نستعملها اليوم في قدام غريبة الحسين على مقام السيكة.

33- لا زالت تستعمل في قدام الماية.

34-البيتان من قصيدة لسبط ابن الفارض.

35-لا زالت تستعمل في انصراف قدام الماية

36-لا زالت تستعمل في انصراف قدام الماية ومطلع الصنعة :<< ياشمس العشية * * ودعتك لله >>.

من ذنب عليا	بالله ما أقواه
يا ربي سألتك	بالهادي الكريم
ترحمنا بفضلك	في يوم عظيم
26) - في نغم / الماية	**زجل / موشح**
ذا الشراب له أواني	لا يذوقه من هو جاهل[37]
إلا من يدر المعاني	ويكون في الحب واصل
27) - في نغم / المايـة	**متقارب / مدرج**
اللهم صل بطول المدى	على من سما بالمقام العظيم
طبيب القلوب حياة النفوس	محمد حبيبنا نبي كريم
صلاة تقينا المخاوف	وتسبل سترا علينا عميم
تقينا جميع العدا والحسود	ويطفي بها لهيب الجحيم
يا ربي بجاه النبي المصطفى	مقامنا يكون بدار النعيم

==================

وبعده قال الأستاذ بنونة :

<< هنا ينتهي الترصيع الذي وضعه ورتبه سيدي عبد السلام ابن ريسون (ض) كما نقلته من خط والدي (ر) وأخذت أنغامه عن ... >>[38]

مصادر و مراجع

أ) - مخططات :

1) - الأغاني والأناشيد (كراسة مكتوبة بخط والدي ذ. امحمد بنونة جمع فيها حسب ذوقه مختارات من قصائد الملحون وبعض الصنائع الأندلسية ونقول من مخطوطة 1202هـ من خزانة ذ. داود بالإضافة إلى نصوص توشيحية وزجيله من تلحينه).

---

37 - من زجل موشح للعارف بالله أبي الحسن الششتري - ديوانه/354.

38 - كذا عنده دون تحديد والذي أعرفه عنه أنه كان يأخذ ويتلقى الأنغام الموسيقية الأندلسية في صغره على سيدي محمد النبخوت أحد العازفين على العود بجماعة << السيد >> فربما قصد ذلك والله أعلم.

2)- إيقاد الشموع للذة المسموع بنغمات الطبوع، مخطوطة لمجهول، ضمن (مجموع14 رقم11333 ز، الخزانة الملكية القصر الملكي، الرباط)، نسخة مصورة،- (عن أكاديمية المملكة المغربية).

3)- الروضة الغناء في أصول الغناء، لمجهول، رقم 192د. الخزانة العامة - الرباط نسخة مصورة - (عن أكاديمية المملكة المغربية).

4)- كناش /(ترتيب الاحدى عشر نوبة من الطرب الاندلي حسب خمسة وخمسين ميزانا مدحا وتغزلا) رقم 3 نسخة بخط جامعها السيد العربي السيار.

5)- مخطوطة (1202هـ)، لمجهول، وقيل للحايك وتشمل صنائع الموسيقى الاندلسية المغربية على عهد أمير المومنين سيدي محمد بن عبد الله ونجله السلطان المولى سليمان، نسخة مصورة، رقم 144، أكاديميه المملكة المغربية، عن خزانة داود، تحت الطبع، بتحقيق مالك بنونة.

===================

II) **مطبوعات :**

6) - التراث العربي المغربي الموسيقي دراسة وتنسيق وتصحيح كناش الحايك، الحاج إدريس بن جلون التويمي. الدار البيضاء/1981م.

7) - حلبة الكميت في الأدب والنوادر ، لشمس الدين النواجي ط/دار الطباعة المصرية، محرم 1276هـ : يوليوز 1859م
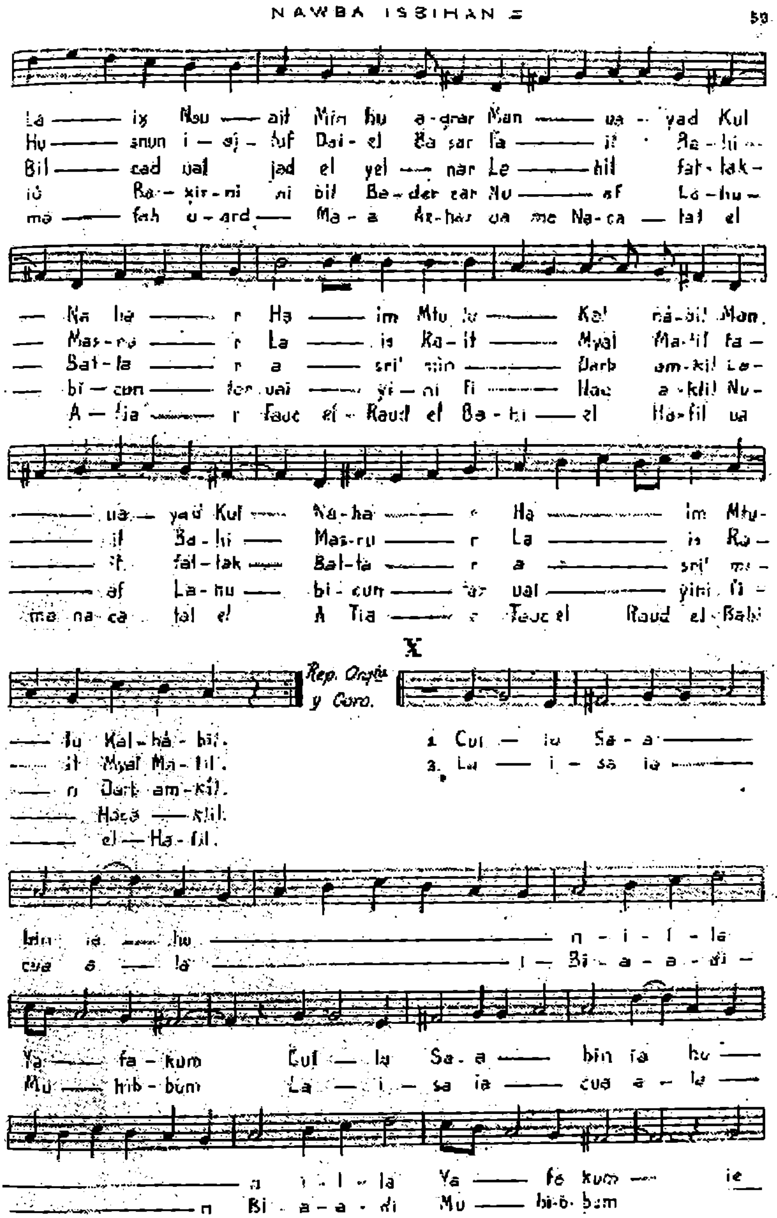
8) - ديوان ابن الفارض ط/ محمد عاطف - مكتبة القاهرة، مصر 1382هـ : 1963م

9) - ديوان الششتري ط، 1- معارف الإسكندرية، مصر/ 1960م.

10)- المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور- لأحمد بن القاضي، دراسة وتحقيق: محمد رزوق - ط/مكتبة المعارف - الرباط ش / 1986م.

11)- موشحات مغربية - د. عباس الجراري.
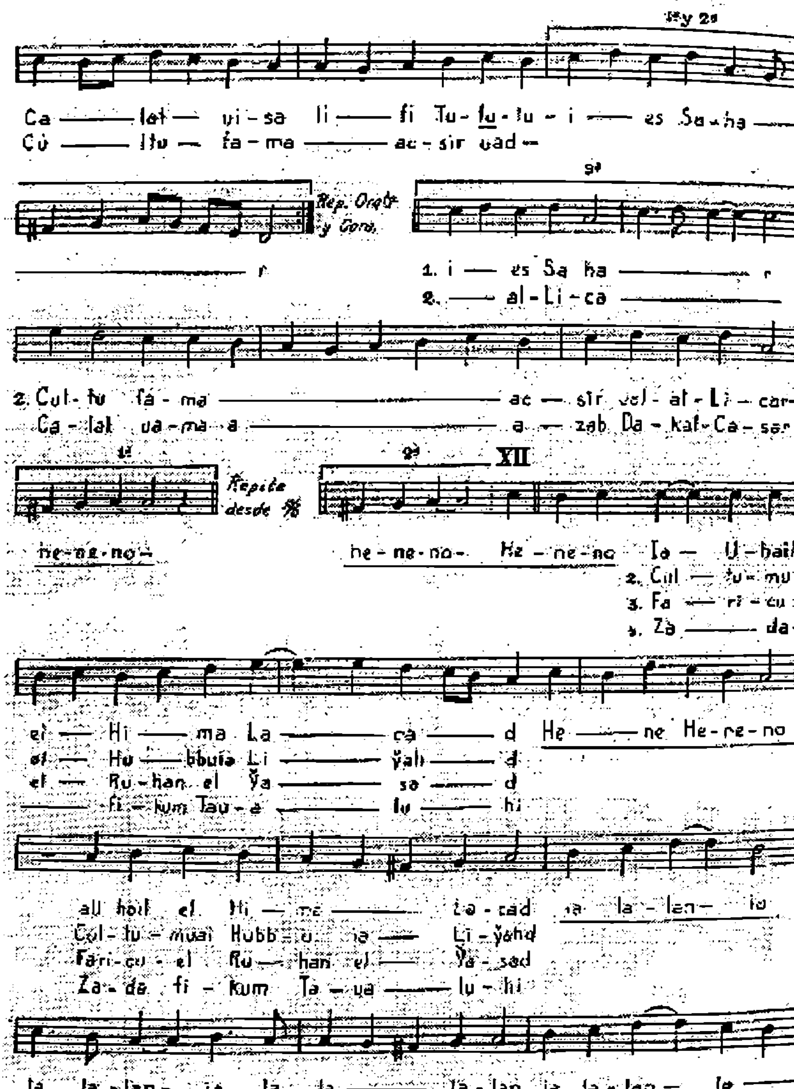
12)- ديوان الموشحات الأندلسية - د. محمد زكريا عناني.ط/2 دار نشر الثقافة - الأسكندرية، مصر س، 1986م.
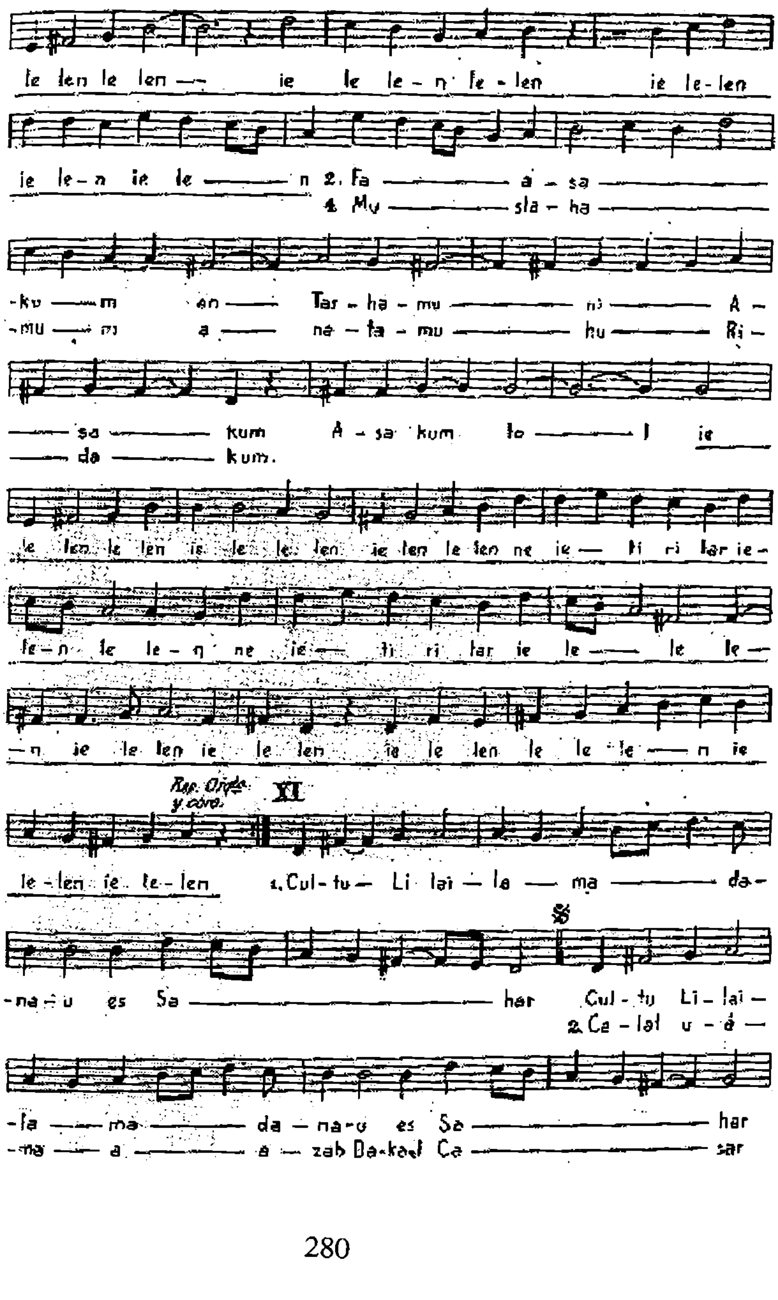


1- صنعة (كل صعب يهود إلا جفاكم) في قدام الأصبهان بالكتابة الموسيقية

- النوطة- عمل أركاديو لاري پلاثين ، عن أساتذة الطرب بالمعهد الموسيقي بتطوان

تتمة (صنعة كل صعب)




le len le len — ie le le – n le – len ie le-len
ie le – n ie le —— n 2. Fa —— a – sa ——
1. Mu —— sla – ha ——
-ku —— m an —— Tar – ha – mu —— ni —— A –
-mu —— m a —— ne – ta – mu —— hu —— Ri –
—— sa —— kum A – sa kum lo —— l ie
—— da —— kum.
le len le len ie le le len ie len le len ne ie — li ri lar ie-
le – n le le – n ne ie — li ri lar ie le —— le le —
– n ie le len ie le len ie le len le le le —— n ie
y coro.
XI
le-len ie le-len 1. Cul-tu – Li lai — la — ma —— da-
-na – u es Sa —— har Cul – tu Li – lai —
2. Ca – lal u – é —
– la —— ma —— da – na-u es Sa —— har
– na —— a —— a — zab Da-kal Ca —— sar
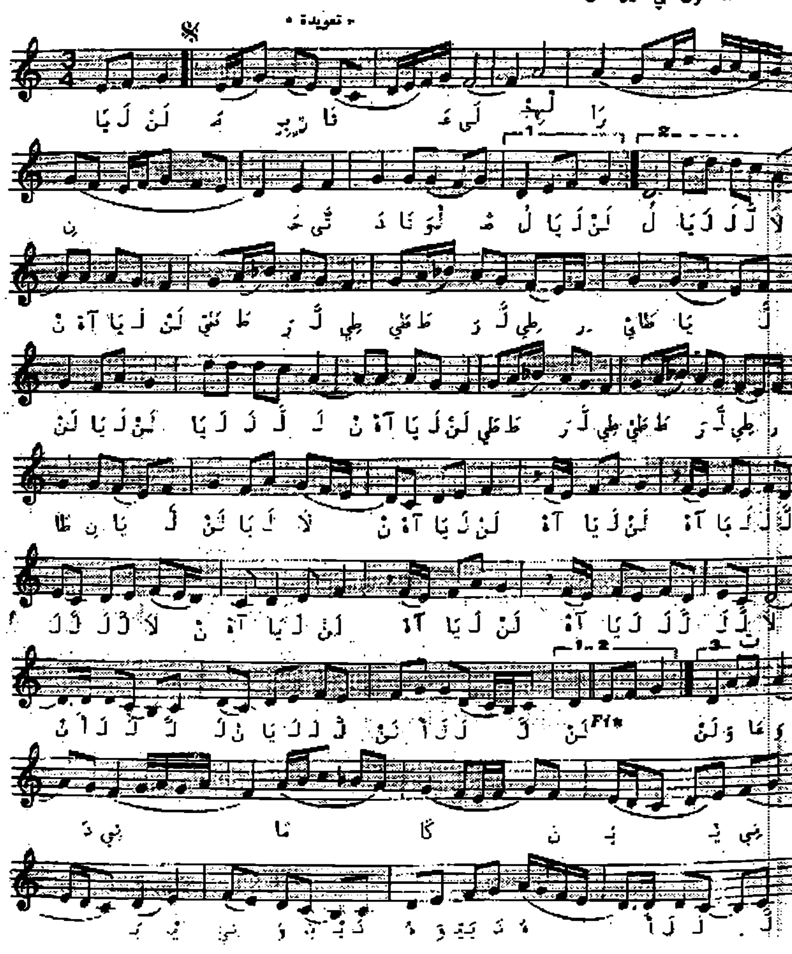
صَـــبرنا على الهجران

صَبَرْنَا عَلَى الْهِجْرَانِ حَتَّى دَنَا الْوَصْلُ		وَقَدْ زَارَ مَنْ نَهْوَاهُ وَانْتَظَمَ الشَّمْلُ (١)
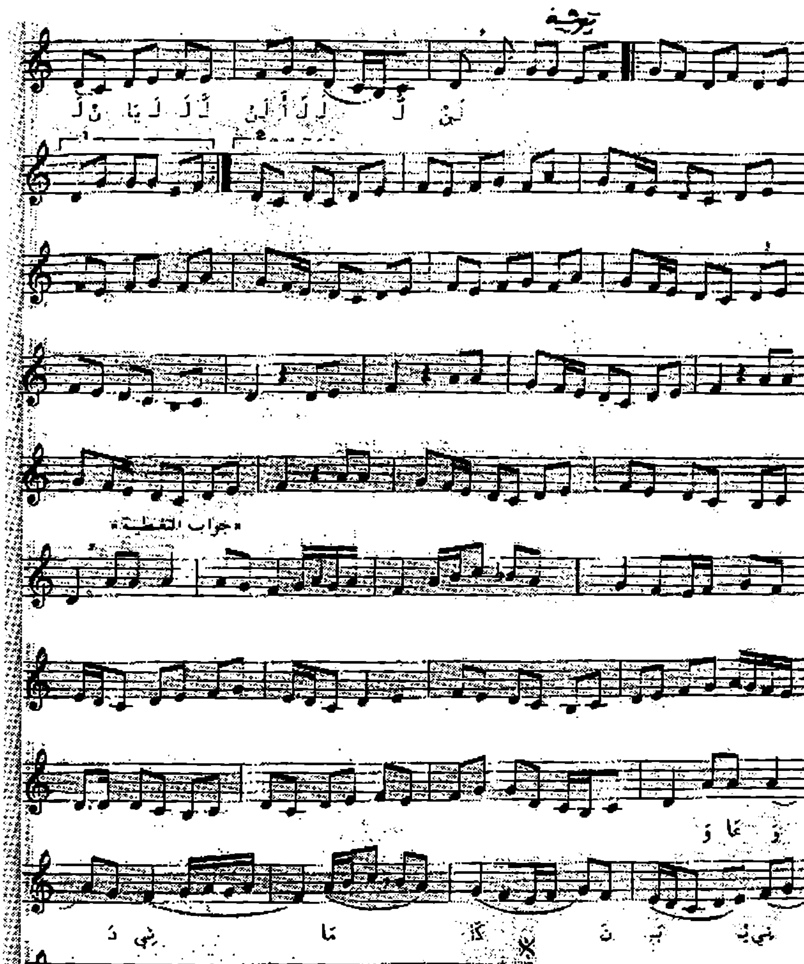
ت/ وَعَاوَدَنِي مَا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ		وَيَعْجِبُنِي وَالْعَتْبُ عِنْدَ اللِّقَا يَحْلُو

طبع رمل الماية.

الدخول في الميزان من السكتة.		Andantino ♩ = 69



(١) أغلبهم يستعمل اليوم في قدام رمل الماية صنعة (ألا يا محب المصطفى) من شعر ابن شيرين.



تشــب

ابريل

تَشَفَّعْ إِلَى الْمَوْلَى بِجَاهِ مُحَمَّدٍ   فَمَا مِثْلُهُ وَاللَّهِ لِلْخَلْقِ شَافِعُ
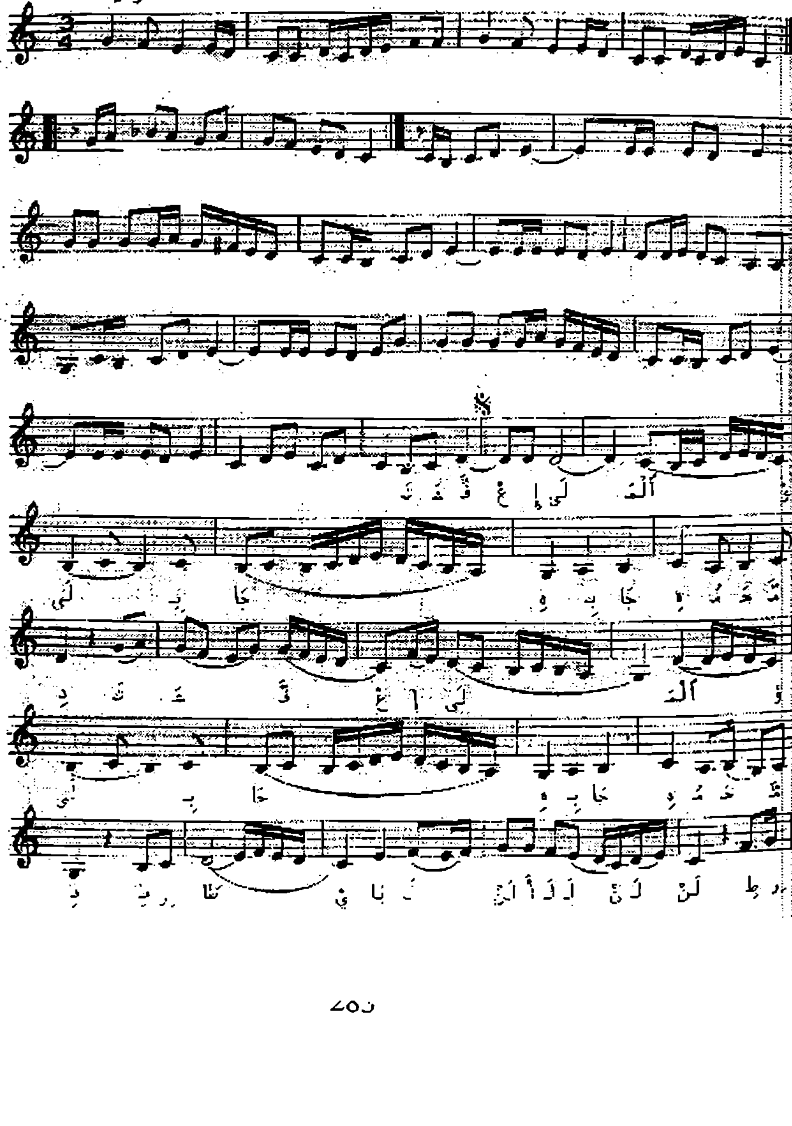
شَفَاعَتَهُ يَرْجُو الْمُسِيءُ الَّذِي عَصَى   لَهُ الْفَضْلُ وَالْإِحْسَانُ وَالْجُودُ الْوَاسِعُ

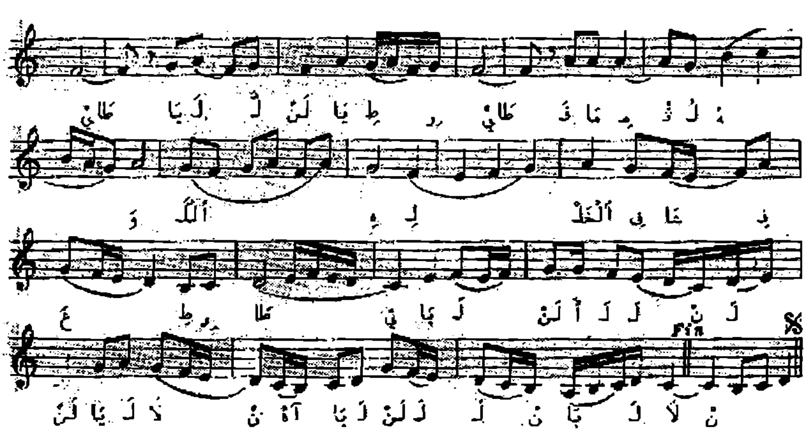
الطبع: غامض.   محي طبع الحسين ...

يبدأ الغناء من السكتة.

Andante ♩ = 60

توشية




Fin

أصلي
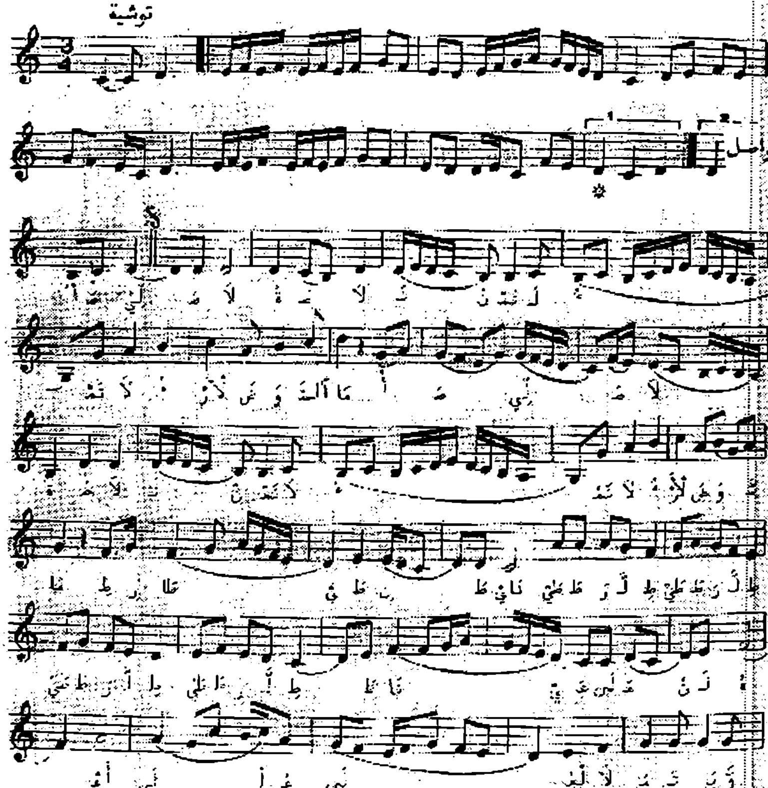
طويل

أصلي صلاة تملأ الأرض والسما   على من له أغنى العلا متبوأ (1)
أقيم مقاما لم يقم فيه مرسل   وأمست له حجب الجلالة تطوى

الطبع: غامض
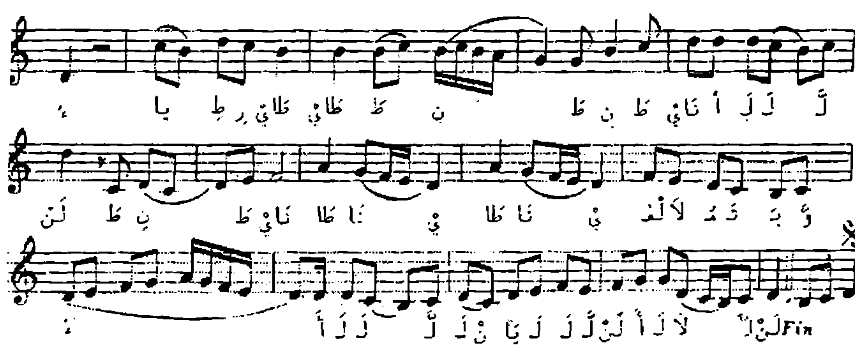
Andante ♩=63

يبدأ الغناء من البكتة



* عند الوصول إلى درجة الدوكاه (ري) يعاد أداء التوشية من أولها رغم الخلل الذي يقع في الميزان.

1) من الصلاة البغدادية.
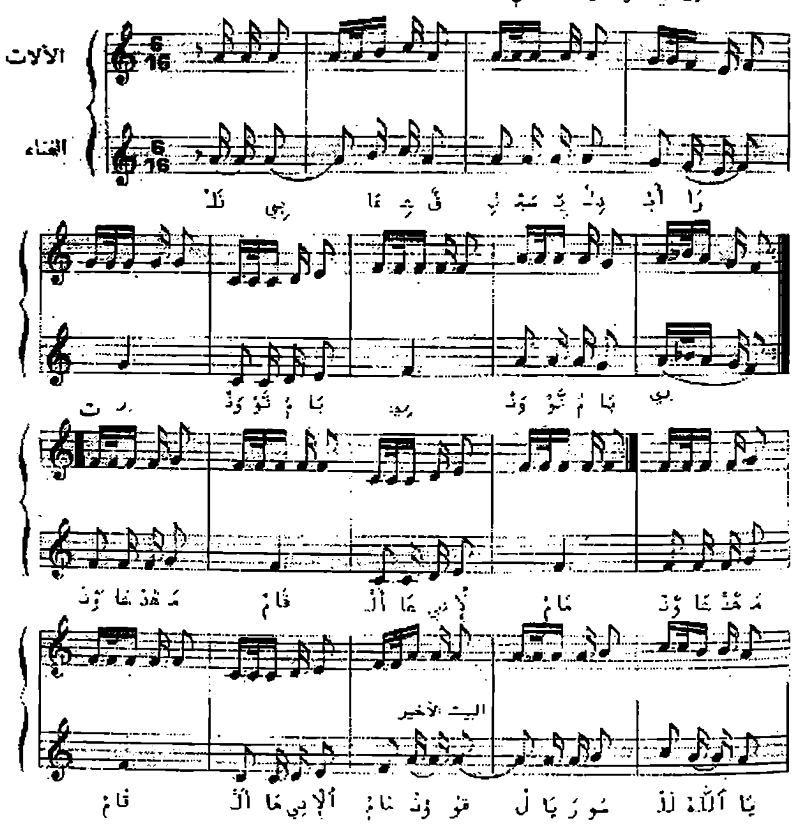

Fin

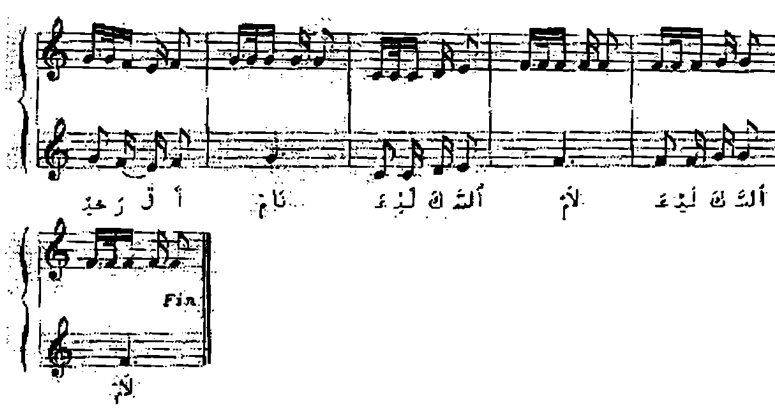
قلبي عاشق

قَلْبِي عَاشِقٌ لِسَيِّدِ الأَبْرَارِ   وَالنَّـــوْمُ بَارِي
الدَّمْعُ مِنْ عَيْنِي كَالأَمْطَـارِ   عَلَى خَدِّي جَارِي
مَتَى نَكُونُ لَهُ مِنَ الزُّوَّارِ   نَرْمِـــي جِمَارِي
ت/ وَنُشَاهِدُ مَقَامَ الْهَادِي الإِمَامْ
وَنَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَا خَيْرَ الأَنَامْ
عَلَيْكَ السَّـلامْ

ملحم حمدان.

Moderato ♪ = 88   الدخول في الميزان من الثلث الثاني.




Fin

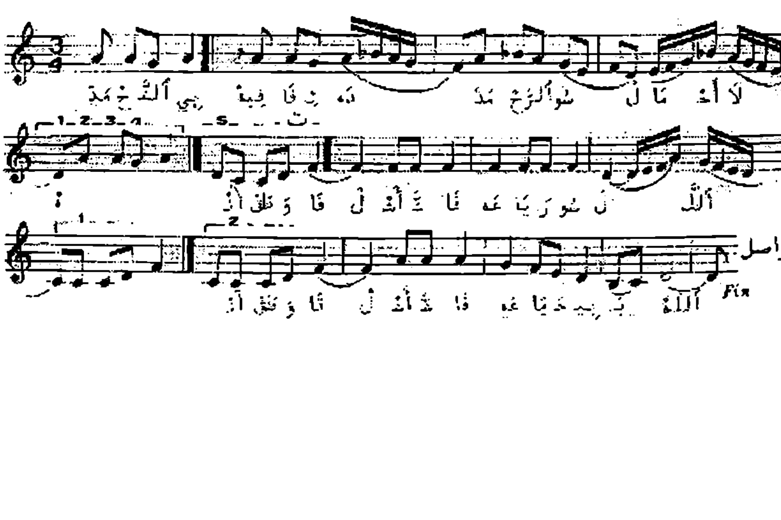
مَدح النَّبي

مَدْحْ ٱلنَّبِي فِيهْ فَائِدَةْ   مَدْحْ ٱلنَّبِي مَا أَحْلَاهْ
رِيقْ ٱلْحَبِيبْ إِذَا نْزَلْ   جُوفْ ٱلْعَلِيلْ أَبْرَاهْ
سَعْدْ ٱلَّذِي شَبَّاكَهْ   تْمَسَّكْتْ بِهْ بْدَاهْ
ت/ انْطَقْ وَقَالْ: ٱلشَّفَاعَةْ يَا حْبِيبْ ٱللَّهْ

طبع رمل الماية.

الدخول في الميزان من نصف الزمن الثاني للدم

Moderato ♩ = 80



من قدام رصد الذيل — تدوين الاستاذ الشامي
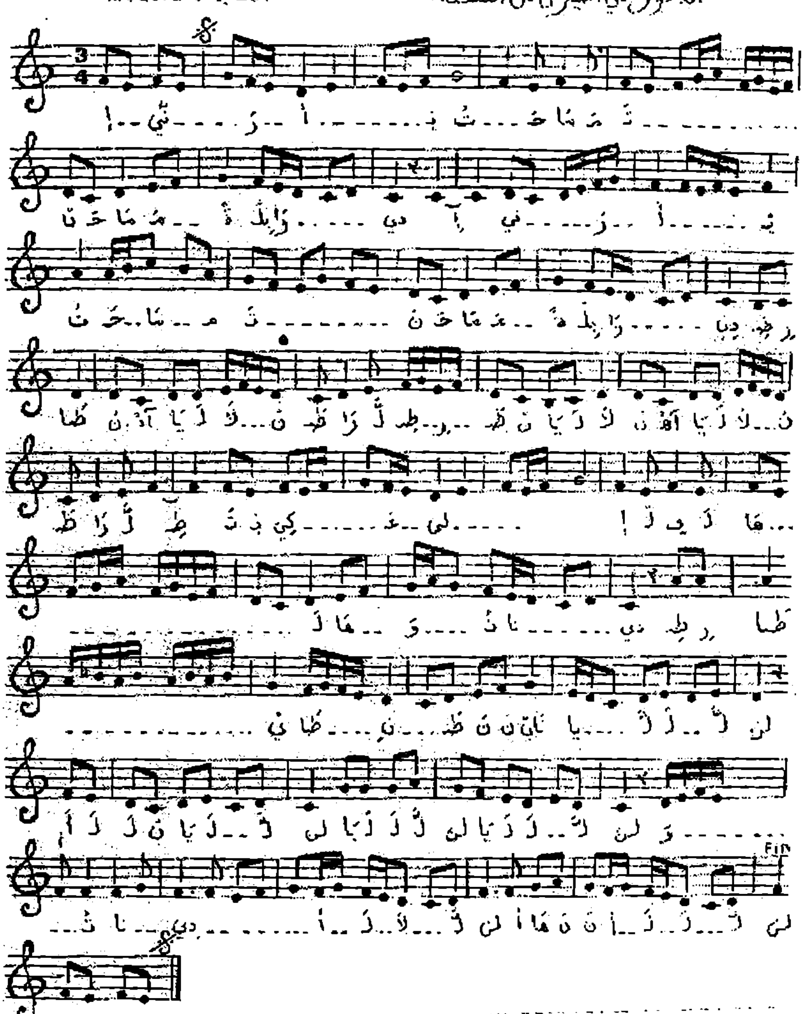
إني رأيت حمامة

كامل

إنّي رأيتُ حمامةً بالوادي — تبكي على إلفٍ لها وتنادي (1)

وهي تقول علق الهوى بفؤادي — فارقتُ حِبّي وبغيتي ومرادي

Moderato ♩=64 — الدخول في الميزان من السكتة



1) الصنعة تعتبر المقابل لما استعمل في (ترصيع النغم) في نغم رصد الذيل

انظر : / منه وهامش 8 و 9

الكلمة الختامية

ألقاها: الأستاذ عبد الحي بنيس

بسم الله الرحمن الرحيم
السادة الأساتذة الأجلاء
الإخوان الطلبة
أيها الحضور الكريم

انتهت ندوة " تطوان قبل الحماية (1860-1912)" التي تأتي كاستمرار للندوة التي كانت مجموعتنا، مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي، قد نظمتها خلال السنة الماضية.

ولقد تميزت هذه الندوة كما لاحظ ذلك المتتبعون لجلساتها بتنوع مواضيع المداخلات وطبيعة طرحها. وهكذا تطرقت المواضيع المعالجة في الندوة إلى جوانب متعددة، فمنها من تناول دراسة المدينة خلال فترة زمنية امتدت على ما يناهز نصف قرن من الزمن، أبرز من خلالها المتناظرون أهمية القضايا المتعلقة بمدينة تطوان على المستويين المحلي والإقليمي وكذلك على المستويين الوطني والدولي.

هذا وقد انصرفت مداخلات أخرى إلى الإهتمام بالوثيقة كأداة للكشف عما شاب تاريخ المدينة من غموض سياسيا وإقتصاديا وإجتماعيا ودينيا.

وقد أكد الباحثون في هذا الصدد على ضرورة الإعتناء بدراسة ونشر الكميات الهامة من الوثائق والمخطوطات التي هي في ملكية بعض الأسر التطوانية العريقة ، والتي من شأنها إنماء البحث التاريخي للمدينة، كما كانت بعض المؤلفات موضوعا للتحليل والدراسة.

وبالإضافة إلى هذه المداخلات اهتم باحثون آخرون بالجانب الثقافي والأدبي وكذلك الفني للمدينة خلال المرحلة المدروسة ، الأمر الذي أثرى محاور الندوة.

وتجدر الإشارة إلى أنه من العوامل التي ساهمت في إنجاح ندوتنا هذه، مشاركة مجموعة من الأساتذة الباحثين الأجلاء مغاربة وأجانب الذين لبوا دعوة حضور هذه الندوة متجشمين مشاق السفر والتنقل فإلى هؤلاء نتقدم بشكرنا وامتناننا.

إن تعاون المجلس البلدي لمدينة تطوان مع "مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي "بكلية الآداب بتطوان قد أعطى نتائجه الإيجابية، لذا فإن مجموعتنا

تتقدم بكامل الشكر والتقدير لأعضائه لما قدموه من مساعدات مادية ومعنوية لإنجاح هذه التظاهرة العلمية.

كما تتقدم المجموعة للسيد عميد جامعة عبد المالك السعدي الدكتور محمد القبلي بالشكر الجزيل على ما أولاه للندوة من العناية والتشجيع. كما نوجه أيضا شكرنا للسيد قيدوم كلية الآداب بتطوان الدكتور محمد الكتاني على مابذله من مجهودات لإنجاح الندوة.

ولا يفوتنا أن ننوه بما بذله موظفو وأعوان الكلية من تضحيات طيلة أيام الندوة.

وإلى رجال الصحافة أيضا نتوجه بالشكر الجزيل على حسن تغطيتهم لأعمال الندوة.

ونجد لزاما علينا التنويه بمجهودات زميلنا الأستاذ الدكتور امحمد بن عبود التي بيذلها لتشجيع البحث العلمي في إطار المجموعة وداخل الشعبة .

وفي الختام نعد الحضور الكريم أن مجموعتنا عازمة على مواصلة دراسة تاريخ مدينة تطوان قبل سنة 1860 في إطار ندوات أخرى بحول الله، وشكرا والسلام عليكم ورحمة الله .

SOMMAIRE

La crise économique de Tétouan dans la seconde moitié du XIXème siècle

Dr. Jean. Louis Miège
Université de Provence

Le déclin de Tétouan dans la deuxième moitié du XIXème siècle est avéré. Tous les consuls de Tanger le constatent, tous les voyageurs, et, après eux, les études consacrées à la ville. Au-delà de cette unanimité les divergences apparaissent dans l'analyse des causes de cette décadence.

Crise de structure, liée aux lentes mais profondes transformations du Maroc sous l'impact européen, accru entre 1844 et 1856 ?

Crise de conjoncture, événementielle, conséquence de la guerre de 1859-1860, de l'occupation espagnole et des bouleversements sociaux qu'elle entraîne ?

Le dossier mérite d'être repris et reétudié en fonction de sources nouvelles,[1] en particulier celles liées à l'activité maritime du port .[2]

La perte par Tétouan de son rôle diplomatique, après le retrait des consuls européens en 1770 [3] et le début de la concurrence maritime de Tanger au commencement du XIXème siècle [4] n'avaient qu'assez peu affecté l'activité de la ville.

Elle s'était même accrue un temps, dans les années 1830-1845, à la suite de l'intervention française en Algérie. Tétouan était devenue le centre principal de l'important commerce d'armes et de munitions alimentant la résistance algérienne, et tout particulièrement l'émir Abd al Qader qui y avait établi ses principaux agents de liaison avec

---

1 Sur la vie maritime de Tétouan au XVIIIème siècle, v, J.L. Miège, **Les activités maritimes commerciales de Tétouan,** Faculté de Tétouan, 1992.

2 Parmi ces sources les principales sont aux archives Diplomatiques de Nantes (ADN) et celles fournies par M. Dawud, **Tarikh Titwan**, Tétouan, 1959, sq. Pour les données maritimes v. J.L.Miège, **Histoire maritime et Histoire du Maroc,** in **Le Maroc et l'Atlantique**, Rabat, Faculté des Lettres, 1993 .

3 D'ordre du Sultan Moulay Abdallah .

4 Sur ce premier essor de Tanger, J.L.Miège, **L'activité maritime à Tanger dans la première moitié du XIXème siècle,** in **Actes du Colloque Tanger, 1800-1956**, Rabat, 1991,p.65.

l'étranger [5]. Nombreux étaient les algériens à y avoir trouvé refuge, apportant avec eux des capitaux et leur habileté artisanale, surtout dans les métiers du textile jamais aussi florissants .[6]

Port de Fès et, par la redistribution par la capitale du sud - est marocain de l'Algérie, occidentale, port d'escale de la "caravane" et du pèlerinage, industrieuse, Tétouan demeurait, au milieu du siècle, le deuxième ou le troisième port de l'empire, après Mogador, et parfois Rabat. Dans une géographie commerciale simple c'était l'emporium du nord, comme les deux autres les pôles de négoce du centre et du sud .[7]

Tétouan assure alors 10 et 15 % des échanges maritimes du Maroc, avec, chaque année, un large excédent des importations sur les exportations, (v. tableau annexe).

Cependant déjà apparaissent les premiers signes d'un relatif déclin à la veille du milieu du siècle.

Un déclin structurel annoncé

Le déclin est d'abord maritime. La navigation commence de décroître dans les années 1822-1830. Les difficultés d'accès du Rio Martil, souvent mises en cause, n'ont pas encore un rôle déterminant,[8]

---

5 Sur ce trafic de nombreuses dépêches dans ADN A 150 1839 et 1840, v. également la presse française de l'époque, le Sémaphore, le Journal de Toulouse? Bon récit d'un acteur Scott, **A Journal of a Resistance in the ...**, Londres, 1842, séjour à Tétouan en février 1841.

6 Sur ces Algériens ADN A 135, Tanger 11/10/1830. Leur nombre fut très diversement estimé : de 300 à 2 000. Le premier chiffre pourrait concerner le nombre de familles.
Sur leur rôle dans cet artisanat, v. A.Joly, L'industrie à Tétouan . Les industries textiles et celles du vêtement, in Archives marocaines, vol XVII, pp.80-151.

7 Ils ne restèrent pas tous dans la ville, où leur nombre diminua rapidement, ADN Ar 77, Tanger 15/4/1844. Vingts ans plus tard le consul général Bourré, se rendant à Tétouan, n'en estimait plus le nombre qu'à 20 ou 30 familles dont 4 seulement eurent la protection française.

8 Bonne description des conditions nautiques du Rio Martil dans le rapport du commandant Geoffoy du Meteor in ANP BB / 642, Toulon 9/1/1846L Voir aussi Carta de la costa N. de Marruecos desde las Islas Chefarinas a Ceuta, Madrid, 1860, Deposito Hidrografico, n° 262 .

les techniques maritimes n'ont guère varié depuis le XVIIIème siècle et, pas plus, la nature des navires. Mais trois atouts sont enlevés à Tétouan d'être le port de relâche de la course, le principal port du pèlerinage, le port de la caravane.

La course disparaît définitivement en 1828-1830. Le port de Tétouan reçut, en 1828, deux des dernières prises algériennes.[9] La capture d'un navire autrichien, emmené à Larache, l'arraisonnement de deux bâtiments anglais marquèrent la fin d'une activité maritime séculaire .[10] Avec elle disparut ce qui restait des ateliers de réparation navale. Les petites embarcations marocaines se réduisent à une douzaine.[11]

Les pouvoirs donnés par le sultan Sidi Mohammed aux consuls européens de Tanger " d'être en tout maîtres et gestionnaires des quarantaines maritimes '1821" [12] leur assura un véritable contrôle du pèlerinage, favorisant Tanger en place de Tétouan. Les arrivées de pélerins y continuèrent, certes, mais moins fréquentes que jadis et le plus souvent comme étape vers ou de Tanger.[13]

La caravane maritime se meurt. Le développement des ports d'entrepôt en Méditerranée, de Gibraltar à Malte et à Syra,[14] rend inutile une activité naguère essentielle pour les ports maghrébins et dont Tétouan avait été un des principaux chaînons. Le nombre de navires touchant le port peut rester sensiblement le même, ils sont de plus en plus petits. Les felouques, misticks, chebecs faisant l'intercourse avec

---

9 Des trois navires français pris par les Algériens un fut conduit à Larache, les deux autres à Tétouan. L'affaire nourrit jusqu'en 1832 le contenticux franco-marocain. La récupération des cargaisons des navires de Tétouan par "un syndicat " Marseillais contribua fortement à la reprise des affaires de Marseille avec le Maroc (mission Rey).

10 Sur ces évènements, v. J.L. Miège, Chronique de Tanger 1820-1830, le journal de Ben Delaq, Rabat, éd. La Porte, 1993 .

11 D'après le **Gibraltar Chronicle** du 8/2/1833.

12 Lettre de Moulay Sliman, mai 1821. Peu après le sultan reconnut l'organisation des consuls en corps consulaire. Celui-ci se donna un règlement avec une présidence tournante, mensuelle, et la garde des archives par le consul des Etats Unis.

13 Sur ces arrivées, v. ADN A 153/1 Tétouan 12/8/1847; Tétouan 8/ 1848 etc..

14 Sur cet âge des ports d'entrepôt v. J.L. Miège, in Les îles méditerranéennes, Marseille, 1981.3

Gibraltar et les petits havres de la côte orientale l'emportent sur brigandins, bricks ou goelettes de la navigation hauturière .[15]

Il vient encore quelques navires de Marseille, de Barcelone ou de Gênes (c'est-à-dire de la Méditerranée), mais de moins en moins nombreux. Ceux jadis venus de l'Ouest, Cadix, Lisbonne ou Londres, disparaissent quasi complètement. L'aire d'activité du port se réduit. L'axe méridien Gibraltar-Tétouan (Fès) s'impose au détriment du faisceau déployé dans tous les horizons.

La fonction de port de la capitale reste toutefois encore sans véritable dans le nord - ouest du pays. Elle explique le maintien du commerce à un niveau relativement élevé mais avec un déséquilibre croissant. Sans véritable hinterland apte à lui fournir les produits d'exportation, Tétouan vend de moins en moins si elle achète de plus en plus.[16] L'évolution, sensible à partir de 1840, se lit à la fois dans l'écart entre la valeur des sorties et celle des entrées, qui va de 1,5 à 3, et dans l'ampleur des apports du numéraire nécessaire pour combler le déficit de la balance commerciale. Tétouan est ainsi la première " place financière" du royaume, contrôlant la majeure partie du mouvement des fonds avec l'Europe.[17]

L'activité marchande avec Fès, le maintien d'un solide artisanat, masquent pendant deux décennies la gravité des prémices d'un déclin structurel.

Ce "capitalisme marchand" tétouanais, encore dynamique, est affecté, entre 1845 et 1847, par deux faits d'essence politique. En fin 1845 le sultan donne ordre à quatre des principaux commerçants de la ville Ahmed Molin, Mohammed Brisha, Abdeslam el Lebbadi, Kudour ben Attar) de transférer leurs opérations à Mogador, qu'il entend relever des effets des cruels évènements de 1844 .[18] Peu après, le

---

[15] Dans les années 1835/ 1845 de 25 à 30 % des navires expédiés de Gibraltar au Maroc les ont à destination de Tétouan, v. Gibraltar Chronicle. Sur l'évolution du tonnage v. annexe.

[16] V. annexe.

[17] L'ordre est accompagné d'une importante avance financière (100.000 piastres fortes). Sur l'affaire v. notamment la longue dépêche de

[18] L'émotion fut considérable à Tétouan à l'annonce de sa capture.

fructueux trafic avec Abd el Qader s'éteint avec les difficultés croissantes de l'émir et enfin sa reddition .[19]

La crise se révèle dans les années 1850-1858 au rythme de la libération du commerce entreprise par Moulay Abderrahmane .[20] Dans cette décennie décisive l'écart se creuse entre Tétouan et les autres ports marocains. Les chiffres absolus masquent la réalité profonde. Le commerce de la ville tend en effet à s'accroître, mais beaucoup moins amplement que celui des autres places maritimes et ce progrès masque un déclin relatif important. Sa part dans l'ensemble du commerce maritime tombe à 5 ou 6 % .

Le Consul de Grande-Bretagne, John D. Hay, note justement, dès 1857, que "les conséquences de la libération des échanges ne s'y font sentir que dans une très faible mesure" .[21] De fait, si le commerce extérieur du Maroc s'accroit de 150 % dans la période, celui de Tétouan ne s'accroit que de 50 % et le port passe du deuxième au troisième ou quatrième rang .[22]

Les transformations dans les relations maritimes du Maroc avec l'Europe, qui s'affirment à la même époque, ne sont plus désormais étrangères à ce relatif délaissement. Les premiers vapeurs apparus sur la côte tendent à privilégier les ports à rade au détriment des ports d'estuaire. D'une façon générale ces vapeurs sont beaucoup plus capables que les voiliers. Les défauts de la baie de Tétouan et de l'embouchure du rio Martil deviennent de plus en plus dissuasifs à une période où s'imposent aux navires les impératifs de rapidité des opérations par l'augmentation du coût des surstaries.

Le Consul d'Italie à Tanger le constatait dès la fin de 1852, donnant comme cause du relatif marasme de Tétouan, " les difficultés d'approche du rio Martil pour des navires plus grands et la concurrence

---

19 Politique qui débouche sur le traité "libre échangiste" de décembre 1856. Sur cette évolution v. J.L.Miège, Le Maroc et L'Europe, t.3 ; L'ouverture, 1962.

20 Accounts and papers, 1858, Report on Tétouan 1857, James D. Hay, fils du consul du Royaume Uni à Tanger, fut vice consul à Tétouan de 1856 à la guerre . Il y avait remplacé Butler qui y avait représenté la Grande Bretagne pendant plus de 25 ans

21 Accounts and Papers, Commercial reports on Tétouan in 1857.

22 AER P 263 Tanger 17/12/1852.

(par suite)- de Tanger ".[23] En 1857 seuls les navires de moins de 30 tx pouvaient passer la barre de la rivière. A cette date le tonnage moyen des navires fréquentant le Maroc dépassait 90 tx (V. annexe).

Seul l'artisanat échappe à la crise latente. Il est comme partout, mais de façon plus nette qu'ailleurs - stimulé par le nouveau cours des affaires.[24] Cependant il se nourrit de plus en plus de matières premières importées. La production locale ne parvient pas à satisfaire la demande. Cette distorsion pose le grand problème des rapports entre la ville et la campagne proche ou plus lointaine.

Pour autant qu'elles soient crédibles, les estimations de la population enregistrent à la fois ce relatif essor et sa médiocrité. Le nombre d'habitants s'est accru, mais à un rythme plus lent que dans les autres villes de côte (v. annexe).

A la veille du conflit avec l'Espagne la cité conservait cependant toute l'apparence de son éclat passé. Le port gardait place parmi les principaux du Royaume. Tétouan continuait d'être considéré, après Fès, comme " la ville la plus importante du Maroc et certainement la plus aristocratique " .

Le choc de la guerre 1859 - 1862

La guerre avec l'Espagne suscite, à l'automne de 1859, une profonde émotion dans la ville. Il ne fait aucun doute qu'elle sera le premier objectif des troupes espagnoles .[25] Les commerçants juifs sont les premiers à en craindre les suites. Ils quittent brusquement et massivement la ville pour se réfugier à Gibraltar pour la plupart, à Oran pour un moindre nombre .[26] Le conflit et le blocus de la cité par la flotte espagnole arrête tout commerce maritime [27].

---

23 Sur ce regain général prélude à la grande crise des dernières décennies du siècle, v. J.L. Miège, Document inédits sur l'artisanat : Rabat - Salé au milieu du XIXè siècle", in Bulletin Economique et Social du Maroc, 1959, no.82,pp.173-183.

24 ANS Gibraltar 5/2/1860.

25 La guerre éclata en octobre 1859. L'armée espagnole attendait les renforts d'Espagne autour de Ceuta et n'entra vraiment en campagne qu'au début de 1860.

26 Sur cette "émigration de la peur" Vilan, J.B. , Tetuan en el resurgimiento judío contemporaneo (1850 - 1870) Aproximacion a la Historia del judaismo Norteafricano, Caracas, 1983 . En recoupant les différents sources on peut estimer les nombres des départs à quelques 4 500 à 5 000 pour Gibraltar, peut-être près d'un

Les troupes marocaines, avant d'abandonner la ville, la ravagent. Les témoignages divergent quant à l'ampleur des destructions et saccages, mais concordent pour constater que la majeure partie de la population l'avait quittée.[28]

L'occupation espagnole entraîne d'immédiates conséquences économiques.[29] Le petit négoce s'enrichit du trafic avec les troupes, encore que ce fut moins le commerce local qui en profita que la foule des mercantiles européens accourus dans les fourgons de l'armée espagnole .[30]

La franchise du port décrétée par Madrid ayant supprimé tout contrôle douanier, il est impossible d'en évaluer l'effet sur le mouvement commercial général. Si des témoignages attestent de la poursuite de la contrebande vers les pays du Rif, toutes les transactions avec l'arrière - pays profond furent interrompues.

Il n'y eut pas que le commerce de grand rayon à être affecté. Les troupes qui campaient dans le riche Haouz malmenèrent les jardins, ravagèrent les champs.[31] L'arboriculture souffre particulièrement, les

---

millier vers l'Algérie, 600 en Espagne dont 320 à Algésiras, une centaine pour Lisbonne. Au total environ 7000 juifs émigrant des différents ports de la cité marocaine.

27 Le port du Rio Martil fut bombardé par la flotte française de l'amiral Romain de Fosses le 26/11/1859, après que le navire Saint Louis en eut essuyé une salve de canon.

28 Les sources européennes insistent toutes, longuement, sur ces exactions, vols et destructions, A.D.N. Gibraltar 15 Gibraltar 12.2.1860, Gibraltar 9. 4. 1860; A.N.S. Gibraltar 24/2/1860 " l'habitation du vice - consul anglais seule a été respectée", A.E.R . p 230 Tanger 1/2/1862. Certains rapports affirment que toute la population est partie à très peu d'exception près"; A.D.N. Gibraltar 15, Gibraltar 8/4/1860 ; d'autres parlent de la "majorité", A.D.N. rapport cité, ou d'une " grande partie ", F.O.L. Tanger 1/2/ 1862.

29 Les Espagnols entrèrent dans la ville le 6 février 1860. Ils l'occupèrent plus de deux ans et l'évacuèrent le 2 mai 1862.

30 Chauchar, capit., Espagne et Maroc. Campagne de 1859 - 1860, Paris, 1862, p. 312.

31 Sur la richesse du Haouz avant 1860, F. O.L. 99/77 Tétouan 10/2/1857, rapport du v.c. J. Hay avec des indications précises et intéressantes, en particulier sur le développement récent de la culture de la pomme de terre, les champs de coton, les mûriers, v.

arbres alimentant les feux de camp. La tradition, confirmée par les rapports de l'époque, fait remonter à cette époque la quasi disparition des mûriers et de la sericiculture qui avaient, jusque là, contribué en partie à alimenter l'importante industrie de la soierie [32].

Il est incontestable que les évènements de 1859 - 1862 ont brisé le dynamisme tétouanais. Intervenant dans une période de difficultés structurelles, ils ont aggravé et ont brusquement accéléré une évolution désormais inexorable. Les Espagnols ont laissé une partie de la ville (maisons, mosquées et magasins) en triste état [33].

Les effets de la guerre se prolongent, au-delà de la réoccupation marocaine de la ville. Le premier est d'ordre humain et financier, avec la mutation de la population juive. Nombre de réfugiés ne sont pas revenus. Ils sont restées à Gibraltar ou en Algérie [34].

L'école de l'Alliance Israélite Universelle, ouverte en octobre 1862, accentue le clivage entre les communautés qu'avait suscité la guerre.[35] L'instruction de type européen favorise l'émigration, vers l'Europe, l'Algérie, l'Amérique du sud, des éléments les plus

---

également T. de Cuevas, op. cit.; p. 75.

32 J.L. Miège, **Soie et soieries au Maroc au XIXè siècle in Marseille sur les routes de la soie, Marseille,** 1993, actes du colloque de mai 1992..

33 Un long rapport de l'agent consulaire de France, Nahon, qui avait reprit son poste le 12 mai 1860, en dresse un tableau accablant, sans doute poussé au noir par son hispanophobie, A.D.N. 151/2 Tanger 1/5/1862.

34 A.D.N. BB4 / 736 Malaga rapport du consul de France de mai 1862.

35 Sur les sentiments opposés face à l'occupation espagnole v. emancipacion de los judios de Marruecos Tetuán 1860 - 1862 in Cuadernos de la Biblioteca Española de Tetuan, n° 13/14, 1976. L'hispanophobie de la communauté est exagérée jusqu'à la caricature dans les travaux de Meme Leibovici. L'attitude très critique de Nahon par exemple dément cette unanimité.
Laroui, reprenant Harthman, F., Spanish Campaign in Morocco, Londres, 1860, p. 252, note justement : "Les incidents de Tétouan jouèrent un rôle capital dans le divorce entre les deux groupes ethniques. Les juifs montrèrent nettement qu'ils préféraient voir la ville rester espagnole pour toujours ", p. 300.

En fait nombre de juifs continuèrent de penser que leur destin restait lié à celui du Maroc. Le clivage est interne à la communauté.

entreprenants. Nombre de commerçants juifs transfèrent leur activité principale à Tanger alors en plein essor.[36]

La diminution du chiffre de la population juive de souche tétouanaise, attestée par toutes les sources, s'accompagne de l'immigration de juifs de l'intérieur, plus pauvres et moins ouverts sur le monde.[37]

Tableau. Emigration des anciens élèves AIU de Tétouan entre 1862 et 1869

Structure en 1879		
Sont inconnus	30,	sont décédés 24
Restent à Tétouan	120	
Installés ailleurs au Maroc	24	
Emigrés à Ceuta et Melilla	18	
Emigrés en Europe	46	
Emigrés en Algérie	95	238
Emigrés en Afrique	4	
Emigrés en Asie	1	
Emigrés situation inconnue	50	
Total général	412	dont 387 survivants

L'artisanat semble être le secteur qui se ressaisit le plus rapidement, celui aussi qui demeure un temps, le moins affecté par la crise. Un rapport très détaillé du vice - consul Mahon le montre, ayant dès juillet 1863, retrouvé toutes ses capacités de production. Sur les 186 établissements manufacturiers existant 184 sont en activité, utilisant 92 métiers et employant 721 ouvriers (cf. annexe). Les fabriques d'armes sont les plus actives.

---

[36] On note une dizaine d'installations. Sur l'origine tétouanaise de nombre des grandes familles juives de Tanger, **Times of Morocco,** 22/3/1890, **The Jewish Community of Tangier**.

[37] Les données démographiques concernant la communauté juive sont à partir de 1862 - 1863 , plus sûres grâce aux rapports réguliers adressés aux dirigeants de l'Alliance Israélite Universelle, v. Bulletin de l'A.I.U.
Sur l'historique de ces mouvements bon rapport de Nahon qui constate que "face à l'émigration de nouveaux éléments rétrogrades arrivent sans cesse" du Rif et de Chaouen, Bulletin A.I.U., n° 30, 1905, p. 108 sq.

Un déclin structurel accéléré 1863 - 1880 .

Le marasme du commerce, quant à lui, perdure et tend à s'aggraver, les exportations ne rapportent en moyenne que la moitié de celles d'avant guerre. Les importations stagnent. Tous les rapports s'accordent, de 1863 à 1867, sur les trois causes de la décadence : accroissement des difficultés de navigation, concurrence des ports de l'ouest, et surtout des places espagnoles de Ceuta et Melilla.

Quelle est la part de ces trois facteurs ?

Les relevés d'entrées et de sorties des navires dans la rivière révèlent une brutale et importante diminution de leur tonnage moyen d'environ 30 tonnes, dans les années 1850 - 1855, à 20 tonneaux pour la période 1862 - 1866 (v. annexe). Les rapports constatent ce changement, sans en donner d'explication satisfaisante. Certains incriminent le rapide ensablement de l'estuaire. Le consul d'Espagne indique, en février 1866, que " depuis quelques temps le sable s'accumule à l'embouchure, diminuant chaque jour le fond de la barre " en rendant responsables les naufrages de barques à proximité.[38] On peut, plus justement, y voir l'effet de l'alluvionnement dû à l'érosion accrue à la suite de l'importante déforestation.

Cette mutation apparaît surtout aux transformations du commerce maritime qui se fait de moins en moins en droiture depuis les grands ports méditerranéens mais par le truchement de Gibraltar et grâce à l'entremise d'un grand nombre de petits navires, le plus souvent tétouanais, mais immatriculés dans le port anglais .[39]

38' A. E. M. Tanger Leg. 1838 Transmettant un important rapport du consul d'Espagne à Tétouan, J. De Amoos y Sousa, Tétouan 8.2.1866 ; " Sur la situation commerciale de la ville pendant l'année 1865.

39 Le fait qui apparaît bien dans les avis maritimes du **Gibraltar Chronicle** est signalé dans tous les rapports : F.O.L. 99/ 125, Commercial fréquentent toute l'année le port ; Ibidem, rapport pour 1865 du v. c. Green, p. green, p. 157, "Les petits bateaux qui sont constamment en mouvement entre les deux places ; A. E. R. p 210 Tanger 15.10.1866 le consul d'Italie "Relazione sulla citta'di Tetuan, " l'activité de l'intercourse entre Gibraltar et cette ville". A.E.M. Ta,ger leg. 1638 rapport de Amores y Sousa" de Gibraltar vient la totalité des produits utilisés ici" Les seuls navires venus en droiture d'autres ports européens sont quelques bâtiments anglais, sur l'est, arrivant de Cirk pour charger du liège.

A.E.M. Rapport de sousa Tanger 12.2.166.

Corollaire de cette réduction de l'aire commerciale la concurrence des autres ports du nord-ouest marocain est la conséquence la plus durable de la période 1859-1862 . Les meilleures conditions du port de Tanger et les lignes de vapeur qui s'y sont établies depuis la guerre avec Gibraltar, Marseille, Oran, et les ports de la côte ouest ont entraîné la plus aisée. Des négociants juifs, et des plus notables, vont s'y installer.

Le même constat peut être fait pour Larache, de plus en plus port de Fès.

La concurrence la plus souvent dénoncée, encore qu'elle n'apparaisse pas aussi forte, est celle des présides espagnoles de Ceuta et Melilla...[40] Les deux places avaient été déclarées ports francs en mai 1863 par le gouvernement espagnol en contre - mesure de l'évacuation de Tétouan.[41] La mesure eut des effets immédiats à travers le commerce de contrebande. Les constats des consuls anglais se répètent année après année. Dès 1863 Green écrit " Tétouan était antérieurement le marché pour le Rif de tous les produits européens. Maintenant que Melilla est devenue une place de commerce aussi bien qu'une garnison les Riffains ont cessé de fréquenter Tétouan. La ville espagnole n'est pas seulement mieux située mais offre des avantages financiers aux acheteurs...[42] ".

En 1864 il constate que " le libre commerce très actif avec la garnison de Ceuta" se fait au détriment de Tétouan, gêné en outre par les mesures prises par le nouveau gouverneur qui, "dans l'espoir de ramener les Riffains à la raison a établi une sorte de blocus de leurs produits" .[43] En 1865 le consul d'Italie renchérit : " Tétouan était avant 1860 le dépôt des affaires ... cet avantage a totalement disparu au profit de Melilla".[44]

---

40 Décret royal du 8 mai, publié dans la Gazette officielle le 20 Mai sur le retentissement de cette nouvelle à Tétouan et Tanger A.E.R. p. 210 Tanger 12.5.1863. On y vit le désir "de détruire l'importance commerciale de Gibraltar". La place anglaise elle ne s'en émut pas et le Gibraltar glos avec humour sur "les vanités commerciales " de l'espagne.

41 F.O.L. Commercial reports, Tetuan en 1863.

42 Ibidem Tetuan en 1864. Sur les origines du développement commercial de Ceuta v. Ceuta puerto commercial, in Revista de Geografia commercial, Madrid, 188, T.3, p. 30 sq.

43 A.E.R. rapport cité.

44 A.E.M. XB 1639 Tanger 13.4. 1890 : Historique du commerce de Melilla depuis 1863.

Les commerçants fassis, craignant de perdre leur rôle traditionnel de redistributeurs, s'étaient fermement opposés à la légalisation marocaine de ce négoce.[45] Il fallut attendre 1861 pour que le commerce légal entre les places et l'arrière pays fut instauré par l'établissement d'un poste de douane marocain aux limites de Melilla.[46] Le coup fut d'abord durement ressenti à Tétouan. Un certain nombre de négociants de la ville allèrent aussitôt s'installer dans le préside,[47] sans tout les succès qu'ils en attendaient. Les fréquents incidents avec les autorités espagnoles entravent leurs affaires et la plupart n'y restèrent pas.

En 1872 / 1873 la douane marocaine ne rapporte au Makhzen que 439 mitqals et 20 onces, soit 1,5 % de la recette fournie par celle de Tanger pour la même année et qui dépassait 28 582 mitqals .[48]

Cependant, lentement, le rôle commercial de Melilla s'affermit. La population s'accroissait (v. annexe). A partir de 1881 la création d'un service régulier de vapeurs avec Malaga ouvrait une étape décisive .[49] Tétouan avait perdu une grande partie de son rôle national avec la croissance de Larache et surtout de Tanger. Elle devait abandonner désormais aussi une notable aire de son influence régionale .

Son artisanat affecté,[50] ses fabriques célèbres et actives de fusils sont concurrencées par l'actif commerce des armes européennes ,[51] les filatures par la raréfaction de la matière première locale et l'invasion des produits étrangers.

---

45 Accord de Fès du 30 juillet 1866. en fait le système ne fonctionna vraiment qu'à partir de février 1867.

46 F.O.L. Commercial report pour 1867, Rapport de Green sur le commerce de Tétouan en 1866, p. 315.

47 add no 50

48 El Wataïq , n° 3 doc. 455, pp. 400 - 401, lettre de Moulay Hassan du 14.10.1873. Sur toute cette offensive commerciale espagnole dans le Maroc, F. Zïm, Le Maroc et son espace méditerranéen, Rabat, 1990.

49 Sur ce développement après 180 v; Los presidios en Africa, in Revista de geografia colonial, 3.10.1885 et Boletin de la soc. geo, Madrid, 1893.

50 Sur cet artisanat l'œuvre classique de A. Joly, op. Cit. L'Etude remarquable au point de vue technique ethnologique est malheureusement courte dans le domaine économique et indigente au point de vue historique.

51 La contrebande des armes prit une extension considérable dans les années 1870-1880. v. Kenbib, M. "Contrebande d'armes et "anarchi

La crise, mûrie durant près d'un demi - siècle, brusquement accélérée avec l'occupation espagnole, est désormais ouverte. La suppression de la plupart des consulats (celui de France en 1866, celui du Royaume Uni en1869) en est le premier signe latent.

La décennie 1870 - 1880 enregistre le déclin décisif du port, passé au dernier rang des ports marocains . Il n'assure plus alors, suivant les années, que de 1,5 à 2 % du commerce maritime du pays.

Ce demi - siècle d'histoire de Tétouan offre un cas remarquable d'imbrication de facteurs d'évolution et de l'impact d'une conjoncture politique (la guerre et l'occupation de 1859-1862) sur une structure économique en lente évolution (les rapports commerciaux et maritimes avec l'Europe) dont elle hâte le processus de dégradation.

Dans les années 1880, au moment où va s'ouvrir la "question marocaine", Tétouan, définitivement déclassée dans le domaine économique se réfugie dans le rôle de centre intellectuel et de pôle de résistance aux bouleversements qui menacent le pays. Les voyageurs qui la parcourent alors, en cette fin du siècle y ressentent un charme nostalgique, reflet du rêve d'al Andalus et nostalgie des temps évanouis de l'ancienne prospérité.

Sources

1 - Archives diplomatiques de Nantes A. D. N .
Archives du ministère français des Affaires étrangères A.E.P.
Archives de la Chambre de Commerce de Marseille C.C.M.
Archives nationales de France, A.N.P.
Archives du ministère italien des Affaires étrangères A.E.PR.
Archives nationales de Suède A.N.S.
Archives du ministère belge des Affaires étrangères, A.E.B.
Archives du Forein Office , F.OL.
Archives de la légation des Etats - Unis A.L.T.
Archives du ministère espagnol des Affaires étrangères A.EE.M.

2 - Presse

Corriere Mercantile, Gênes .
Gibraltar Chronicle, Gibraltar.
Sémaphore, Marseille.
Times of Morocco.

3 - Ouvrages

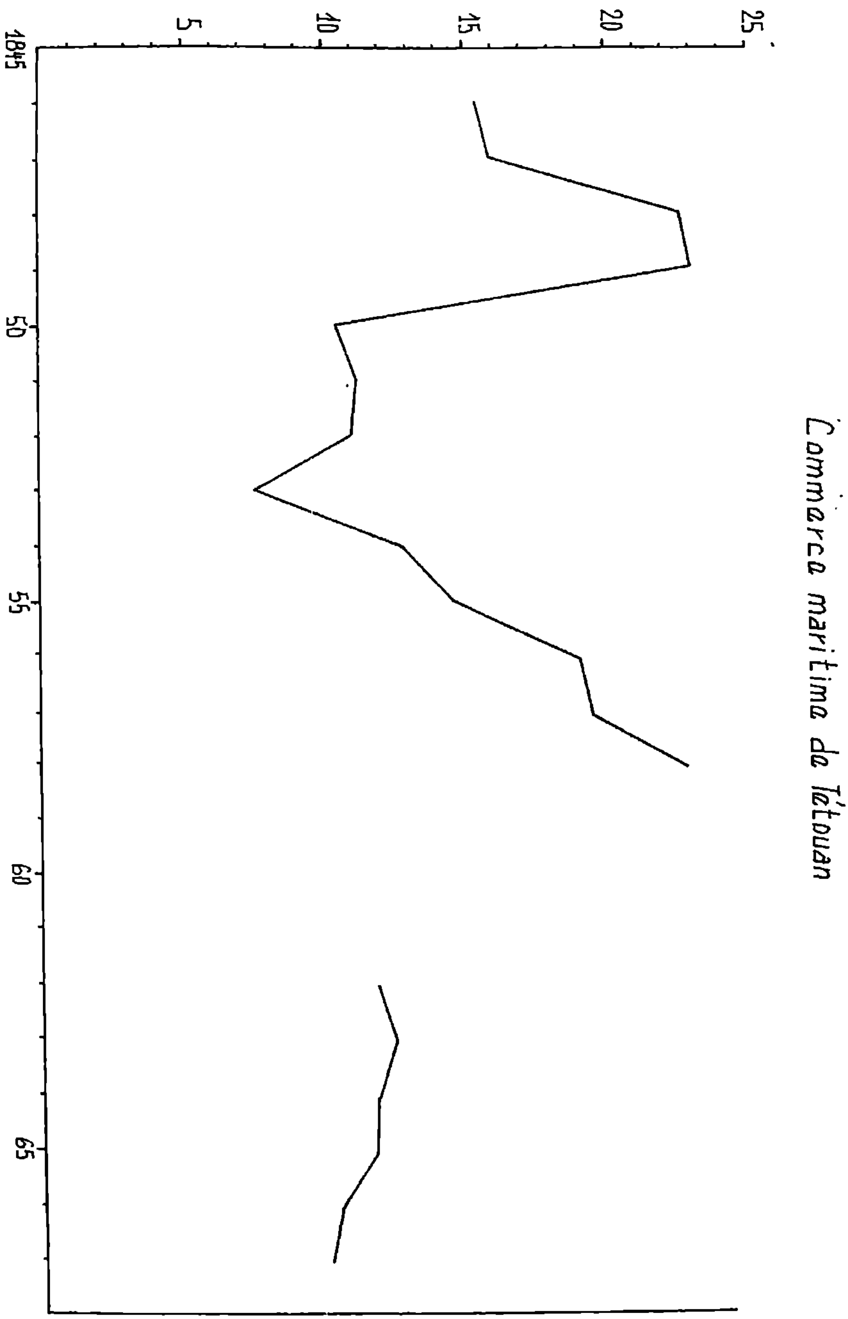
Les ouvrages et articles utilisés ont été indiqués, avec leur référence en note.

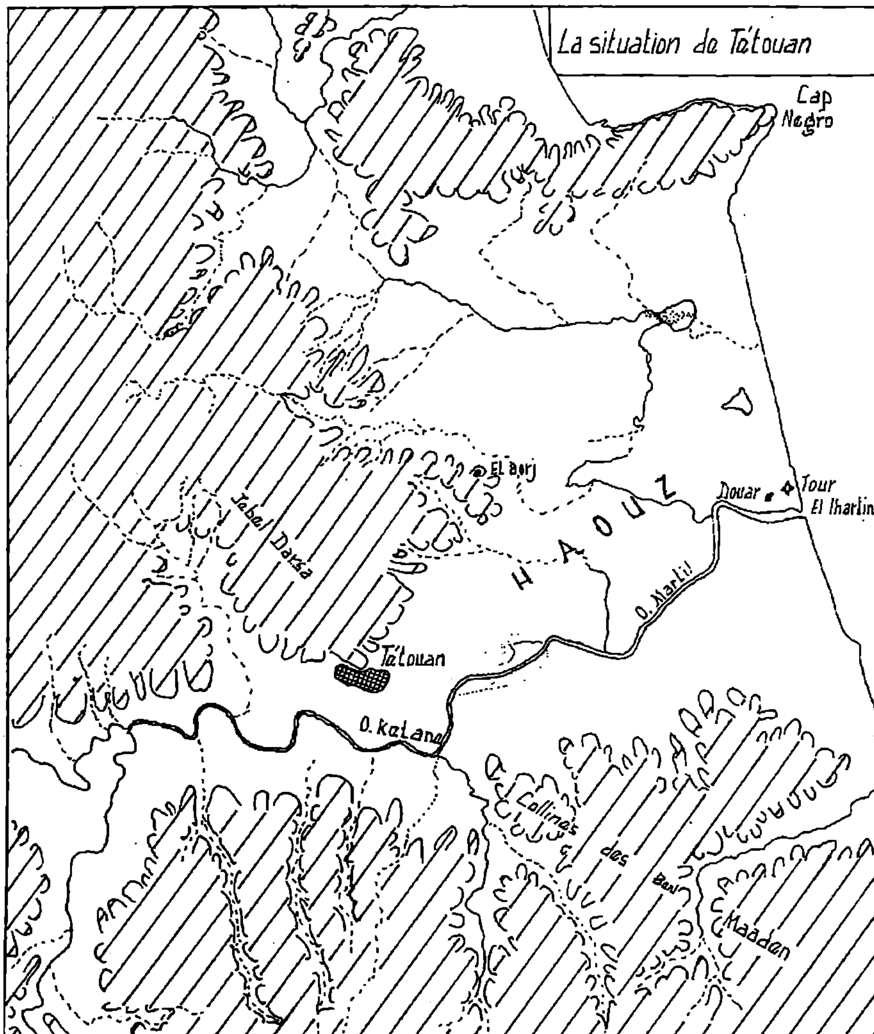
I - Estimation de la population de Tétouan

	Total	dont Musulmans	juifs	Européens	source
1823	16 500	12 000	4 200		Groberg
1844	18 000	13 200	4 800		Didier
1845	22 500	15 000	7 500		CI de Frce ADN
1856	30 000	20 000	10 000		v.c. Hay
1859	32 500	22 000	10 500		Hartmann,AER,ANS
1866	18 500	11 000	7 500	175	AER
1878	25 000	19 000	6 000		Couring
1883	25 000	19 000	6 000		De Foucault
1885	25 000	19 000	6 000		AEB
1889	30 000	23 000	7 000		Noth Africa Mision
1895	22 000	16 000	6 000	291	de Cuevas
1904	30 000	21 000	8 500	400	Déchaud

Légende de tableau I

1 - Graberg de Hemsoe, J. Specchio Geografico e statistico dell' Imperio di Morocco, Gênes, I 832 .
2 - Didier, C. promenades au Maroc, Paris, I 844 .
3 - Consul de France à Tanger, ADN A I 5 I / I .
4 - Vice - Cosul J. Hay, Account and Papers, I 857 ? Tétouan I 0.2.I 857 ;
Report on the District and Town of Tetuan and of its Agricultural produce
5 - Hartman, F. The Spanish Campain in Morocco, Londres, I 860,
A. E. R. Rapport du consul général à Tanger, I 0.2.I 862.
A.N.S.Rapport du consul de Suéde, Gibraltar I 4. 2. I 860,6-A-E.R.
7 - Conring A. Von, Marokko das Land und die Leute, Berlin, 1880.
8 - De Foucault, C. Reconnaissance au Maroc en 1883 - 1884, Paris, 1888.
9 - A.E.B. Rapport du consul.
10 - North Africa, 4. 1889, p. 256, rapport de Summers, missionaire.
11 - Cuevas, T. de, A pûntes para la Historia de Tetuán.
12 - Déchaud, e., Rapport de mission au Maroc, 1905.


Commerce maritime de Tétouan
25
20
15
10
5
1845
50
55
60
65



La situation de Tétouan
Cap
Negro
El borj
Jabal Darsa
H A O U Z
Douar
Tour
El Iharlina
O. Martil
Tétouan
O. keLana
Collines des Beni Maâden

Navires entrés à Tétouan 1830 1866

	Moyenne	Tonnage	Tonnage	Maroc
1830	annuelle	moyen	moyen	
1840	1835	32	36,5	77
1850	1845	78	32	21
1862	1855	110	30	89
1870	1866	117	20	101

L'écart passe de 1 a 2 à 1 a 5 ..

COMMERCE MARITIME À TETOUAN (1845-1866)

Année	Importations	Exportations	Total	% Maroc
1846	1042318	525357		11
1847	1068053	536371	1604424	11,5
1848	1229439	459135	22825994	15,5
1849	1497000	800000	2297000	12,5
1850	522758	516758	1039512	6
1851	617203	508100	1125303	8
1852			1100000	5,5
1853 (1)	476225	288000	764225	5,4
1854	99993025	299350	1292775	7,5
1855	1152260	304825	1457085	4,2
1856			1900000	3,8
1857			1919962	4
1858	1685425	611952	2296870	4
1859	Guerre et	Occupation espagnole		
1861	guerre et	Occupation espagnole		
1862 (2)	1084215	122825	1977050	2,5
1863	279600	518200	1497800	3
1864	774752	448750	1223500	2,5
1865	815500	377750	1223500	2,1
1866			1193250	2,8

1) Les navires ne sont pas inclus.

2) Pour 2 mois seulement.

Principales industries de Tétouan pendant le 1 er trimestre 1863.

		Nombres des établissements		Production		Machines ou métiers employés	Nombre d'ouvriers	Salaire par journée
		existants	en activité	en qualités	en valeurs	3 métiers	2	
Filatures de	Lin et chanure	1	1	3000	1500	2	2	4 Réaux
	coton	2	1	1000	500	2	2	3
	tissus de laine	14	14	120	1800	28	28	7
	ceintures de société et or	4	4	115	3300	4	8	15
	cire en pain	2	2	50 q	1700	2 machines	3	3
	espringarde et sabres	91	91	3000 fusils et sabres	18000	"	530	de 10 à 3
	sacs	91	91	"	"	"	"	" "
	savon	2	2	400 q x	2000	"	4	4
	tanneries et corroieries	2	1	1400	27000	"	45	de 2 à 5
	poteries	2	2	500 lots	125	"	6	
	Briqueries	2	2	3000 briques	42	"	9	de 4 à 5
	Corderies	5	5	1000 k	1500	3 métiers	14	4
	Sparteries	11	11	4500 tapis	900	"	22	de 5 à 6
Moulins à eau	en ville	2	2	158		2 paires de meules	2	4
	hors la ville	46	46	850	2975	46	46	4
	TOTAUX	186	184	"	62278	92	729	"

La Description de "Tétouan", d'A. Joly (1904) : de la description scientifique de "la perle du nord du "Maroc" au mythe du paradis perdu

Dr. Boussif Ouasti
Faculté des Lettres de Tétouan

Notre approche de "la Description de Tétouan" d'A. Joly [1] qui se veut historien de cette ville, participe de l'histoire littéraire. En ce sens, nous considérons ce texte beaucoup plus comme un produit littéraire qu'un document historique. Il va sans dire que l'Histoire littéraire s'occupe essentiellement de la rhétorique des effets qui préside à la lecture et à la signification d'un texte. Pierre Citti définit la relation entre ces deux sciences en ces termes :

"L'histoire littéraire n'a jamais su quelle relation entretenir avec l'histoire. Lorsque Clio a quitté la famille pour se placer chez les sciences, elle a traité la littérature en document, par un juste retour de l'immémoriale habitude littéraire de prendre l'histoire pour matière de sa fantaisie.

Or la littérature échappe à la science du passé parce qu'elle est un art de représentation". [2]

Le texte de Joly développe une représentation de la ville de Tétouan et sera considéré en tant que tel. Pour ce faire, un préambule socio-politique, aussi succinct soit-il, nous permettra de caractériser l'évolution du genre dans lequel s'inscrit le mémoire de Joly. Ensuite, nous essayerons d'étudier certains schèmes descriptifs et discursifs qui génèrent l'effet sens du texte? Enfin, il serait intéressant de déterminer la fonction de cette description scientifique subsumé par la peinture d'un mythe de la ville à partir des topoï culturels du paradis perdu et des modalités de l'écriture utopique.

Partie intégrante de l'Orient imaginaire, le Maroc occupe une place de choix dans la littérature des voyages. Nombreux sont les voyageurs et écrivains européens qui se sont rendus au Maroc depuis le XVIème

---

[1] A. Joly, "Tétouan", in **Archives marocaines**, Vol. IV, II - III, Paris, Leroux, juillet - août, 1905, pp. 199 -343.

[2] P.Citti, "L'histoire de l'imagination", in **Littérature et nation**, numéro consacré à L'histoire littéraire, (8), 1991, p. 121.

siècle. Ils se sont multipliés au cours des siècles suivants pour connaître au XIXème siècle un développement sans précédent.[3]

Le Maroc était considéré comme l'un des derniers asiles de beauté où existait encore une couleur locale introuvable en Chine, à Changhaï ou au Caire.[4]

Il offrait la magie d'un pays oriental encore intact et un conservatoire de la civilisation islamique où le dépaysement était à son paroxysme. L'imaginaire occidental à l'égard du Maroc était nourri d'un arsenal de métaphores et d'un ensemble de topoï consacrés sur l'orient, repris inlassablement plus d'un demi siècle avec bien entendu un effet d'arrangement pour correspondre aux normes d'un orientalisme à bout de souffle.[5]

Or à la fin du XIXème siècle, il cessa d'être dit Rivet un "pays barbaresque indifférencié et un fragment nébuleux de l'immense et fabuleux Orient". Une nouvelle image allait naître à la suite d'une crise et se mettre en place, si bien qu'en 1880 se recoupèrent trois visions : un Maroc à la fois inconnu des explorateurs, un musée des savants et une source de pittoresque des collectionneurs de sensations. Autant dire que cette image polyvalente était sécrétée par une imagerie qui développa toute une "Morrocomania", selon Daniel Rivet, avec une volupté de savoir et une émotion esthétique.

Avec cette métamorphose à la fin du XIXème siècle, on assiste à la disparition du voyageur hanté par l'exploration héroïque et à l'émergence du voyageur chercheur sous commande officielle. A l'initiateur héroïque Foucaud ou au picaresque Segonzac, un Tartarin de l'Atlas, à titre d'exemple, on pourrait opposer le linguiste Mouliéras, le sociologue Doutté, le géologue Le Gentil ou le géographe de service Augustin Bernard, titulaire de la chaire de géographie coloniale à la Sorbonne. Il semble qu'au voyageur curieux et aventurier, se substitue le chercheur spécialisé qui se fonde sur un savoir puisé des manuscrits arabes et qui tend à sonder et à ratisser des aires régionales. Il est vrai que le voyage au Maroc devient une institution et consacre alors la jonction entre le voyage et la science à la fin du XIXème. Le voyage des savants est sollicité par les appareils du

---

[3] Cf. R. Lebel, **Les voyageurs français au Maroc. L'exotisme marocain dans la littérature de voyage.** Paris, Larose, 1936.

[4]Cf.D. Rive, " Exotisme et pénétration scientifique, l'effort de la découverte du Maroc par les français du début du XXème siècle", dans **Connaissances du Maghreb. Sciences sociales et colonisation,** Paris, CNRS, 1984.

[5]Ibid., p. 95.

pouvoir : Gouverneur d'Algérie, Quai d'Orsay, le Comité du Maroc; les Sociétés de Géographie...[6]

Le sacre du passage à l'institution est inauguré en 1903 par la création de "La Mission Scientifique du Maroc "dont les représentants assidus sont A. Le Chatelier et E. Etienne ? L'organe principal de propagande de cette Mission scientifique est le périodique : Les Archives Marocaines. La France aspire à instaurer au Maroc sa tradition coloniale qui consiste à l'implantation d'un Institut (Cf. Egypte, Algérie) qui servirait d'observatoire de sondage du pays ; et en même temps, un centre de formation des futurs agents du protectorat en gestation .[7] La mission scientifique au Maroc tend à s'imposer en se posant comme une pénétration scientifique conformément au slogan de l'époque "La pénétration pacifique" répétée a satiété. Daniel Rivet écrit que ce stéréotype de "La conquête morale" des Marocains gagnés à la civilisation s'opère par l'aide d'une "sorte d'endomose déclenchée par les savants, les médecins, les instituts français, voués comme les autres à devenir des hussards coloniaux d'une République bienfaitrice du genre humain" [8]. Le programme de conquête coloniale est indissociable d'une rencontre avec les sciences de l'homme. [9]

A l'instar de la Mission Scientifique au Maroc, Lyautey créa en 1913 à Rabat l'Ecole de langue arabe et de dialecte berbère. Bientôt, l'Institut des hautes Etudes marocaines prit le relais en 1920 au moment de l'instauration officielle du Protectorat. Ces différentes institutions scientifiques et politiques en même temps reprirent l'idéal

---

[6]Cf. à ce sujet : G.E Ageron, **France coloniale ou parti colonial ?**, Paris, PUF, 1978.

[7]La Mission Scientifique du Maroc à Tanger se composait des membres suivants : M.G. Salmon : délégué, M.A. Joly, M.E. Michaux - Bellaire, M. L. Mercier, M . E. Confourier ; ses correspondants sont : M . M. Besnier, M. N. Sloush, son secrétaire de rédaction : M. L. Bouvat, ses travaux sont publiés dans les Archives Marocaines, éditées à Paris chez Ernest Leroux ;
Cf. au sujet de cette Commission les travaux de :
E. Burke, " Commission Scientifique du Maroc, Sc. soc. et pol. à l'âge de l'impérialisme", **Bulletin Ec. et Soc. du Maroc**, (138 - 139), 1903.
Michaux -Bellaire, "La Mission Scientifique du Maroc", **Archives marocaines**, 1 - 22, 1925.

[8] Cf. E. Etienne, " L'Institut marocain" , Rc. (8) , 1904.

[9] D. Rivet, Op.Cit., p.96.

des Lumières qui se manifestait à travers la dichotomie "Savant / Soldat", "savoir / Pouvoir ", repris par le " sabre et la plume" . [10]

La description de Tétouan de Joly s'inscrit dans ce contexte socio-politique au tournant du siècle. Ce récit de voyage scientifique est publié sous forme de mémoires dans les Archives marocaines de 1904 à 1927. Il est écrit par des membres de la Commission Scientifique du Maroc: M/ André Joly, avec la collaboration de M.M. Xiluna et J. Mercier. Le premier mémoire de cette collection, objet de notre étude comprend 144 pages dont la matière se répartit comme suit :

La distribution de la matière du mémoire révèle l'adoption d'un plan concerté et rigoureux qui renvoie à divers égards au modèle établi par les Idéologues et notamment Volney pour les expéditions scientifiques. Néanmoins, ce récit de voyage à prétention scientifique participe des codes narratifs du voyage littéraire.

Le récit de la description de Tétouan s'ouvre sur une peinture de la ville sous forme d'un tableau savamment et esthétiquement composé, comme l'affirme l'auteur lui - même : "Tétouan nous offre l'intéressant tableau d'une de ces villes de province si calmes et si tranquilles qui, chaque jour, se font plus rares même dans l'empire chérifien". [11] Le parallèle entre Tétouan et une ville de province se fait par le moyen de la comparaison, figure d'exotisme par excellence qui permet de rendre familier ce qui est inconnu.

La présentation de Tétouan obéit à une mise en scène significative

---

[10] cf. à ce sujet notre Thèse d'Etat :
B. Ouasti, **Images du pays des Pharaons dans le récit de voyage égyptien de Denon à Nerval (1802-1850),** Thèse d'Etat soutenue devant l'Université de Fès, 1991.

[11] Cf. , notre Thèse ... Ibid.

"Mollement assise sur les bords fleuris de l'Oued Martine, non loin de la Méditerranée vis-à-vis de l'Andalousie qui a fait sa prospérité". [12]

L'assimilation de Tétouan à une belle femme indolente est passée pour une métaphore archaïque que se répètent maints auteurs, comme à titre d'exemple chez l'espagnol Castellans ; cité par Joly :

"Telle est Tétouan" Cette perle du Maroc, cette odalisque mollement couchée dans son lit de fleurs et de feuillages". [13]

Cette insistance sur la métaphore de la ville comme une femme sensuelle se retrouve à la fin du XX^{ème} siècle chez Attilio Gaudio : "la nonchalante fille de Grenade". [14] La mise en scène de la ville de Tétouan à l'intérieur d'un décor suggestif est très significative : elle représente Tétouan comme une fille orpheline, qui regarde dans sa rêverie, au loin, sa mère dont elle est séparée par la mer. La description semble reprendre les topoï de la poétique des ruines : rêverie, eau qui coule, prospérité révolue....[15] Elle évoque par ailleurs une nostalgie rendue plus poignante par le regret de l'origine et par la posture érotique.

D'autre part, nous signalons cet espace qui entoure la ville et la sépare de l'autre monde : Méditerranée, montagnes du nord du Maroc appelées par les Espagnols la "Sierra Bermeja ou Vermeja" ' la chaîne vermeille ' à cause de la couleur quelquefois rutilante de ses flancs".[16] La circularité récurrente caractérise la peinture de Tétouan : une infinité de jardins, disposés en amphithéâtres, constituent une sorte de perpétuellement sombre".[17] Ils sont entourés de haies épaisses de ronces", ajoute Joly, de "murailles surélevées de roseaux touffus". Nous avons une structure gigogne de quatre espaces concentriques : ville à l'intérieur des remparts, entourée de jardins, clôturés par ces montagnes et la mer. Tétouan ressemble à un espace limité où rien

---

12 Joly , "Tétouan", ... Op.Cit. p. 201.

13 Ibid. , p. 237 ; P.M. Castellans , **Historia de Marruecos**, Tanger , 1898.

14 A. Gaudio, **Maroc du nord. Cités andalouses et montagnes berbères**, Paris, N.E.L. , 1981 , p. 77.

15 Cf.R. Mortier , **La poétique des ruines**, Genève, Droz, 1973.

16 Joly , Ibid., p. 203.

17 Ibid., p. 220.

n'échappe au regard.Il paraît que l'auteur exploite dans sa description les topoï de l'utopie comme les définit Louis Marin. [18]

Par ailleurs, Tétouan se distingue des autres villes marocaines, voire de l'Afrique du Nord, par son calme, sa tranquillité, mais aussi par son aspect rustique et son modèle réduit, au sens anthropologique, d'une ville andalouse musulmane :

"Tétouan nous donne encore, mieux qu'aucune autre ville du nord de l'Afrique, avec moins de mélange qu'aucune, l'idée de ce que pouvait être ces villes de l'Andalousie musulmane. malgré la déchéance fatale qui l'accompagna dans son exil, au sortir du beau pays où elle était née pour florir pendant plus de cinq siècles, la vieille civilisation maure andalouse survit encore et jette à Tétouan une faible lueur, fugitif et dernier reflet de ce qui fut la vie de tout peuple disparue". [19]

A l'encontre de Tanger sa voisine complètement européanisée Tétouan conserve en dépit de la pénétration discrète de la civilisation européenne son cachet d'authentique ville andalouse. Cette ultime trace d'une civilisation révolue est frappée également d'une fatalité conformément à une vision archaïque et cyclique de l'histoire : après la splendeur vient la décadence. A la chute irréparable de la civilisation arabo - musulmane succède la mise en place de la civilisation européenne :

"Les atteintes du monde européen ne tarderont pas sans doute à la ternir à jamais/ Il faut se hâter d'en observer l'image pendant qu'il est encore temps". [20]

Il s'agit en fait du récit d'une disparition - fondation? Cette vision cyclique de l'histoire tend à préparer et à légitimer un discours sur l'héritage de la dépouille de cette civilisation dans sa dernière phase de disparition. Cette fixation de l'image de Tétouan dont l'authenticité n'est pas encore complètement frelatée pourrait suggérer un appel à une appropriation (mettre la ville dans un musée imaginaire). La dernière phrase ramassée et lapidaire est éloquente à propos des présupposés de la Mission scientifique au Maroc comme en témoigne la préface de Le Chatelier au tome XVII des Archives marocaines :

"On peut espérer que" l'histoire du développement de la civilisation européenne au Maroc, s'écrira plus vite et avec plus de

---

[18] L. Marin, **Utopiques : jeux d'espace** , Paris, Minuit, 1973.

[19] Joly, Op.Cit., p. 201.

[20] Ibid., p. 202.

précision que celle de la conquête d'Algérie, le goût des documentations décisives tant suggestif, à notre époque".

(p.111).

Recueillir la mémoire de Tétouan, la ville andalouse et non la ville marocaine, servira nécessairement ces "documentations décisives" : le discours colonial avance masqué et avec prudence dans la mesure où l'expression "civilisation européenne" désigne aussi bien l'Espagne que la France.

La présentation de la ville subit d'autre part un traitement particulier. Certes, Tétouan est une ville qui fait preuve d'une civilisation affirmée : elle est une de ces rares "villes où l'agriculture des champs, celles des vergers et ses jardins a son importance, où le commerce existe, où l'industrie même était hier encore assez florissante ; mais en même temps, dernier refuge d'un monde bourgeois et aristocratique qui sait, aux soins matériels de l'existence, allier un certain goût des arts permis par l'Islam, adoucir les labeurs du négociant ou du laboureur par des récréations littéraires ou musicales ; berceau en même temps, de nombreuses familles de fonctionnaires, et centre de l'activité calme et peu passionnée s'il en fut, de toute une région montagneuse du nord du Maroc". [21]

Le texte s'ouvre sur une chronique historique et le récit bascule dans la géographie pour présenter un tableau d'un espace habité et organisé. La société tétouanaise possède les secteurs vitaux tels que l'agriculture, l'industrie, le commerce et des potentialités humaines. Le peuple est laborieux et met en valeur la terre. L'élite aristocratique et bourgeoise cultive les lettres et les arts et les transmet afin d' "adoucir les labeurs" des paysans et des négociants. L'organisation sociale ; au-delà des hiérarchies se fonde essentiellement sur l'échange communautaire. Ces règles d'organisation de la société tétouanaise paraissent obéir au schéma célèbre de la cité utopique, si bien que le Tétouanais ne se définit pas "par sa nature propre, mais par son inscription dans un ensemble de rôles, de fonctions et de pratiques sociales".[22] Tétouan est une ville musée comme en témoignent les vocables : "refuge", "berceau".

La ville de Tétouan existe par sa mémoire et par son aspect de musée. Sa description ethnographique et dense développe un discours symbolique de l'institution et de l'instauration d'une mémoire. Elle joue sur plusieurs effets : effet de totalité par le moyen d'un discours sur la

---

[21] Ibid., p. 201.

[22] Cf. au sujet du discours utopique :
J. M. Goulemot, "Les pratiques Littéraires ou la publicité du privé", dans : Histoire de la vie privée, Paris, Seuil, 1986, (Tome III), p. 389.

géographie physique et humaine au sens large du terme, mettant en œuvre une représentation totalisante et descriptive de l'altérité sociale ; effet de minutie dans la mesure où les actes de la vie publique sont mis en évidence; effet de transparence au cas où la société tétouanaise ne dissimulerait rien de ses rouages, effet de littérature enfin puisque cette société se donne en même temps comme vraie et illusoire.[23] Cette description lapidaire développe en fait un discours nostalgique sur Tétouan en tant que terre promise. Tout porte à penser que la description de Tétouan par Joly emprunte à l'utopie narrative et théorique ses codes narratifs et ce choix de forme de discours n'est pas innocent. Tétouan est ainsi une ville - musée, une cité utopique avec tous les discours qu'implique un tel genre.

L'appréhension de l'espace par Joly est très symptomatique (jeu sur le panoramique et sur le gros plan). L'espace clos s'offre mieux au regard qui surplombe tout d'abord, explore ensuite, et détaille enfin. A l'instar de la stratégie militaire au sens métaphorique, le narrateur identifie les lieux avant de les occuper et de les étudier systématiquement. L'intention pittoresque du texte est manifeste. C'est pourquoi la composition esthétique caractérise même le discours à prétention scientifique, destiné à faire l'inventaire, comme en témoignent, à titre d'exemple, les chapitres consacrés à la structure géologique et à la végétation.

Certes, les flancs des montagnes escarpées sont couvertes de vagues de jardins recommencées :

"Les jardins commencent nombreux, pleins d'arbres, de tous les côtés ; ils se prolongent parsemés de maisons de campagne, blanchies à la chaux jusqu'au pied de la terrasse calcaire qui porte la ville ; celle-ci se montre de profil, mince ; longue, accrochée aux flancs rouge brun ; bariolés de cramoisie du Djebel Dersa, dominée par ses sommets de couleur sombre, d'un gris violacé". [24]

Le paysage est présenté sous forme d'un tableau aux couleurs et formes juxtaposées : "arbres, maisons, montagnes", "blanc, rouge cramoisi ; gris violacé..;". cet amalgame de perspectives et de couleurs met en relief une vue pittoresque de la ville.

L'aspect insulaire de Tétouan est très récurrent. La ville abonde, au-delà de la rivière Martine, en sources :

"Des sources abondantes jaillissent au pied du Djebel Dersa ; dans les coupures de la terrasse de traversin ; et partout où celle-ci se

---

[23]Cf. J.M. Goulemot, "Utopie et histoire", in **Critique**, (384), 1979, p.447.

[24]Joly, Op.Cit., p. 203.

fissure, elles sourdent, quelquefois elles viennent au jour, plus souvent elles filtrent à travers la masse. D'autres sources jaillissent aussi sur le flanc des montagnes environnantes. Telles Ez Zarga (la bleue), El Hâma de Bou Semlal, Hâmma de Oulad H'mida pour ne citer que les plus belles". [25]

Onde et végétation abondante confèrent à Tétouan l'aspect d'un véritable paradis ou un paradis ou un pays de cocagne.

En effet, la peinture de la végétation luxuriante frise au fantastique. Le narrateur décrit la plaine avant de peindre la ceinture des jardins éparpillés jusqu'aux montagnes. Il existe toute une mise en scène du regard dans la description de la végétation :

"La plaine, avons - nous dit, est peu près dépourvue de végétation arborescente ou broussailleuse, vue même en certains endroits. Seules, quelques plantes allées, des plantes grasses ou épineuses, des joncs, des tamaris, des retenus, grands genêts à fleurs blanches, mettent un peu de verdure dans les dunes, et plus loin, des cultures de blé, d'orge, de maïs, de fèves, la transforment, à certaines saisons, en une grande nappe verdoyante, au milieu de laquelle émergent comme des îlots, des touffes grisâtres de jubier". [26]

Le point de vue du narrateur est mouvant. Le regard balaie tout le paysage dans un long panoramique ponctuée de gros plans. Les rythmes binaires et ternaire travaillent la description exploratoire des plantes. Les indicateurs spatiaux tracent le mouvement du regard qui dessine le paysage pittoresque. La prairie donne l'impression de la surface d'une mer où émergent ça et là des îlots de jubiers.

De la plaine, le regard se rabat sur les jardins qui entourent la ville. Le regard procède par balayage circulaire :

"Autour de la ville elle-même, les jardins forment un labyrinthe de verdure, en bois véritable ; jamais ils ne perdent complètement leurs feuilles ; car ils comptent de nombreuses essences à feuilles persistantes : oliviers sauvages, caroubiers, orangers, citronniers, lentisques, qui font aux remparts une ceinture perpétuellement sombre. Ils s'entourent de haies épaisses de ronces, d'églantines, de roses, de murailles surélevées de roseaux touffus, sur lesquels grimpent le lierre, le chèvre - feuille, la clématite, la salsepareille sauvage, les grands convolvulus à grandes fleurs ornementales, l'aristoloche et le long desquels on trouve, ça et là , quelque beau chêne ou quelque peuplier". [27]

---

[25] Ibid., p. 213.

[26] Ibid., p. 220.

[27] Ibid., pp. 220 - 221.

La description tourne ici au répertoire, à la nomenclature si bien qu'on a l'impression que l'auteur cherche à épuiser le registre. la profusion de la végétation est assimilée à un labyrinthe tant elle est dense. Le narrateur visionnaire insiste sur le printemps éternel qui caractérise ce lieu de plaisance et d'abondance. La longueur de l'énumération est poussée à l'extrême et la variété des plantes et des fleurs de ces forêts aux essences mélangées, à la richesse du coloris font penser à un paysage rousseauiste.

Le paysage est soumis à une stylisation à partir d'un jeu subtil sur les perspectives, les couleurs et d'une variation sur le lointain et la proximité. La longue phrase en escalier où alternent le shème binaire et l'énumération restitue le parcours du regard qui tend à enregistrer et à traduire tout le panorama paradisiaque qui s'offre à la vue.

Le savant artiste n'insiste pas seulement sur la nature plantureuse, mais également sur la beauté et le charme des fleurs qui confèrent à la végétation sans pareil :

"Ce qu'il faut remarquer encore ; c'est la beauté de certaines fleurs qui les rendaient dignes de figurer sur les parterres ; grands chrysanthèmes jaunes et blancs, certaines malvacées à fleurs blanches lavées de carmin ou bien des purpurines, ou encore le convolvulus tricolore à fleurs blanches, bleues et jaunes. Certaines fleurs forment des coloris où les individus s'accumulent avec une vraie prodigalité ; tels les datura, les pervenches, et bien d'autres, aux abords de la ville, dans les ruines, ou bien au pied des haies. Et l'éclat de la végétation n'est pas un des moindres agréments du pays". [28]

L'abondance et la variété des fleurs sont exprimées par de nombreux termes : certaines, plusieurs, d'autres encore... Le kaléidoscope des couleurs bariolées met en diorama tous les tons : jaune, blanc, rouge, carmin, purpurine, tricolore, bleu..;
Ce spectre de couleurs bariolées assigne au tableau une harmonie chromatique où les tons se répondent. Cette correspondance du coloris est renforcée par un jeu sur la musicalité de certains vocables : convolvulus, chrysanthèmes, purpurines, pervenches...

L'intention picturale est confirmée par l'auteur lui- même :

" Une chose frappe dès l'abord : c'est le petit nombre de tons du paysage (...) De sorte que Tétouan et ses alentours immédiats forment un tableau uniquement blanc, vert et bleu, symphonie sans aucun ton violent, agréable, particulièrement douce, mais un peu monotone et froide".[29]

---

[28]Ibid. p. 222.

[29]Ibid. p. 223.

L'emploi du langage du chevalet avec l'insistance sur la douceur du camaïeu blanc, bleu et vert met en évidence la correspondance entre les tons et par une sorte de synthétise émane du paysage une symphonie mélodieuse.
Néanmoins, à cette douceur contraste une violence chromatique, or, cette fois-ci non à partir d'une vue, mais par une violence chromatique provoquée par une vision. Le tableau pompeux d'un coucher de soleil, lieu commun répété inlassablement qui a inspiré bien des peintres orientalistes se retrouve également chez Joly qui, au lieu d'en composer un, cite la description pittoresque d'Emilio Lafuente y Alcantara :

"pourtant, vue dans la fantasmagorie de sa lumière et surtout dans les belles après - midi, au déclin du jour qui l'anime davantage en jetant les quelques lueurs dorées ou roses, elle est si jolie qu'elle a inspiré certaines descriptions des plus heureuses.

"autour, mille jardins pittoresques, disposés en amphithéâtres,qui paraissent rivaliser dè beauté. Eclairée avec intensité au coucher du soleil, qui disparaît derrière la ville, qu'il entoure d'une auréole de lumière rouge. Silencieuse, ignorée, endormie encore dans la nuit des siècles, avec la blanche bannière du Prophète sur sa tête, pareille à la Grenade d'il y a cents ans, pareille à ce que sera longtemps encore Fès. L'inexplorée, fille chérie du Prophète". [30]

Le paysage contrasté peint par l'écrivain espagnol, intégré sans hiatus au continuum romanesque, s'achève sur l'évocation de la nostalgie de la splendeur d'antan.

Cette description pittoresque de Tétouan, imprégnée de poésie, obéit sans doute à un schéma descriptif consacré, comme la magie de la nature intervient dans la composition du tableau. Tétouan est une ville où règne un printemps éternel. Son paysage charmant réunit des arbres de toutes sortes, aux essences mélangées, des grandes prairies en forme de tapis de fleurs avec une variété de kaléidoscope, des sources innombrables...

Nous reconnaissons ici un délai de poésie rhétorique, caractérisé par la profusion, le luxe et la nomenclature. C'est un décor digne du locus amoenus (cf. "paysage idéal" [31], avec toute sa richesse du

---

[30]Ibid. p. 237; Emilio Lafuente y Alcantara, Catalogo de los Códices arabigos adquidos en Tetuán por el Gobierno de su Majestad. Madrid, 1862, p. 1, p. 9.

[31] Cf. au sujet du locus amoenus, "Le paysage idéal" dans E.R. Curtus, **La littérature européenne et le Moyen Age Latin**, Paris, Paris, PUF, 1956, t. I, p. 301 - 623.

coloris, topos très précis de la description du paysage. Il intervient dans la description poétique des jardins, somme toute, de la nature. Pareille à une île édenique, Tétouan est un espace de profusion végétale luxuriante, un univers regorgeant d'abondance, une nature providentielle sous forme de jardin fabuleux. Son charme enchanteur fait de la ville un lieu d'épanouissement du rêve et du plaisir parfait : qui refuserait d'approprier ce lieu amène ? Joly trace de Tétouan un portrait mythique qui évoque , à partir de tous ces stéréotypes, la nostalgie du paradis perdu. Ainsi , cet exotisme insulaire qui allie le paysage à l'idylle pour composer un spectacle pittoresque est éloquent.

Ceci est d'autant vrai, que la fonction du mythe, au sens anthropologique du terme, est de recouvrir les contradictions de la communauté tout en l'unifiant , et il joue d'autre part, le rôle de compensation, au plan social et moral. A ce titre, il apporte ce qui manque ou ce qui est senti comme tel dans la culture d'origine du groupe ou de la communauté symbolique.

En somme, la description de Tétouan de Joly met à contribution les shèmes descriptifs de la littérature utopique, et des stéréotypes du mythe du paradis perdu.[32] Ce choix n'est point gratuit . Nous rappelons qu'il y a discours utopique pendant une crise sociale. La description de Tétouan se rattache à l'esprit du temps avec sa mouvance idéologique. Elle véhicule un imaginaire socio-politique conservateur. Joly fait une lecture critique du présent de Tétouan avec une volonté inavouée de le modifier, d'où le caractère totalisant de son texte, qui veut tout dire dans ses moindres détails. S'il exploite les modalités de l'écriture utopique c'est parce que ce genre est proche parent du projet encyclopédique.

La description de Tétouan semble assurer le relais entre le champ d'expérience de la Mission Scientifique du Maroc et l'horizon d'attente et d'espoirs entre le présent et l'avenir. La peinture de la déchéance d'une ville pourtant autrefois illustre, avec une richesse qui provoque la convoitise, paraît un appel prudent à des réformes : c'est une adresse au gouvernement pour lui montrer la voie à suivre (seule la France pourrait rendre à Tétouan sa civilisation de naguère, d'où cette vision cyclique de l'histoire qui sous- tend le texte).

Goulemot affirme à propos de la fonction du discours utopique :

"L'écriture utopique plutôt que d'être un appel à la construction par tous d'une société parfaite et meilleure, est une invitée au prince. Par elle, le philosophe lui offre ses services, se place en position de

---

[32] J. Guillet, **Le paradis perdu dans la littérature française de Voltaire à Chateaubriand**, Paris, Klincksieck, 1975.

conseiller. Le savoir ici exhibé, rendu perceptible, appelle le pouvoir comme le sable appelle l'eau". [33]

Telle est la fonction de ces docteurs Es-choses, comme les persifle Lyautey.

Ainsi l'écriture utopique qui caractérise la description met en pratique le projet de la Mission Scientifique au Maroc. Le mythe du paradis perdu qu'elle développe sert de jugement sans appel d'une ville retombée dans la barbarie et qui aspire à recouvrir sa gloire ancienne et nostalgique. En tant que telle, Tétouan semble une proie facile pour la conquête et pour la civilisation par une nation qui possède le savoir et le pouvoir. Il serait intéressant, à partir de cette mise en place d'une idéologie de la littérature, de repérer les traces et d'étudier comment se manifeste ce discours colonial dans l'ensemble de la description de Tétouan par A. Joly.

---

[33] Goulemot, **Utopie et histoire** . . Op. Cit., p. 455.

Tétouan avant le Protectorat, à la lumière de l'ouvrage: "La accion africana de España en torno al 98 (1860 -1912)" de Tomas García Figueras [1] et la théorie coloniale espagnole y afférente.

Dr. Abdelmajid Benjelloun
Faculté de Droit de Rabat

Il peut paraître paradoxal de traiter du sujet qui nous réunit dans ce colloque, à la lumière d'un seul ouvrage. Certes, je sais bien que Tomas Garcia Figueras n'est pas n'importe qui ; mais il reste qu'on n'écrit presque jamais l'histoire sur la base d'une source unique ; fût-elle de qualité, sous peine d'entacher son travail d'unilatéralisme fâcheux.

Il faut dire aussi que je n'ai nullement l'intention d'élaborer une histoire de Tétouan, de 1860 à 1912, et que je n'ai, au contraire, comme ambition ou commune prétention, que d'essayer de voir comment Tétouan était perçue dans cette période, au travers d'un livre de Tomas Garcia Figueras, qui en dépit de ses fortes convictions colonialistes-via l'africanisme-demeure un connaisseur du Maroc. Il faut ajouter à cela que la période historique retenue comme champ de réflexion pour notre colloque, coïncide parfaitement avec celle choisie par Figueras. En outre, le livre présente l'avantage d'avoir été publié dix ans après l'indépendance du Maroc. Ce qui a donné à l'historien un certain recul, sûrement salutaire pour lui. Enfin, l'ouvrage constitue une sorte de synthèse de tous les écrits-et ils sont nombreux-de Figueras sur le colonialisme espagnol au Maroc.

Par ailleurs, sur le plan de la méthode, j'utilise plus ou moins pour les besoins de ce papier "l'analyse de contenu".[2] Voici en effet, une technique qui a accaparé pour un temps mes études universitaires,

---

[1] Madrid, Instituto de estudios africanos, Consejo superior de Investigaciones Cientificas, 1966 -2 tomes.

[2] Je sais bien que l'analyse de contenu n'aurait été significative que si je l'avais appliqué à tous les ouvrages de Tomas Garcia Figueras, par exemple ; voire à ceux de tous les africanistes, ou plûtot de tous les maroquistes" espagnols. Et cela est d'autant plus vrai que l'accès à l'ordinateur, que nécessite cette technique, est devenu courant de nos jours.

et que je n'ai jamais vraiment utilisée. Alors, tant qu'à faire, pourquoi ne pas la mettre à contribution dans cette modeste communication ?

Certes, l'analyse du contenu est fastidieuse. Mais il vaut la peine de l'employer ne serait-ce qu'une seule fois dans sa vie universitaire. Je dois cependant indiquer que mon travail à cet égard a été rendu sensiblement difficile, en raison de l'absence d'un index dans l'ouvrage de Tomas Garcia Figueras.

Ceci étant, il ne faut pas perdre de vue que l'analyse du contenu est une méthode des sciences sociales, et que comme telle, elle est loin de constituer une technique miraculeuse, et qu'elle a même été perçue par certains spécialistes, comme un moyen de recherche qui va à peine au-delà de la simple description, objet d'une sorte de malédiction académique. Ce qui la met largement en état d'infériorité par rapport à l'analyse ou à d'autres types d'activité conceptuelle ou intellectuelle.

Je m'empresse donc de préciser que cette méthode n'est pas pour moi une fin en soi, mais plutôt une voie d'accès à plus important. Ce qui m'amène à la démarche qui sera la mienne dans ce modeste papier : je procéderai au recensement du nombre de fois que Tétouan a été citée dans l'ouvrage, en prenant soin de classer par thèmes le pourquoi de cette évocation. Sur quoi, je sélectionnerai parmi les données ainsi retenues, celles qui auraient servi à l'auteur pour l'élaboration d'une théorie coloniale espagnole éventuelle relative à Tétouan en particulier. Cela constitue la première partie de ce texte. Et dans le cas où celle-ci serait mise à jour, je porterai mon attention sur son degré de profondeur, de même que sur sa nécessité et sa fonction éventuelle, deuxième partie de ce papier.

1-Analyse du contenu

Une remarque fondamentale s'impose avant toute chose, c'est que cette approche du moins dans sa première partie, pèche, si je puis dire, par trop d'abstraction primaire ; comme si une abstraction pouvait l'être, mais les développements qui suivent vont expliciter mon propos. Il est déjà difficile de séparer la zone nord, soit ce qui allait constituer la zone d'influence espagnole, du reste du Maroc, sachant que ce n'est que dans la première décennie du XXème siècle que les contours du "Protectorat" espagnol se sont dessinés, et qu'auparavant les visées coloniales de l'Espagne sur notre pays étaient très diffuses.

Mais il a fallu aussi "abstraire" Tétouan de l'assiette territoriale qui allait échoir à l'Espagne, en 1912.

D'un autre côté, et cela je l'ai déjà fait pressentir, je n'utiliserai pas l'analyse de contenu dans sa totalité ; et cela, non pas en raison de son caractère outrancièrement laborieux, voire même fastidieux, mais

parce que, pour les besoins de ce papier, il n'est pas nécessaire que j'en déploie tout l'arsenal. Moyennant quoi, je me limiterai au recensement du nombre de fois que Tétouan a été évoquée dans l'ouvrage, et au classement thématique simple qui en découle, sans avoir ainsi que je l'ai décidé, à calculer notamment "l'espace" qui a été consacré à cette ville dans le livre, cela ne servant pas mes desseins méthodologiques.

Ainsi, entre les deux tomes, "Tétouan" aura été citée 60 fois. Mais il est bien évident que ce chiffre n'est pas par lui-même tellement significatif, surtout si l'on prend en considération, comme cela a été mentionné presque à chaque page Comme le livre compte 802 pages, l'on peut en déduire bien évidemment le nombre de fois que le Maroc a été évoqué. Mais le chiffre susceptible d'être ainsi obtenu n'est qu'une estimation-peut-être grossière-pour deux raisons d'ailleurs contradictoires : d'une part, le livre concerne aussi le colonialisme espagnol dans d'autres régions en Afrique, et d'autre part, il arrive souvent que le mot "Maroc" soit cité de nombreuses fois sur une même page. Mais en la vérité, l'essentiel du livre est consacré à notre pays. Donc, en tenant compte de tous ces paramètres, l'on pourrait approximativement parvenir au nombre de fois que le nom de notre pays a été mentionné dans l'écrit en question : il varierait entre 1000 et 1200.

Si l'on rapporte 60, soit le nombre de fois que Tétouan a été mentionnée dans l'ouvrage ; à ce chiffre de 1000 à 1200, l'on arriverait à un taux variant entre 5 % et 6 %.

Notre chiffre de 60 pourrait encore être plus éloquent, si on le comparait au nombre de fois que d'autres villes du Royaume-significatives pour l'Espagne-ont été citées.

Mon choix a été fixé sur Tanger, Sebta et Fès, pour des raisons aisées à comprendre ; à l'exception de Melilla, pour des raisons d'éloignement. C'est ainsi que ces trois villes ont été mentionnées 248, 190 et 78 fois, respectivement.

J'avais pu travailler également sur cette "entrée" que constitue le "détroit" (El Estrecho), et là, j'aurais sûrement trouvé un nombre correspondant conséquent.

Ceci étant, je dois procéder au classement thématique de toutes les "entrées" relatives à Tétouan que j'ai trouvées, cela donne le tableau suivant :

1) La guerre de 1859-60 : un précédent dans la pénétration coloniale espagnole à Tétouan.

2) L'africanisme colonial espagnol à Tétouan, par les hommes.

4) La pénétration économique espagnole à Tétouan.

5) Les projets de communication espagnols reliant Tétouan à d'autres centres urbains marocains.

6) La pénétration "institutionnelle" espagnole à Tétouan.
7) La pénétration scientifique et intellectuelle espagnole à Tétouan.
8) Divers Tétouan.

Une fois cette grille présentée, qu'il me soit permis de reprendre successivement ces points :

1) La guerre de 1859-60 : un précédent dans la pénétration coloniale à Tétouan

Soulignant l'exaltation éprouvée par certains milieux espagnols à l'occasion de la guerre hispano-marocaine 1859-60 dans la stricte ligne du Testament d'Isabelle la Catholique, et des conceptions du Cardinal Cisneros-durant laquelle la Reine d'Espagne Isabelle II, notamment, fit don de ses joyaux à l'armée espagnole, Tomas Garcia Figueras, salue la conversion de la mosquée de Tétouan en église, mais déchante trés vite du fait que son pays a dû abandonner cette ville.[3]

Constatant que l'Espagne n'a pas fait de progrès dans la mise à éxécution de ses projets expansionnistes au Maroc, une vingtaine d'années après la guerre de 1859-60, Garcia Figueras note ce qui suit: "Les principaux héros de la guerre du Maroc sont morts ; les os de nos soldats qui montraient le chemin de Tétouan, sont devenus poussière ; les lauriers qu'ils nous conquirent se sont fanés".[4]

Ce qui donne comme un avant-goût de la nécessité de reconquérir Tétouan en particulier.

Par ailleurs, Tomas Garcia Figueras fait observer, concernant l'incidence sur les juifs de l'occupation de Tétouan par les Espagnols, en 1860, ce qui suit : "La campagne d'Afrique de 1860 qui culmina avec l'occupation de Tétouan, fut le premier pas que fit l'Europe en faveur des juifs marocains. L'Espagne rompit les murs du fanatisme qui enserraient le Maroc, en le protégeant contre toute idée neuve, cependant que firent irruption dans l'Empire, les airs de la civilisation".[5]

---

[3] Tome 1, p. 290.

[4]Soit en version espagnole : "Los principales héroes de la guerra de Marruecos han muerto ; los huesos de nuestros soldados que señalaban el camino de Tétuan, se han hecho polvo ; los laureles que nos conquistaron se han marchitado". Tome 1, p. 170.

[5]Soit en espagnol, originellement : "La campaña de Africa 1860, que culmino con la ocupacion de Tetuan, fue el primer paso que dio Europa en favor de los judios magrebinos. España rompio los muros con el fanatismo encerraba a Marruecos,

2) L'africanisme (ou le "marroquisme") et le point de vue espagnol concernant Tétouan.

Tomas garcia Figueras cite un politicien africaniste espagnol, Maüra Gamazo qui écrivait autour de 1907 : "Nul gouvernement espagnol n'avait pu défendre auprès d'une quelconque autre nation, la nécessité aussi vitale pour nous que la neutralité [6] de la marge marocaine du Détroit ; nécessité beaucoup moindre pour la France, notre voisine du Nord-et notre ennemie durant tant de siècles... une fois neutralisée la zone marocaine, nos possessions de part et d'autre du Détroit, acquièrent une valeur stratégique immense. L'Espagne peut toujours construire de nouvelles fortifications sur les points qu'elle possède actuellement, et l'orsqu'elle sera en état de guerre, Tétouan, Larache èt surtout Tanger, devront être considérées comme des ports espagnols, quand bien même nous n'aurions jamais pu les transformer en places fortes".[7]

D'un point de vue qui dépasse largement l'anecdote et qui touche au symbole, Figueras note que le "premier Congrès de la dite

---

protcgiendolé contra toda idea nueva, y en el Imperio irrumpicron los aires de la civilisacion" . Tomc 1, p. 244.

[6]A l'époque de cet écrit de Gamazo, les relations franco - espagnoles concernant le Maroc en étaient encore au projet d'accord de 1902 (jamais définitivement conclu en fait), dont 2 posaient lc principe de la neutralisation des provinces de Tanger et de Tétouan, notamment.

[7]Tome 2, p. 399. Le livre en espagnol, dont est tirée cette citation : la cuestion de Marruecos, a été publié en France, en 1911, sous le titre, La question du Maroc au point de vue espagnol, Paris Augustin Challamel ; 287 p. voici la citation en espagnol : "Ningun Gobierno espagnol habia podido encomendar la garantia de un interes tan vital para nosotros como la neutralidad de la margen marroqui del Estrecho a cualquiera otra nacion ; pero mucho menos a Francia, nuestra vecina del Noendeste, nuestra enemiga durante tantos siglos... Neutralizada la zona marroqui, nuestras posesiones a uno y otro lado del Estrecho ; adquieron un valor estrategico inmenso. España puede siempre construir nuevas fortificationes en los puntos que hoy posee, y cuando ella sea beligerante, Tetuan, y sobre todo Tanger, habran de ser considerados como puertos espagnoles ; aun cuando no podamos nunca convertirlos en plazas fuertes".

Association eût lieu à Tanger, avec des excursions à Sebta et Tétouan. Naturellement, cela n'eut pas lieu.[8]

3) La pénétration coloniale espagnole, par les hommes.

Il est évident qu'un colonialisme, étranger par définition, ne s'implante dans un lieu donné que par l'intermédiaire d'hommes. Mais en fait, je vise sous cette rubrique, le rôle dominant que jouèrent certains "pionniers" espagnols au Maroc. Tomas Garcia Figueras consacre quelques pages notamment à Domingo Badia Leblich, José Maria de Murga y Murgategui et Joaquim Gatell y Foch.

-Domingo badia Leblich, effectua- déguisé en notable marocain- sous le nom de Ali Bey el Abbasi, un voyage en Afrique (dont le Maroc) et en Asie, dans les années 1803- 1807. Mais Figueras n'indique pas s'il a visité ou non Tétouan durant son périple.

- José Maria de Murga y Murgategui, connu dans l'histoire comme "el Moro Vizcaino", parcourut le Maroc en 1863-70, déguisé en marocain pauvre, dénommé el Hadj Mohammed el Baghdadi. Il visita, aux dires mêmes de Figueras.

- Joaquim Gatell y Foch, pour sa part, visita la zone présaharienne du Maroc.

Tomas Garcia Figueras parle de Badia comme d'un explorateur du Maroc, et il aurait pu évidemment employer le même mot pour Murga.[9]

Il est un autre type de pénétration coloniale espagnole à Tétouan, par les hommes : il s'agit de la Mission franciscaine et plus précisément d'un membre fameux de celle-ci, le père Lechundi.

D'aucuns pourraient me rétorquer que cette mission aurait dû être traitée sous une subdivision spécifique, intitulée : "la pénétration religieuse espagnole à Tétouan". Mais dans ce cas, il se pose la question de savoir si cette Mission nourrissait véritablement des desseins évangélisateurs au Maroc en général, et à Tétouan en particulier. C'est plus ou moins gratuit, mais tout ce que je peux avancer ici, d'après ce que je sais, c'est que le prosélytisme ne figurait pas officiellement parmi les objectifs que l'Espagne s'assignait au Maroc.

---

[8] Tome 1, p. 143.

[9] Tome 1, p. 198 et suivants.

Quoi qu'il en soit, T.G. Figueras fait observer ce qui suit au sujet du missionnaire franciscain précité : "...La figure du Père Lerchundi, franciscain, se projeta au Maroc sur le grand prestige des Missions Franciscaines espagnoles, qui au travers de vicissitudes nombreuses et variées, avaient vécu, durant des siècles, intimement liées au Sultan, par une œuvre complexe de secours aux captifs [10], d'enseignement, d'intermédiaires entre le Sultan et les monarques et les autorités espagnoles, d'historiens".[11] mais si l'évangélisation du Maroc avait été un but caché des Franciscains, Figueras aurait-il trahi ce secret ?

Quoi qu'il en soit, le père Lerchundi intègre la Mission franciscaine à Tétouan, en 1862, apprend l'arabe. Il écrit le livre intitulé : Los Rudimentos de arabe vulgar que se habla en el imperio de Marruecos" (soit "les rudiments d'arabe vulgaire qui se parle dans l'Empire du Maroc").

Il l'enseigne aux Franciscains, de même qu'à ses compatriotes appelés à " pratiquer le Maroc", colonialisme à venir oblige. Figueras souligne à cet égard : " Il (le père Lerchundi) prenait conscience d'un problème de la plus grande importance : celui de doter nos Consulats au Maroc et dans les pays arabes, d'un personnel d'interprétation et de secours parfaitement préparés à la connaissance de la langue et du pays même".[12]

4) La pénétration économique espagnole à Tétouan

L'auteur fait noter : "En ce qui concerne le commerce avec le nord du Maroc, nous signalerons que, en 1856, la "sociedad Economica de

---

[10]Espagnols, ou chrétiens en général.

[11] Tome 1, p. 149 . Soit en espagnol dans le texte : "... la figura del P. Lechundi, franciscano, se proyecto en Marruecos sobre el gran prestigio de las Misiones Franciscanos Espanolas, que a traves de numeros y variadas vicisitudes habian vivido durante siglos intimamente ligados a los sultanes a traves de una obra compleja de auxilio a los cautivos, de ensenanza, de intermediarios entre el Sultan y los Monarcas y autoridades de España, de historiadores".

[12]Tome 1, p. 155. Soit en espagnol en version originale : "Ello le iba pemitiendo acometer otro problema de la mayor importancia : el dotar a nuestros Consulados en Marruecos y en paises arabes de perzonal de interpretation y auxiliar, perfectamente preparados por el conocimiento de la lengua y del pais mismo".

Barcelona" avait adressé un écrit à la Reine Isabelle II au sujet des mesures qu'on devait prendre pour promouvoir le commerce africain de l'Espagne. On connaît aussi les intentions espagnoles de colonisation de terrains, à proximité de Tétouan, à la fin de la guerre de 1860 et les difficultés que firent les Marocains".[13]

- T. G. Figueras citant Martin Ferreo, un "marroquiste", note : "l'Union Hispano Mauritana" [14] de Grenade a pour objet de faire en sorte de rapprocher peu à peu les deux peuples qui s'étendent de part et d'autres du détroit au moyen de la littérature et de l'élargissement des négociations commerciales.. ; Font partie de la junte directrice des espagnoles trés connus.. ; et des indigènes de Tétouan, dont l'amour pour l'Espagne et l'enthousiasme pour le progrès de leur pays retardataire, les rendent dignes de toute considération". [15] S'agit-il de bourgeois compradores tétouanais ? Cela en a l'air.

Cette citation qui montre comment le colonialisme espagnol mêlait à l'endroit du Maroc, visées culturelles et visées commerciales mérite que nous y revenions.

5) Les projets de communications espagnols reliant Tétouan à d'autres centres urbains marocains.

---

[13]Tome 1, p. 189. Soit en espagnol : "Respecto al comercio el norte de Marruecos, senalaremos que en 1856 la Sociedad Economica de Barcelona habia dirigido un escrito a la Reina Isabel II acerca de medidas que debieran tomarse para fomentar el comercio de España en Africa? Se conocen tambien los propositos españoles de colonizacion de los terrenos proximos a Tetuan, al termino de la guera del 60, y las dificultades que opusieron a ello las marroquies ..."

[14]Une société commerciale qui était en activité vers la fin du XIXème siècle.

[15]CF. Martin Ferrero. "Memoria sobre el progreso de los trabajos geograficos (Junta General de 6 de mayo de 1884" . Boletin de la Sociedad geografica de Madrid. Premier semestre ? Cité par T.G. Figueras, t. 1, p. 108. En voici la citation en espagnol : "la Union Hispano - Mauritana de Granada tiene por objeto aproximar poco á poco los dos pueblos que se extiendan por entrambos lados del Estrecho, por medio de la literatura y del ensanche de los negociaciones mercantiles... Forman parte de la junta directiva espanoles muy conocidos.. ; y naturales de Tetuan cuyo amor a España y cuyo entusiasmo por el progreso de su atrasado pais, les hacen acreedores a toda consideracion".

Selon Figueras, le 8 juin, la " société espagnole des africanistes et des colonialistes" [16] adressa une pétition pour une pénétration coloniale espagnole plus profonde au Maroc, en 22 points, dont le neuvième concerne le projet de construction d'une route reliant Tétouan à Sebta.[17]

Selon la même source, le "Congrès espagnol de géographie coloniale et commerciale", s'était tenu en novembre 1883. Il résulta de la première session du Congrès, consacrée aux "côtes septentrionales et occidentales du Maroc, aux pêcheries canario-africaines", des conclusions en 18 points, dont la dixième posait le principe de la construction d'une route reliant Tétouan à Sebta, dans le but de développer le commerce hispano- marocain". [18]

Selon la même source toujours, le Ministre espagnol des travaux publics, Garcia Prieto présenta en septembre 1906, au Conseil des Ministres, un Mémoire relatif à l'Expansion commerciale de l'Espagne au Maroc. Ce Mémoire en 6 points, envisage en son 3ème point intitulé : "Communication", la construction d'une ligne de chemin de fer entre Tétouan et Sebta". [19]

6) La pénétration "Institutionnelle" espagnole à Tétouan.

J'entends par cet intitulé la présence espagnole à Tétouan, qui avait si l'on peut dire, une base légale [20], soit par le biais de l'installation dans cette ville, d'un corps de police, soit par celui d'une

---

16 Ce terme de création purement espagnole a vu le jour, pour marquer que l'Espagne ne nourrissait pas au Maroc notamment, de vulgaires desseins colonialistes. les inventeurs de ce mot entendaient se départir du qualificatif "colonialiste ", qui leur semblait péjoratif.

17 Tome 1, p. 135.

18 Tome 1, p. 104.

19 Tome 2, p. 179.

20 Je ne veux pas discuter ici de la valeur véritablement juridique d'une telle base, sachant que d'aucuns, dont sûrement moi - même, pourraient invoquer ici la fameuse notion de "traité inégal" .

directe dans l'administration des douanes de la future capitale du Maroc khalifien.

- La police du port de Tétouan

En vertu de l'Accord conclu entre la France et l'Espagne, le 1er septembre 1905, il est prévu que les deux se partageraient la responsabilité de la police des ports marocains.[21] C'est ainsi que celle de Tétouan, notamment, est revenue à l'Espagne.

- L'intervention de l'Espagne dans la douane de Tétouan.

Aux termes de l'Accord maroco-espagnol, en date du 16 novembre 1910, qui mettait fin aux hostilités commencées dans le Rif oriental, en juillet 1909, il est stipulé dans l'article 11 que le Gouvernement espagnol mettra à la disposition de l'administration marocaine des douanes de Tétouan, un douanier espagnol, aux fins d' "assistance " technique, comme on l'affirme de nos jours ; et cela tant que durera le remboursement des dégâts militaires et navals subis par l'Espagne au Rif, en 1909-1910.[22]

7) La pénétration scientifique et intellectuelle espagnole à Tétouan

Quatre sous-thèmes se partagent cette rubrique : d'abord et surtout l'action projetée de certains milieux espagnols, officiels ou non, intéressés à Tétouan, puis respectivement, un projet de création d'école, celui d'acquérir des manuscrits arabes, et la presse.

- Une "commission de l'état-major" espagnol, chargé de l'exploration géographique du Maroc, est créée, autour de 1880. Son siège est fixé à tour de rôle à Tanger, Tétouan et Sebta.[23] Ramon Jaudenes y Alvarez explora le territoire qui s'étend de Sebta à Fès, " déterminant en toute exactitude la situation des villages et des douars, la

---

21 La France et L'Espagne se mirent d'accord pour que les chefs des troupes indigènes du Corps de Police militaire de Tétouan, notamment, fussent de nationalité espagnole Tome 2, p. 111.

22 Tome 2, p. 286.

23 Tome 1, p. 214.

hauteur des montagnes et le cours des rivières, étudiant la constitution et les productions du sol, et les habitants...".[24]

Citant certains propos d'une conférence de Lorenzo Aycartsur Jaudenes, de décembre 1887, Figueras note : "... c'est ainsi qu'il n'a pas arrêté un instant et tout son labeur sur le terrain consistait à amasser des données pour courir les ordonner dans son bureau de Tétouan, comme son labeur à Tétouan était de terminer au préalable les travaux topographiques et descriptifs, avant de sortir à la campagne, à la recherche de matériaux nouveaux".[25]

En outre, le 12 août 1881, une "commission de l'Etat-Major de l'Armée " est créée, dans le but de réunir des données pour établir une carte géographico- militaire du Maroc, comprenant bien évidemment Tétouan [26] et sa région.[27]

En 1909, les "Centros Comerciales hispano-marroquies", qui proposaient une expédition au Maroc, aux fins d'étudier ses marchés et ses richesses, préconisaient parallèlement, l'envoi à Tétouan notamment, d'un personnel des Académies d'études arabes de Madrid, Barcelone et Sebta.[28]

T.G. Figueras fait état d'un certain nombre de monographies réalisées, en 1885-1897, par Teodoro de Cuevas-qui a mené une carrière consulaire dans certaines villes du nord marocain-dont la "Memoria comercial del Bajalato de Tetuán".

---

[24]Tome 1, p.217. Soit en espagnol dans le texte ; "..; determinando con toda exactitud la situacion de los pueblos y aduares, la altura de las montanas y el curso de los rios ; estudiando..: la constitution y las producciones del suel y las costumbres de los habitantes ..."

[25]Tome 2, p.218. Soit en espagnol: "Asi fue que no paro instante, y todo su afan en el campo era copiar datos, corer a ordenario en su estudio de Tetuán, como su afan en Tetuán era terminar cuanto antes los trabajos topograficos y descriptivos para salir al campo en busca de materiales nuevos..."

[26]Au départ, la Comission fit les relevés topographiques pour l'établissement du triangle Tanger - Tétouan - Sebta.

[27]Tome 1, p. 220.

[28]Tome 2, p. 205.

Dans le "Boletin" du Ministère d'Etat espagnol, furent publiés en 1891-1900 des mémoires des consuls et vice-consuls en poste notamment à Tétouan.[29].

-Dans ces années, la "Sociedad Economica Matritense de amigos del Pais" demandait la création à Tétouan notamment, d'une école primaire, où l'on enseignerait les langues espagnole et arabe.[30] Ce n'est là qu'un exemple isolé, sachant que de nombreux milieux espagnols préconisaient en ce temps -là la création d'écoles à Tétouan, notamment.

- L'acquisition de manuscrits arabes faisait partie des préoccupations espagnoles de l'époque. C'est ainsi qu'à la fin de la guerre maroco-espagnole de 1859-60 le ministre espagnol des travaux publics confia à Emilio Lafuente Alcantara, la mission d'acquérir à Tétouan des manuscrits arabes. Celui-ci accomplit sa mission et publia un livret intitulé : "Catalogo de los Codeces arabigos adquiridos en Tetuan por el Gobierno de S.M. formado por Don Emilio Lafuente Alcantara e empreso de orden y a expensas del Ministro de Fomento".[31]

- Pour ce qui est de la presse, la feuille arabe de l' "Eco de Ceuta", est céée en 1880. D'après Vicente Fernando la Hoz, cité par T.G. Figueras, c'est la première fois qu'une feuille arabe est adjointe à un journal espagnol de Sebta.[32]

Il a été décidé de distribuer ce journal gratuitement dans différentes tribus, notamment proches de Tétouan[33].

Enfin, T.G. Figueras affirme que le XIXème siècle est marqué par "la guerre d'Afrique de 1859-1860, laquelle permit à Pedro d'adopter avec lui au Maroc, les premières presses, pour tirer son journal : " El Eco de Tetuán".[34]

---

[29]Tome 1, p.194.

[30] Tome 1, p. 88.

[31]Tome 1, p. 86. Soit en français : Catalogue des manuscrits arabes acquis à Tétouan par le Gouvernement de S.M., constitué par Monsieur Emilio Lafuente Alcantara, et imprimé sur ordre et aux frais du Ministre des travaux publics. Madrid, 1882.

[32]Cf. Apuntes para la historia de la Imprenta en el Norte de Marruecos . 1949. T.G. Figueras, tome 1, p. 91.

[33] Tome 1, p. 92.

[34]Tome 1, p. 280.

Evoquant des documents du milieu du XIX^{ème} siècle sur la restauration des Missions franciscaines à Tétouan, en particulier, T.G. Figueras parle de cette ville en ces termes : "la Blanca" [35] (la blanche). S'agit-il du Tétouan de l'époque de celui du XX^{ème} siècle ? Toujours est-il que nous ne pouvons nous rendre, de nos jours, dans cette ville sans que sa blancheur magnifique ne s'impose à notre regard émerveillé. Sa blancheur coule immobilement des raisons suspendues, comme des nuages adhésifs.

8) Divers Tétouan

Sur un registre moins heureux, T.G. Figueras souligne le "fanatisme religieux de ces races mêlées" [36], qui garde sa vigueur et sa ténacité au Maroc, en dépit des populations les plus influencées par les Européens, comme Tétouan....[37]

Ce qu'il faut souligner, c'est que T.G. Figueras prend prétexte d'une description de ce qu'il appelle le "fanatisme religieux" du Maroc du XIX^{ème} siècle, pour faire un amalgame concient de lui même entre les XIX^{ème} et les XX^{ème} siècles.

Cette démarche sournoise m'amène à la deuxième partie de mon papier, c'est à dire à la théorie coloniale espagnole relative à Tétouan en particulier, dans la période 1860-1912, et cela d'après l'ouvrage de T.G. Figueras que j'ai choisi pour les besoins de ce colloque.

II-La théorie coloniale espagnole relative à Tétouan, en 1860-1912 développée par T.G. Figueras dans son ouvrage.

La première question qui se pose, au vu de l'énumération ci-dessus, est la suivante : est-ce qu'une théorie coloniale espagnole relative au Maroc existe dans l'ouvrage de Tomas Garcia Figueras, ou tout au moins en ce qui concerne Tétouan ?

Si l'on entend par cette question ceci : est-ce que T.G.Figueras a établi en toute conscience et en toute lucidité la théorie coloniale qui

---

[35]Tome 1, p. 147.

[36]Celles, qui aux dires de T.G. Figueras, composaient alors le Maroc . Tome 2, p. 570.

[37]Tome 2, p. 57. Soit la citation en espagnol : "El fanatismo religioso de esas razas mezcladas se mantiene vigoroso y tenaz en Marruecos, aun en las poblaciones mas influidas por los europeos, como Tetuán ...".

prévalait en 1860-1912 chez les milieux impérialistes espagnols en ce qui concerne le Maroc en général et Tétouan en particulier ? La réponse est bien évidemment non.

Autrement, si l'on entend par cette question ceci : est-ce que T.G.figueras a élaboré lui-même une théorie coloniale y afférente, la réponse est naturellement négative aussi, quoique l'auteur y soit allé de temps à autre de ses remarques personnelles sur nombre de questions.
A la vérité, il se dégage de l'ouvrage qui retient notre attention ici, une théorie coloniale largement inconsciente d'elle même. En fait, le livre contient des éléments qui servaient à l'élaboration d'une telle théorie ; mais des éléments disparates. Autant affirmer donc que l'auteur propose un certain nombre d'observations qui, une fois articulées les unes autour des autres, donneraient lieu à la théorie en question. Cela revient à dire que c'est le lecteur qui la construit, et nullement l'auteur.
Il est donc venu le moment de repasser en revue les divers points du tableau précédent, en prenant bien soin de les relier les uns aux autres, de façon à réaliser une sorte de synthèse.
Voilà ce que cela donne : le but est de pénétrer le Maroc, y compris Tétouan. A partir de là, il faut trouver les arguments qui rendent cette pénétration nécessaire et les moyens à mettre en œuvre pour y parvenir, sachant qu'il peut y avoir aussi interférence entre la finalité et les moyens, comme nous allons le constater ensemble.

1) Pour ce qui est des arguments.

- Aux dires de T.G. Figueras, l'Espagne détient comme des titres historiques sur la reconquête de Tétouan, qu'elle a dû évacuer contre son gré, à l'issue de la guerre de 1859-60. L'auteur affirme quasiment que les héros espagnols de ce conflit sont morts pour rien.

-Il y a l'argument stratégique. Et la citation reproduite plus haut de Maura Gamazo est significative à cet égard : tant que le Maroc restera neutre, (y compris naturellement Tétouan et ses environs) cela servirait les intérêts de l'Espagne,dans la mesure où l'Empire Chérifien restera indépendant, et partant ne sera occupé par aucune puissance européenne concurrente ou rivale ; mais si une guerre européenne devait intervenir pour sa conquête, un certain nombre de villes marocaines, et Tétouan en tête, ou presque, devraient être considérées comme espagnoles. Il est inutile de rappeler ici l'argument espagnol bien connu de l'époque, selon lequel l'Espagne étoufferait si le Maroc venait à être occupé par la France, dans la mesure où elle serait prise comme dans un étau, entre ce pays au nord, et ses possessions chérifiennes, au sud.

- Il y a l'argument économique : il y a des richesses à expliquer. Et cela est suffisamment clair pour que j'éprouve le besoin de le développer.

- Il y a l'argument de type civilisationnel : les Marocains, y compris les tétouanais, souffrent d'un retard, il faut le combler. De même qu'il faut les aider à surmonter leur " fanatisme religieux". La guerre de 1859-60 a permis notamment de protéger les juifs tétouanais, et bien la reconquête de Tétouan permettrait de les protéger de nouveau.

2) Pour ce qui est des moyens.

Il y a le moyen pacifique et le moyen militaire. Tant que la guerre n'est pas reconnue comme l'ultime recours possible, il est nécessaire de recourir aux méthodes pacifiques. Mais il faut avouer d'emblée qu'il est difficile de les distinguer avec certitude,sachant qu'un moyen pacifique aujourd'hui sera utilisé demain comme base de toute opération belliqueuse. Mais pour ne pas compliquer outre-mesure cette subdivision, je me limiterais à faire des moyens, sans avoir à chaque fois à spécifier leur nature actuelle ou future.

- Il y a le moyen de l'exploration, soit par des hommes, indépendants selon toute apparence, soit par des organismes étatiques, comme la "Commission de l'Etat Major" espagnol, qui était chargée de la mission de dresser la topographie de la région de Tétouan notamment.

- Il y a le moyen de la construction de voies de communication entre Tétouan et d'autres centres urbains marocains.

- Il y a le moyen de la culture : ouverture d'écoles, création de journaux, la mission franciscaine, etc...

3) Pour ce qui est du chevauchement des arguments et des moyens.

La pénétration économique d'une part et la pénétration culturelle, d'autre part, de l'Espagne, participent de ces deux facteurs que sont l'argument et le moyen. Et cela n'est qu'un exemple. On pourrait en trouver d'autres.

4)-Pour ce qui est du chevauchement des finalités et des moyens.

Ici aussi, les exemples abondent, mais je me contenterais de citer ici l'économie et la culture, tant il est vrai que ces deux paramètres

constituent à la fois une fin en soi (exploiter le pays et imposer la culture espagnole) et une voie de pénétration, tout aussi incontestable, en d'autres termes des instruments de domination.

Alors, la question qui se pose maintenant est la suivante : est-ce que cette synthèse est suffisamment élaborée pour être considérée comme une théorie coloniale espagnole digne de ce nom, c'est à dire cohérente, structurée, intégrée et complète.

Apparemment, la réponse tombe sous le sens : il ne s'agit que d'une esquisse-bien chétive-de ce que l'on peut appeler une théorie coloniale. Et les éléments que j'ai rassemblés, et la synthèse que j'ai faite à partir d'eux, le prouvent à priori.

Mais pouvait-il en être autrement ? Au nom de quoi Tomas Garcia Fugueras réalisa une théorie conséquente de la pénétration espagnole à Tétouan en particulier, en 1860-1912 ? Et il peut paraître d'autant plus judicieux qu'il n'en fit rien qu'on a dit et répété que le colonialisme espagnol, tel qu'il s'est implanté dans la zone nord marocaine, n'était fondé sur aucune théorie conséquente préétablie.[38]

Mais sachant la complexité des choses humaines, il ne faut pas aller aussi vite en besogne, il ne faut pas être aussi expéditif. L'histoire n'est jamais une certitude monolitique. L'histoire mêle des certitudes qui sont parfois sinon souvent contradictoires. L'histoire est une question d'orientation : il suffit d'en changer, pour trouver des arguments qui sont tout à fait contraires à ceux qu'on avait développés auparavant, au titre d'une première hypothèse. C'est dire que cette absence de théorie coloniale espagnole dans les temps qui ont précédé

---

[38] Il serait fastidieux de passer en revue tous les écrits pertinents y afférents, d'autant que cela n'est pas mon propos. Mais pour me résumer à l'extrême dans ce domaine, je me contenterai de citer le paragraphe de ma thèse où je fait état de l'inéxistence de théorie coloniale espagnole véritable relative au Maroc : "En l'absence d'une doctrine coloniale espagnole qui aurait synthétisé tous les éléments, historiques, politiques, ethniques, religieux et économique des visées expansionnistes de l'Espagne sur le Maroc, au seuil du XXème siècle, que nous aurions pris soin d'exposer dans les lignes qui suivent, nous nous voyons obligé de procéder nous - même, à des fins de reconstitution que nous espérons analytique, à l'individualisation de ce que nous appelons " les points de vue espagnols... sur la question du Maroc", pour en marquer le caractère "décentralisé". Contribution à l'étude du mouvement nationaliste marocain dans l'ancienne zone nord (1930-1956) ; p. 13.

Je sais bien qu'il est ridicule de se citer soi-même, mais es lignes ci-dessus ont peut-être le mérite d'exprimer dans le moins de mots possible, cette espèce de carence dans les développements, si je puis dire conceptuels des visées colonialistes espagnole au Maroc en général, et à Tétouan, en particulier, en 1860 à 1912 .

la création dans le nord, du Maroc Khalifien, se doit d'être considéré comme une hypothèse de travail. Et cela est d'autant plus vrai qu'il faut s'efforcer, autant que faire se peut, de vérifier les choses par soi-même ; et c'est faire preuve de paresse impardonnable que de s'appuyer de manière absolue sur les historiens, pour ce genre de vérité toute faite.

Moyennant quoi, il n'est pas entièrement exclu que cette théorie coloniale espagnole, relative surtout à Tétouan,existe. Cependant cela ne saurait signifier pour autant que je doive, pour les besoins de ce modeste papier, reprendre tous les tenants et aboutissants de cette question. Cela nécessiterait beaucoup de travail. Et d'ailleurs, pourquoi de jeunes chercheurs de l'Université Abdelmalek As-Saadi, notamment, ne s'attelleraint-ils pas à une telle recherche ?

Mais rien ne m'empêche, pour essayer de voir plus clair dans ce domaine, et ne serait-ce qu'à titre provisoire, de continuer ma réflexion toute modeste du reste, et cette fois-ci en termes généraux, et donc plus abstraits.

Avant toute chose, il convient d'indiquer que le colonialisme, dans ses intentions tout au moins, ou plutôt dans ses visées n'est pas par principe indivisible. D'où son caractère "décentralisé" que je visais plus haut. Mais cela est un quasi truisme, c'est l'Etat qui prête ses structures institutionnelles, fondamentales, pour la réalisation des desseins colonialistes, tels qu'ils se font jour au sein des milieux divers intéréssés à l'entreprise impérialiste.

Mais est-ce à dire que les hommes politiques, voire même les organismes représentatifs, à l'échelle de la nation ou non, qui prennent les décisions (et notamment celles qui consistent à lancer l'armée de leur pays en vue de l'occupation d'un territoire étranger) ont une vue parfaitement claire des choses ? L'on pourrait s'amuser à lire tous les mémoires des hommes politiques qui ont participé de très près à la prise d'une telle décision, et même les compte-rendus circonstanciés des organes parlementaires associés sous une forme ou sous une autre à l'aventure coloniale ; mais le peu-assez significatif-que j'en ai lu m'a montré que ces politiciens, et ces élus (députés ou non) étaient loin de se faire clairement l'écho d'une théorie coloniale suffisamment structurée ou élaborée.

D'un point de vue général, il m'est arrivé personnellement plusieurs fois d'approcher des acteurs historiques importants, ayant notamment rempli un poste officiel en vue, qui étaient dans l'incapacité de comprendre le sens véritable de leur propre action.

Et pour revenir à notre sujet, il faut souligner, en outre, que les décideurs politiques des Etats coloniaux étaient loin d'être des idéologues.

Ce qui nous amène naturellement à ces idéologies coloniales qui ont été l'œuvre de théoriciens plus ou moins philosophes. Mais ces théories coloniales ont-elles jamais été appliquées à la lettre ? et au nom de quoi le devraient-elles ?

Et avant d'être concrétisées, pourquoi toutes les visées coloniales d'un pays sur un autre devraient s'articuler les unes autour des autres dans un esprit de système ? Et cela est-il d'ailleurs possible ? Nous savons tous que l'essentiel des sociétés plonge dans l'invisible? De plus la mystification est presque toujours de mise, et cela pour masquer, pour tromper, pour cacher l'innommable, l'inacceptable. Et Dieu sait combien le colonialisme a été un phénomène en trompe-l'œil, il l'a été autant pour l'opinion publique du colonisateur que pour celle du pays colonisé. Compte tenu donc de ce que je viens d'affirmer, il faut que l'observateur ait une connaisssance suffisamment profonde de tout ce qui se trame au sein de tous les milieux intéressés à l'entreprise coloniale de son pays, et qui est invisible pour une grande part, pour qu'il élabore une théorie coloniale authentique ou tout au moins fidèle aux motivations profondes de la société de son pays.

Pour être plus précis, et pour ne pas se perdre dans les méandres d'une réflexion trop générale, prenons l'exemple du colonialisme français qui a été, selon toute vraisemblance, plus "théorisé" que son homologue espagnol, du moins au Maroc : est-ce qu'il a existé une doctrine coloniale française, dans les termes que j'ai indiqués un peu plus haut, et est-ce que cette théorie coloniale française a été considérée et par les autorités gouvernementales, à Paris, et par les colonialistes français au Maroc, comme un modèle parfait à suivre ?

Voici des questions qui méritent réflexion, par delà les idées reçues, qui ont cours malheureusement, même parmi les historiens.

Mais quelle que soit la réponse à ces questions, je peux d'ores et déjà indiquer ici, que pas plus en France qu'en Espagne, il n'a existé d'organe central à même d'effectuer une synthèse authentique à partir de toutes les visées coloniales véritables ayant existé en leur sein. On peut même se demander si l'arbitrage étatique qui a eu lieu le cas échéant dans ces deux pays, entre ces diverses convoitises coloniales, a été effectué en toute connaissance de cause.

Et s'agissant particulièrement de l'Espagne, on peut s'étonner que celle-ci n'ait apparemment pas été servie pour l'élaboration éventuelle d'une théorie coloniale, par sa multiséculaire tradition de velléités interventionistes-plus ou moins subies d'effets-au Maroc.

En fait, pour voir plus clair dans cette carence, il faut réaliser une analyse "sectorielle" dans les motivations ou les desseins qui ont été à la base de sa pénétration coloniale au Maroc :

- c'est ainsi que pour ce qui est de la "pacification" de la zone marocaine, qui s'est poursuivie jusqu'en 1927, je suis arrivé plus ou moins à la conclusion, ou tout au moins à l'opinion que l'Espagne a tenté de prendre pied dans la zone d'influence marocaine, que lui reconnaissait le traité qu'elle avait signé avec la France, le 27 novembre 1912, sans préparation véritable, ni matérielle, ni surtout "conceptuelle".[39]

- pour ce qui est des ambitions matérielles, l'Espagne n'avait rien à envier à son homologue français au Maroc, et notamment de colonisation de terres,d'exploitation de gisements miniers etc... sans oublier les projets dans le domaine de communications, véritable support de toute pénétration coloniale ; mais je ne peux m'étendre la-dessus, car les limites étroites de Tétouan ne me le permettent pas.

- Il en allait de même pour les visées culturelles espagnoles au Maroc, en général, et à Tétouan en particulier, sachant évidemment le chevauchement qui existait entre certaines motivations proprement culturelles et certaines motivations commerciales et économiques. Témoin à titre d'exemple ce que comptait entreprendre au Maroc la société commerciale "l'Union-Hispano-Mauritana" que j'ai mentionnée plus haut.

Même la science qui a généralement des tendances désinteréssées, a été placée en Espagne au service du colonialisme. J'en veux pour illustration "la Commission de l'Etat major espagnol" qui a envoyé des missions scientifiques, aux fins de dresser des cartes aussi précises que possible d'une certaine partie de la zone nord, qui comprend Tétouan.

Moyennant quoi, à l'exception toutefois de la manière dont il fallait occuper manu militari le Maroc du Nord [40], l'Espagne savait en gros ce qu'il fallait faire au Maroc.

Une autre exception, plus ou moins de taille, à l'absence d'une théorie coloniale espagnole relative au Maroc concerne au mieux le "marroquisme".[41]

---

[39]Cf. mon article : "Pacification" de la zone d'influence espagnole au Maroc septentrional (1907 - 1927) in **Approches du colonialisme espagnol et du mouvement nationaliste marocàin dans l'ex Maroc Khalifien,** Rabat, Okad, 1988, pp.67-88.

[40]Il ne faut pas oublier que Tétouan a été occupée - sans coup férir - par les Espagnols, au début de 1913.

[41] C'est une notion qui a été forgée par Victor Morales Lezcano, pour les besoins de son ouvrage : El Colonismo hispano-frances en Marruecos (1898-1927). Madrid, Siglo XXI de España Editores, 1976, p. 23.

L'africanisme est bien connu pour que je ressente le besoin de le définir de manière exhaustive. Mais sans trop simplifier les choses, je dirais que l'africanisme est une idéologie coloniale espagnole, qui est née officiellement en 1884, lors de la création de la "Sociedad de Africanistas y colonistas"et qui préconisait fortement l'expansion espagnole en Afrique, et surtout au Maroc. Et pour ce faire, les théoriciens de ce mouvement ne manquaient pas de trouver tous les arguments en faveur de cet impérialisme (économique, stratégique, politiques, culturel, etc...), sans compter que certains d'entre eux, et pas les moindres, ont poussé assez loin leur réflexion sur tout ce qui pouvait rapprocher les deux peuples espagnol et marocain, dans le domaine psycho-culturel, voire même ethnique et racial. Mais malheureusement, je ne peux faire état ici de ces développements, car l'ouvrage de Thomas Garcia Figueras, qui constitue la référence de base de mon papier, et qui est très prolifique ou prolixe en matière d'africanisme ne mentionne presque pas Tétouan dans ce cadre. C'est là un des défauts majeurs de l'analyse du contenu.

Quoi qu'il en soit, il reste envisageable que l'africanisme puisse être considéré comme une doctrine coloniale espagnole relative au Maroc.

Mais pour établir si cette doctrine "colle" aux visées colonialistes de tous les milieux "métropolitains" intéressés à l'occupation du Maroc, en faisant la part de tout cet "invisible" dont je faisais état plus haut, il faut une prochaine étude. De même qu'on peut s'interroger si l'Etat espagnol a été influencé ou non par l'africanisme ou plutôt par le "marroquisme".

Toujours est-il que je dois, en attendant qu'une telle recherche soit menée, nuancer mes propos précédents relatifs à l'absence d'une doctrine coloniale espagnole relative au Maroc, et surtout à Tétouan.

Conclusion

D'aucuns pourraient reprocher à ce travail d'avoir essayé de percevoir les choses par le "petit bout de la lorgnette". Evidemment, ainsi que je l'ai déjà noté plus haut, j'aurais été beaucoup plus à l'aise si j'avais appliqué le peu de l'analyse de contenu auquel j'ai eu recours à l'ensemble de la zone nord marocaine échue à l'Espagne en 1912. Parfois il a dû suffire que le nom de Tétouan ne transparaisse pas dans les développements relatifs à certaines motivations colonialistes

espagnoles spécifiques, pour que celles-ci soient purement et simplement escamotées.

Mais est-ce à dire que ce travail est inutile ? D'aucuns auraient tendance à le penser, et cela pour deux raisons :

- D'abord, parce que Tétouan a été relativement peu citée (60 fois contre 1000 à 1200 pour le Maroc, 248 fois pour Tanger, 190 fois pour Sebta et 78 fois pour Fès ; on voit ici que Fès a été citée plus que Tétouan).

- Et ensuite, parce que tout ce vers quoi tend ce travail, à savoir la mise à jour, sous une forme ou sous une autre, d'une théorie coloniale espagnole relative à Tétouan en 1860-1912, semble sans objet.

A la vérité, même le fait que Tétouan n'ait été citée que 60 fois reste significatif de l'intérêt relatif-réduit-que lui portait l'Espagne en 1860-1912.

L'explication de ce phénomène est simple : ce n'est que vers les dernières années de la première décennie du XXème siècle, et encore, que l'Espagne s'est résignée à l'idée qu'elle n'aurait pas la meilleure part du Maroc. Et le fait que Tanger ait été cité 248 fois, contre seulement 60 pour Tétouan, signifiait évidemment que l'Espagne accordait plus d'importance à la ville du Détroit ; et cela est d'autant plus vrai qu'elle y voyait plus d'intérêt, et notamment dans le domaine stratégique. Sans compter qu'elle y disposait d'une colonie autrement plus importante qu'à Tétouan. Et enfin "last but not least", les Espagnols étaient loin de soupçonner en ces années 1860-1912 que la "ville blanche" allait être précisément la capitale de la zone qui allait leur revenir au Maroc.

C'est dire donc que l'idée d'avoir choisi en question Tomas Garcia Figueras comme "matière première de ce modeste travail, n'a pas été d'une totale impertinence, d'autant moins que les raisons de ce choix ne sont pas toutes discutables (entre autres, l'auteur a été un africaniste ou un "marroquiste" convaincu ; il a été un fin connaisseur du Maroc, pour lui avoir consacré des dizaines d'ouvrages, et parallèlement pour y avoir vécu -presque intégralement- la présence espagnole, de 1912 à 1956.

Et puis de toute manière, je n'ai pas hésité, de nombreuses fois, à déborder le cadre trop étroit de Tétouan, de même qu'à dépasser les limites du livre en question de Tomas Garcia Figueras, fondamentalement pour ce qui est de l'établissement d'une théorie coloniale espagnole relative au Maroc en général, et à Tétouan en particulier.

Enfin, et ce sera là le mot de la fin, l'idéal aurait été de confronter cette théorie coloniale espagnole-si squelettique soit-elle-à ce que fut

véritablement la présence espagnole dans cette ville. En somme, il serait agi de soumettre telle philosophie coloniale espagnole éventuelle à l'épreuve des faits. Mais cela est une autre affaire.

An Introduction to the Domestic Architecture of Tetuan in the Precolonial Period (1860-1912)[1]

Dr . Nadia Erzini
Oxford University

An unprecedented number of palatial houses were built in Morocco in the late 19th century and first decade of the 20th century. Although the buildings of this period have yet to be the subject of comprehensive documentation, palaces such as those of the vizir Ba Ahmad Musa, the Qaid Maclean and the Jam'i, Moqri, and Manebhi families, etc. in Fez, Meknes, Marrakesh, and Tangier, are well known.[2] Tetuan suffered a decline in the late 19th century, due to its occupation by Spain in 1859-1862, and its replacement by Tangier as the northern port and the diplomatic capital of Morocco. Despite this decline, Tetuan was no exception in the late-19th century flourishing of palatial domestic architecture in Morocco . The late 19th and early 20th century houses built by vizirs, governors and merchants of the Brisha, Rkaina, Lebbadi, Medina, al-Haj, and al-'Attar families (among others)

---

[1] This subject formed a part of my research for a doctoral thesis, **The Domestic Architecture of Tetuan, 17th to 20th century**, Oxford University, 1988.

2. See especially J . Gallotti, **Le jardin et la maison arabe au Maroc,** Paris,1926, for numerous references and illustrations . See also H . Gaillard, **Une ville d'Islam : Fès, Esquisse historique et sociale**, Paris,1905, pp.179-80. G . Veyre, **Au Maroc, dans L'intimité du sultan,** Paris, 1905, pp.29-82; E. Aubin, **Morocco of Today,** London, 1906 pp . 246 - 7, E ., " Le palais Bahia", **France- Maroc**, 1920, p.10 and pp. 203 - 7 G . Aimel, "Un palais marocaine : La Bahya de Marrakech", **La renaissance de l'art francais** 4 (1921) p . 323 - 7 ; R. Le Tourneau, **Fès avant le protectorat,** Casablanca, 1949 (publications de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines vol . 45) pls . 85 - 87, 97 G . Marçais, **L'architecture musulmane d'Occident**, Paris, 1954, p.397 ; F. Charles - Roux and J . Caillé, **Missions diplomatiques francaises à Fès** (Publications l'Institut des hautes Etudes Marocaines vol.59) Paris, 1955, illustrations pl . 13, 21, 26, 27 ; and M . Francheschi Himeur, **Meknès - cinq maisons de notables au XIXème s.**, Doctoral thesis, Marseille Université, Aix - en - Provence, 1986 . See also J . Révault, **Palais et demeures de Fès de l'Epoque alaouite (XIXème - XXème siécles**), Paris, 1992 .

in Tetuan are a byword for traditional domestic architecture and urban life in this town .

It may be asked what were the reasons for this flourishing of palatial house building in turn-of-the-century Morocco? European travellers of the period often remarked that the increase was due to the decline of royal authority, and as a consequence, the new security of the merchant class, to display their wealth in a way which had previously been subject to reprisal .[3] This question cannot be fully answered until further research into the social and economic history of Tetuan and other towns has been conducted, a task which lies outside the scope of this article . However, it is clear that this was a period when great fortunes were made among the merchants, land-owners and government officials, who chose to display their wealth in the patronage of luxurious buildings. It is also possible that these building programs were stimulated by the European architectural presence in the coastal towns of Morocco, and by the availability of imported European construction materials .

These houses were the last expression of traditional architectural forms and decoration in Tetuan. Following the establishment of the Spanish protectorate in 1912, there was no patronage of traditional crafts on a scale comparable with houses of the turn of the century. The 19th century saw the disappearance of local building traditions in the face of European colonial intervention. Throughout the Islamic world, in the Ottoman Empire, Egypt, and French Algeria. This taste for "Occidentalism" is evident by the early 19th century, whereas the Europeanization of the Moroccan building tradition takes place at a relatively later date, during the protectorate. Nevertheless, the end of a local building tradition commences in the coastal towns of Morocco in the second half of the 19th century.

This paper aims to outline the various types of houses built in Tetuan at this period, to highlight a few significant examples and to summarise the general characteristics of the architecture of this period. It also poses the questions, to what extent do the buildings of this period belong to the Tetuani tradition of domestic architecture, and to what extent do they break with this tradition altogether ? The houses of this period exhibit many architectural features which are not Tetuani features which were either introduced from the different and pervasive architectural tradition of the capital city Fez, or imported architectural styles from Europe. The various combinations of Tetuani, Fassi and

---

[3]Aubin p . 246 - 7 ; Gaillard, pp. 179 - 80 . Gaillard wrote in 1905 that this change had occured in the reign of Mawlay ' Abdal'aziz (1895 - 1907) .

European styles in late 19th and early 20th century Tetuan result in an eclectic architecture which forms an interesting reflection of the changing economic conditions and social mores of the time.

This paper will concentrate on the ubiquitous type of large urban house, that was built around a courtyard, **dar bi wast ad-dar**, but will also refer to the **riyad** garden - house or wing of a house built facing a garden, as opposed to around a courtyard .

The Three Types of Courtyard House

The courtyard houses of turn of the century Tetuan can be divided into three types depending on the construction of the most important feature, the courtyard: (I) houses with a courtyard built on 12 columns and arches, (II) houses with a courtyard carried on four columns and wooden beams, but no arches, and (III) those houses with no columns, only cantilevered iron beams supporting the gallery of the first floor . As we shall see, the first and second types are based on earlier 18th and 19th century precedents, whereas the third is an innovation of ca . 1900 . The first type continues to be built throughout the period 1860-1912, whereas the second type seems to disappear in the late 19th century, supplanted by the third type .

(I) The first type of courtyard of this period continues the traditional plan and elevation of earlier large Tetuani houses, with a square courtyard, three arches on each side of the courtyard, and the elevation of the ground floor repeated on the first floor. This type of arcaded courtyard was used by the Naqsis governors for their palace in the 17th century, and the plan and elevation was elaborated in the Mashwar palace of Tetuan by the Basha Ahmad b. 'Ali ar-Rifi in the early 18th century, and the type was adhered to faithfully in the 18th century houses of the Raghun, Medina, Lebbadi, and Erzini families in the Bilad quarter . In the context of Moroccan architecture, this Tetuan tradition of arcaded courtyards is remarkable for its monochrome sobriety and lack of surface decoration . As we shall see, this arcuate plan and elevation is built in Tetuan until the first decade of the 20th century, although almost unrecognizably altered by its new surface decoration. One of the earliest important houses of this period (1860-1912) is the house of the Brisha family, probably built in the 1860's by al-Haj al- 'Arbi Brisha. [4]

---

[4] M. Dawud, **Tarikh Titwan**, Tetuan, 1959-1979, vol. 2, pp. 99), refers to al - Haj al-' Arbi Brisha . A legal document dated 1279 A.H. / 1862 - 3 refers to the Brisha house as being built (unpublished document in a private collection, Tetuan) .

The arcaded courtyard was favoured by Brisha for this house, but it differs from earlier arcaded courtyards in many points. Its larger scale, the exact geometry of its plan (producing exactly parallel and perpendicular walls), the taller proportion of its arches, the very elaborate **zallij** (ceramic tile mosaic), carved stucco and the extensive use of carved and painted wood are aspects not only of the changes in the Tetuani tradition, but also the increased influence of the Fez tradition of domestic architecture in Tetuan. The octagonal wooden cornice that crowns the courtyard of the Dar Brisha can be exactly paralleled in contemporary houses of Fez and Marrakesh . This fashion for the Fez style is not surprising given that their builders were merchants of the Sultan and served as vizirs, and were familiar with life in Fez and other royal capitals . The lack of 'baroque European' decoration is probably due to the relatively early date of the Dar Brisha .

Two major houses with arcaded courtyards were built in Tetuan in the first decade of the 20th century, the Lebbadi and Rkaina houses, respectively by, Abdalkrim b . Ahmad Lebbadi (governor of Tetuan in 1906-7 and 1908-9),[5] and the vizir Ahmad b. Muhammad Rkaina in 1903 [6]. These houses preserve the basic plan and elevation of the

---

In 1879 Boada y Romeu visited the Brisha house, still apparently under construction (J . Boada y Romeu Allender el Estrecha . **Viajes por Marruecos**, 1889 - 1894, Barcelona and Madrid 1895 pp . 279 - 282) . Also in 1879, Oskar Lenz recommended viewing the Brisha house (O . Lenz, **El viaje a Tetuán y la kabila de Anyera de Oskar Lenz**, Madrid 1879 p . 9) . For photographs of the Dar Brisha, se F. Huesco Rolland "Residencias hispano - árabes en Tetuán", **Arte español** 18 (1951) pp. 144 - 157 .

[5]Dawud, Op. Cit., p.53 and A . Rhoni, **Historia de Tetuán**,Tetuan, 1953 translated by M . Ben Azzuz Hakim pp . 90 - 91 j . A Eguilaz, **Un viaje por Marruecos**, Jaen 1912 pp . 70, 81, 87 - 88 ; F . Valderama Martinez, **Inscripciones árabes de Tetuán**, Madrid, 1975, p . 21 ; O . Lenz, **El viaje a Tetuán y la kabila de Anyera de Oskar Lenz,** Tetuan (1879) p . 9 ; R . S . Watson, **A Visit to Wazan,** London, 1888,p .280; photographs of the house in the Tetuan Public Library give the date of construction as 1324 A.H./ 1907 A.D., (n . 33 . 679 - 684) .

Eguilaz described a wedding given by Abdalkrim Lebbadi in 1909, where 1500 guests consumed 75 sheep, 1500 chickens, 322 kilograms of butter and countless sweets, with wine and chanpagne for the European guests, exhausting market supplies and feeding the poor of the town for several days (p . 70) .

[6]S . Sebastian, " Tetuán, urbanismo e itinerario artistico," **Africa**, 187 (1958) pp . 113 - 8 p . 118 ; Valderrama Martinez, pp . 24 - 5 gives the inscription on his tombstone ; Jabbur, 1948, p . 20 ; A. Joly, " Tetuan, " **Archives marocaines** 4 (1904) pp . 259 - 61, Fig . 19, p . 297, p . 330, fig . 45 .

traditional Tetuani house, but unlike the Brisha house, they abandon the sober white-washed walls of the arcades of earlier houses. The surface decoration of the Lebbadi and Rkaina houses combines Moroccan architectural forms with eclectic European styles and materials discussed below . Both the Rkaina and Lebbadi houses make use of an eclectic range of neo-Classical, Art Nouveau, neo-Gothic and neo - Islamic or neo - Moresque carved stucco motifs, as for example, on their capitals, the intradoses and extradoses of the arches, the surface of the courtyard walls, the cornices, the ceiling roses, the staircases, the entrance halls, the interiors of rooms, and even on the external doorways. Fig. 1. Dar Lebbadi, early 20th century photograph, courtesy of the Biblioteca Nacional, Madrid .

(II) The second type of courtyard is generally much smaller than the first, and the gallery of the first floor is carried not on arches, but on four tall columns, which support carved and painted wooden beams. The narrow proportions of the courtyard, and the emphasis on the decoration of the wooden trabeate structure is recognizably derived from the Marinid, Saadian and Alawite tradition of domestic architecture in Fez[7]. This tradition was first introduced to Tetuan in the early 19th century, in the houses of the merchants of Fez, such as that of the Buhlal Family, dated to 1217 A.H. /1802-3 A.D. and the house dated 1220 A.H./ 1805-6 A.D. or 1222 A.H./ 1807-8 A.D. of the Benshatab family both located the Jama' al-Kabir . As in the arcuate courtyards of the pre - colonial period, the trabeate courtyards are generally taller and their proportion more eleongated than their predecessors of the early 19th century .

There are few examples of this type of houses, with a trabeate courtyard preserved from the period 1860 - 1912. Most seem to have been built in the mid- to late 19th century and as we shall see below, this type of courtyard was made obsolete, supplanted by the more technologically advanced third type of courtyard ca. 1900. A trabeate house with four columns which was built probably in the 1870's or 1880's, is the Khatib house on Zanqat ash - Shama.[8] Fig. 2 Dar al-Khatib).

---

[7]Marçais 1954 p . 403 ; J . Révault, **Palais et demeures de Fès I . Epoques mérinide et Saadienne (XIVème - XVIIème siécles)**, Paris, 1985 ; Ibid., **Epoques alawite (XVIIème-XVIIIème siécles)**, Paris, 1989.

[8]Dawud, Op. Cit. makes numerous references to Muhammad b . Abdalah al - Khatib's involvement in the 1856 treaty between Morocco and England and in the 1859-1862 Spanish occupation of Tetuan (vols . 4, 5, 6) .

The relatively early date of the trabeate house meant that their architectural forms and decoration are relatively conservative and lacking in Europeanizing innovation. They are more comparable to the Dar Brisha than to the Dar Lebbadi or Rkaina mentioned above. The traditional local motifs and architectural features include pointed horse - shoe arches, cusped, lambrequin and ogival arches, which are used on the courtyard wall . There is almost no surface decoration on the upper walls except a few registers of merlon cresting .

Although there appear to be no examples of this second type of courtyard from the first decade of the 20th century, there exists a curious reconstruction of this type of house, built as part of the Moroccan pavilion at the Ibero-American Exhibition at Seville in 1929.[9] This faithful copy of a late 19th century house was designed by Mariano Bertuchi, director of the Escuela de Artes Indigenas in Tetuan . It is a good example of the historicist style of architecture favoured by the Spanish Protectorate, inspired largely by local late 19th century house architecture .

(III) Jean - Louis Miège has documented the introduction of iron beams along with other European construction materials in Moroccan construction in the 1880's [10], and certainly in Tetuan, the vast majority of houses of this period are built with iron beams . In some cases the beams are incorporated, unnoticed, into the traditional arcuate courtyard plan, but in the majority, the columnar support is abolished, in favour of a gallery or cornice cantilevered out on iron beams, in turn sheathed by decorative, non - structural, wooden casing .

The new type of courtyard with no columns is by far the most numerous at the turn of the century, including those houses built, renovated or bought by Muhammad al - Haj (ca .1907), Ahmad Torris (1910), and members of the Benaboud, Bennuna, Benjellun, Medina, al-'Attar families, and countless other smaller houses .[11] Within this

---

[9]Marruecos en la Exposicion Ibero - Americana de Sevilla", **Africa Revista de Tropas coloniales**, May 1929, pp.109-117.

[10] J.L. Miège, **Le Maroc et l'Europe 1830 - 1894**, Paris 1961 ; 1963 vol . 4 . p . 393 and n . 2

[11]Dawud makes numerous references to merchants of the Bennuna, Medina and Benjellun families of the mid and late 19th centuries (see vols 3, 4, 5, and 6) . Rhoni, Op . Cit., pp. 91 - 93, refers to Muhammad b. Muhammad al-Haj, governor of Tetuan in 1920 - 1, and regent to the Khalifa between 1923 - 5 . Ahmad b. Muhammad Torris, governor of Tetuan in 1912 - 3, is referred to by Dawud (See vol.6, pp.68, 169) and Rhoni, p.91) .

group, there are variations of surface decoration ; some like the al - Haj, Bennuna, and Torris houses, are relatively plain, with isolated carved stucco motifs on the courtyard wall, while others such as the Benjellun house has an all-over carved stucco decoration, reminiscent of the Lebbadi house of the same period. While some have predominantly stucco decoration, others like the twin Medina houses in the Janwi quarter have enormous octagonal wooden cornices, carved and painted, as in the Brisha house discussed above Fig . 3 Dar a-Haj .

Innovation in Construction, Plan and Decoration

Prior to the mid 19th century, master builders and artisans of Tetuan and elsewhere in Morocco generally worked within a repertoire of conventions established in the early medieval period, which controlled the plan of the houses, elevations, types of arches, doors, rooms, windows and the materials and designs of surface decoration. The period of 1860-1912 in contrast, is a period with a new taste for innovation or novelty, inspired by contact with Europe, and Morocco's growing dependence on European raw materials and manufactured goods. For the first time, the individual taste of the patrons seems to have played a significant role in the choice of style.

An innovation of the period which characterizes all three types of houses is the covering of the courtyard, always previously left open to the sky. At this period, even existing early 19th century houses were renovated, addikng the courtyard covering, usually a pyramidal iron frame with panels of glass. Not only, as we shall see below, did the fashions of architectural decoration change at this period, but there also seem to have been fundamental changes in the conception of domestic comfort, necessitating the enclosure of the courtyard space. The courtyard had been an outdoor area open to all the elements, in which the residents were continuously vulnerable to cold, wind and rain, but now was transformed into a central room and lightwell. The unhealthy lack of ventilation of these enclosed courtyards is said to have contributed to the epidemic of tuberculosis in Tetuan at the turn of the century.

Although there are changes in the plan of the courtyard, the basic plan of the rooms of the courtyard house remained the same, with the variation of four basic units : a long room with a door onto the courtyard, usually not more than 3.5 to 4 cm.. deep (**bit**, called a **ghorfa** when situated on the first floor) ; an alcove opening onto the courtyard (**bartal**) ; an alcove for a wall-fountain (**bartal al-ma**) ; and

a room opening onto the courtyard through three arches without doors (**maq'ad**). The covering of the courtyard provided protection from the elements and reduced the light, both factors which at this period probably caused the increased popularity of the open **maq'ad** as opposed to the enclosed **bit** and the decline in popularity the **bartal**. The characteristic **maq'ad** elevation of this period is of three arches equal in size, the arches elaborately cusped and covered with stucco decoration .

One important innovation in the plan of the houses was the large square room or **sala** (from the Spanish sala for large room, but given an Arabic plural : **silan**, and diminutive : **swila**). The additional span of the ceiling of the sala up to 7 square m., was made possible by the new iron beam technology. The **sala** was either incorporated into the courtyard house, taking the place of the **ghorfa b'al-kharraja** (cupstairs room with an extension), or placed behind as in the Rkaina house, discussed above, in which one wall of the **sala** originally consisted of windows overlooking Bab al - Oqla to Martil and the sea .

Aside from the iron girders used in construction, whole cast-iron balconies, window grills and balustrades were imported from France and England, and were used alongside traditional local wrought - ironwork .

At the same time that the courtyards were covered with glass, rooms were built with large windows for the first time, and large windows were added to rooms of older houses at this period. The windows were glazed with panes of glass imported from Europe, often coloured glass known as Iraqi. One style used for the wooden frames of the windows was European, with floral motifs carved on the overwindow. Sometimes a concession was made to local designs, by incorporating Islamic geometric designs into the panes of a European - type window . More often, the windows were crowned with a pointed arch in carved and painted wood known as the qaṇabat, a feature (as we have seen above) that was imported from Fez architecture. Doors also acquired European frames and hinges instead of the traditional and cumbersome stone gudgeons .

As I have indicated, the courtyard became more of a central hall than an open light-well. Once the columns obstructing the courtyard were made obsolete, the architectural interest provided previously by the courtyard arches and columns was now provided by the courtyard wall and the **maq'ad** galleries. As we have seen, these developments coincided with the introduction of new decorative elements and the application of over all surface decoration onto the courtyard wall .

Characteristic of all the covered courtyards of this period is the increased, over-all decoration of the courtyard wall, with carved and

painted wooden **zallij** (ceramic mosaic tiles), and with carved stucco in high relief, previously too fragile to expose to sun and rain in open courtyards . None of the surfaces are left plain, and in some cases, different designs are deliberately alternated, resulting in a busy and over - powering decoration .

The height of **zallij** panegs increased from thirty or forty cm. at the beginning of the 19th century to 2.5 m in the turn of the century houses . Different **zallij** patterns are alternated in a way not seen in earlier houses, and European black and white marble tiles, as well as imported ceramic tiles, are used in combination with Moroccan **zallij**. In 1902 Meakin wrote that marble tiles were especially popular in the costal towns of Morocco and in Jewish Moroccan houses, and that cheap Spanish tiles were replacing **zallij** in Tetuani houses [12].

In stucco decoration, naturaliistic floral European motifs are contrasted with geometric Islamic designs. The strong local decorative elements of medieval Islamic origin (cornices, shell squinches, etc are reduced in size and lost among the wealth of other decoration. The three domes typical of earlier 18th and early 19th century staircases are at this period replaced by a variety of flat and vaulted ceilings . The stucco is painted with oil-based paint instead of the traditional whitewash .

Italianate marble fountains consisting of a gadrooned basin on a high knopped foot were imported, probably already carved, from Spain or Italy, while in some houses even marble fireplaces make their first appearance . It was with reason that Santiago Sebastian described this as the "baroque" period of Tetuani architecture.[13]

The Garden Houses of the Period

Sóme of the most innovative house architecture occurs in the **riyad** or garden-wings, which were free from the constraints of the traditional plan of courtyard houses . According to Joly, one fifth of the area of the walled town in 1905 was unbuilt and covered with

---

[12] E . B . Meakin, **The Moors,** London, 1902, pp. 36-37.

[13] S. Sebastian Santiago, "La arquitectura religiosa Tetuaní", **Archivo español del arte** 30 (1957) p . 55 - 69, See pp . 65 - 66, Other than this article, there is little published on the subject, See above, N ; 4, Huesco Rolland, 1951 .

gardens.[14] All the gardens followed the ancient tradition of the cruciform plan, generally on a lower level than the house, and with plots sunken below the level of the paths . However, the buildings of these **riyad** show great variety .

The **riyad** built by Muhammad al - Khatib (**amin** of the sultan in Tangier), in the Janwi quarter of Tetuan around 1859 [15] and the neighbouring **riyads** of the Attar and Brisha families, follow a conservative plan, cusped arches or one cusped and two lambrequin arch, and the characteristic long and narrow rooms behind the arcade. The decoration consists of **zallij** paving and revetment, and painted woodwork . There are 18th and early 19th century precendents for this building in Tetuan and in the Kitan valley below the town .

In contrast, the contemporary **riyad** built by Haj Muhammad Erzini makes no concessions to local tradition, consisting of two floors of immense neo-Classical galleries of nine arches, paved in black and white marble, with European-type doors opening onto to **silan**, the innovatory large square rooms . Erzini's choice of this style is said to have been inspired by the architecture of Gibraltar, when he was Moroccan consul there in the mid-19th century.[16] This strange and poorly understood neo-Classicism is quoted again in the garden wing of the al-Haj house of ca.1907. Fig 4 **riyad** Erzini the classicizing arcade).

---

[14] A. Joly, "Tetouan", **Archives marocaines** 4 (1905) p . 299, and his sketch maps of the area between Bab Jiyaf and Bab al-Oqla, p. 259 fig. 18, and p. 332 fig. 46.

[15]For Muhammad al-Khatib,the Sultan M. Abdarahman's amin in Tangier, see above n .8 . Amor visited the Riyad al-Khatib when it was still under construction in 1859 (F. Amor, **Recuerdos de un viaje a Marruecos**, Sevilla,1859 pp . 52 - 53), and after the Spanish occupation, Later in 1859, Ventosa visited the Riyad al - Khatib, noting the looting of the amin's documents (E. Ventosa, **Españoles y maroquís. Historia de la guerra de Africa**, Barcelona, 1859 pp.113-114, p. 736).

[16]Dawud (see especially. 8) makes numerous references to Ahmad b. Ahmad Erzini, amin of the Sultan in Tangier in the 1840's, his brother Muhammad, merchant and consul in Gibraltar, and the latter's son Muhammad. See also various documents in A. Erzini 's article.

Another garden - house, in this case situated in a **jinan**, or extramural orchard is the **jinan** Slawi below Bab as-Sa'ida.[17] Its turn of the century facade has since been rebuilt, but photographs of the period document its original arcade. This arcade consisted of Lambrequin arches of strange proportions suggest that they were not built by a Moroccan masterbuilder, but by a foreign builder imitating Moroccan motifs. The architectural styles of these garden - houses suggest a certain consciousness of the identity of architectural styles : traditional, neo-Classical, and neo-Moroccan, among the patrons and master builders .

Conservatism and Eclecticism in the Pre-colonial Period

In the 19th century, Tetuani builders and artisans continued an important architectural tradition, only rivalled by Fez and Rabat-Salé. Tetuani craftsmen were in demand not only in their own town but also for important projects in other towns, as in the **Jinan** Ridwan Palace of Sultan Sidi Muhammad b. Abdarahman, the Bahia Palace of the vizir Ba Ahmad Musa, both in Marrakesh, and on the renovation of the Mashwar Palace in Tangier in 1888-9.[18] Usually anonymous, some of the Muslim artisans are recorded by oral history for the first time ca . 1900 : the Lebbadi, Rkaina, Al-Haj and Torris houses were built by the ma'alam Muhammad Nakhsha, and the stucco and **zallij** decoration carried out by various artisans : the brothers Mfadal and al - Yasi al-Baqali, Zuri, Murir, Belghiti Tlemsani, Ahmad Sliman and Abdarahman Marin. The latter was also responsible for the stucco of the dar Benjellun.[19]

These Muslim artisans were familiar with imported designs and materials long before the colonial period, as is evidenced in the carved stucco and the neo-classicizing capitals of several of the houses

---

[17]Ahmad b. Muhammad Slawi governed Tetuan between 1862 and 1878 (Rhoni, Op.Cit., p.89 and Dawud, vols. 3,4,5 passim), and was succeeded as governor by his son Muhammad between 1878 and 1887 (Rhoni, ppp.85-92).

[18]G. Deverdin, **Marrakech dès ses origines à 1900**, Rabat, 1959, pp.529-30, quotes Merry y Colom, **Relación del viaje de ...Merry y Colom en 1864**, p. xiv, about the Jinan Ridwan of Marrakesh. See Deverdin, p.544 about the Bahia. See also E.Michaux-Bellaire, "Un coin de la qaçba de Tanger", **Revue du monde musulman**, 35 (1917-1918), pp.95-105.

[19] S. Sebastian, "Tetuán: urbanismo e itinerario artístico", **Africa** 195 (1958), pp.116,118.

discussed above. Joly in 1904 and others noted the presence of European paints, glass, wood, stucco, tiles, marble, etc.,[20] which is not surprising given the dependence of the Moroccan economy at this time and Tetuan's special proximity to Spain and Gibraltar. Some engineers and artisans received part of their training in Europe : Zubair b. Abd al - Wahhab as - Skiraj was sent to study engineering in England for five years by Mawlay al - Hassan in 1891.[21]

It is not clear to what extent the houses of this period were built jointly by local Muslim master-builders and artisans, and Jewish Moroccan and European builders or importers of building materials . The role of the Jewish community in introducing new architectural styles and building materials should not be underestimated. The Jewish community constituted a fourth or a fifth of the total population of 20,000 to 25,000. The new Mellah or Jewish quarter, begun in 1807, and said to have been planned by a Portuguese engineer, introduced to Tetuan new ideas of orthagonal town planning, as well as new types of houses, with external windows and neo - Classical decoration of a provincial Spanish style.[22] In 1860 Pedro Antonio de Alarcon described the style of houses in the Mellah as "medio à la oriental, medio à la inglesa" [23], due to the influence of Jewish merchants in Gibraltar. Fig 5. A house in the Mellah of the Benshatrit family of ca. 1900.

Aside from the Muslim and Jewish Moroccan craftsmen, several masons worked in Tetuan at this period.[24] The Spanish consulate and chapel to the east of the Feddan square were built in a neo - Classical

---

[20]A.Joly, "Tétouan", **Archives marocaines**, vol.8, passim, and vol.18, pp.206-208. See also A.Cousin, **Le Maroc** and **Tanger**, Paris, 1902, for statistics of construction materials imported from Europe.

[21]M. al-Manuni, **Madhahir Yaqadat Al-Maghrib al-Hadith**, Casablanca, 1985, pp.166-170, 246.

[22]S. Sebastian, "La judería tetuaní", **Africa**, no.208 (1959), pp.172-73. The difference between the work of Muslim and Jewish craftsmen should be exaggerated, as both seem to have worked interchangeably for Muslim and Jewish patrons, in Islamic and European styles. At a slightly later period, the Muslim artisan, Belghiti Tlemsani, for example, redecorated the synagogue of Jacob Ribas in 1945 (Sebastian, 1959, p.72).

[23]Alarcon, Op.Cit., pp.203,207.

[24]Spanish masons appear in the census of Catholics resident in Tetuan in the years 1896 and 1904,(Padron, **Eclesíastico de la colonia católica de Tetuán 1896-1912**, in **Archivo de la Misión Franciscana de Tanger**). My thanks to the Padre Lourido Diaz for bringing this document to my attention.

style some time in the late 19th century . The Musalla quarter of Tetuan, once open prayer ground, was built up in the late 19th century to house Christian residents of the town, and its architecture is European . European architects also worked for Moroccan patrons ; one of the earliest examples known is Eduardo Fernandez of Madrid, who drew up a plan for an extramural " casa de huerta "(orchard - house or **jinan** for Ali Slawi in Tetuan in 1894 [25] (Fig 6 . Plan of the " Casa de huerta" of Ali Slawi of 1894, in a private collection, Tetuan) .

Given the eclecticism and European influence of this period, it may be asked whether some of these buildings are in the Moroccan or Tetuani tradition at all, despite their Tetuani patronage. To date, the Arabic sources appear to be silent on the subject of architectural style or aesthetics, a silence which underlines the importance of these houses as documents in their own right. The Muslim and Jewish patrons seem to have found no contradiction in juxtaposing Moroccan architecture with European neo-Classicism. Some contemporary European visitors found the mixture of Islamic and European styles of this period unattractive ; René Leclerc in 1905 referred to the "maisons mauresques retouchées de mauvais style hidalgo" of the Feddan, and to the "véritable caricature de la décoration européenne" of the Dar Rkaina.[26] However, the eclectic style appealed to other writers ; Bonsal in 1893 referred to the houses of Tetuan as "of a much nobler and purer Arabic architecture than even the best specimens I have seen in Fez".[27] Meakin saw in the houses of Tetuan "the best relics" of the taste with which the Nasrids had built the Alhambra in Granada .[28]

The architectural tradition of Tetuan in the period 1860-1912 can be seen, on the one hand, as a period of conservatism in the face of European cultural and commercial hegemony, and on the other hand, as a period of experimentation and adaptation of new motifs and technologies to the traditional repertoire.

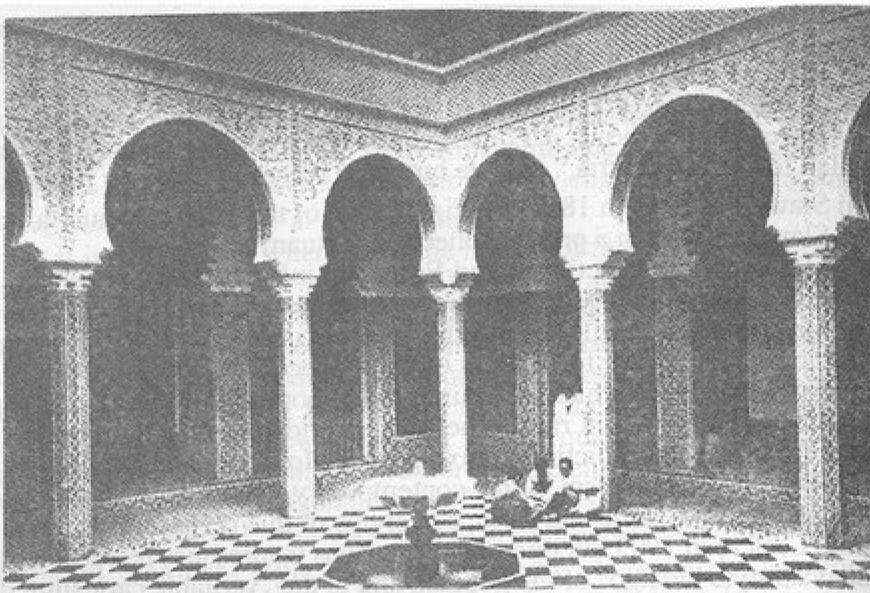
---

[25] 'Ali Slawi was the brother of Ahmad and Muhammad, see above note 17, and Dawud, vol.5, p.229.

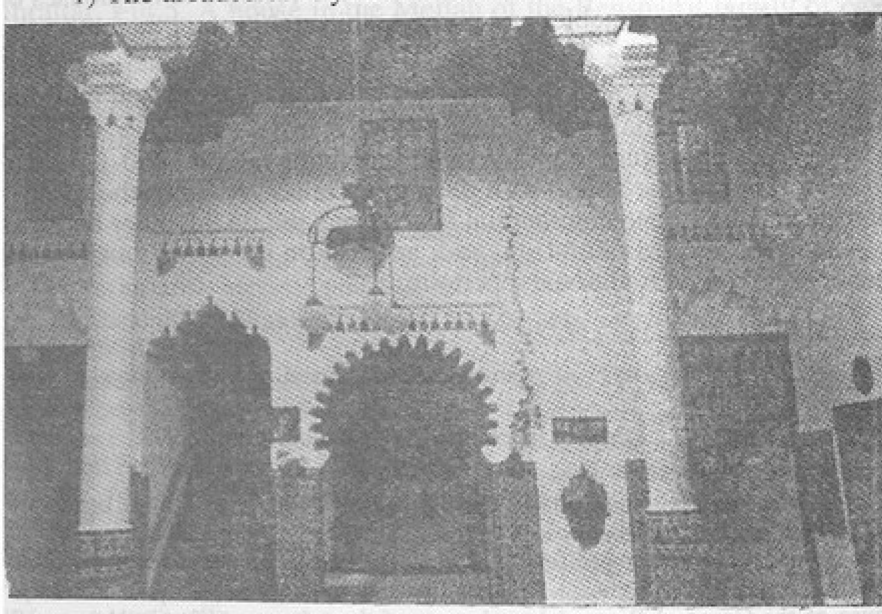
[26] C.René Lecleerc, **Le Maroc septentrional**, London, 1893, p.279.

[27] S.Bonsal, **Morocco as it is**, London, 1893.

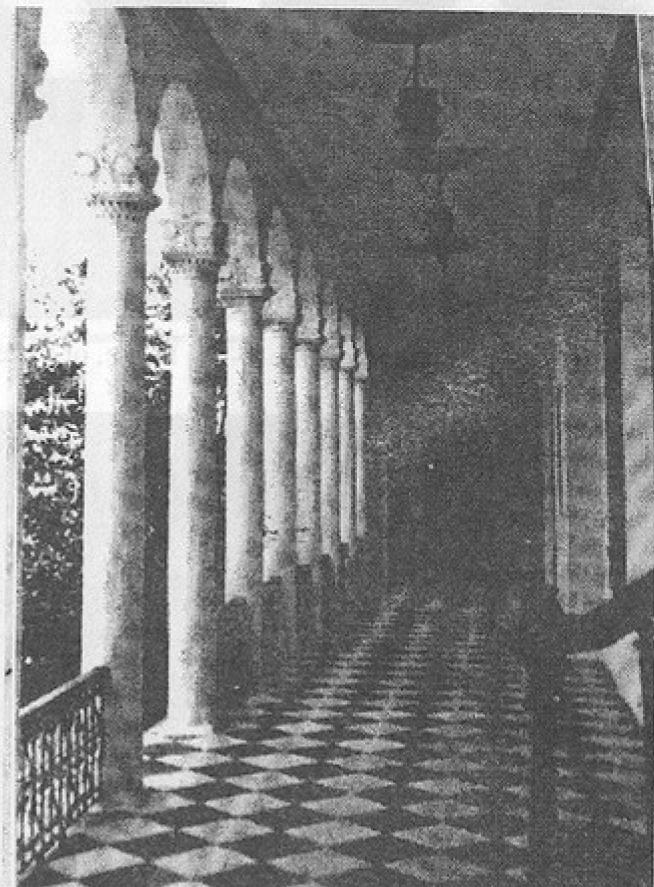
[28] E.B. Meakin, **The Land of the Moors**, London, 1901, pp.140-41. In one of the earliest toursist guidebooks to Morocco, the author recommends an excursion from Tangier to Tetuan, specifically to view the houses of the affluent Muslims (Khatib, 'Attar, Brisha, Lebbadi, "Abdalatif", Erzini, the governor's palace and the house of the Count of Ripperda), and some of these houses (Khatib, 'Attar, and Brisha), were recent constructions. (A. de Kerdec Cheny, **Guide du voyageur au Maroc**, Tanger, 1888, p.118.



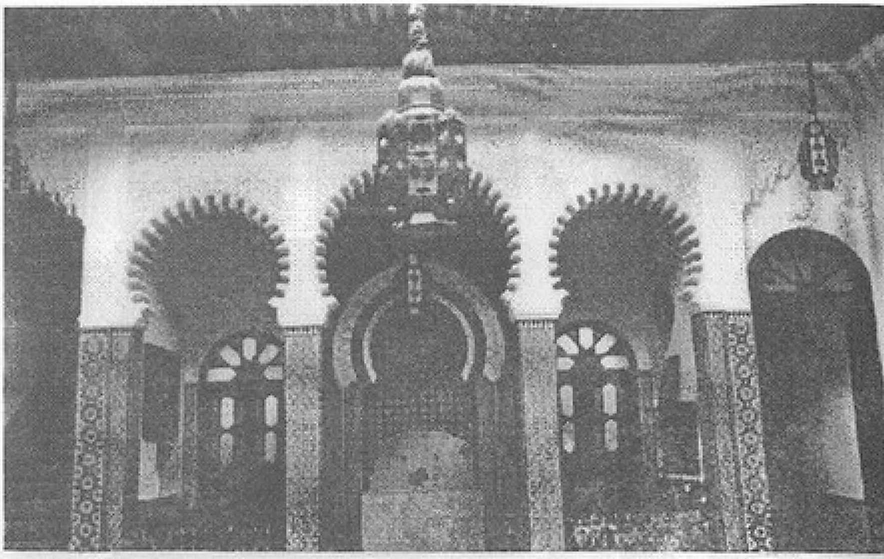
1) The arcaded courtyard of the Lebbadi house, built in 1907.



2) The trabeate courttyard of the Khatib house, of the late 19th century.



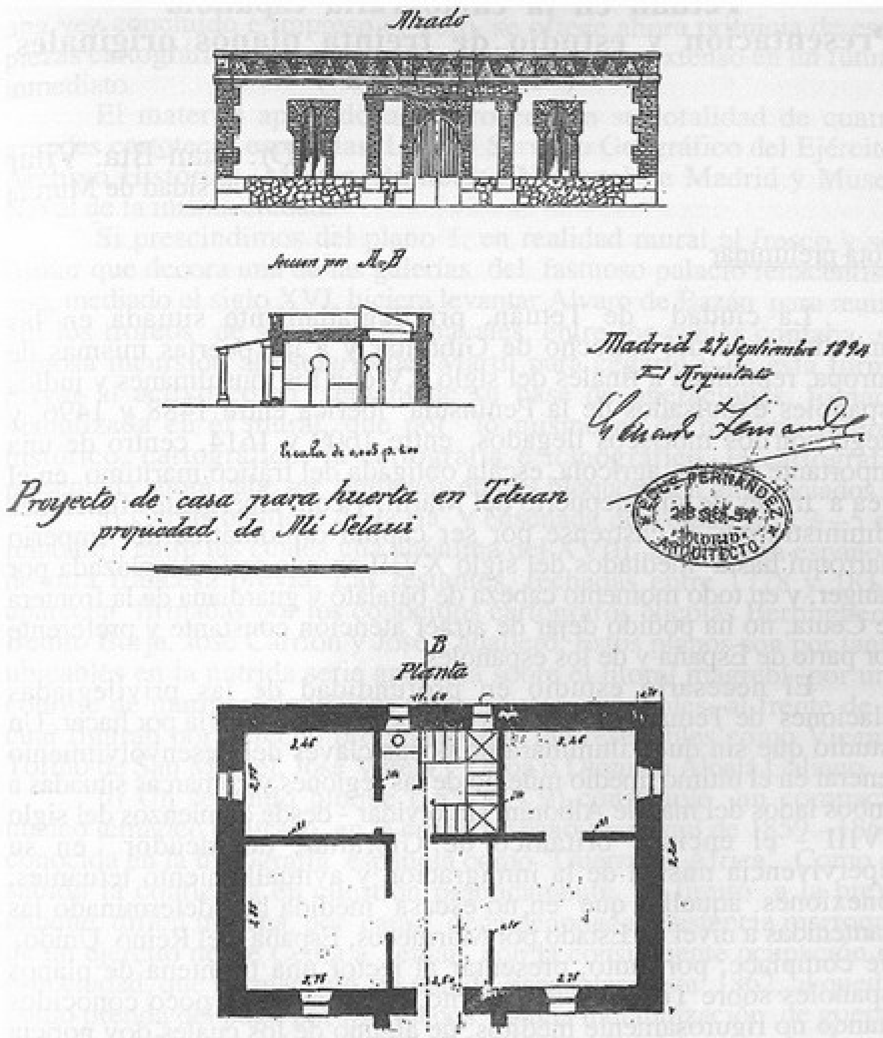
4) The Classicizing arcade of the garden wing of the Erzini house, of the late 19th century.



3) The courtyard without columns of the al-Haj house, of the early 20th century.



5) The three Classicizing arches typical of the Jewish houses of Tetuan of ca. 1900. This house is said to have belonged to the Ben Shatrit family.



6) Architectural drawing for 'Ali as-Slawi's orchard house dated 1894.

Tetuán en la cartografía española
Presentación y estudio de treinta planos originales
(1562 - 1912)

Dr. Juan-Bta. Vilar
Universidad de Murcia

Nota preliminar

La ciudad de Tetuán, privilegiadamente situada en las inmediaciones del estrecho de Gibraltar y a las puertas mismas de Europa, repoblada a finales del siglo XV con los musulmanes y judíos españoles expulsados de la Península ibérica entre 1488 y 1496, y luego con los moriscos llegados entre 1609 y 1614, centro de una importante región agrícola, escala obligada del tráfico marítimo en el área a través de su antepuerto del Martil, y con emergentes funciones administrativa y castrense por ser capital diplomática del Imperio marroquí hasta mediados del siglo XVIII en que sería desplazada por Tánger, y en todo momento cabeza de bajalato y guardiana de la frontera de Ceuta, no ha podido dejar de atraer atención constante y preferente por parte de España y de los españoles.

El necesario estudio en profundidad de las privilegiadas relaciones de Tetuán con la Península ibérica está todavía por hacer. Un estudio que sin duda iluminará no pocas claves del desenvolvimiento general en el último medio milenio de las regiones y comarcas situadas a ambos lados del mar de Alborán, sin olvidar - desde comienzos del siglo XVIII - el enclave británico de Gibraltar, tan deudor en su supervivencia misma de la inmigración y avituallamiento tetuaníes, conexiones aquellas que en no escasa medida han determinado las mantenidas a nivel de Estado por Marruecos, España y el Reino Unido. Me complace, por tanto, presentar al lector una treintena de planos españoles sobre Tetuán y su entorno, en su mayoría poco conocidos cuando no rigurosamente inéditos, de alguno de los cuales doy noticia más pormenorizada en mi repertorio recién aparecido Mapas, planos y fortificaciones hispánicos de Marruecos (s.XVI -XX) / Cartes plans et fortifications hispaniques du Maroc (XVIème-XXème siècle), Madrid, Instituto de Cooperación con el Mundo Arabe, 1992, 604 págs. + 842 planos, en tanto otros son solamente enumerados, refiriéndome ahora a ellos con mayor detenimiento. En particular los n°s. 3, 6, 9,10, y 28 de la presente relación. En cuanto a los n°s 13-25, sobre los cuales apenas hago referencia global y genérica en la addenda II del repertorio

mencionado, dado que tuve conocimiento de esa cartografía adicional una vez concluido e impreso el libro, se ofrece ahora primicia de esas piezas cartográficas, que proyecto estudiar más por extenso en un futuro inmediato.

El material aportado aquí procede en su totalidad de cuatro grandes cartotecas españolas. Las del Servicio Geográfico del Ejército, Archivo Histórico Militar, Biblioteca Nacional de Madrid y Museo Naval de la misma ciudad.

Si prescindimos del plano 1, en realidad mural al fresco y sin firmar que decora una de las galerías del fastuoso palacio renacentista que, mediado el siglo XVI, hiciera levantar Alvaro de Bazán para reunir allí los trofeos de sus triunfos navales, entre los cuales contaba su famosa incursión al estuario del Martil para cegarlo y de esta forma privar al activo corso tetuaní de su base de operaciones, jornada visualizada en el mural, que por lo mismo es de máximo interés histórico, cartográfico, la cartografía e icinográfico, la cartografía presentada ahora cabe ser tipificada en tres bloques bien diferenciados :

a) Cartas náuticas de la ría y ensenada de Tetuán (n°s.2 - 5 de relación), entre las cuales una anónima del XVIII, adaptación española de otra francesa previa. Las restantes, fechadas entre 1778 y 1811, aparecen firmadas por los conocidos cartógrafos Nicolás Berlinguero, Benito Borja, José Carrión y José Caballero. Estos planos son por tanto ubicables en la nutrida serie aportada sobre el litoral magrebí por una cohorte de marinos científicos setecentistas españoles, al frente de la cual figuran por derecho propio figuras tan reseñables como Vicente Tofiño de San Miguel, José Varela y Ulloa o Dionisio Alcalá Galiano.

b) Un segundo bloque (n°s 6 - 9) constituye un compacto núcleo temático centrado en la crisis hispano-marroquí de 1859 - 1860, conocida en la histografía española como "Guerra de Africa". Como es sabido la contienda en cuestión prácticamente se limitó a la breve aunque dificil marcha, por causa de la denodada resistencia marroquí, de un ejército desde Ceuta a Tetuán, con la consiguiente ocupación de esta ciudad, que permaneció en manos españolas hasta 1862, al quedar como prenda del pago por Marruecos de una indemnización de guerra, y del cumplimiento de las cláusulas del armisticio y tratado de paz concertados entre ambos países. Las piezas cartográficas referenciadas, en su mayoría obra de oficiales del cuerpo de Ingenieros adscritos al Estado Mayor del ejército expedicionario, tales como Carlos Fridich, Martin Arrúe o M. Pérez de Castro entre otros, pero también de geógrafos de oficio, militares o civiles, como José Gómez de Arteche, Francisco Coello o Martin Ferreiro, son excepcionales testimonios que nos permiten visualizar el Tetuán de 1859, todavía anclado en el pasado, y los cambios profundos experimentados por esa ciudad en

apenas tres años, los de ocupación hispana, anticipo y modelo de los conocidos por las restantes litorales marroquíes medio siglo después.

c) La serie presentada se cierra (n°s. 20 - 30) con planos levantados al filo del cambio de siglo por los oficiales de Estado Mayor del Ejército español destacados en Marruecos, llamados a dejar en pos de sí una obra cartográfica de primera magnitud. Entre ellios, cartógrafos tan notables como Eduardo Alvarez Ardanuy, Alejo Corso o Francisco Gómez Jordana, este último de larga ejecutoria profesional en Marruecos y llamado a ser paradigma del militar " africanista" por haber hecho la casi totalidad de su carrera en ese país, escalando uno a uno todos los peldaños de la misma hasta ocupar la alta comisaría de España en Marruecos, y concluir luego su ejecutoria - por cierto de forma un tanto paradógica dadas sus manifiestas simpatías anglófilas - como ministro de Asuntos Exteriores durante el primer franquismo.

Solo me resta expresar mi satisfacción por la oprtunidad que se me brinda de poner al alcance de los estudiosos españoles y no españoles, pero sobre todo de los marroquíes, un material cartográfico que, confío, contribuirá a conocer mejor el pasado de Tetuán y el norte de Marruecos en su entorno histórico-geográfico y en sus relaciones con España.

Apendice Cartográfico

1. Jornada del río de Tetuán (1565), mural del palacio de don Alvaro de Bazán. El Viso del Marqués (C. Real).
2. Mural en la galería del palacio de don Alvaro de Bazán. El Viso del Marqués (C. Real).
3 - 8. Mural al fresco sin firmar.
9. Representa la incursión de Bazán sobre el estuario del río Martil, Martín, Guad el Jelú o de Tetuán, para cegarlo e inutilizarlo como refugio y plataforma del corso magrebí a las puertas de España.
10. La relación ms. de la empresa se conserva en :
- BNm, ms, 1750, n° 35 : Tetuán . D. Alvaro de Bazán . Ha sido publicada en diferentes ocasiones, y sin duda fue la fuente básica de inspiración del autor del mural para la composición du su obra. Contiene datos de interés sobre la ría, ciudad y comarca de Tetuán a mediados del s. XVI. Concluye así :

"Estando Don Alvaro sobre la Boca del Río al amanecer, viendo y reconociendo el dicho Río y pareciéndole bien el sitio y disposición del, viendo lo que al servicio de S.M. importaba hacer el efecto a que venía, determinó el ser el primero que entrase en dos barquellas pequeñas a sondear y a bogar el Río, para meter los navíos de la

fábrica, porque yendo él delante se auniase la gente a seguille y se hiciese mejor el servicio de Su Majestad. Y haviendo entrado con valeroso ánimo en el dicho Río, lo sondeó y por la canal puso boyas Y bisto esto, los de los bergantínes, con suma diligencia, metieron las carabelas de cona y la galeota, y don Alvaro y Maestre Esteban de Guillisástigui las iban poniendo por su orden atravesando el Río con los cuatro navíos y con su bergantin, que se hechó a la orilla a la parte del poniente, [e] hicieron prestamente un muelle por el qual será imposible entrar ni salir ningún navío, porque todos los navíos de la fábrica quedaron afondados y anegados, cargados de piedra de mucho peso y grandor ; en este tiempo los moros escaramuzaban acercándose al Río, procurando defenderlo (...). Y ayudando a los de las chalupas las galeras con su artillería, se travó una de las mas bravas escaramuzas que se ha visto en esta costa, en la qual pelearon los de las chalupas con valeroso ánimo, porque se echaron a la mar mas de quinientos moros de [a] pié y de caballeros por quererles entrar en ellas, pero los soldados y marineros pelearon de manera, que hicieron y mataron, ansí desde las chalupas como desde las galeras, mas de cien moros y muchos cavallos, y afondadas las chalupas, se retiró nuestra gente a las galeras ; salieron de la escaramuza heridos de excopetas, flechas y ballestas, y de cuchilladas, porque en las chalupas anduvieron a las cuchilladas hasta cinquenta soldados y marineros, y fue muerto el Alguacil de la galera capitana y el Patrón de la Luppiana, y otros quatro soldados, y no se save de los heridos de los que podían peligrar.

Don Alvaro y don Alonso de Bazán se hallaron en la escaramuza, el uno junto a las chalupas, y don Alonso cerca de los navíos que estaban affondados en la boca del Río, y cierto fué cosa de milagro escapar, según eran muchos los pelotes y saetas que tiravan los enemigos, los quales a la retirada parece que serían número de quatro mil peones y lanzas. Pasavan los moros de la una parte del Río a la otra por encima de los navíos el agua a la rodilla como dicho es, dejando echo lo que su Magestad mandaba sin podérselo resistir tanta moreria como se juntó a ello, dejando encerrados en el Río doce fustas y bergantines de moros y corsarios, y creerse que ay dos de turcos, y se fue la buelta de Zeuta, haviendo estado en el Río desde que amaneció a las siete de la tarde . También se hechó en el Río mucha piedra perdida que havía cargado en las galeras en el almino de Zeuta".

Otra descripción de Tetuán en el XVI, con múltiples referencias a la plaza, en :

- Redención de cautivos por frailes mercedarios en Tetuán y Marruecos, 1586 (BNm, ms. 3588).
- Con el libro de cuentas del viaje de redención -.

El golpe de mano de Bazán sobre la ría del Martil privó a Tetuán de su puerto, que aunque limpiado en parte por los tetuaníes y por las corrientes, ya no volvería a ser el mismo. Ello no impidió que Tetuán continuara siendo el principal depósito de cautivos cristianos en el N. de Marruecos, y obligado punto de referencia de los religiosos redentoristas - mercedarios y trinitarios -,en cuyas relaciones de viajes se aportan interesantes datos sobre la ciudad. Tan solo con referencia a la primera mitad del XVII se conservan en la BNm casi una decena de estas relaciones mss :

- Quenta de la Redençion que hiço el P. Fr. Pedro de Medina [mercedario] este año 1609 en los Reynos de Fez y Marruecos ..., 43 fs. (BNm, ms. 4390) .
- (Libro de la redención de cautivos hecha por los Mercedarios en Marruecos, Fez y Tetuán en 1615]. 65 fs. (BNm, ms. 3870).
- Libro de cuentas [de la redención de cautivos en el reino de Fez por los mercedarios, Fr. Francisco Benavedes y Fr. Gaspar Nuñez.] 1634. (BNm, ms. 3634).
- Traslado de las cuentas de la redención de cautivos que se hizo en Ceuta y Tetuán el año pasado de MDC XXXIII [por Fr. Martin de Percheta , Fr. Jerónimo de Castro . fr. Rodrigo de Arce y Fr. Luis de Matienzo. mercedarios]. 82fs. [BNm, ms. 3588].
- Libro de redención de cautivos hecha en Tetuán el año 1635 por los mercedarios Fr. Diego Velasco y Fr. Baltasar de Figueroa], 107 fs. [BNm, ms. 3628].
- Libro de redención de cautivos en Fez, Tetuán y Marruecos por los mercedarios Fr. José de Toledo y Fr. Mateo de Treviño en 1645], 83 fs; [BNm, ms. 4365].
- Libro de redención de cautivos hecha en Tetuán , Fez y Marruecos el año 1648 por los mercedarios Fr. Juan Fonseca. fr. José del espíritu Santo y Fr. Domingo de las Santas), 134 Fs; [BNm, ms., 3631].
- [Misión de rescate de cautivos en Tetuán. 1648] [BNm, ms. 2379, n° 37 y 38].

2 . "Tetuán, plano ms. hispano-francés anónimo (s. XVIII)
2 . MNm, ms. 726 [Colec. de planos portuarios del Mediterráneo y el Atlántico] - zona inferior del fol. 58 r ; la superior : Ceuta - .
3 . "Tetuán".
4 . Sin firmar .
5 . Escala de una legua.
6 . 22 x 16 cms.
7 . Plana. Orientado . N°s. Sonda y señalización de surgideros . Litoral, hidrografía, vista de Tetuán y torres de la costa.

8 . Dibujo ms. a pluma en tinta sepia. Litoral e interior lavado en gris con pincel a la aguada. Rotulación castellana y francesa. Esquemático.

9 .Descripción del litoral tetuaní al E. de Cabo Negro. Especial atención al curso bajo del Martil, cuya entrada aparece semiobstruida por unas escolleras. En las inmediaciones de la desembocadura, sobre un altozano ; aparece Tetuán circundada de murallas . Sendas torres sobre Cabo Negro y sobre un promontorio litoral situado entre el Martil y un riachelo más al E.

10 . Copia sin duda de un mapa francés de comienzos del s. XVIII, dado que el título aparece en castellano - " Tetuán " - sobre el borrador en francés - "Tétouan". En francés también "Echelle d'une lieues", acaso por descuido del copista.

3 . "Plano de la ensenada de Tetuán", por Josef Carrión y Nicolás Berlinguero (1778)

2. MNm, C - 1.

3 . "Plano de la Ensenada de Tetuán, situada en la Lat. N. de 35 gro. 20 M. y en la Longitud de 11 gr°, 33 M., según el Meridiano de Tenerife". " Delineado en la Escuela de Navegación de Cartagena por el Meritorio de ella (...), vajo la correccion del Alferez de Fragata de la Real Armada d. (...), Maestro a Delineador, 12 de Enero 1778".

4 . Josef Carrión ; Nocolas Berlinguero.

5 . Escala de 6 millas marítimas de 60 en grado.

6 . 74 x 53 cms.

7 . Esférica. Orientado. N°s . sonda en brazas castellanas para el litoral y en piés para el interior del río . Calidad de los suelos . Rosa de ocho vientos. Nudo de 16 direcciones. Litoral e hidrografía mediante montes de perfil. Cultivos y arbolado. Vista de Tetuán, castillo y torres de la costa. Título y clave toponímica en recuadro de ángulo superior izquierdo.

8 . Dibujo ms. a pluma en tinta negra sobre papel y lavado en colores. Rotulación castellana.

9 . Costa y comarca de Tetuán entre Los Castillejos y c. Rifi. Particular atención a la ría del Martil, acceso fluvial a Tetuán, así como a la plaza y sus fortificaciones.

A finales del siglo XVIII Tetuán era la ciudad más cosmopolita y floresciente de Marruecos, y desde luego una de las más pobladas, enriquecida con su activo comercio con Europa, si bien el traslado años antes de la capitalidad diplomática del imperio a Tánger, la perjudicaría considerablemente. Cuando en 1791 fue visitada por el conde J.Potocki, Viaje al Imperio de Marruecos, Barcelona, 1983, ps. 17 - 21 - la encontraría así : "Me desperté viendo Tetuán. Esta ciudad está situada a

una legua del mar, en un paraje en el que la cadena del pequeño Atlas se abre y deja ver valles más risueños (...) He desembocado en la boca de un río bastante considerable, cuya barra no carecía de peligro . Las orillas son de arena y brezales. Grupos de pescadores están instalados en todas las puntas que forma el río ...; en esto me traen un pequeño asno en que cargan mi bolsa de mano y mis piastras, dejando el resto del equipaje en manos de los aduaneros, que son en todos los países los enemigos naturales de los viajeros ...He seguido a mi pequeño asno y la orilla del río durante una media hora y hemos llegado a la aduana. Este edificio se parece considerablemente a los del mismo tipo que pueden verse en Andalucía, cerca de los embarcaderos; está bien cuidado, y otro tanto puedo decir de un fuerte de seis cañones y de un pequeño puente de piedra, que están cerca de aquí".
Después de atravesar unos huertos, llego a la amurallada ciudad, con buenos monumentos y edificios, cuyas calles y plazas le recordaron las de Córdoba, y sus habitantes le parecieron gente muy amable y acogedora. Celebra a Tetuán como la ciudad más poblada de Marruecos, a continuación de Fez, y por delante de Mequinez, Marakech y Salé.
10 . De entre la bibliografía de interés cartogáfico existente sobre el Tetuán moderno cabe espigar :
- M. Dawud, Síntesis de la Historia de Tetuán. Tetuán, s.a. (en árabe).
- A. Rhoni, Historia de Tetuán escrita en árabe por el sabio alfaquih Sidi (...), traducida por M. Ibn Azzuz Haquim. Tetuán. 1953.
- A. Yebbur Oddi, Una ojeada sobre la Historia de Tetuán y sus familias oriundas de al - Andalus . Tetuán . 1948.
- A.Yebbur Oddi, El gobierno de Tetuán por la familia Al - Naqsis (1597 - 1673). Tetuán. 1955.
- T. Ruiz de las Cuevas, Apuntes para la Historia de Tetuán. 2è ed. Madrid 1973.
- R. Lourido Diaz, " Una fábrica de cañones en Tetuán a mediados del s. XVIII", RHm, 33 (1972), ps. 105 - 111.
- M. Arribas Palau, " La acogida dispensada a Jorge Juan por la ciudad de Tetuán en febrero de 1767", CBET, 7 (1973), ps. 7 - 25 .
- J.B. Vilar, La Judería de Tetuán y otros ensayos (1480 - 1860). Presentación de B. Garzón Serfaty. Prólogo de L. Rubio Garcia. Murcia , 1969.
-J.B. Vilar, Tetuán en el resurgimiento judío contemporáneo (1850-1870). Aproximación a la Historia del Judaísmo norteafricano. Presentación de M. Garzón Serfaty/ Prólogo deS; Leibovici. Caracas. 1985.

4. "Ensenada de Tetuán ", carta esférica de José Caballero (s. XVIII).

2. MNn, c - 3.
3. " Ensenada de Tetuán ".
4. Sin firmar (José Caballero).
5. escala graduada.
6. 57 x 46 cms.
7. Esférica. Orientada con media lis. N° de sonda. Nudo de leguas . Composición de los fondos marinos. Litoral, hydrografía y orografía . Título en zona superior central. Explicación en recuadro de ángulo superior derecho.
8. Dibujo ms. a pluma sobre papel en tinta negra. Costas lavadas en verde. Rotulación castellana.
9. Descripción de la costa comprendida entre Punta Almina y.c. Negro, con señalización de un bajo recién descubierto por la fragata " Santa Cecilia" frente a la desembocadura del río Castillejos.
10. [Localización de un bajo en la ensenada de Tetuán] "Excmo. Señor,
El 1er Piloto de la fragata Sta. Cecilia, Dr. Josef Caballero, verificó el reconocimiento en la ensenada de Tetuán, de la piedra en que tocó el mismo buque, y de resultas puso en mis manos el adjunto plano que, dirijido al xefe de esquadra Dr. Vicente Tofiño, me lo devolvió con la carta que le acompaña, exponiendo lo halla todo arreglado a la Instrucción que formó, consequente a la orden de V. E. de 11 de Septiembre último ; y agrega ser su dictamen q. se de a los tres departementos la noticia q. Incluye de esta piedra, para q. se comunique a los oficiales y pilotos q. tubieron las cartas modernas. Dirijo el todo a V. E. en este mismo concepto para los efectos que fueron mas de su agrado.

Dios ... etc. Isla de Léon, 18 de Diciembre de 1792, LUIS DE CORDOVA.

Excmo. Sor. B [ailí]o Fr. Dn. Antonio Valdés".

[Notificación a los Departementos marítimos] .

"Un nuevo baxo que se ha advertido en la ensenada de Tetuán.
Estando la fragata Sta. Cecilia el día 27 de Julio último, manteniéndose de una y otra buelta con viento Oeste en la ensenada de Tetuán, a las 9 1/2 de la noche sintió un pequeño movimiento como de haver tocado. El comandante Dr. Valero González subió con la mayor prisa dando la voz de handar, que obedeciò la fragata sin haverse detenido por este accidente. Y a continuación sondó en 4 brazas piedra, y marcaron la punta de la Almina de Ceuta al N. NE. 9 ..." etc.

5. "Plano de la rada de Tetuán", por Benito Borja (1811)
2 . MNm, C-4.

3 . " Plano de la Rada de Tetuán, segun se a podido ynbestigar en el corto tiempo que estuvo fondeado con los javeques del mando del Theniente de Navío DR. Juan de Arus (...) . delineado por el Meritorio de la escuela de Navegación (...) Año de 1811".
4 . Benito Borja.
5 . Escala de 5 millas marítimas.
6 . 51 x 38 cms.
7 . Plana. Orientado. N°s . sonda . Señalización de surgideros. Fondos marinos. Litoral e hidrografía. Orografía en montes de perfil. Planta de Tetuán y fortificaciones de la costa. Título y explicación en recuadro de ángulo superior izquierdo.
8 . Dibujo ms. a pluma. Rotulación castellana. Esbozo de mano poco experta.
9 - 10 - Bahía de Tetuán entre las puntas de la Mona y Rife. Atención especial a la ría del Martil, sondada hasta la altura de la aduana. Planta de la ciudad y del castillo situado junto a la desembocadura del río. Torres de la costa.

6. "Itinerario desde la desembocadura del río [de] Tetuán hasta la ciudad de este nombre". Por Carlos de Fridich (1848).
2 . SGE, Cartografía de Marruecos, n° 130.
3 . " Itinerario desde la desembocadura del río [de] Tetuán hasta la ciudad de este nombre".
4 . Carlos de Fridich [Comandante de Estado Mayor].
5 - 10 Escala en leguas; litoral, hidrografía y orografía ; interesante información sobre la ría del Martil, aduana, fortificaciones y planta de Tetuán.

7. "Tetauen o Tetuán", por J. Gómez de Arteche y F. Coello (1859)
2 . BNm, Africa, 174 (mapa " Parte del Norte del Maghreb - el Aksá", publicado en el libro Descripción y mapas de Marruecos, de los mismos autores. Véase n° 411 en VILAR, Mapas ... de Marruecos, op. cit.
3 . " Tetauen o Tetuán".
4 . J. Gómez de Arteche ; F. Coello (de Portugal y Quesada).
5 . 1 : 20.000.
6 - 8 x 16 cms.
7 . Plana . Hidrografía. Orografía en curvas de nivel . Caminos y cultivos. Planta de Tetuan, con sus fortificaciones, barrios y castillo o alcazaba.
8 . Dibujo a pluma litografiado sobre papel fino en tinta negra. Lit. González. Madrid . 1859. Rotulación castellana . Cuidada ejecución.
9 . Véase punto 7 de esta ficha.

10 . Ambos autores del plano aportan (Op. Cit. ps. 41 - 42) esta sucinta descripción de Tetuán :
" Está Tetuán circuida de muros flanqueados por torres cuadradas y dominada por un castillo. Encierra unos 16.000 habitantes, de los que más de 4.000 son judíos, aislados como en todas las ciudades de Marruecos del resto de los moradores. Las calles ofrecen un aspecto verdaderamente morisco, estando en una gran parte cubiertas y formando verdaderos subterráneos en que hay un sin número de tiendas, pués existe allí un comercio bastante activo con Europa, especialmente con Gibraltar, a cuya colonia surte de toda clase de víveres, y con particularidad de gänado".

El movimiento de mercancias entre los buques y ciudad había que hacerlo en barcazas, dado que el tramo de río navegable resultaba impracticable gran parte del año . El Anuario de la Dirección de Hidrografía correspondiente a 1865 -III, p. 105 - inserta este curioso aviso :

"Señales para tomar la barra del río Martín.

Siendo muy peligrosa la barra del río Martín de Tetuán, principalmente cuando reina el Levante, las autoridades de esta ciudad han establecido lo siguiente : al avistarse un buque se enarbolará la bandera en el fuerte Martín y esto servirá para indicar que en río hay agua suficiente para entrar por la parte en que se halle un palo clavado en la arena. Si al contrario el río estuviese impracticable enarbolará en dicho fuerte la bandera a media asta como aviso para que los buques no se arriesguen a entrar en el río".

8. "Plano de Tetuán ", por Reillo y Artabe (1859)
2 . BNm, Cartografía, M. XIV, Ba. 5.
3 . "Plano de Tetuán ".
4 .Reillo, Artabe.
5 . 1 : 12.000.
6 . 1 x 10 cms.
7 - 9 - Muy similar a n° 7 supra.
10 . Incluido en recuadro propio en " Mapa de la parte Norte del Imperio de Marruecos " - Madrid . Lit. de González. 1859 -, de los mismos autores. Véanse n°s. 479 y 536. en VILAR, Mapas ... de Marruecos, op. cit.. Una ed. diferente (1 : 20.000, 11,5 x 8 cms) en AHM, Cartografía, s.n.

9. " Ydea General del Itinerario desde la desembocadura del río Martín a Tetuán", por C. de Fridich (1859)
2 . SGE, Cartografía de Marruecos, n° 132.

3 . "Ydea General del Itinerario del río (de) Tetuán hasta la ciudad de este nombre".
4 . C. de Fridich.
5 . 10. Reimpresión actualizada por el Depósito de la Guerra del n° 6 supra, para su utilización por el ejército español expedicionario que marchó desde Ceuta sobre Tetuán.

10. " <u>Croquis de los contornos de Tetuán", por M [artín] F [erreiro] (1860)</u>
2 . SGE. Cartografía de Marruecos, n° 134.
3 . "Croquis de los contornos de Tetuán".
4 .M[artín[F[erreiro] .
5-9. Muy similar a otro del mismo autor ("Mapa del teatro de la guerra en Africa") véase n° 480 en VILAR, Mapas (...) de Marruecos, op. cit.
10 . El autor, reputado geógrafo en su tiempo, es deudor de los mapas y planos levantados " in situ " por diferentes oficiales españoles de estado Mayor y del cuerpo de Ingenieros, y publicados por el madrileño Depósito de la Guerra para uso del ejército expedicionario.

11."<u>Plano de Tetuán en 1860", por el Servicio Cartográfico del E.M. del Ejército expedicionario en Marruecos.</u>
2 . BNm, Afr. mps. B. 17 - 122.
3 . "Plano de Tetuán en 1860".
4 . Sin firmar (Servicio Cartográfico del E.M. del ejército expedicionario en Marruecos).
5. 1; : 1.250.
6 . 42 x 42 cms.
7 . Plana . Ciudad amurallada y ensanche . Arranque de caminos a Tánger, Ceuta, Fez y el embarcadero del río Martíl. Título en ángulo superior izquierdo.
8 . Dibujo a pluma litografiado . Rotulación castellana. Copia al ferroprusiato.
9 . 10 El plano nos presenta a Tetuán entre febrero de 1860 y mayo de 1862, etapa de ocupación española de la plaza, durante la cual conoció una profunda transformación urbanística : apertura de nuevas calles y plazas, y diferentes iniciativas orientadas a la racionalización y mejor aprovechamiento del espacio, introducción de servicios higiénicos, iluminación nocturna ... etc., aparte iniciarse la edificación del ensanche extramuros. El nomenclator urbanístico acusó a su vez la presencia europea. Los fortines y baluartes de la plaza recibieron nombres de individuos de la Real familia ; el fed-dan o zoco de Fuera pasó a llamarse plaza de España ; las calles y plazas se rotularon aludiendo a los batallones de guarnición en Tetuán y a los hechos de armas de aquella

campaña. Por último, las puertas de la ciudad recibieron el nombre de Tánger, Cid, Victoria, Reina, Reyes Católicos y Alfonso XII. esta útima, en honor del entonces príncipe de Asturias. Fue en aquel momento cuando la Marsalla pasó a llamarse Luneta, la vía animada del viejo Tetuán.

12. "Plano de Tetuán en 1860", por idem.
2 - 10 Variante del anterior, pero orientado y con texto explicativo . Véase n° 11 supra.

13. Planta de Tetuán en el plano" Batalla de Tetuán de 4 febrero de 1860", por el general Martín Arrúe (1860)
2 . BNm, Afr., Maps . B - 17 - 111 ; y M. XIX 6 (2 ejemplares).
3 . " Batalla de Tetuán de 4 de Febrero de 1860. por el general (...).
4 . Martín Arrúe.
5 . 1 : 300.000.
6 . 37 x 20 cms.
7 . 10. Descripción de la batalla de Tetuán, con representación de la ciudad y comarca del mismo nombre, y expresión de las sucesivas posiciones de los ejércitos español y marroquí . Ocupación de Tetuán por el primero y desordenada retirada del segundo, una vez derrotado. Madrid. Memorial de Infantería . 1860.

14 - 19. Seis planos de Tetuán y su comarca durante la crisis bélica hispano-marroquí de 1859 - 1860.
- Valle de Tetuán, en que tuvieron lugar las operaciones, 1860, por oficiales de E.M. (BNm, M. XIX - ba . 3)
- Plano del terreno comprendido entre Ceuta y Tetuán, formado en vista de los datos recibidos del teatro de la guerra", por M. Pérez de Castro (BNm, M. XIV - ba. 3 ; SGE, Cartografía de Marruecos, n° 43 ; Bc, E.R. 117 (A - XV - 5) - 3 ejemplares -) . Véase n° 485 en VILAR, Mapas (...) de Marruecos, op. cit.
- Plano de la batalla de Tetuán (1860), por José de Castro capitán de E. M. (BNm. M. XIX - Ba. - ; SGE, Cartografía de Marruecos, n° 135).
- Id., Por Aquilino Ignacio (SGE, Cartografía de Marruecos n° 137).
- Combate del día 11 Marzo de 1860 ...) en los alrededores de Tetuán (BNm, M; XIX, Ba. 3 ; SGE, Cartografía de Marruecos, n° 139 - 2 ejemplares -).
- De Tetuán a Uad - Ras, con el territorio en que tuvieron lugar las operaciones (BNm, M. XIX - Ba. 3).

20. "Croquis de Tetuán y alrededores" por Francisco Gómez Jordana y otros oficiales de E. M. (1888 - 1889).
2 . SGE, Cartofrafía de Marruecos, n°142.
3 . "Croquis de Tetuán y alrededores".
4. Francisco Gómez Jordana, Alejo Corso y Eduardo Alvarez Ardanuy, oficiales de E. M.
5 - 10. Forma parte de la extensa serie cartográfica aportada por la Comisíon de E. M. del Ejército español destacada en Marruecos entre 1880 y 1912. Véase VILAR; Cartografía de Marruecos, op. cit.

21-24. Cuatro planos parciales de Tetuán, por la Comisión española de E. M. en Marruecos (1888).
- "Plano de la Kasba o Alcazaba de Tetuán" (SGE, Cartografía de Marruecos, n° 143).
- "Bab - en - Nuader o Bab el Fas" (id. n° 144).
- "Bab -erz-Tzutz, Puerta de la Mora", (id. n° 145).
- "Bab - el - Okla", Puerta de La Reina" (id. n° 146).

25. " Croquis del terreno entre el río Martín y el monte Mahfora", por la Comisión de E.M., id. (1893).
2 . GE, Cartografía de Marruecos, n°147.
3 . " Croquis del terreno entre el río Martín y el monte Mahfora".
4 . Sin firmar (oficiles de la Comisión española de E. M. en Marruecos).
5 - 10. Similar a 20 supra.

26. " Plano de la rada de Tetuán y desembocadura del río Martíl, por la Dirección de hidrografía, 1893.
2 . AHAC, carp. 39, n° 907.
3 - 9 -. Plano de la rada de Tetuán y desembocadura del río Martíl, en la costa N. de Marruecos, " según datos ingleses más recientes". Adaptación por la Dirección de Hidrografía. Madrid, 1893, de una carta hidrográfico de la expreada entidad editora.
10 . Ultima revisIón de esta carta en 1926.

27. "Recinto de Tetuán indicando la situación de sus baterías", por T. Bermúdez Reina (1894)
2 . BuM, 10.583 (Teodoro BERMUDEZ REINA, Geografía de Marruecos . Barcelona. 1894).
3 . " Recinto de Tetuán indicando la situación de sus baterías".
4 . T. Bermúdez Reina.
5 . 1 : 10.000.
6 . 12,5 x 16,50cms.

7 . Plana Hidrografía y orografía en curvas de nivel. Arranque de caminos. Planta de Tetuán con sus murallas, puerto, bastiones y kasba. Barrios intramuros.
Huerta y campo . Título en zona fuera del recuadro.
8 . Dibujo a pluma en tinta negra. Editado por la Revista Científico - Militar y Biblioteca Militar . Barcelona, 1894. rotulación castellana.
9 . Véase punto 7 de esta ficha.
10 . El derrotero General del Mediterráneo publicado por el Depósito Hidrográfico (Madrid, 1873, ps. 587 - 589) nos aporta la siguiente descripción de Tetuán y sus acesos marítimos :

" Playa y ensenada de Tetuán . Una playa limpia y casi recta que corre desde el cabo Negro en dirección al S. 6° E. Por espacio de 7 millas hasta el cabo Mazari es conocida con el nombre de Playa de Tetuán. El veril de los 8,4 metros apenas sale media milla de la orilla, y a una milla se sondan de 20 a 27 metros, arena y cascajo, con algunos manchones de piedras.

Banco de los Pescadores . El único arrecife que hay en esta vasta playa es el conocido con el nombre de Banco de los Pescadores, que se halla entre el río de Tetuán y el Cabo Mazari : avanza al mar unos 2 cables, y sus inmediaciones son de fondo roca. Algún otro rodal de piedra cubierto de arena se encuentra entre dicho banco y el cabo ; pero están tan cerca de la orilla que no merecen mención .

Río Martín o de Tetuán. La ensenada de Tetuán la forma el pequeño arqueo que hace la costa comprendida entre los cabos Negro y Nazari.
Es de terreno bajo en la orilla, con montículos poco notables y dunas cerca de la playa . Una de estas se hace más visible por su altura, y se halla al S. del cabo Negro, distante 1,5 milla. El terreno asciende suavamente hacia el interior, produciendo la llanura de Tetuán, ceñida al O. por elevados montes que circundándola terminan en aquellos dos cabos.

De las sierras indicadas bajan por esta llanura corrientes de agua que se pierden en el mar, siendo la más notable y de interés comercial, la conocida con el nombre de río Martín o de Tetuán (el Guad - el - Jelú de los árabes). Su embocadura se halla a 4 millas al S. 3° E. del cabo Negro. Dicho río es navegable tan sólo con embarcaciones de poco calado hasta una isleta que se encuentra 4 cables más adentro de la Aduana, desde cuyo sitio ya no puede remontarse. Su barra es de arena movible, y en el canal principal de entrada sólo se sondan en bajamar de aguasvivas de 0,8 a un metro . Como la pleamar de sizigias se eleva como un metro sobre el nivel de bajamar, resulta que únicamente pueden entrar en el río en la pleamar dicha y [con] buenas circunstancias, embarcaciones de 1,6 a 1,9 metros de calado. La barra

rompe por poca mar que haya, y entonces es difícil su aceso. No pueden darse señas de enfilación para embocarla, a causa de las alteraciones que sufre, y los navegantes que se dirijan a ella deberán guiarse por un práctico del país o sondarla y valizarla antes. Sin embargo, desde 1864, siempre que desde tierra se avista alguna embarcacion y hay suficiente agua en algun sitio de la barra se pone una valiza en él, y el fuerte Martín iza la bandera al tope con objeto de indicarle que puede entrar por el sitio marcado; pero en el caso de estar cerrada la barra iza la dicha bandera sólo hasta media asta, como advertencia del riesgo a que se expone si intenta entrar.

Ciudad de Tetuán. Salvada la barra, ya se entra en 1,9 y 2,2 metros de agua que se encuentran sobre la orilla septentrional. En ésta se halla sucesivamente el fuerte Martín y varias baterías que defienden la entrada ; luego siguen la Aduana, edificío grandioso y blanco; algunos huertos y cultivos, y finalmente la vistosa ciudad de Tetuán (la tet-tagüen de los árabes), que se presenta blanca y extensa a la falda de una loma, sobre cuya cumbre se alza la Alcazaba; fortaleza espaciosa que protege la ciudad . Esta, que fue ocupada por el ejército expedicionario español en 6 de febrero de 1860, está murada y contiene unas 20.000 almas.

Rada de Tetuán. La rada de Tetuán, o sea el fondeadero fuera de barra, está completamente abierto a los vientos del primero y segundo cuadrante, y sólo debe tomarse con los del S.O. Por el O. hasta el N.O., abandonándolo tan luego entren los de fuera o se vean anuncios de su proximidad. Si se tienen que comunicar con la plaza o practicar operaciones mercantiles podrá fondearse cerca de la barra (media milla al E. de ella) por fondos de 13,4 a 15 metreos arena o más afuera, según las circunstancias del tiempo y calado del buque, a fin de estar más zafo para dar la vela con travesía. Puede elegirse el sitio que convenga y a la distancia que se quiera, guiándose por el escandallo, porque el braceaje disminuye gradualmente hacia tierra, de modo que a una milla al E. de la boca del río, se sondan de 22 a 24 metros. El fondo que más predomina es el de arena, si bien debajo de ésta suelen encontrarse bancales de piedra, razón porque muchas veces garran las anclas.

Mareas. La pleamar de sizigias sucede en la barra de Tetuán a la una y media de la tarde, elevándose las aguas de pleamar próximamente un metro.

Reconocimiento de Tetuán. Se ha dicho que la llanura de Tetuán esta limitada al N. por el cabo y monte Negro, al S. por el de Mazari y al O. por la sierra Bermeja o de Tetuán, de la que se desprenden ramales que avanzando hacia el E. terminan en dichos dos cabos . Las sierras interiores presentan picachos y desigualdades muy notables por su

elevación las de la parte del S. Al aproximarse a tierra se verá destacarse del fondo oscuro de la costa la faja blanca que presentaban las playas al N. y al S. del cabo Negro ; se percibirá a éste como el más avanzado al mar, notable por el monte cínico que lo domina y por el torreón blanco que corona sus escarpados ; la llanura de Tetuán, de pendiente suave en cuyo fondo resalta por su blancura la ciudad de aquel nombre y la Alcazaba que la domina, y finalmente el fuerte Martín cerca de la boca del río y la Aduana un poco más adentro".

28. Tetuán en el " Croquis del Imperio de Marruecos " por la Comisión de E.M. del Ejército español en Marruecos (1905).
2. SGE, Cartografía de Marruecos, n° 78.
3. "Croquis del Imperio de Marruecos : Tetuán, Tánger, Ceuta, Arcila, Larache; Mehedia ".
4 . Sin firmar (oficiales de la Comisión de E.M. del Ejército español en Marruecos).
5 - 10. Se concreta al área de influencia reconocida a España en el Convenio hispano-francés sobre Marruecos de 1904, que no llegaría a entrar en vigor al no ser ratificado por las Cortes españolas. Particular atención a las ciudades litorales mencionadas, Tetuán incluida, y por extensión a Ceuta, plaza de soberanía en la cornisa magrebí del Estrecho de Gibraltar.

29. Tetuán y su distrito, plano del Depósito de la Guerra (hacia 1912)
2. BNm, M XIV, Ba. 6.
3. Depósito de la Guerra.
4. 1 : 600.000.
5 66 x 84 cms.
6. Plana . Litoral, hidrografía, orografía en curvas de nivel, vías de comunicación, plano de Tetuán y núcleos de poblamiento rural.
7. Dibujo a pluma litografiado en los Talleres del Depósito de la Guerra, Madrid; s.a. (hacia 1912). Tintas negra, azul, roja y amarilla. Rotulación castellana. Calidad técnica.
8. Descripción de Tetuán y su comarca entre la orilla del mar y Drar el Uesa al O., y entre Rincón del Medih al N. y Uad Beni Hasan al S;
9. El autor o autores, son sin duda oficiales de ingenieros de la Comisión del Cuerpo del E.M. del Ejército Español en Marruecos.

30. "Terreno entre Ceuta y Tetuán", por Elola y Méndez (1912)
2. BNm, M. XIV, Ba, 5.
3. " Terreno entre Ceuta y Tetuán".
4. Elola ; Méndez.
5. 1 : 225.000.

6. 21,5 x 10,5 cms.
7. Plana Litoral, hidrografía, orografía en curvas de nivel, vías de comunicación y poblamiento.
Incluido en el mapa " España en Marruecos ..." Op. cit. de los mismos autores. Véase n° 356 VILAR, Mapas (...) de Marruecos ..., Op. cit.
8 - 10.Véase n° 356 id.

Abreviaturas utilizadas

Afr : Centro de Documentación de Africa (BNm)
AHM : Archivo Histórico Militar (Madrid)
Bc : Biblioteca de Catalunya (Barcelona)
BNm : Biblioteca Nacional de Madrid
c : cabo
CBEt : Cuadernos de la Bibioteca Española de Tetuán
E. M. : Estado Mayor
fol : Folio
fs : folios
ms : manuscrito
mss. : manuscitos
MNm : Museo Naval de Madrid
r : recto
RHm : Revista de Historia Militar (Madrid)
SGE : Servicio Geográfico del Ejército (Madrid)
v : vuelto

Tetuán : Galdos y El Nasiry

Dra.Rabia Hatim
Escuela de Ciencias de la Información
Rabat

Este trabajo que aquí presentamos, podría ser un acudir a la llamada de Robert Ricard[1] para profundizar algo más el análisis y el comentario de un intercambio epistolar entre Benito Pérez Galdós y Ricardo Ruiz Orsatti. Por supuesto, no va a ser un análisis pormenorizado, como le hubiera gustado a Robert Ricard, autor de la presentación a estas cartas, sino más bien un intento de dar a conocer la cuestión:

Es imposible comentar de modo pormenorizado estas cartas, que podrán utilizar con toda facilidad lo mismo los galdosistas como los especialistas de Marruecos.[2]

Debo señalar que no soy ni galdosista, ni especialista de Marruecos, sino una lectora curiosa que quisiera ampliar sus conocimientos en este campo.

Cuando Benito Pérez Galdos quiso insertar en sus Episodios Nacionales, un relato de la guerra de Tetuán de 1859-1860, hecho desde el punto de vista marroquí, como dice Robert Ricard, Ricardo Ruiz Orsatti un arabista español nacido en Tánger [3] "le había mandado espontáneamente la traducción española de un capítulo de la historia de Marruecos de El Nasiry " "como una pequeña prueba de admiración", a la vez que había organizado un viaje a Tánger porque la visita a Tetuán no pudo realizarla a causa del fuerte temporal y el estado del mar. En relación a este contratiempo escribe Orsatti a Galdós lo siguiente : "Mi respetable amigo : se me había ocurrido que renunciaría

---

1- Robert Ricard, "Cartas de Ricardo Ruiz Orsatti a Galdós acerca de Marruecos (1901 - 1910)", **Anales Galdosianos** , vol. III (1968).

2- Ibid., p.100.

3- A propósito de Ricardo Ruiz Orsatti , Robert Ricard nos da una pequeña semblanza biográfica donde dice lo siguiente :

"Ricardo Ruiz Orsatti es un arabista español bien conocido, hermano de otro arabista igualmente conocido, Reginado...

Desde 1890 Ricardo ejercía de intérprete al servicio de los organismos diplomáticos y consulares de España y de Rusia en Tánger y en Tetuán. En 1907, fue nombrado director de la escuela hispanoárabe de Tánger y en 1916 inspector general de la enseñanza en Marruecos... Ibid., p.99.

V. a su proyectada excursión a Ceuta y a Tetuán, porque, si el tiempo era malo el día que V. se marchó, en los siguientes se desencadenó un furioso temporal y hubiera sido una temeridad atravesar el Estrecho.

Después de todo y como V. dice muy bien, no hubiera compensado las relativas bellezas de la ciudad de molestias que había V. de sufrir antes de llegar a ella" (carta n° 12 del 27 de octubre de 1904).

Según García Figueras, la traducción del capítulo de kitab el Istiqsá fue recibida, por Galdos con gran satisfacción porque respondía a lo que quería el autor de Aita Tettauen, y que no había encontrado en la copiosa bibliografía que sobre la campaña poseía.[4] Del relato de Aita Tettàuen escribe Galdós a Orsatti estas palabras "es el tomo de Aita Tettauen el más dificil y engorroso que he hecho en mi vida" .[5]

A través de este intercambio epistolar Orsatti manda información acerca del Norte de Marruecos en general, y varias informaciones sobre Tetuán en particular, así como en lo que atañe a la lengua árabe, el calendario musulmán, las costumbres y las instituciones marroquíes. Sin embargo para la elaboración de Aita Tettauen utilizó sobre todo el texto de El Nasiry, por no haberlo llegado otra información en su debido momento. A este propósito escribe Ruiz Orsatti en su carta N° 1 del 17 de Febrero de 1901 :

Enterado por haberlo leído en "La Correspondencia de España", que tenía V. el propósito de publicar, como continuación a sus interesantísimos Episodios Nacionales, un relato de la Guerra de Tetuán desde el punto de vista marroquí, me permito ofrecer a V. como una prueba de admiración, la traducción hecha sin ninguna pretensión literaria, que va adjunta, de un capítulo de la Historia de Marruecos del Nasiry que a tal asunto se refiere y en que tal vez halle V. algún dato utilizable).

En la misma carta Ruiz Orsatti llama la atención de Galdós sobre una latente similitud entre El Rugui y Carlos Luis, conde de Montemolín, primo de Isabel II, quien pretendía hacer una intentona contra el trono de esta reina, al propio tiempo que Rogui quería hacer lo mismo contra el sultán Sidi Mohamed. De igual modo le propone la traducción del capítulo que dedica El Nasiry a este personaje, sabiendo que Galdós proyectaba escribir el Episodio siguiente a Aita Tettauen que se titula Carlos VI en la Rápita.

Si para Carlos VI en la Rápita Galdós llegó a utilizar copiosamente la información, mandada por Orsatti, en Aita Tettauen se

---

4- Tomás García Figueras, **Recuerdos centenarios de una guerra romántica. La guerra de Africa de nuestros abuelos (1859-1860)**, Madrid, Consejo Superior de Investigaciones Científicas, 1961, p. 89.

5- Ibid., p. 92.

ha basado en primer lugar en la traducción del capítulo anteriormente mencionado. Después de confirmar el envío de dicho capítulo en la carta N° 2 del 4 de junio de 1901, precisa este el nombre del autor (Xej Ahmed El Nasiry Selaui), Orsatti vuelve a contestar a Galdós informándole sobre algunos apellidos de los principales moros oriundos de España y otros detalles referentes a los mismos. A esos apellidos se pueden agregar los de El jetib, El Lebbady, El Dellero, El Zorby, el Ghalmia, también distinguidas familias tetuaníes, granadinas de abolengo. (Carta N° 3 de 17 de julio de 1901).

Después de proporcionarle varias definiciones de la guerra de Tetuán veremos que Galdós termina optando por Aita Tettauen :

De varios modos dicen los moros Guerra de Tetuán. Aita Tettauen ès el más y mejor usado ; dicen tambíen Harb Tettauen, y también con frecuencia : "Aita maa el sbaniul" : guerra con el español (carta N°3).

Además de esta información dada por Orsatti encontramos la misma palabra en el libro del Nasiry. Sin embargo y donde más aparece la latente utilización del capítulo del libro del El Nasiry es la parte titulada Tetuán, mes de "Rayab" de 1276. En relación con esta fecha Orsatti no solamente le había mandado a Galdós información sobre el equivalente de los meses enero y febrero de 1880 sino que le había dado la correspondencia a todos los meses musulmanes de 1276 para que no hubiera lugar a confusión. El personaje creado por Galdós retomará la versión de la historia de El Nasiry no solamente para narrarla. Los personajes más importantes de la historia actuan, opinan y sienten el dolor de la guerra así como el impacto de la derrota. La historia contada por El Nasiry es un mero cuento de recreto ; para ello Galdós diseña el siguiente escenario : El Nasiry escribe la historia sobre la Guerra de Tetuán para contarla a su amigo El Zebdy. No cabe duda de que aquí también Galdós toma el nombre de este personaje, emisario del sultán Mulay Abderrahmán, el llamado ?

He aquí la historia que para recreo del cherif Sidi El Hach Mohamed BenJaher El Zebdy escribe su amigo y protegido Sidi El Hach Mohamed Ben Sur El Nasiry

En Aita Tettauen encontramos utilizados los mismos datos que ofrece Istiqsa, como por ejemplo podemos citar la alusión a Bou Riala descrito como un héroe en esta batalla. En su descripción, Galdós respeta exactamente la imagen dada por El Nasiry hasta en los detalles más mínimos, como el uso de un estandarte amarillo.

Después de insertar fragmentos enteros de la traducción del libro del Nasiry, Galdós hace de él uno de los protagonistas más importantes del relato. El Nasiry será pues un renegado español que se hizo mahometano. Ya no se llamará más Gonzalo Ansúrez sino Sidi El Hach Mohamed Ben Sur El Nasiry. Desde que vino de España se hizo

un moro "fino" pacifista, cosmopolita. Prefiere su rango y su comodidad social, que ganó a fuerza de trabajo y de astucia inteligente, a un melindre de patriotismo. Gonzalo Ansurés o El Nasiry es evocar a su tío moro Vicentito hizo las siguientes preguntas a su madre :

Y yo te pregunto ahora : Si la reina de España le declara la guerra al rey de los moros, qué hará mi tío don Gonzalo ? Peleará con los de allá, o se vendrá con los españoles, Contéstame pronto p. 15).

La madre no tiene contestación a la situación de El Nasiry español llamémosle así para diferenciarle del historiador, que puede ser incómoda por lo siguiente :

- Porque si no pelea con los cristianos, ni es caballero ni español ... Cómo quieres tú que yo duerma, pensado que mi tío es traidor a España... ? Tú sabrás si se ha hecho mahometano de verdad, o de comedia, con el aquel de consacrar los secretos de la morería y contárselo todo al gobierno español (p.15).

Sin embargo son otras las razones que quiso Galdós afectar a la permanencia, del Nasiry en Marruecos. Se trata pues de la existencia de pocas leyes o de la simplificación legislativa, "disfrazándose para ello de lenguaje, de costumbres y de religión" (p. 203).

En lo que se refiere a la nueva versión del nombre de El Nasiry hemos encontrado mencionado en la carta N° 8 el nombre del gobernador de Tánger que se llama Abensur. De allí podemos deducir que Galdós hace una especie de combinación de nombres. En cuanto al apodo El Hach, Orsatti le había señalado lo siguiente :

El nombre que adjudica V. a su héroe tiene un defecto de construcción. Hach es título que se da a todo aquel musulmán que ha hecho la peregrinación a la Meca y va siempre precediendo al nombre propio del individuo que tiene derecho a usarlo. No es corriente su uso entre renegados, porque tal vez no exista ninguno que por haber efectuado el viaje a que aludo pueda tener ese derecho (carta N° 13 del 15 de enero de 1905).

Como bien podemos anotar esta información llegó tarde a Galdós. No pudo rectificar el error según sus propias palabras :

Lo que no he podido rectificar, porque ya estaba impreso, fue lo de El hach, que apliqué al imaginario personaje El Nasiry. Pienso que el error no es grave, porque se dice que la metamorfósis del español en marroquí fue completa, y bien pudo el hombre hacer un viajecito a la Meca y engañar a toda la nación marroquí, como un personaje inglés, de cuyo nombre no me acuerdo, que hizo lo mismo no ha muchos años. Y, en último caso, sí cometí esa falta, perdóneme Allah, en gracia de que no fue mala ni intencionada .[6]

6- Ibid., p. 90.

Aunque Galdós haya dicho que su personaje es imaginario, la inspiración del autor de El Istiqsa es palpable. García Figueras también alude al parangón :

Bajo el nombre de Mohammed Hach Ben Sur el Nasiry, don Benito oculta el de slaui, pero todo no quita valor a la creencia en que se ha estado de que el ilustre autor de los Episodios Nacionales utilizó, traducido el original árabe del Kitab el istiqsá .[7]

En la carta Nº.11 que Orsatti dirige a Issac Toledano, judío de Tetuán aparece la apelación de Tetuán "la Santa ciudad de Sidi Saidi".

Cuando apareció Aita Tettauen y después de su lectura Orsatti había vuelto a escribir a Galdós para elogiar el uso que hizo este último de toda la información mandada acerca de Tetuán como del capítulo del libro del Nasiry :

Yo no lo juzgo a V. porque ni tengo méritos no condiciones, ni deja para ello espacio la admiración, pero en cuanto se refiere al orden de mis modestos conocimientos, sí he de decirle que en ninguna obra los he visto tratados tan de mano maestra. Es exactísimo e inimitable el lenguaje que usted pone en boca de los judíos tetuaníes. Perfecta la literatura oriental de El Nasiry. Los giros, las frases, las invocaciones de éste son de una asimilación acabada. Estoy seguro que no le escasearán sus elogios por este concepto nuestros distinguidos orientalistas (carta N° 15 del 23 de febrero de 1905).

Como colofón a esta breve exposición de un tema tan amplio, podemos decir que en "Aita Tettauen" hay dos niveles de la descripción de la Guerra de Tetuán, caricaturizada tanto desde el punto de vista español como el marroquí. Si para los españoles las bajas en las filas de los moros son importantes gracias al gran entusiasmo popular descrito exageradamente por Galdós con un tono burlesco, como por ejemplo en la siguiente reflexión : "España entraría en Marruecos por una punta y saldría por otra, no dejando ni títere, ni moro con cabeza en todo el imperio", las bajas españolas tampoco son de desdeñar si nos basamos en el libro del Nasiry en el Istiqsa. El capítulo del libro del Nasiry sirve pues de soporte para recrear la historia de la Guerra de Tetuán y hacer que la viva su creador y que la sienta su lector.Para ambos autores, la Guerra de Tetuán marcará la historia de sus respectivos países. Para Marruecos sera el aliciente para la organización y la modenización del ejército, para España y según Galdós en Carlos VI en la Rápita es el inicio de la Economía política.

---

[7]-Ibid., p.91.

El concepto de guerra romántica como impulso de la campañas coloniales españolas, desde la guerra de Tetuán

Dr. Rodolfo Gil Grimau
Instituto Cervantes de Tetuán

Ya he dicho varias veces , en otros trabajos y conferencias, que, a mi juicio, la Guerra de Africa o Guerra de Tetuán no fue una última guerra romántica de Europa en el siglo XIX, sino una primera guerra colonial española llevada a cabo como tal con todas sus causas y condicionantes previos. Entre estos el factor emocional representó, sin duda, un peso considerable ; heho que fue utilizado abundantemente por los sectores políticos, económicos y militares que propiciaban las campañas. Era un factor basado en varias causas todas ellas subjetivas, pertenecientes algunas al inconsciente colectivo del pueblo español, y en varios choques entonces recientes como las luchas napoleónicas, la pérdida de América y los conflictos civiles.

En el inconsciente colectivo del pueblo español estaba el drama del enfrentamiento contra los musulmanes, tanto más dramático cuanto que parte de ese pueblo descendía de un modo u otro de esos musulmanes. Un enfrentamiento "amañado" desde la perspectiva histórica sin el contraste de la investigación o del análisis , sujeto a la desinformación y a la ignorancia que durante varios siglos habían alentado las instancias más retrogadas del país. En el trauma interior estaba el impacto de una tremenda reducción de imperio, la invasión de las nuevas ideas liberales y el cese de la paz civil, todo lo cual propiciaba cualquier cosa menos una acción reflexiva y ordenada. La Guerra de Tetuán fue una guerra colonial, concebida y planeada como tal pero mal hecha por acomplejada y quebradiza. No era una guerra romántica, sino la guerra de un pueblo empobrecido síquica y físicamente contra otro pueblo igualmente pobre.

Muchos de estos factores, sobre todo los sicológicos que obedecían a unos esquemas de comportamiento y a unos clichés elementales, aparecen en la literatura que gira en torno a la intervención militar de España en Marruecos. Ya no se trata de justificar las guerras con el discurso africanista de la colonización o de la ayuda al hermano más débil, sino de potenciar el ánimo guerrero y patriota en los enfrentamientos-tanto en curso como posibles contra los marroquíes alzados en armas. A los rebeldes había que presentarlos con unos rasgos muy determinados, negativos o aterradores y a los soldados propios con la expresión de un determinismo histórico de salvación y

de sacrificio, pero todo esto bajo una óptica que no era ni siquiera dicotómica, sino confusa y entreverada por sentimientos de odio, amor, analogía y rechazo.

Quedan los nombres de unas obras de teatro surgidas efímeramente al calor de la Guerra de Africa o de Tetuán, que son, por sí mismos y sin conocer los contenidos probablemente extraviados, todo un catálogo de confusión y de alusiones sicológicas al fondo racial :

Guerra y amor en Maruecos o la bella cantinera. Maliva o la rica mora. El cautivo y la mora. El cautivo y la mora (tonadilla a dúo). Alberto, el renegado. Los renegados del Rif y la hermana de la Caridad. El corazón de una madre. La cruz Roja en la guerra. El herido de Africa. La vuelta del voluntario de la guerra de Africa. La judía en el campamento o glorias de Africa. Un recluta en Tetuán. Los magicos de Tetuán. El mor encantado. El moro por fuera. La palabra de un infiel.

Hay en ellos un eco de las novelas y de los romances fronterizos, de la doble religión del renegado y del regreso al redil,[1] de las historias de cautivos, del sacrificio por la Patria y del teatro español del XVII, entre otras cosas. Esto va unido a manifestaciones literarias varias, amparadas por el establishment , pomposas y propagandísticas como la "Guerra de Africa, Poesías que da a luz la Real Academia Española, habíendolas juzgado merecedoras de mención honorífica entre las presentadas al certámen extraordinario abierto para conmemorar los triunfos de las armas españolas en la guerra de Africa", u obras teatrales distintas a las anteriores como : "La Guerra de Africa y la rendición de Tetuán, episodio en cinco actos", etc, entre artículos de prensa, libros conmemorativos y relatos más o menos fieles a la realidad presenciada como el Diario de un testigo de la Guerra de Africa, de Alarcón, con su propósito apenas velado de alabar a determinados jefes militares protagonistas del conflicto.

La carrera de ascensos, méritos y hazañas de los sucesivos militâres 'africanistas' empieza precisamente en esta Guerra y se prolonga, hasta mediados del siglo XX, entreverada por la especulación y los intereses mineros confusos, la necesidad vital de una supuesta expansión española, las corrupciones, la rivalidad con Francia en beneficio de Inglaterra, el regeneracionismo español y el amor de algunos por Marruecos. Esa carrera terminará por repercutir

---

[1] Ver R. Gil Grimau, " Un tema curioso en la literatura española sobre Marruecos : Los renegados", **Encuentro : Marruecos y el mundo hispánico en el siglo XX**, Fez.

decisivamente en la historia de España, provocando finalmente nuestro Estado actual.

El hecho marroquí, es, pues, contemplado y manejado con una óptica muy particular en la que al exotismo de lo orientalista y a la justificación del colonialismo se une una recuperación, interesada y parcial, de nuestra historia en relación con el sur ; lo que hace que en aquella literatura colonial aparezcan esquemas magnificantes, ensoñadores y terribles de corte romántico. Aquí vamos a tratar algunos, a través de un grupo de ejemplos de creación.

Los estereotipos de la patria, del honor y las afrentas, la guerra como empresa popular, la "misión civilizadora de cara al moro" y el regeneracionismo propio, el ejército y su sacrificio, el valor del soldado y el valor del moro, la expansión, el africanismo y la moral o religión cristiana, con la base de los esquemas más frecuentes.

Escribe Alarcón en el primer capítulo de su Diario de un testigo de la guerra de Africa : (...) Cuando los movimientos de mi corazón y los delirios de mi fantasía se convirtieron en ideas ; cuando mi afición a lo extraordinario y maravilloso se trocó en amor a la patria, cifrándose en ardiente afán de su prosperidad y de su gloria (...). [2] Este tipo de frases tiene una continuidad ditirámbica en su libro, y es una muestra de las que respecto a la patria, vista bajo la óptica romántica, nacionalista y expansiva, nos dan el mismo Alarcón y otros autores posteriores en sus obras. "Lagrimas de placer, de pena y de entusiasmo humedecen todos los semblantes. El pueblo despide a los soldados agitando en el aire pañuelos y sombreros... Los soldados responden a estas demostraciones con una sonrisa de sublime alborozo (...) y todos parecen que se prometen algo : éstos, ir; aquellos, volver ; unos y otros, sacrificarse por la Patria ! (...) Nosotros iremos a reeemplazaros y vengaros, si morís (...) ; la Patria nos ha entregado su bandera ; todo cuanto hay de sagrado y de inviolable en una Nación, se encuentra en nuestras manos ; no basta morir, es menester triunfar (...).[3] "España y guerra ! - Si nuestra vida es precisa para alcanzar la victoria, el sacrificio está ya aceptado (...).[4]" Ah, yo no he sabido hasta hoy cuánto amaba a España ! Me ha sido menester verla en tan supremo trance, expuesta a perder en una hora el fruto de tantos sacrificios, para conocer la intensidad de aquel vago afecto, narrado por algunos filósofos, que se

---

[2]**Obras completas** , Madrid , 1943 , Fax , 832.

[3] Ibídem. , 838.

[4]Ibídem. , 839 .

denomina amor patrio ! (...) Gracia, Señor ! Misericordia ! Aplaca tu cólera ! ¡ No nos tornes a la nada Mira que nuestra penitencia ha sido larga, dolorosa, áspera como el más duro cilicio ! (...) Mira que todos los pueblos que antes nos rendían homenaje, nos han escarnecido, nos han befado, nos han dado a probar la hiel y el vinagre más acerbos ! ... Señor, piedad para España ! Piedad para tus hijos ! Piedad para tus soldados !".[5](...) Y doy un adiós del corazón a nuestro bravo Ejército, en cuyo seno he aprendido a admirar a la Patria y a esperar en ella ..." [6]

. "Oh! España ha vuelto a ser España La raza de Hernán Cortés y de Gravina reaparece sobre la escena !". [7] "(...) ¿ Por qué me parece muda u solitaria la tierra española ? Es que la Patria no está aquí Es que me la he dejado en Africa, comprometida en mortal contienda !". [8]

Y Pérez Galdós, en Aita Tettauen, cuenta de uno de sus personajes que "no podía someterse el buen señor a este criterio, porque las glorias de su patria le importaban más que la vida (...) España entraría en Marruecos por una punta y saldría por otra (...) ".[9] "Con estos desatinos fantásticos iba la gente alimentando la pasión patriótica, que a todos sostenía en un cierto estado de iluminismo alegre".[10]

Bastantes años después Franco escribiría : "(...) una bandera a la que el destino brindó el honor de derramar repetidamente su sangre por España".[11]

Cierto es que estos conceptos son exacerbados por las afrentas y los ataques al honor patrio con lo que vienen inextricablemente unidos. " Cuándo vengaremos la sangre derramada ? ¿ Cuándo ayudaremos a nuestros nobles compatriotas? Cuándo moriremos triunfaremos como

---

[5]Ibídem., 899.

[6]Ibídem., 1076.

[7]Ibídem., 1077.

[8]Ibídem ., Cambio puntación sin alterar en texto.

[9] Aita Tettauen , Madrid , 1920 , Suc. de Hernando , 14 , Cambio puntación.

[10] Ibídem., 48.

[11]Francisco Franco, **Diario de una Bandera** , Madrid , 1956.

ellos".[12] "(...) Cuando declaró al fin España la guerra al ensoberbecido Imperio de Marruecos " .[13] "¡ Sabedlo ! En medio de la noble ira que sentimos, nuestro pecho da también lugar y cabida a las más dulces y suaves emociones...[14]. Bien fue cierto que España sostuvo una guerra con Maruecos para lavar una afrenta-la de 1860 (...)" [15]. Y ya acerca de las guerras de los años mil novecientos veintitantos Aznar afirma, al hablar sobre Franco : "se trata (el Diario de Franco), en efecto, de un breve historial que sin afectación ni aspavientos, encierra dentro de sí toda una interpretación del honor español".[16] "El culto del honor y el mantendimiento de la honra, jamás desmentidos en él Ejército español, llevaban a éste como de la mano a descubrir en Marruecos, sin error posible, los deberes más delicados y difíciles (...), en la historia de nuestro Pueblo y de nuestro Ejército, el honor aprece sobre el deber como la luz sobre el cuadro, para iluminarlo de modo que mejor muestre su belleza" [17] ; "Nosotros calculamos perder la mitad de la gente y dos terceras partes de los barcos dentro de aquella bahía ..., pero será muy adentro (...) El honor de la Marina consiste hoy en perecer ... ¡Sólo así podrá resucitar ! [18]. "No había español ni española que no sintiera en su alma el ultraje, y en su propio rostro la bofetada que a España dió la Kabila de Anjra (...)". [19]

El instrumento para compensar las afrentas y recuperar el honor es el ejército, unas veces víctima, otras protagonista interesado, y todas

---

[12]Alarcon , Ibídem., 837.

[13]Ibídem., 833.

[14] Ibídem., 839.

[15]Gonzalez Jimenez , Epifanio , "En Marruecos español y Tánger", Abdellah Djbilou , **Tánger , puerta de Africa , Antología de textos literarios hispánicos...**, Madrid , Cantarabia , 149.

[16]Franco, ibídem., prólogo de Manuel Aznar, 9.

[17]Ibídem., 19.

[18] Alarcon , Ibídem., 1077.

[19]Galdos , Ibídem., 45.

un estamento molesto al que conviene mantener apartado en unas forzadas campañas coloniales. El ejército que asciende, se entrena , gasta y se sacrifica alternativamente y según sus componentes, a veces sin saber porqué lo hace : "(...) erguido como un alfil, marchaba el oficial, con su pistolilla al cinto (...)".[20]

"Es casi fabuloso que el ejército de Africa no sucumbiera ni ante el blando de los capituladores, ni ante el estrépido de los vociferantes, es casi milagroso que al toque de silencio de cada noche en los campamentos, la meditación de nuestros capitanes, su examen de conciencia ; les mantuvieran firmes e inflexibles frente a tanta indignidad disfrazada de buen sentido" .[21] "¡ Cuántas veces, al caer la tarde, cuatro camilleros devolverían a la posición principal el cadáver de un doncel iluminado de heroísmo (...)!.[22]

Pero ninguna de esas campañas hubiera sido posible, pese al denuedo de una parte de ese ejército - mal preparado y peor pertrechado muchas veces - si no se hubiera tratado de fomentar, en España , el espíritu de la guerra 'popular', la guerra 'justa' y la colectiva en torno al concepto patrio y a costa de la sangre del mismo pueblo que la aclamaba aunque en ocasiones reaccionase en contra dc ella. "(...) Fue el concencimiento de que en Africa estaba el camino de aquella verdadera grandeza nacional que los españoles perdimos por resultas del descubrimiento de América (...)" [23] "(...) El día de embarco es un día de fiesta para nuestras tropas ; quedar en España era su único sobresalto ; vivir y morir oscuramente, su único terror (...)" [24]. "Nosotros iremos a reemplazaros y vengaros, si morís ; nosotros os recogeremos y premiaremos, si voléis heridos ; nosotros cuidaremos de que nada os falte en la guerra y velaremos además por la viuda y por los huérfanos del militar que muera en campaña" [25]. " (...) ¡ A hablar de la Patria ! A proponer a un pueblo poeta que trueque lo bello por lo

---

[20]Franco , Ibídcm., prólogo de Aznar , 19.

[21]Ibídem., 17.

[22]Ibídem., 18.

[23]Alarcon , Ibídem., 833 - 34.

[24]Ibídem., 837.

[25]Ibídem., 838.

conveniente !" [26]. "¡Oh ! ¡ Esta no es la España de los partidos ; !¡ Esta es la Patria unificada por la gloria !" .[27]

"Y no debían los españoles contentarse con hacer suya toda la tierra de berberiscos (;) sino que al volverse para acá victoriosos , debían dejarse caer como al descuido sobre Gibraltar, y apoderarse de la inexpugnable plaza (...)".[28] "Guerra clamaban las verdileras, venganza, y guerra los obispos. No había español ni española que no sintiera en su alma el ultraje (...)".[29] "Allí se vió la grande generosidad de este pueblo, que olvidaba sus miserias, resignándose a comer entusiasmos y glorias , mal aderezadas con pan seco".[30] "Con todos estos desatinos fantásticos iba la gente alimentando la pasión patriótica, que a todos sostenía en un estado de iluminismo alegre".[31] "(...) Por cuyo arco entre fanfarrias gloriosas y desplegadas banderas hicieron su entrada triunfal las viseras charoladas en la primera ocupación de la ciudad".[32]

Aunque, en ocasiones, y ante la indiferencia de pueblo y Gobierno, los militares no se vean apoyados como ellos hubieran querido o los conceptos de guerra "justa y guerra popular se vean atacados por el horror de la propia guerra : "En nuestra vida de Xauen nos llegan los ecos de España ; y vemos el apartamiento del País de la acción y el sacrificio del Ejército ; de esta oficialidad abnegada que un día y otro paga su tributo de sangre entre los ardientes peñascales".[33] "Una ola de indignación pasa por nosotros.! Qué hagan alto los legionarios y no entren en poblado ! ! No vean

---

[26]Ibídem., 1077.

[27]Ibídem., 1078.

[28] Galdos , Ibidem., 14.

[29]Ibídem , 45.

[30]Ibídem., 47.

[31]Ibídem., 48.

[32]Luís Antonio de Vega , **Córdoba Sirena de pólvora**, 8.

[33]Franco , ibídem.

tanta infamia y estropeen la política !".[34] Otros autores, incluso militares africanistas como Hidalgo de Cisneros, o soldados como Barea, rechazan esas supuestas glorias y el carácter colectivo, popular y necesario de estas guerras ; si bien alguno de ellos, como Hidalgo, piensa que el estado de conflico armado es el natural por histórico entre españoles y marroquíes..

Las guerras tienen como soporte ideológico, en el caso español, una mezcla que tampoco puede ser calificada de "romántica" pero sí de complicada y subjetiva, compuesta por los conceptos de labor cultural, regeneracionismo español, expansión colonizadora sustitutoria de la América perdida, africanismo y espíritu misionero de lo más barroco e intricado, que da lugar a una diversidad de posturas hipertrofiadas luego por el aparato de la propaganda nacional, "(...) Fue el convencimiento de que en Africa estaba el camino de aquella verdadera grandeza nacional que los españoles perdimos por resultas del descubrimiento de América y del casamiento de la Hija de los Reyes Católicos con un Principe de la casa de Austria".[35] "Buena será esta campaña (...) y debemos alabar al señor de O'donnell por la idea de llevar nuestros soldados a Africa ; que así echamos la vista y el rostro fuera de este patio de Tócame Roone en que vivimos".[36] "Fueron los españoles a la guerra, porque necesitaban gallear un poco ante Europa, y dar al sentimiento público, en el interior, un alimento sano y reconstituyente. Demostró el general O'Donnell gran sagacidad política, inventando aquel ingenioso saneamiento de la sicología española (...). de Francia trajimos también una remesa de imperialismo casero y modestico, que refrescó nuestro ambiente y limpió nuestra sangre viciada por las fracciones".[37] "España tiene hambre de acierto ! la oficialidad que el Ejército de Africa se iba creando representaba precisamente los ideales del honor con las fecundas retribuciones del acierto".[38] "Pero, al mismo tiempo, allá se rescataba España de pasados errores europeo ; y americanos ; allá había de reanimarse la inextinguible llama del espíritu español, y se nos ofrecía una decisiva bifurcación de caminos para que eligiéramos el que había de llevar a nuestro pueblo a la salvación de su histórico ser y de su destino" [39]; "(...) porque es necesario que los

---

[34]Ibidem.

[35]Alarcon, Ibidem.,832-33.

[36]Galdos, Ibidem.,15.

[37]Ibidem., 45.

[38]Aznar, en Franco, Ibidem., 10.

[39]Ibídem., 17.

españoles vuelvan a confiar en las fuerzas del espíritu. Así se anuncia la nueva generación, que aspira a rescatar al país de los tremendos letargos de Cuba y Filipinas (...)".[40]

Regenerar España , sacarla de las fracciones y luchas internas en que se había metido tras la guerra contra Napoléon, introducirla en el concierto de la revolución industrial europea, disciplinarla, volver al camino de su vocación africana perdido por la aventura del nuevo Mundo, son los deseos explícitos de unos autores que ; de un modo u otro, narran o comentaban las campañas españolas en Marruecos y participan en ellas. Pero no es sólo el regeneracionismo nacional lo que les preocupa ; éste va unido a unos sentimientos o propósitos de intervención sobre un país y una civilización que sienten como muy próximos, ya sea positiva o negativamente, lo que de pie a la aparición de un africanismo un tanto peculiar entre sus equivalentes de otras partes.

"(...) Y no fué mero deseo de cumplir una peregrinación romántica lo que me llevó a soñar de nuevo con la cercana morería (...) fué el pensar que todos los tesoros que nos llegaron de las Indias (...) de nada sirvieron para impedir que España cayera miserablemente el día que a la expulsión de los judíos sucedió la de los Moriscos ; fué el ver tan claro como la luz del sol que la política exterior de la nación española debía reducirse a una constante expansión materiel o moral, guerrera o política, comercial o religiosa, civilizadora, en una palabra, hacia aquel Continente que se percibió desde nuestras costas (...), fué, por último, el temor de que, en otro caso, Francia o Inglaterra, o las dos juntas, nos arrebatasen esa misión providencial, dejándonos bloqueados entre lo mares y el Pirineo (...)".[41] Esto dice Alarcón, al comienzo de su Diario, y es casi un resumen consciente o inconsciente de africanismo, frases a las que Galdós suma las de sus personajes dialécticos, alguno de los cuales esgrime otro de los argumentos favoritos de cierto africanismo oficial, el del testamento de Isabel la Católica : "Isabel ordenó a sus herederos que arrebatasen a la Media luna el suelo mauritano ; español suelo ; y el futuro reino de España con los extremos de los dos continentes (...) Del Pirineo al Atlas, todo será España" .[42] Si bien para otros africanistas, tanto políticos como militares, tiene más peso el concepto de "misión" que el asentamiento : "(...) Pero Fontanes no era un muerto más, no era un héroe más, cuyos gloriosos despojos cubriría la greda marroquí, sino

---

[40]Ibídem., 25.

[41]Alarcon, Ibídem.,632-33.

[42]Galdos, Ibídem., 33.

uno de los elegidos, es decir, uno de los que habían entendido cabal y profundamente el sentido histórico de todo aquello que estaba aconteciendo al otro lado del Estrecho de Gibraltar".[43] "Es evidente que el hecho de pertenecer a los cuadros de mando de un Ejército con rango histórico aguza y afila el sentido del deber, porque sólo así se entiende que nuestros jefes y oficiales de Africa conocieran con tan rigurosa y permanente exactitud cuál había de ser su conducta en el servicio de la Patria. No podían engañarse sobre el porvenir de la acción de España en Marruecos. Aquella no era tierra nuestra ; mandaban allí los españoles en nombre de una ajena soberanía ; combatían y morían para que ; andando el tiempo, pudiera el Sultán de Rabat complacerse en el ejercicio pleno e indiscutido de su autoridad. Eramos los hidalgos protectores de la minoría de edad política de un pueblo. Nuestra presencia armada entre los marroquíes estaba tocada de irremediable provisionalidad, por la índole misma del mandato internacional (...).[44] Lo que no quita para que, en una confusa y heredada amalgama interna, muchos esgriman también el cristianismo como impulso o arma de esta empresa territorial : "(...) cuando más español y cristiano que poeta amante de los Moros (;)" [45] ; "(...) cuelgan a su cuello santos relicarios que los defiendan en los peligros (...)" [46] ; "(...) igual emoción experimentando cuantos forman parte en esta Cruzada".[47] "¿ cómo no, si esto es ya territorio español, suelo cristiano, patrimonio de Jesucristo ? (...) Un Ejército católico avanzado por país agareno, ha establecido sus Reales en el Imperio musulmán de Marruecos y saludado en él la venida del Masías (...)".[48] Frases y sentimientos todos que pudieran tener como triste colofón la de un político en boca de Galdós : "decía Calvo Asensio que el dedo de Dios nos marcaba el camino que debíamos seguir para aniquilar al agareno".[49]

"Estas y otras elocuentes pamplinas arreabataban al auditorio y incendían más la hoguera patriótica", comenta el mismo Galdós a continuación de la frase anterior ; una hoguera y un arrebato, una colonización y un intento de asentamiento o de labor modernizadora

---

[43]Franco, Ibídem.,11.
f[44]Ibídem., 17.
[45]Alarcon, Ibídem.,632.
[46]Ibídem., 838.
[47]Ibídem., 839.
[48]Ibídem., 870.
[49]Galdos, Ibídem.,46.

que el ejército debía llevar a cabo soportando los coertes y el desgaste ; sujeto a la ambición interna, al abandono y a la corrupción .

"¡Nuestro espíritu ! Es decir : el que ordena y manda al jefe ser para los soldados un padre ; el que dispone que una operación sea preparada con extremado celo y con sutil cuidado para prevenirse en la medida de los humanos recursos contra todo posible fracaso ; el que instituye una disciplina que ninguna fuerza podrá quebrantar jamás ; el que exige la conquista de una posición, y obliga a que ; una vez conquistada, se sujete decisivamente al dominio de la tropa conquistadora, y si por un azar del combate hubiera de ser abandonada, no dure el abandono más que el tiempo indispensable para lanzarse ardientemente, pero también lúcida y reflexivamente , a la reconquista ; el que nunca, ¡ nunca ! desespera ni cela al desaliento, sean cuales las circunstancias ; el que, en fin, no se contenta con ofrecer a España caudales de honor y heróicos cementerios, sino que desea brindarle victorias".[50] "Esta carga ha pasado a la Historia como algo sin precedentes. Tanto los soldados como los caballos estaban agotados ya por el cansancio y el hambre y la sed. Muchos presentaban heridas recibidas en choques anteriores. Al ordenar la carga, el teniente coronel jefe del Escuadrón Don Fernando Primo de Rivera quería abrir una brecha para la destrozada columna. Pero los caballos no podían galopar. Ni trotar siquiera. Por primera vez en la Historia se dió una carga de caballería al paso según avanzaba el Escuadrón, caballos y caballeros iban cayendo. Sin embargo, la brecha se abrió . Y por aquel cauce pudieron pasar las diezmadas columnas, prosiguiendo su heróica y sangrienta marcha".[51]

Un ejército sujeto también a la brutalidad - no sólo la de cualquier guerra, sino la absurda, la gratuita - a la rapiña, a la muerte inútil, a la pobreza : "Al primer cañonazo se derrumbó todo : la paja de las chozas saltó en briznas encendidas. Los chicos huyeron piedras arriba. Las gallinas y los corderos se dispersaron a donde su instinto los empujó. Las mujeres lanzaron chillidos agudos que repercutían en el valle. Los señores de la kábila caracoleaban en sus caballos, agitando en el aire el fusil. Después de los pocos cañonazos, la infantería subió la cuesta y se apoderó del poblado.Los soldados cazaban las gallinas huidas y los corderos extraviados que iban volviendo a la querencia al ponerse el sol. Encendieron fogatas y cenaron, el aire lleno de plumas de cuello de gallina, que revolteaban lentas y a veces caían en el plato mansas. La

---

[50]Franco,Ibídem.,25.

[51]Mart, **La llave abierta. Una vida en estampas (1909-1936)**. Tenerife, 1964, 92.

operación había sido una cosa perfecta. A la caída de la tarde sólo quedaban unos montoncitos de paja humeantas y dos o tres chocos despanzurrados por el primer cañonazo. Plumas de gallinas volteando en el aire y pieles de cordero-festín de moscas- clavadas en palos cruzados. Donde estuvo la kábila, olía a yute de los mil y un sacos terreros que formaban el parapeto ; olía a carne asada, a caballos y soldados. Ese olor de soldado sudoroso con piojos en cada pliegue de su uniforme.

El general que conquistó la kábila estaba en su tienda delante de una mesa : un cabo de vela encendido, una bandeja y dos botellas de vino, rodeadas de varios vasos. Iban entrando los oficiales de cada una de las armas que realizaron la conquista, con su lista de muertos y heridos. Cada oficial traía dos o tres muertos, diez o doce heridos. El ayudante del general apuntaba. El general invitaba a un vasito de vino. Los oficiales se iban soñando con las cruces que aquellos muertos les hincarían sobre la guerrera al lado del corazón. En la noche, luego, se oían los ronquidos del general, ronquidos de viejo borracho que duerme con la boca abierta, los dientes en el fondo de un vaso".[52]

Un ejército cuyo propósito de lucha -aunque apenas fuera consciente de ello a excepción, quizás del nivel de los altos mandos politizados- era la explotación de los recursos y la ocupación :

"Hace meses de aquella batalla gloriosa, en que un ejército heróico logró una victoria inmensa sobre la kábila. La kábila ya no existe y sólo hay unos manchones negros por el humo. Ahora estoy aquí . El valle es un hormiguero. Cientos de hombres cavan la tierra y allanan un camino ancho que pasará al pie de la kábila y la kábila se beneficiará del camino. ¡ Ah ! No. No podrá beneficiarse, porque ya no existe.

Pero... dicen que la montaña tiene dentro hierro y carbón. Y aquí, donde estuvo la Kábila, quizá se alce pronto una ciudad de mineros. Tal vez un alto horno. Al lado de la carretera correrá tren cargado de mineral y de trozos de hulla. Volverán los moros de la vieja kábila. Comerán pan blanco sin pajas ásperas. Viajarán en las bateas del tren sucios de polvo y carbón ; irán a la ciudad y se divertirán en la feria : darán vueltas en el tíovivo y habrá una barraca con un negro que asoma la cabeza a un agujero de arpillera ; por una moneda de cobre podrán tirarle una pelota a la cara y reír a carcajadas de los visajes del negro. Volverán felices a la mina.

---

[52]Arturo Barea, **La forja de un rebelde**, La Ruta, Madrid, 1984,Turner,10.

En la montaña habrá una casa de cemento llena de soldados. Cuando los moros no sean felices con la mina y con el negro magullado a pelotazos, los soldados montarán sus ametralladoras".[53]

Para mover a ese ejército, darle un cierto apoyo nacional que fuese constante y no meramente entusiástico o circunstancial, había que incentivarlo con llamadas a su arojo y valor, y premiando sus acciones. El premio llegaba raras veces, pero el ejército tenía que seguir siendo y pareciendo la esencia de las virtudes ciudadanas frente al peligro, de cara a la misión encomendaba, a pesar de cuantas veces lúcidas o contrarias se hubiesen levantado. "(...) Solía llegar a Málaga algún barco con heridos, hermanos y compatriotas nuestros, cubiertos de sangre, mutilados, vendados, pero animosos y satisfechos pensando que otros muchos quedaban enterrados en la tierra enemiga, o mejor dicho, en la tierra conquistada".[54] " ¡ Al fin amaneció el día de nuestra marcha ! ¡ Al fin vamos a participar de los peligros y de la gloria de nuestros hermanos, que luchan y mueren como leones al otro lado del Estrecho!.[55] "Entonces reúne a la tropa y pide voluntarios para ir con un cabo a reforzar el bolocao durante la noche. Todos se pelean por ir ; entre ellos escoge a un cabo y catorce legionarios que ve más decididos ; es el cabo Suceso Terrero, cuyo nombre ha de figurar con letras de oro en el libro de la legión. Saben que van a morir ; antes de marchar, algunos soldados hacen sus últimas recomendaciones ; uno de ellos, Lorenzo Camps, había cobrado días antes la cuota y no había tenido ocasión de gestarla; hace entrega de las 250 pesetas al oficial diciéndole :

- Mi teniente, como vamos a una muerte segura, ¿ quiere usted entregarle en mi nombre este dinero a la Cruz Roja ?".

"Sois carne de cañon. Los negociantes de guerra os mandan al pudridero de Marruecos. Vuestra carroña, inútilmente heróica, servirá para defender las minas de los millonarios. Moriréis para enriquecer a los codiciosos, y por añadidura concitaréis sobre vosotros y sobre España entera el odio de un pueblo bravío que los propios beneficiarios de vuestro sacrificio están armando clandestinamente para que así dure y perdure la guerra".[56]

Y, evidentemente, para contrastar y resaltar el valor de los soldados propios, había que descatar la valentía de los guerreros

---

[53]Ibídem., 11.

[54]Alarcon, Ibídem.,835.

[55]Ibídem.,387.

[56]Franco, Ibídem.,108,16.

enemigos, su ardor en el combate , su ferocidad."(...)" .[57] "A mi me causó admiración y lástima aquel inocente hijo de lobos, que a tan tierna edad se batía ya por su patria con heroismo , sufría el hambre con indiferencia, derramaba su sangre sin reparar en ello (...)".[58] "(...) Se creía que las fuerzas enemigas opondrían una tenaz resistencia (...) " ; (...) los Moros, que hoy se presentaban fieros y osados como nunca, e intentaban pasar el río para redoblar sus ataques con los refuerzos que incesantemente recibían"; "a la altura del Tercer Cuerpo, el enemigo no se mostraba menos audaz y temerario (...)".[59] "De la prodigiosa táctica de los jinetes berberiscos, que suplían la fuerza con la agilidad (...)".[60] " El suelo estaba lleno de cadáveres, el aire de un alarido en que las dos lenguas, árabe y española, juntaban sus maldiciones y los acentos de la fierza humana (...), retrocedían los de Córdoba , empujados por los moros (...)" .[61] "Cuando llegaron frente a nosotros dispararon a un tiempo las espingardas, parando los caballos en firme y volvíendose otra vez al paso al punto de salida."Tan pronto como llegaron los primeros, la segunda sección salío corriendo al modo que lo hicieron los que les habían precedido, repitiendo en igual forma tan guerrero y varonil ejercicio . Esta segunda sección la mandada un árabe de Leyenda (...). "Los jarqueños hostilizan como nunca. Se suceden las bajas".[62] "Son las noticias que traen estos hombres en los que el terror ha dilatado las pupilas, y que nos hablan con espanto de carreras, de moros que les persiguen, de moras que rematan a los heridos de lo espantoso, del desastre".[63]

Como resumen del conjunto de frases que hemos visto - a las que pudiera haber añadido mucho más comentario, pero que, de todas las maneras, no son sino las de un grupo de autores susceptible de ampliación y análisis mayor- cabe insistir en varios puntos fundamentales :

- Ninguna de estas guerras españolas en Marruecos es 'romántica' ni siquiera literariamente hablando, pero sí son emocionales casi todas. El componente emocional es destacado por los

---

[57]Alarcon, Ibídem.,914.

[58]Ibídem.,914.

[59]Obídem.,1080. Cambio una frafía sin alterar el texto.

[60]Galdos, Ibídem.,90.

[61]Ibídem., 123-24. Cambio puntuación sin alterar.

[62]Franco, Ibídem.

[63]Ibídcm., 93.

autores, que, en varios casos, distinguen pefectamente cuáles son los motivos y los intereses políticos o materiales subyacentes.

- Lo emocional viene dado por dos componentes principales, la patria y el moro.

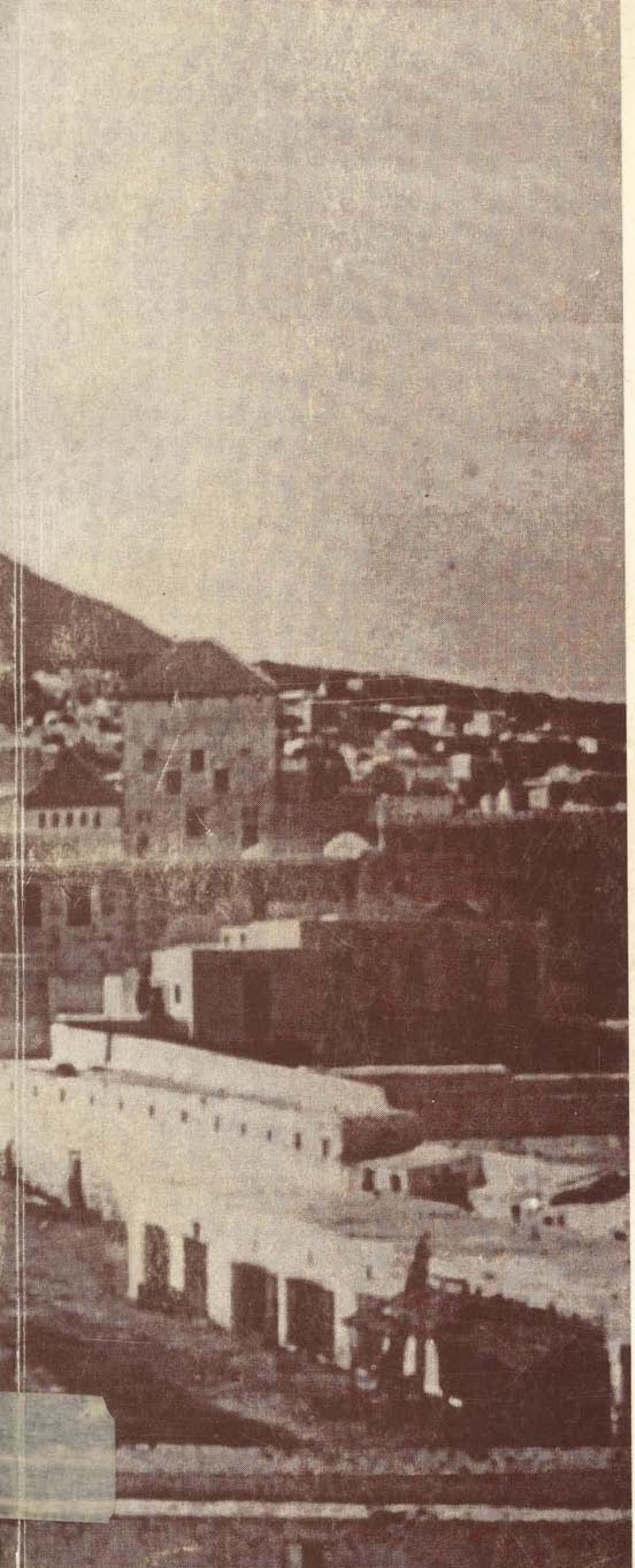
- La patria conlleva dos conceptos, el honor y la inviolabilidad.

Hay dos maneras de ver el honor : el honor por encima de la eficacia, en donde el orgullo y la fiereza tratan de compensar la miseria de los medios de que se dispone, y el honor supeditado a la eficacia como manera más segura de vencer y de ayudar a la patria. La inviolabilidad, por su parte, guarda en este caso el sentimiento herido de la caída del imperio, la invasión napoleónica y sus consecuencias. La nación ha sido violada y cualquier otro ataque a su honor, aun sin recuperar, viene a añadirse a los fracasos y a las risas anteriores ; sobre todo si procede de un país considerado como inferior, y más todavía de un 'enemigo secular', el musulmán.

- El musulmán vuelve a ser recordado como el 'contrario tradicional', al mismo tiempo que se recuerden su parentezco con el español, las antiguas luchas fronterizas ("un doncel iluminado de heroísmo", como evocación del Doncel de Sigüenza) y el viejo propósito de proyectarse territorialmente hacia el sur.

- "En Africa estaba elcamino de aquella verdadera grandeza nacional." La grandeza , el "hambre de acierto" y el rescate de errores y letargos son las bases de ese regeneracionismo que tantas veces he mencionado antes. Una idea y un deseo - común a hombres y a corrientes políticas diferentes - que unas veces miraba, como en estas guerras, hacia Africa, y otras buscaba la identificación con Europa, siguiendo los dos instintos españoles que hasta ahora no han llegado a homologarse en uno solo.

- Y, por último, la colonización pura y simple. "Un imperialismo casero" de hierro y de carbón que buscaba "hacer suya toda la tierra de berberiscos", llevando a ella los colonos que durante un tiempo no pudieron ir a América, con el ojo puesto en el bloqueo de Francia e Inglaterra y dispuesta a hacerlo - como todos los imperialismos con guante blanco y con "una casa de cemento llena de soldados". Nerviosamente, pero sin romanticismo.



ندوات مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي حول تاريخ تطوان :

- تطوان في عهد الحماية (1956-1912) صدرت سنة 1991.
- تطوان قبل الحماية (1860-1912) صدرت سنة 1994.
- تطوان خلال القرن الثامن عشر (1822-1727). صدرت سنة 1994.
- تطوان خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر. (ستنظم في مارس 1994)